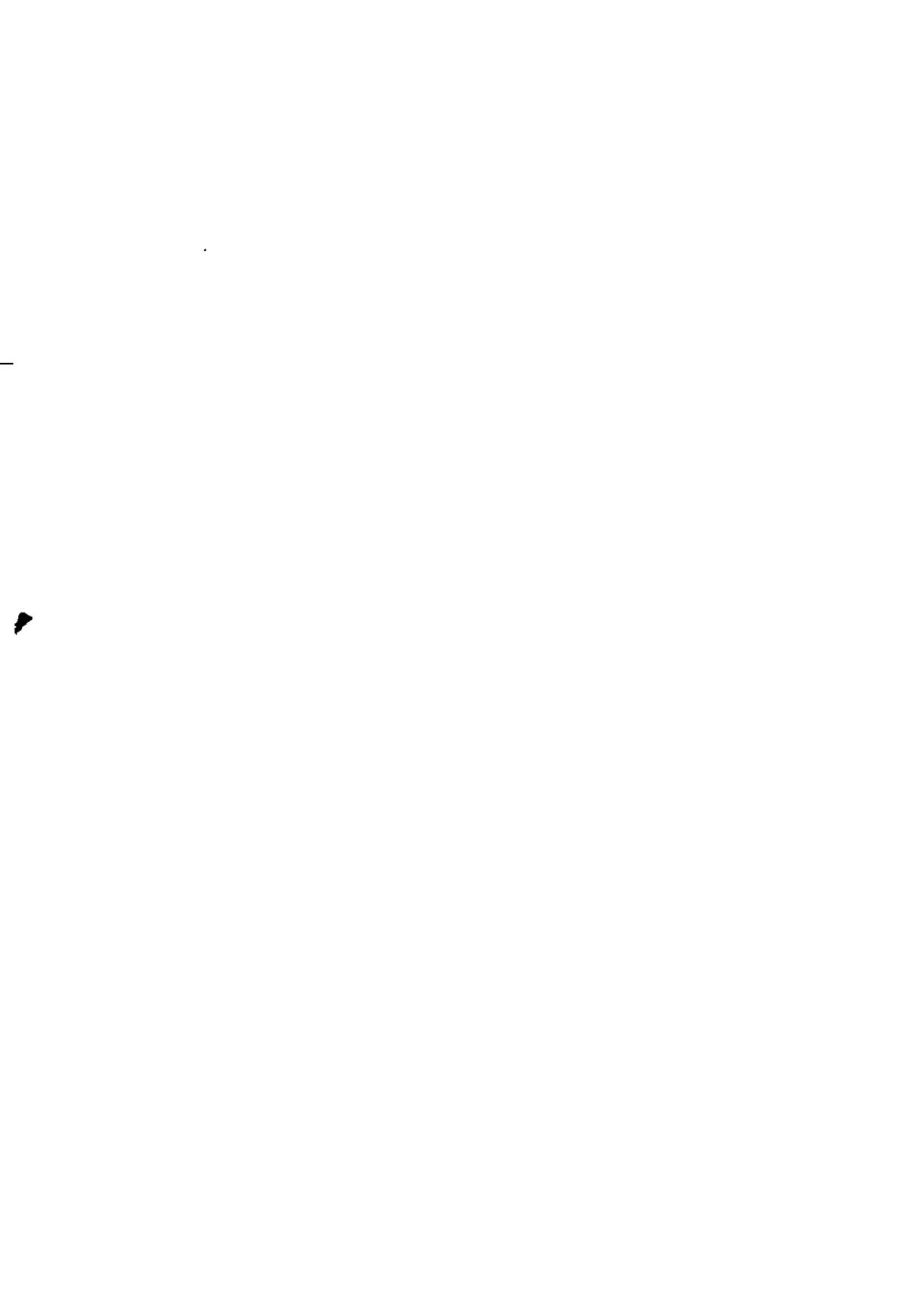


السنة النبوية وعلومها

دراسة تحليلية للسنة النبوية وعلومها في أعظم عصور التدوين
ودفاع عن السنة ورد لشبهات المستشرقين وأعداء الإسلام

دكتور أحمد عمر هاشم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . أما بعد

فإن للسنة النبوية المطهرة مكانتها في الاسلام ، ومنزلتها الهامة في الدين فهي المصدر الثاني للتشريع الاسلامي بعد القرآن الكريم .

بل إنها تستقل بالتشريع في بعض الأحكام، على رأى البعض ولذا عنى العلماء بالسنة النبوية وتدوينها وتصنيفها وشرحها سلفا وخلفا ، كما عنوا بعلمها ومناهجها ، وقواعدها ، والدفاع عنها ضد مطاعن أعدائها قديما وحديثا ، ورد ما أثاره المستشرقون من شبهات وأباطيل .

وفي كل جيل من الأجيال ، وفي كل زمان يظهر هذا النوع من أهل الباطل ممن في قلبه زيغ ، أو ممن أصيب بالغرور العقلي ، فراح يحكم عقله في بعض الأحاديث الصحيحة ، ويزعم أنها لا تتماشى مع العقل جاهلا ، أو متجاهلا ، ان الرسول صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى !!

وبعض هؤلاء يرى في نفسه كأنه أعلم من البخارى ومسلم ، وأن كتابيها اشتملا على الأحاديث الضعيفة ، وخطورة هذا الفكر البشرى الجديد أنه يفتح الباب للطعن في أصح كتب الحديث التي تلقتها الأمة بالقبول ، وبالتالي يمهد للطعن في السنة كلها !!

لذا تجيء هذه الطبعة الثانية من كتابنا : « السنة النبوية وعلموها » لتحمل الرد على هؤلاء وغيرهم ، مشتملة على بعض التنقيحات .

أسأل الله تعالى أن يجعله عملا خالصا لوجهه الكريم ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وصلى الله على صاحب السنة المطهرة سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

المؤلف

أ.د. أحمد عمر هاشم

1

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الأولى

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على اشرف المرسلين ، صاحب السنة المطهرة ، المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد

فان للسنة النبوية الشريفة منزلتها في الدين ، ومكانتها في الاسلام فهي المصدر الثاني للتشريع الاسلامي بعد القرآن الكريم ، وهي حجة في اثبات الأحكام .

ولقد وضع الله تعالى أن رسوله عليه الصلاة والسلام هو المين لما أنزل من القرآن فقال تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون » .

وأمر الله تعالى المؤمنين أن يعملوا بما جاءهم به الرسول ﷺ وأن ينتهوا عما نهاهم عنه « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

ولما كان للسنة النبوية هذه المكانة ، وتلك الأهمية العظمى ، فقد وقف رجال السنة أنفسهم على حمايتها وصيانة اعظم تراث في الوجود ، وكان جهادهم كجهاد الرابضين على خطوط الدفاع الأمامية ، يصونون الثغور ، وينافحون عن الوطن ، بل ان المحدثين بجهادهم في سبيل عقيدتهم ، ودفاعهم عنها كانوا اعظم أثرا وتأثيرا ، بما بذلوه من جهود تذكر فتشكر .

هذا والأمة الاسلامية اليوم بحاجة الى إبراز الجوانب الاسلامية الجديرة بالبحث والتعليل ، لتتلاقى مع التوسع في شتى المجالات الاجتماعية والتربوية والاقتصادية وغيرها .

وفي هذا الكتاب ، دراسة تحليلية للسنة النبوية وعلومها في أعظم وأزهى عصور التدوين ، وهو القرن الثالث الهجري الذي أطلق عليه العلماء أنه العصر الذهبي لتدوين الحديث ، حيث أشرقت فيه كتب السنة وعلى رأسها مسند الإمام أحمد بن حنبل ، وأشرقت الكتب الستة التي لم تدع من صحيح الحديث سوى النزر اليسير ، وهي صحيح البخارى وصحيح مسلم وجامع الترمذى ، وسنن أبي داود ، وسنن النسائى ، وسنن ابن ماجه . . . وغير ذلك من المدونات الحديثية .

وفي هذا العصر الموصول بسابقه ولاحقه تم استقلال الحديث عن غيره من أقوال الصحابة والتابعين ، وقامت نهضة علمية شاملة تجاوبت أصدائها في مشارق الأرض ومغاربها .

وفي هذا الكتاب عرض لجهود أئمة الحديث النبوى فى تدوين السنة وحفاظهم عليها ، وابتكارهم فى سبيل ذلك أعظم علم عرف فى تحقيق الأخبار وتوثيقها وهو علم مصطلح الحديث ، حيث وزنوا كل خبر جاءهم بأدق طرق النقد التى لا تعرف الدنيا لها مثيلا ، ولم تظفر أمة من الأمم بما ظفرت به هذه الأمة من الاسناد الصحيح المتصل .

ولما كانت بعض الكتابات الحديثية المغرضة ، قد تناولت السنة النبوية ، وظهرت دعاوى رخيصة تدعو الى الاكتفاء بالقرآن كما صنع أعداء السنة قديما ، فقد رأيت أن أعرض لهذه الشبهات وأفندنها وأرد عليها وأوضح جهود أئمة الحديث فى مقاومة الوضاعين واعداء السنة ، وكيف ان المحدثين نهضوا بتدوين السنة ، وحصروا الرجال الثقات ، بل ان بعضهم قام بحصر الرجال الضعفاء والأحاديث الضعيفة والموضوعة ليعرفها المسلمون ويحذروها ، ونتج عن تدوين السنة تسهيل مهمة الفقه الاسلامى ، فبعد أن كان الفقيه يبحث عن الحديث الصحيح ليستنبط منه الحكم أو يعرف به تفسير الآية من القرآن ، أو يستدل به على مسألة من المسائل ، أصبح يجده دون عناء مدونا فى تلك الكتب .

كما عرضت لمناهج أئمة الحديث ووازنتم بينها ، وترجمت لحياة أصحابها ، أولئك الأبرار الذين نذروا حياتهم لخدمة سنة نبيهم عليه أفضل الصلاة والسلام .

والله اسأل أن يجعله عملا خالصا لوجهه الكريم ، وأن ينفع به المسلمين ، وأن يغفر لى ولوالدى ولسائر المسلمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الدكتور أحمد عمر هاشم

تمهيد

الحمد لله الذى انزل القرآن ، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، وأعد فيه لكل شىء موعظة وتبiana ، وجعل السنة النبوية له شرحا وبيانا ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين .

ويعد : فقد بعث الله سبحانه وتعالى سيدنا محمدا صلوات الله وسلامه عليه الى الناس كافة بشيرا ونذيرا ، وجعل رسالته عامة فى الزمان وفى المكان وخاتمة لجميع الرسالات ، قال تعالى : « قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السماوات والأرض لا اله الا هو يحيى ويميت فأمنوا بالله ورسوله النبى الامى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون »^(١) .

وضمانا لعموم الرسالة وخلودها أنزل الله تعالى دستور السماءى ، ليحقق العدل الإلهى فى الحياة ، وليكون هدى للمتقين ، حاملا أسس الرسالة العامة الخالدة وأسباب السعادة فى الدنيا والآخرة ، وقد تكفل الله تعالى بحفظه ، قال تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »^(٢) . وأمر الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام ان يتبع ما انزل اليه ، وعصمه من الناس ، قال تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ان الله لا يهدى القوم الكافرين »^(٣) . كما عصمه أيضا من الخطأ والهوى « وما ينطق عن الهوى * ان هو الا وحي يوحى * علمه شديد القوى »^(٤) ، وذلك ليقوم بمهمته الشريفة ويبلغ رسالة ربه ويبين للناس ما نزل اليهم ، فان عقول الناس لا يمكنها فهم جميع ما ورد فى القرآن الكريم ، وانما هم فى حاجة الى توضيح المبهم ، وتفصيل المجمل وتقييد المطلق وتخصيص العام ، وهذا هو البيان المقصود بقوله تعالى : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون »^(٥)

(١) سورة الاعراف آية ١٨٥ .

(٢) سورة الحجر آية ٩ .

(٣) سورة المائدة آية ٦٧ .

(٤) سورة النجم الآيات ٣-٥ .

(٥) سورة النجم آية ١٤ .

وقوله تعالى « وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »^(٦) . ولذا كانت السنة النبوية تمثل المصدر الثانى للتشريع بعد القرآن الكريم .

ولما كانت السنة النبوية مبينة للقرآن الكريم ، وحجة فى اثبات الاحكام ومصدرا ثانيا فى التشريع فقد وضحت منزلتها الجليلة فى الدين ، وكانت من الأهمية بمكان بحيث يجدر بالباحثين أن يتناولوه بالدراسة والبحث .

وقد تناول كثير من الكتاب دراسة السنة قبل التدوين ، ومكانتها فى التشريع ، أو دراسة شخصية من أعلام المحدثين ، أو التاريخ للسنة فى جميع أدوارها . أما دراسة السنة فى القرن الثالث الهجرى أفرادا بالتأليف ، فلم يحظ هذا الطور ببحثه متكاملا على حدة ، وإضافة الى ذلك فقد برزت لدى بعض اسباب لاختيار هذا الموضوع :

أولا : دعت الحال فى القرن الثالث الهجرى الى ضرورة عمل جديد فى التدوين يهدف الى خدمة السنة وتحليلها مما اختلط بها ، وتمييز صحيح الحديث من سقيمه وتيسير الافادة منه .

ثانيا : كان القرن الثالث أزهى القرون بتدوين السنة حيث لقيت فيه عناية كبرى فى الرواية والدراية ومناهج التصنيف وفهم النصوص ، وقام فيه أول عمل للتدوين يهدف الى جمع أحاديث الاقطار المختلفة ، وتمثل ذلك أولا فى مسند الامام أحمد بن حنبل الذى يعتبر أول جامع لاحاديث الامصار ثم أشرقت بعده الكتب الستة التى لم تدع من صحيح الحديث سوى النزر اليسير .

ثالثا : ويتبعى لمناهج المحدثين فى هذا القرن وجدتها وكأنها سلسلة متصلة الحلقات كل منهج يسلم لما بعده ، فمنهج أصحاب المسانيد يقوم على تدوين الأحاديث التى رواها كل صحابى على حدة وتجريدها من أقوال الصحابة والتابعين ، الا أنهم لم يميزوا الصحيح من غيره فجاء بعدهم البخارى ومسلم فتم أفراد الصحيح بالتدوين ثم قام بجوار ذلك منهج آخر تم فيه جمع بعض الاحاديث التى قد يوهم ظاهرها التناقض ووقفوا بينها ودافعوا عنها كما هو الحال فى كتاب « تأويل مختلف الحديث » لابن قتيبة ، ثم تفرع عن هذه المناهج طرق اخرى كانت بمثابة جداول متدفقة بجوار هذه البحور . وأصبحت هذه

(٦) سورة النحل آية « ٦٤ » .

المناهج متحدة الهدف في صيانة الشريعة الاسلامية ونشرها ، ومجتمعة في ظاهرة حرص جميع المصنفين برغم اختلاف مناهجهم عليها وهي أن يدونوا الأحاديث باسانيدها الصحيحة المتصلة الى رسول الله ﷺ ، وساعدهم ذلك على التمييز بين الصحيح وغيره ، وبذلوا في سبيل الاسناد الصحيح المتصل جهودا لا مثيل لها ، ولذا قيل : ان الاسناد من خصائص هذه الأمة .

وقد تناولت في هذا الكتاب تدوين السنة في القرن الثالث الهجري ، وليس هدفنا من دراسة السنة في هذا القرن أو دراسة مناهج تدوينها فيه ، الاشادة بماضينا المزهري ، وتراثنا الخالد فحسب ، وانما هدفنا الدفاع عن السنة ضد المطاعن التي أثرت حولها في القديم والحديث ، وتوضيح مناهج التدوين مع الموازنة بينها ، وبيان أثرها في العصور المتأخرة . أما عن رجال السنة الامناء المتقنين فقد بينت نشاطهم ، وحياتهم العلمية ، وابرزت وسائل التكوين العلمي بالنسبة لهم ، عن طريق الشيوخ الذين اخذوا منهم ورووا عنهم ، وعن طريق ما قاموا به من رحلات علمية استهدفوا بها التبحر في العلم ، والزيادة منه ، فكان لهذه الرحلات اثرها في معرفة علماء كل مصر بما وصل اليه سائر الامصار .

كما بينت ما كان لهم آتذ من وسائل النشر العلمي المتمثلة في التدوين وتكوين التلاميذ الذي يعتبر من الأعمال العلمية الهامة ، هذا بجانب تأليف المصنفات ، والكتب الخالدة التي دونوا فيها السنة النبوية ، أما ما اتصفوا به من صفات الذكاء والحفظ والاتقان والسماحة والكرم والعزة والزهد ، وما الى ذلك من الصفات الظاهرة فقد وضحت منها ما تدعو اليه الحاجة في بيان جهودهم وإدراك جمال الباطن ونقائه واتصالهم بالله ، فلم يكونوا على جانب هذه المكارم الا بشدة اتصالهم بالله ، حتى جمعوا بين العلم والعمل .

وهكذا وقف رجال السنة أنفسهم على حماية الشريعة الاسلامية وصيانتها وتبليغها فكان جهادهم كجهاد الرابضين على خطوط الدفاع الامامية يصونون الثغور وينافحون عن الوطن ، بل ان المحدثين بجهادهم في سبيل العقيدة ودفاعهم عنها كانوا أروع أثرا وأعظم . ومن ناحية اخرى : فقد كانوا امتدادا لرحمة الله تعالى التي تداركت هذه الأمة ، وتمثلت اولاً في الرسول ﷺ المبعوث رحمة للعالمين ثم تمثلت من بعده في ورثة تراثه من رجال السنة الابرار .

هذا ونحن في مرحلة حاسمة من مراحل البناء والتكوين بحاجة الى ابراز الجوانب الاسلامية الجديرة بالبحث والتحليل ، لتتلاقى مع التوسع المدني في السياسة والتربية والاجتماع ، انا كله اقدمت على هذا البحث بروح الغيور على دينه المحب لسنة نبيه ﷺ .

« وجاء الكتاب في مدخل ، وأربعة أبواب ، وخاتمة » .

أما المدخل : فيشتمل على :

- ١ - التعريف بالسنة .
- ٢ - منزلتها في الدين .
- ٣ - الاطوار التي مرت بها في القرنين الاول والثاني .

الباب الأول : الحالة السياسية والفكرية في القرن الثالث الهجري .
وفيه فصلان :

الفصل الأول : ويشتمل على ثلاثة بحوث :

- ١ - الحالة السياسية وأثرها في تقدم العلوم .
- ٢ - النزاع بين المتكلمين والمحدثين .
- ٣ - اثر النزاع بين المعتزلة واهل الحديث .

الفصل الثاني : ويشتمل على بحثين :

- ١ - الوضع وأسبابه في القرن الثالث الهجري .
- ٢ - مقاومة المحدثين لنواصير .

الباب الثاني : تدوين الحديث في القرن الثالث الهجري .

الفصل الاول : ويشتمل على بحثين :

- ١ - نشأة تدوين الحديث .
- ٢ - التدوين على المسانيد .

الفصل الثاني : ويشتمل على بحثين :

- ١ - الصحيحان والمقارنة بينهما .
- ٢ - السنن الأربعة .

الباب الثالث : الجهود المتممة لأعمال علماء القرن الثالث وفيه فصلان :

الفصل الأول : نهضة بعض العلماء بتدوين الحديث .

الفصل الثاني : وفيه بحثان :

- ١ - بعض العلوم التي صاحبت تدوين الحديث .
- ٢ - مصنفات اخرى في الحديث منها : السنن الأربعة .

- الباب الرابع : أثر علماء القرن الثالث في العصور المتأخرة : ويشتمل على ما يأتي :
- ١ - مقارنة بين جهود علماء القرن الثالث وجهود من بعدهم من القرون المتأخرة .
 - ٢ - اثر رواية السنة في العلوم الاخرى .

الخاتمة :

وتشتمل على نتائج البحث .
والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن يتقبله قبولا حسنا
ويكتب لنا التوفيق ، ويجعلنا ممن تشرفوا بخدمة السنة النبوية على صاحبها سيدنا محمد
أفضل الصلاة والسلام .

مدخل

ويشتمل على أربعة بحوث :

- ١ - تعريف السنة
- ٢ - منزلة السنة في الدين وبيانها للقرآن .
- ٣ - حجية السنة .
- ٤ - الاطوار التي مرت بها السنة في القرنين الاول والثاني .

تعريف السنة لغة واصطلاحاً

السنة في اللغة :

تطلق السنة في اللغة بعدة اطلاقاات ، فتطلق ويراد بها الوجه لصقالته وملاسته ، وقيل دائرته ، وقيل الصورة ، وقيل الجبهة والجبينان ، وكله من الصقالة والأسالة ، ووجه مسنون : مخروط أسيل كأنه قد سن عنه اللحم ، وسنة الوجه دوائره ، وسنة الوجه صورته ، قال ذو الرمة :

تريك سنة وجه غير مقرفة .. ملساء ليس بها خال ولا ندب

ومثله للأعشى :

كربما شمائله من بنى .. معاوية الاكرومين السنن

والسنة : الصورة وما أقبل عليك من الوجه ، وقيل : سنة الخد صفحته (٧) أهـ .

وقال الأزهرى : السنة الطريقة المحمودة المستقيمة ، ولذلك قيل : فلان من أهل السنة ، معناه من أهل الطريقة المستقيمة المحمودة ، والسنة الطبيعة وبه يفسر بعضهم قول الاعشى السابق .

كربما شمائله من بنى .. معاوية الاكرومين السنن (٨)

وقد سبق بيان أن بعضهم فسر السنن في هذا البيت بالوجوه ، أما رأى البعض الآخر فمعناها الطبيعة .

« وقال الراغب » سنة النبي ﷺ طريقته التي كان يتحراها ، وسنة الله عز وجل قد تقال لطريقة حكمته وطريقة طاعته (٩) . والسنة السيرة حسنة كانت أو قبيحة قال خالد بن عتبة الهذلي :

(٧) لسان العرب حـ ١٣ ص ٢٢٤ ط بيروت .

(٨) تاج العروس حـ ٩ ص ٣٤٤ ط بيروت .

(٩) المرجع السابق .

« فلا تجزعن من سيرة أنت سرتها .. فأول راض سنة من يسيرها »

وفي الكتاب العزيز : « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا »^(١٠) قال الزجاج : سنة الأولين أنهم عاينوا العذاب ، وسنتها سنا واستنتتها : سرتها ، وسنتت لكم سنة فاتبعوها ، وفي الحديث : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها ، ومن سن سنة سيئة »^(١١) ، يريد من عملها ليقترى به فيها ، وكل من ابدأ أمرا عمل به قوم بعده قيل هو الذي سنه .

وقد تكرر ذكر السنة وما تصرف منها والأصل فيها الطريقة والسيرة وإذا اطلقت في الشرع فانما يراد بها ما أمر به النبي ﷺ ونهى عنه وندب اليه قولاً وفعلاً ، ولهذا يقال في أدلة الشرح الكتاب والسنة أي القرآن والحديث^(١٢) . أ هـ .

وقد وردت في القرآن الكريم في مواضع متعددة بمعنى العادة المستمرة والطريقة المتبعة فقال تعالى : « قد خلقت من قبلكم سنن »^(١٣) وقال عز وجل : « سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا »^(١٤) وقال تعالى : « سنة الله التي قد خلقت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً »^(١٥) .

تعريف السنة في الشرع : ظهرت للسنة تعريفات مختلفة في لسان أهل الشرع ، وكان هذا حسب اختلاف الأغراض التي اتجه إليها العلماء من أبحاثهم ، فبعد ان تشعبت

(١٠) سورة الكهف آية ٥٥ .

(١١) وروى الامام مسلم عن المنذر بن جرير عن ابيه قال : قال رسول الله ﷺ : « من سن في الاسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ومن سن في الاسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » صحيح مسلم ج ٢ ص ٧٠٥ ، وأخرجه الترمذى بلفظ من سن سنة خير فاتبع عليها فله أجره ومثل أجور من اتبعه غير منقوص من أجورهم شيئاً ومن سنة شر فاتبع عليها كان عليه وزره ومثل أوزار من اتبعه غير منقوص من أوزارهم شيئاً ، الترمذى ج ٤ ص ١٤٩ وقال حديث حسن وأخرجه الامام أحمد بنحوه في مسنده ج ١ ص ١٩٣ الساعات وأخرجه الدرامي ج ١ ص ١٠٧ .

(١٢) لسان العرب ج ١٣ ص ٢٢٥ ط بيروت .

(١٣) سورة آل عمران آية ١٣٧ .

(١٤) سورة الاسراء آية ٧٧ .

(١٥) سورة الفتح آية ٢١ .

السنة التي تبين في السنة برزت عند النبي ﷺ ، والفرق بين كل المنجاء : .
 أصول الفقه عنوا بالبحث عن الأدلة الشرعية ، وعلماء الحديث عنوا بمقتل ما أضيف إلى
 النبي ﷺ ، وعلماء الفقه عنوا بالبحث عن الأحكام الشرعية من فرض وواجب ومندوب
 وحرام ومكروه ، والمتصدرون للوعظ والارشاد عنوا بكل ما أمر به الشرع أو نهى
 عنه (١٦)

أما علماء الاصول : فعرفوا السنة بأنها هي كل ما روى عن النبي ﷺ مما ليس قرآنا
 من أقوال أو أفعال أو قرارات مما يصلح ان يكون دليلا لحكم شرعي .

وبعض الأصوليين أطلقوا لفظ السنة على كل ما روى عن النبي ﷺ من أقوال أو أفعال أو قرارات
 مما ليس قرآنا ، وكان ذلك في الإرشاد والوعظ والارشاد ، والفرق بين السنة والقرآن
 ان يرد فيه الصلابة كجمع المصحف ، والقرآن يرد في كل ما روى عن النبي ﷺ

وأما علماء الفقه : فعرفوا السنة بأنها هي كل ما روى عن النبي ﷺ من غير افتراض
 ولا وجوب فهي عندهم صفة شرعية للفعل المطلوب طلبا غير جازم ، ولا يعاقب على تركه
 « وتطلق على ما يقابل البدعة كقولهم : فلان من أهل السنة » (١٧) « أ . ه . » .

السنة في لسان علماء الوعظ والارشاد : هي المقابلة للبدعة ، فيقال عندهم :
 فلان على سنة اذا عمل على وفق ما عمل عليه النبي ﷺ سواء كان ذلك مما نص عليه في
 الكتاب العزيز أولا ، ويقال : فلان على بدعة اذا عمل على خلاف ذلك .

السنة في اصطلاح المحدثين : هي أقوال النبي ﷺ وأفعاله وصفاته وسيره ومغازيه
 وبعض اخباره ، وقصر بعض العلماء التعريف على (أقوال النبي ﷺ وأفعاله
 وأخواله) (١٨) ، وهو يشمل على ما سبق ، لأن الاحوال تتضمن اخلاقه الكريمة ،
 وصفاته العظيمة وتتضمن افعاله الحسنة ، وقال بعض العلماء هي « ما أضيف إلى النبي
 ﷺ قولاً أو فعلاً أو تقريرا أو صفة » (١٩) . والتعريفان متقاربان . ويتفق كل منهما في أن
 السنة النبوية في اصطلاح علماء الحديث النبوي هي أقوال الرسول صلوات الله وسلامه
 عليه وأفعاله وتقريراته وصفاته الخلقية والخلقية ، فيدخل في هذا معظم ما يذكر في سيرته
 كوقت ميلاده ومكانه وتحتته في غار حراء ، وغير ذلك مما يذكر قبل البعثة أو بعدها .

(١٦) الحديث والمحدثون ص ١ .

(١٧) ارشاد الفحول ص ٣١ .

(١٨) تدريب الراوي ص ٥ .

(١٩) تراجم الحديث ص ٦١ .

شبهة وتشكيك

١ - الشبهة : زعم بعض الباحثين أن المسلمين أخذوا كلمة « سنة » من كلمة « مشناه » العبرية التي اطلقها اليهود على مجموعة الروايات الاسرائيلية ، واعتبروها تشرحا للتوراة ومرجعا لهم في تعريف احكامها وأن المسلمين عربوها بكلمة سنة واطلقوها على مجموعة الروايات المحمدية ، واعتمدوها لاحكام دينهم كما فعل اليهود .

الرد على ذلك : والحق ان هذا زعم خاطيء ، وفرية زائفة وذلك لما يأتي :

أولا : لأن علماء الاسلام الاوائل انما استعملوا هذه الكلمة في لصدر الاول فيها استعملها القرآن الكريم ، والرسول ﷺ وهي الطريقة العملية المتبعة في الدين وهي تشمل الاقوال والافعال التي يطبقها الرسول ﷺ واصحابه على ضوء فهمهم القرآن الكريم وما أوحاه الله تعالى الى رسوله عليه الصلاة والسلام .

ثانيا : ان كلمة السنة عند المسلمين اذا أطلقت على ما أضيف الى الرسول ﷺ فانما تعنى ما روى عن الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه . وليس ما أثير عن العلماء الذين فسروا القرآن على نحو ما حصل في كلمة « مشناه » . ومعلوم أن الرسول ﷺ لا يروى عنه إلا وحي ، « وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى » .

ثالثا : كانت الروايات الاسرائيلية عند اليهود تحمل محل التوراة ، وتعتبر المرجع في احكامهم بخلاف كلمة السنة ، فانها عند المسلمين في المرتبة الثانية بعد القرآن ، فهم لا يتجهون اليها الا اذا لم يجدوا في القرآن نصا واضحا فهم يتجهون حينئذ الى السنة لمعرفة دلالة القرآن أو لمعرفة الحكم .

رابعا : ان كلمة السنة موجودة في اللغة العربية ومعروفة عند العرب من قديم واستعملوها في لغتهم ونطق بها كتابهم الكريم .

قال فضيلة الشيخ محمود شلتوت رحمه الله تعالى : « على أن هناك ما يقطع في المسألة من جهة أخرى وهو أن الكلمة عرفت عند العرب قديما ، واستعملها القرآن مضافة الى الله والى الرسل ، ومضافة الى الأمم فلم يأخذها علماء الاسول من كلمة « مشناه » العبرية .

وانما اخذوها من صميم لغتهم وصریح كتابهم . نسیم رأوا أن مجموعة ما أثار عن النبی ﷺ من أقوال وأفعال وتقرير ، هو الطريق الوحيد لتصوير الطريقة العملية التي درج عليها الرسول ﷺ وأصحابه فأطلقوا كلمة « سنة » على هذه المجموعة ، وجعلوها في المرتبة الثانية من المصادر التشريعية ، فكيف يصح أنهم اقتبسوها من العبرية ؟ وكيف يصح أن يقال : أن صنعهم كصنيعهم^(٢٠) . أهـ .

٢ - التشكيك : زعم بعض المنكرين للسنة القولية التي جاءت بطريق الأحاد أن السنة المتبعة هي الفعلية دون القولية ، محتجين بأنها وردت في القرآن الكريم وبعض الأحاديث متفقة مع المعنى اللغوي (ولأن اطلاق كلمة السنة على أقوال الرسول ﷺ لم يكن معهودا في عصره ، ولا في عصر أصحابه ، وانما هو اصطلاح مستحدث ولذلك فهم يردون الاقوال ويعتمدون بالافعال باعتبار أن الرسول ﷺ دعا الى التمسك بالسنة وإطلاقها في عهده كان على الافعال لا الأقوال)^(٢١)

الرد على ذلك : والحق ان العرب كما اطلقوا كلمة السنة في لسانهم على الطريقة والسيرة اطلقوها كذلك على البيان ، قال ابن منظور . (سنها الله للناس بينها)^(٢٢) ومعلوم أن البيان أعم من الفعل ، لأنه يكون بالقول أو بالفعل ، أو بالتقرير ، وقد فوض الله سبحانه نبيه عليه الصلاة والسلام في بيان كتابه العزيز قال تعالى : « وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم »^(٢٣) . وهو عليه الصلاة والسلام كما يبين بالفعل يبين بالقول والاقرار . وأيضا فان اطلاق كلمة السنة على الافعال يستلزم شمولها للاقوال والتقريرات ، لأن الفعل ما هو الا طريقة متبعة في الدين تتجه على اساس من قول الرسول ﷺ وفعله وتقريره .

وخلاصة القول : ان اطلاق السنة في لسان العرب على البيان ، الذي يشمل القول والفعل والتقرير يرد ما أثير من دعوى أن المراد بالسنة الفعل دون القول بل إنه لا يتصور أن يكون هناك فعل أو طريقة متبعة دون توجيه من قول الرسول ﷺ أو تقريره أو نحو ذلك .

(٢٠) الاسلام عقيدة وشریعة للشيخ محمود شلتوت ص ٥٠٦ .

(٢١) السنة النبوية ومكانتها في التشريع للاستاذ عباس متولى حمادة ص ١٧ .

(٢٢) لسان العرب ١٧ : ٨٩ .

(٢٣) سورة النحل ٤٤ .

أنواع السنة

وتنقسم السنة بحسب حقيقتها على ما ذكره المحدثون الى ثلاثة أقسام : سنة قولية وسنة فعلية وسنة تقريرية (٢٤) .

١ - انقسم الأول : السنة القولية وهي أكثر أنواع السنة ومثالها : ما روى عن مجاهد أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قال « لا وصية لوارث » (٢٥) ومثال السنة القولية أيضا قول الرسول ﷺ : « أيها الناس اتقوا الله وأجملوا في الطلب خذوا ما حل ودعوا ما حرم » (٢٦) .

٢ - القسم الثاني : السنة الفعلية ، وهي أفعاله ﷺ التي رواها الصحابة عنه مثل أدائه الصلوات الخمس بآركانها وسننها وهيئاتها ، وأدائه مناسك الحج والصوم والزكاة وغير ذلك من أعماله الشريفة ﷺ . ومن أمثلة السنة الفعلية ما أخبر به الصحابة وأمهات المؤمنين عن أعمال الرسول ﷺ واحواله ، مثال ذلك : ما روى عن عطاء بن يسار أن رجلا قبل امرأته وهو صائم فوجد من ذلك وجدا شديدا فأرسل امرأته تسأل عن ذلك فدخلت على أم سلمة أم المؤمنين ، فأخبرتها فقالت أم سلمة : « أن رسول الله يقبل وهو صائم » ، فرجعت المرأة الى زوجها فأخبرته ، فزاده ذلك شرا ، وقال : لسنامثل رسول الله يجلب الله لرسوله ما شاء فرجعت المرأة الى أم سلمة فوجدت رسول الله عندها ، فقال رسول الله ﷺ « ما بال هذه المرأة » فأخبرته أم سلمة ، فقال « الا أخبرتها أنى أفعل ذلك » ؟ فقالت أم سلمة : أخبرتها فذهبت الى زوجها فأخبرته فزاده ذلك شرا وقال :

(٢٤) أصول لفقه : الاستاذ / محمد أبو زهرة ص ١٠٥ .

(٢٥) رواه الشافعي في الأم ٤ : ٢٧ ، ورواه الترمذي ٢ : ١٦ ط بولاق ، ٣ : ١٨٩ من شرح المباركفوري عن طريق اسماعيل بن عياش قال الترمذي : وهو حديث حسن صحيح ، فتح الباري ج ٥ ص ٢٧٨ ، ومسند احمد ٥ : ٢٦٧ ، أبو داود ٣ : ٧٣ ، وابن ماجه ٢ : ٨٣ كلهم من طريق اسماعيل بن عياش ، قال الامام احمد : ما رواه اسماعيل بن عياش عن الشاميز صحيح ، وقال ابن حجر في الفتح : وهذا من روايته عن شرحبيل بن مسلم وهو شامي ثقة فالاستد صحيح لا مطعن فيه ورواه النسائي ٢ : ١٢٨ من طريق قتادة باختلاف يسير والدارمي ٢ : ٣٠١ تحقيق السيد عبدالله بن باز .

(٢٦) رواه ابن ماجه من حديث جابر ج ٣ ص ٣ ، والحاكم في المستدرک ج ٢ ص ٤ وصححه ابن شرط مسلم ونقله المنذرى في الترغيب ٧ . ٣ وذكره صحيح الترمذي .

لسنا مثل رسول الله ، يحل الله لرسوله ما شاء فنخضب رسول الله ثم قال : « والله انى لأتقاكم لله ولأعلمكم بحدوده » (٢٧) .

٣ - القسم الثالث : « السنة التقريرية وهى ما أقره الرسول ﷺ مما رآه من بعض أصحابه ، فعلا كان أو قولا ، بأن يقع ذلك فى حضرته فلا ينكره ، بأن يسكت عنه ، أو يوافق عليه مظهرا استحسانه وتأييده ، فيعد ذلك اقارارا ، من ذلك ما رواه أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه خرج رجلان فى سفر وليس معهما ماء فحضرت الصلاة فتيما صعيدا طيبا ، فصليا ثم وجدا الماء فى الوقت فأعاد أحدهما الصلاة والوضوء ولم يعد الآخر ثم أتيا رسول الله ﷺ ، فذكر ذلك له فقال للذى لم يعد : « أصبت السنة » وقال للآخر : (لك الأجر مرتين) (٢٨) .

(٢٧) الموطأ ص ١٢٤ ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، وقال الزرقانى فى شرح الموطأ ج ٢ ص ٩٢ : « وصله عبد الرزاق باسناد صحيح عن عطاء عن رجل من الانصار » ، ورواه الشيخان : فتح البارى ج ٤ ص ١٣١ ، ومسلم فى صحيحه ج ١ ص ٣٠٥ من حديث عمر بن أبى سلمة ، وأخرجه الامام أحمد فى المسند بنحوه ج ٥ ص ٤٣ ، وفى مجمع الزوائد ج ٣ ص ١٦٦ قال الهيثمى « ورجاله رجال الصحيح » ، وأخرجه الدارمى ج ١ ص ٣٤٥ بنحوه تحقيق السيد عبد الله يمان .

(٢٨) رواه أبو داود عن أبى سعيد الخدرى ج ١ ص ٩٣ بتحقيق الاستاذ / محمد محى الدين ، وسبل السلام ج ١ ص ٩٧ ورواه النسائى .

النسبة بين السنة ، والحديث ، والخبر ، والحديث القدسي

سبق بيان أن المراد بالسنة هنا ما أراه المحدثون ، وهي مرادفة للحديث عند جمهورهم وهذا هو الذي سنسير عليه في جميع بحوثنا من هذا الكتاب .

وأما الخبر : فهو عند علماء هذا الفن مرادف للحديث « فيطلقان على المرفوع وعلى الموقوف ، وعلى المقطوع . وقيل : الحديث ما جاء عن النبي ﷺ ، والخبر ما جاء عن غيره ، ومن ثم قيل لمن يشتغل بالسنة محدث والتواريخ ونحوها أخباري (٢٩) ، وقيل بينها عموم وخصوص مطلق ، فكل - حديث خبر ولا عكس - وقد يسمى المحدثون المرفوع والموقوف من الأخبار أثرا إلا أن فقهاء خراسان يسمون الموقوف بالأثر والمرفوع بالخبر (٣٠) .

وأما الحديث القدسي فهو كل قول أضافه الرسول ﷺ إلى الله عز وجل ، ويسمى حديثا لأن الرسول ﷺ يحكيه ويرويه عن ربه كما تروى الأحاديث ، ونسبته إلى القدس بمعنى الطهارة والتنزيه ، ونسب إلى الله لأنه صدر عنه تعالى :

وللعلماء في الأحاديث القدسية آريان :

الرأي الأول : أنها من كلام الله تعالى وليس للنبي ﷺ إلا حكايتها عن ربه سبحانه وذلك لأنها أضيفت إلى الله فقيل عنها قدسية وإلهية وأنها اشتملت على ضمائر التكلم الخاصة به تعالى ، كقوله : (يا عبادي . . .) ، وإنما تروى عن الله تعالى متجاوزا بها النبي ﷺ فتارة يقول الراوي : « قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه) وتارة يقول : (قال الله تعالى فيما رواه عنه رسول الله ﷺ) والمعنى فيهما واحد .

والرأي الثاني : (أنها من قوله ﷺ ولفظه كالأحاديث النبوية وعن ذلك أبو البقاء وعبارته : (ان القرآن ما كان لفظه ومعناه من عند الله بوحى جلي ، وأما الحديث القدسي فهو ما كان لفظه من عند الرسول ومعناه من عند الله بالإلهام أو بالمنام) واختار الطيبي (٣١)

(٢٩) تدريب الرواي ص ٦ .

(٣٠) المرجع السابق .

(٣١) قواعد التحديث ص ٦٦ .

هذا الرأي أيضا ، وحكمة اضافة الاحاديث القدسية الى الله على هذا الرأي زيادة الاهتمام بها ، والتوجيه الى ما احتوته من آداب ومعان ومواعظ ومن بيان لعظمة الله تعالى واطهار رحمته .

وأرجح الرأي الثاني ، وهو أنها من قوله ﷺ ولفظه اذ لم ينزل باللفظ من قبل الله تعالى الا القرآن الكريم لتمييزه عن بقية أنواع الوحي بأنه معجز من أوجه كثيرة منها إعجازه اللفظي والبياني ، فلا تصح روايته بالمعنى ، لأنه معجزة خالدة على مر الزمان محفوظ من التبديل والتغيير قال تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ (٣٢) .

وأما رواية الأحاديث القدسية عن الله تعالى واطافتها اليه واشتمالها على ضمائر التكلم الخاصة به سبحانه فهذا على معنى ان الله تعالى أمر جبريل عليه السلام أن يقول للرسول ﷺ ، افعل كذا ، وأمر بكذا . . . فيبلغ الرسول ﷺ ذلك ، بالفاظ من عنده ﴿ وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى * علمه شديد القوى ﴾ (٣٣) .

٥ - الفرق بين الأحاديث القدسية والقرآن :

- ١ - أن الاحاديث القدسية ما كان لفظها من عند النبي ﷺ على رأى البعض ومعناها من عند الله بالإلهام أو بالتمام بوحي جلى أولا ، وأما القرآن فهو ما كان لفظه ومعناه من عند الله بوحي جلى بمعنى : أن ينزل به جبريل عليه السلام بلفظه من عند الله سبحانه في اليقظة وليس في المنام ولا بالإلهام .
- ٢ - الاحاديث القدسية تصح روايتها بالمعنى أما القرآن فتحرم روايته بالمعنى .
- ٣ - الاحاديث القدسية لا يتعبد بقراءتها أما القرآن فيتعبد بقراءته ويتعين في الصلاة ، ولا كذلك الاحاديث القدسية .
- ٤ - أن القرآن الكريم معجزة خالدة متواتر اللفظ في كلماته وحروفه وأساليبه أما الاحاديث القدسية فليس لها هذا التواتر ، وليست بمعجزة .
- ٥ - ان القرآن يحرم على المحدث مسه ، وعلى الجنب تلاوته ومسّه بخلاف الاحاديث القدسية .

(٣٢) سورة الاسراء آية ٨٨ .

(٣٣) سورة النجم (٣ - ٥) .

الفرق بين الحديث القدسي والنبوي :

هو أن الحديث القدسي مقطوع بنزول معناه من عند الله تعالى لما ورد فيه من النص الشرعي على نسبه الى الله بقول الرسول ﷺ . . . « قال الله تعالى كذا . . . » فلذا سمي قدسيا ، أما الحديث النبوي فلم يرد فيه مثل هذا النص لأن منه ما هو « توفيقى » مستنبط بالاجتهاد والرأى من كلام الله والتأمل فى حقائق الكون وهذا ليس كلام الله ، ومنه ما هو « توفيقى » جاء به الوحي الى الرسول ﷺ فيبينه للناس بكلامه وهذا القسم وان كان مرجعه الى الله تعالى الملهم والمعلم الا أنه لما كان من قول الرسول ﷺ ووضعه كان حريا ان ينسب اليه ويطلق على القسمين حديثا نبويا وقوفا بالتسمية عند الحد المقطوع به (٣٤) .

(٣٤) النبأ العظيم للدكتور / محمد عبد الله دراز طبع مطبعة السعادة ص ١٠ ، ١١ .

منزلة السنة فى الدين

السنة هى الأصل الثانى من أصول الاسلام اجمع فقهاء المسلمين قديما وحديثا من لدن الصحابة رضوان الله عليهم الى يومنا هذا الا من شذ من بعض الطوائف على الاحتجاج بها واعتبارها المصدر الثانى للدين بعد القرآن الكريم فيجب اتباعها وتحرم مخالفتها ، وقد تضافرت الأدلة القطعية على ذلك فأوجب الله سبحانه على الناس طاعة رسوله ﷺ وبين انه عليه الصلاة والسلام هو المين لما أنزل من القرآن ، وذلك بعد أن عصمه من الخطأ والهوى فى كل أمر من الأمور « وما ينطق عن الهوى * إن هو الا وحى يوحى * علمه شديد القوى » (٣٥) كما عصمه من الناس حين أمره بتبليغ ما أنزل اليه قال تعالى « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين » (٣٦)

فهو إذاً قد مهد لرسوله طريق الدعوة وذلك له مهمة تبليغها فين سبحانه وتعالى للناس ما يأتى :

أولا : وجوب طاعة الرسول ﷺ

ثانيا : أن الرسول ﷺ هو الذى يبين للناس كتاب ربهم سبحانه وتعالى . وهذان الأمران متلازمان فى اثبات حجية السنة لأن الله تعالى أوجب طاعة رسوله عليه الصلاة والسلام لأنه مبين للناس ما أنزل اليهم ، قال الشاطبى : (فاذا عمل المكلف وفق البيان أطاع الله فيما أراد واطاع رسوله فى مقتضى بيانه ، ولو عمل على مخالفة البيان عصى الله تعالى فى عمله على مخالفة البيان اذ صار عمله على خلاف ما أراد بكلامه وعصى رسوله فى مقتضى بيانه) (٣٧) .

وسأتناول الحديث عن هذين الأمرين وهما وجوب طاعة الرسول ﷺ وبيان أن الرسول عليه الصلاة والسلام هو الذى بين للناس ما نزل اليهم :

(٣٥) سورة النجم الآيات ٣ - ٥ .

(٣٦) المائة الآية (٦٧) .

(٣٧) الموافقات (٤ : ١٩) .

١ - وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم

فرض الله سبحانه وتعالى طاعة رسوله ﷺ ، وورد الأمر بها في القرآن الكريم على وجوه كثيرة تختلف باختلاف أحوال المخاطبين ومشاربهم ونياتهم ، فمنهم اليهودى الذى يحتاج الى كثرة الأدلة والمنافق الذى يحتاج الى اسلوب التهديد والمؤمن الذى يقبل الأمر ويعرف هداية الله من أقرب طريق . وقد سلكت آيات القرآن الكريم فى بيان ذلك مسلكا مناسبا ونهجت منهجا حكيميا :

١ - فقد دلت مرة على وجوب طاعة الرسول ، بالأمر بالإيمان بالرسول « وهذا يستلزم وجوب طاعة الرسول ﷺ ، من ذلك قوله تعالى : « يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق إنما المسيح عسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله وان تؤمنوا وتتقوا فلکم أجر عظيم » (٣٩) . فالأمر بالإيمان بالرسول مع الايمان بالله لا يكون الا اذا كان مع الايمان تصديق لما يبلغه الرسل عن الله واذعان وطاعة لهديهم على هذا فرسولنا صلوات الله وسلامه عليه يجب الايمان به للأمر بالإيمان بالرسول وطاعته واجبة كطاعتهم التى استلزمها الأمر بالإيمان بهم .

٢ - ودلت الآيات أيضا على وجوب طاعة الرسول ﷺ باقتران الأمر بالإيمان به مع الأمر بالإيمان بالله سبحانه قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل) (٤٠) . وقال الله تعالى : (فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا والله بما تعملون خبير » (٤١) . وقد اظهر الله تعالى فى هذه الآيات وغيرها مكانة نبيه ﷺ فنص على الايمان به ولم يكتف بالأمر العام السابق رغم دخوله فيه ، وذلك لأن رسالته خاتمة وبعثته عامة فاتتضت الحكمة أن يخص بمزيد عنايته ويفهم من

(٣٨) سورة النساء آية ١٧١ .

(٣٩) سورة آل عمران آية ١٧٩ .

(٤٠) سورة النساء آية ١٣٦ .

(٤١) سورة التغابن آية ٨ .

ذلك الأمر بطاعته قال الامام الشافعي رضى الله عنه : (وضع الله رسوله من دينه وفرضه وكتابه الموضع الذى أبان جل شأنه أن جعله علما لدينه لما افترض من طاعته وحرم من معصيته وأبان من فضيلته بما قرن من الايمان برسوله مع الايمان به فقال تبارك وتعالى : (فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد)^(٤٢) وقال : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنيه)^(٤٣) فجعل كمال ابتداء الايمان الذى ما سواه تبع له الايمان بالله ثم برسوله)^(٤٤) . ا . ه . .

٣ - كذلك دلت الآيات على وجوب طاعة الرسول ﷺ بإيجاب الله تعالى طاعة الرسل قال تعالى : (وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله)^(٤٥) فطاعة الرسل إذاً هي الهدف من إرسالهم ، ورسولنا ﷺ كواحد من الرسل داخل في مضمون الحكم العام فينطبق عليه الحكم بوجوب طاعته لاسيما والرسل قبله كانت شرائعهم خاصة بطائفة معينة أما رسولنا عليه الصلاة والسلام فشريعته عامة وخاتمة ، لذا كانت طاعته أكد وألزم .

٤ - اقتران الأمر بطاعة الرسول بالأمر بطاعة الله تعالى : (قل أطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين)^(٤٦) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم في شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر)^(٤٧) والناظر الى الآيات الواردة في وجوب طاعة الرسول ﷺ يرى أن منها ما جاء بالأمر بطاعة الله مقرونا بالأمر بطاعة الرسول بالعطف بالواو كالأية الأولى حيث يفيد ذلك مطلق الاشتراك والجمع بينهما ، أو بطريق العطف بها مع إعادة العامل حيث يفيد ذلك تأكيد عموم الطاعة في كل ما يصدر عن الرسول ﷺ ومنها ما جاء بتكرار العامل في شيئين مع العطف على الأخير بدون تكرار العامل كقوله

(٤٢) سورة النساء آية ١٧١ .

(٤٣) سورة النور آية ٦٢ .

(٤٤) الرسالة للامام الشافعي ص ٧٣ .

(٤٥) سورة النساء آية ٦٤ .

(٤٦) سورة آل عمران آية ٣٢ .

(٤٧) سورة النساء آية ٥٩ .

تعالى : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) . فليس يكون التكليف العامل في عطف أولى الأمر . وهذا يدل على أن أولى الأمر ليس لهم طاعة مستقلة ، وليس لهم تشريع خاص يصدر عنهم يخالف الاسلام (وإنما يطاعون فيما شأنه أن يتلوه وبيأشروه في اطار من الدين الذي شرعه الله قرآنا كان أو سنة) (٤٨) فطاعة الرسول إذا واجبة في كل ما أتى به سواء كان في الكتاب الكريم أو ليس فيه .

٥ - أمر الله بطاعة الرسول على الانفراد قال الله تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) (٤٩) وقال تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون) (٥٠) وقال تعالى : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) (٥١) ففى هذه الآيات نص صريح على وجوب طاعة الرسول والتسليم لحكمه واتباعه ، وهذه الطاعة في حال حياته وبعد وفاته ، ففى حال حياته كان الصحابة يتلقون أحكام الشرع من القرآن الذى أخذوه عن رسولهم ﷺ حيث كان يبين لهم ما أنزل اليهم وحيث كان يبين لهم كثيرا من الأحكام حين تقع لهم الحوادث التى لم ينص عليها فى القرآن فهو إذا كان يطبق لهم الأحكام من حلال أو حرام مما كان مصدره القرآن أو الوحي الذى يوحىه الله له (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم) (٥٢) وقد حث الله على الاستجابة لما يدعو له الرسول ﷺ فقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحيبكم) (٥٣) ولم يبح الله للمؤمن ولا مؤمنة مخالفة حكم الرسول أو أمره قال تعالى : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالا مبينا) (٥٤) وقد كان المسلمون ملتزمين بحدود أمره ونهيه ومتبعين له

(٤٨) السنة النبوية ومكانتها فى التشريع ص ٥٨

(٤٩) سورة النساء آية ٦٥ .

(٥٠) سورة النور آية ٥٦ .

(٥١) سورة الحشر آية ٧ .

(٥٢) سورة الاعراف آية ١٥ .

(٥٣) سورة الأنفال آية ٢٤ .

(٥٤) سورة الأحزاب آية ٣٦ .

في عبادتهم ومعاملاتهم وقد بلغ من طاعتهم للرسول واقتدائهم به أنهم كانوا يفعلون ما يفعل ويتركون ما يترك ولم يميز واحد منهم لنفسه مراجعة الرسول الا اذا كان هناك أمر غريب عن عقولهم فيناقشونه ليعرفوا الحكمة فيه فقط كما لم يميز واحد منهم مراجعته في أمر (إلا اذا كان فعله أو قوله اجتهادا منه في أمر دنيوي كما في غزوة بدر حين راجعه الحباب بن المنذر في مكان النزول)^(٥٥) ومثل هذا انما حدث تطبيقا لمبدأ الشورى في الاسلام .

واذا كان الحال هكذا في حياة الرسول ﷺ ، فانه أيضا تجب طاعته واتباع سنته بعد وفاته ، لأنه صلوات الله وسلامه عليه انتقل الى الرفيق الأعلى بعد ان أطمأن تماما على أنه أرسى معالم الدين وأدى الامانة الإلهية على منهاج الحق ووصى المسلمين أن يطيعوه ويتبعوه بعد وفاته تمسكا بالكتاب والسنة وسيرا على هديهما كما قال ﷺ (تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتي)^(٥٦) وكما وجب على الصحابة بنص القرآن اتباع الرسول وطاعته في حياته وبعد مماته كما في الحديث السابق وجب على من بعدهم من المسلمين اتباع سنته بعد وفاته ، لأن النصوص التي أوجبت طاعته عامة لم تقيد ذلك بزمن حياته ولا بصحابته دون غيرهم ، ولأن العلة جامعة بينهم وبين من بعدهم وهي أنهم أتباع لرسول أمر الله باتباعه وطاعته^(٥٧) لهذا كله تلقى الصحابة السنة النبوية وبلغوها إلى من بعدهم .

(٥٥) السنة ومكانتها في التشريع ص ٦٦ .

(٥٦) أخرجه الحاكم في المستدرک وفي جامع بيان العلم وفضله ج ٢ ص ١٨٠ والموطأ شرح الزرقانی ، والترغيب والترهيب .

(٥٧) السنة ومكانتها في التشريع ص ٦٧ .

٢ - منزلة السنة من القرآن وبيانها له

تبين من البحث لسابق أن طاعة الرسول ﷺ واجبة على المسلمين وأنهم تقبلوا منه السنة كما تقبلوا القرآن مستجيبين لله الذي أمرهم باتباع النبي وطاعته وذلك لأن الرسول ﷺ مهمته هي التبليغ وبيان ما في القرآن من أحكام وقواعد وغير ذلك فإلا لزم له قاصرة على التبليغ وإنما لا بد مع التبليغ من البيان وهو الأمر الثاني في الآية السابقة.

فالقرآن الكريم جاء بالأصول العامة ولم يتفرغ للتفاصيل والجزئيات ولم يذرع عليها إلا بالقدر الذي يتفق مع تلك الأصول ويكون ثابتا بثبوتها لا يعتريه تغير أو تطور باختلاف الأعراف والبيئات ومرور الأزمان ، لأنه الكتاب الخالد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، اشتمل على العقائد والشرائع وعلى الآداب والاخلاق فكان تبياناً لكل شيء ، وجاءت لسنة توافق الكتاب الكريم وتتعرض للتفصيلات والجزئيات ، فسرت مبهمه وفصلت مجمله وقيدت مطلقه وخصصت عامه وشرحت أحكامه كما أتت السنة كذلك بأحكام لم يرد في القرآن نص عليها ، وجاءت بهذا متممة ومطبقة لما في القرآن الكريم فكانت مرتبتها بعد القرآن . (وأيضاً فإن السنة إما أن تكون بياناً للكتاب أو زيادة عليه ، فإن كانت بياناً فهي في الاعتبار بالمرتبة الثانية عن المبين ، فإن النص الأصلي أساس والتفسير بناء عليه وإن كانت زيادة فهي غير معتبرة إلا بعد أن لا توجد في الكتاب وذلك دليل على تقدم اعتبار الكتاب)^(٥٨) وكل ما جاء في السنة النبوية على لسان الرسول ﷺ إنما يتبع فيه ما يوحى إليه قال تعالى : (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلى)^(٥٩) ولهذا جعل الله تعالى طاعة رسوله طاعة له ، وأوجب على المسلمين اتباع بيانه فيما يأمر وينهى قال تعالى : (من يطع الرسول فقد أطاع الله)^(٦٠) ، وقال : (وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)^(٦١) إذاً

(٥٨) السنة ومكانتها في التشريع ص ٤٢٤ .

(٥٩) سورة الأنعام آية ٥٠ .

(٦٠) سورة النساء آية ٨٠ .

(٦١) سورة الحشر آية ٧ .

فالرسول صلوات الله وسلامه عليه حين يبين للناس ما نزل اليهم لا يصدر في بيانه من تلقاء نفسه وإنما يتبع ما يوحى اليه ، وقد امتن الله تعالى على رسوله بأن أنزل عليه الكتاب ليشرح ما جاء فيه ، ويظهر المراد منه فقال تعالى : (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم) (٦٢) . وروى المقدم بن معد يكرب قال : « حرم النبي ﷺ أشياء يوم خيبر منها الحمار الأهل وغيره ، فقال رسول الله ﷺ : « يوشك أن يقعد الرجل منكم على أريكته يحدث بحديثي فيقول بيني وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالا استحللناه وما وجدنا فيه حراما حرمانه وأن ما حرم رسول الله كما حرم الله » (٦٣) .

وينقسم بيان السنة الى أقسام :

أولا : بيان التقرير ، وهو أن تكون السنة موافقة لما جاء به القرآن ومؤكدة له ، ومن ذلك : ما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « بنى الاسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان » (٦٤) فانه يوافق قوله تعالى : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » (٦٥) وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » (٦٦) وقوله تعالى « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » (٦٧) .

الثاني : بيان التفسير لما جاء في القرآن ، وهذا القسم أغلب الأقسام وأكثرها ورودا فمنه بيان المجمعل : كالأحاديث التي بينت العبادات وكيفيةها كفريضة الصلاة مثلا فقد فرضها الله تعالى في القرآن من غير أن يبين أوقاتها وعدد ركعاتها وأركانها وكيفيةها ، فبين الرسول صلوات الله وسلامه عليه ذلك كله بصلاته وتعليمه الناس وقال : « صلوا كما

(٦٢) سورة النحل آية ٤٤ .

(٦٣) رواه الترمذى (٢ : ١١١) وابن ماجه (١ : ٥) والدارمى (١ : ١١٧) تحقيق السيد عبد الله يمانى ورواه الامام أحمد في المسند ٤ : ١٣٠) وهو حديث صحيح كما قال الترمذى .

(٦٤) فتح البارى ج ١ ص ٥٥ ، ورواه مسلم من طريق سعد بن عبيدة بتقديم الصوم على الحج ج ١ ص ١٥٠ ط الشعب ورواه أيضا بتقديم الحج على الصوم ص ١٥١ ورواه الترمذى ج ٤ ص وقال حديث حسن صحيح ، والمسند ج ٤ / ٣٦٤ .

(٦٥) سورة البقرة آية ٨٣ .

(٦٦) سورة البقرة آية ١٨٣ .

(٦٧) سورة عمران آية ٩٧ .

رأيتهم في أصمى»^(٧٤) ومثل ذلك في الحج والزكاة «فمن ذلك من يرى أن ما في القرآن من الأحكام الشرعية التي هي في القرآن مجملة وفصلتها السنة النبوية . ومن هذا القسم تقريده السابق : «لما فصلت السنة بينت المراد من اليد في قوله تعالى « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما »^(٧٥) لوضحت السنة أنها اليد اليمنى وأن القطع من الكوع لا من المرفق»^(٧٦) . ومن هذا القسم أيضا تخصيص العام ، كالأحاديث التي خصصت الوارث والمورث في قوله تعالى : (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين)^(٧٧) فخصصت السنة الوارث وغيره الأب قال عليه السلام : (نحن مناصر الأبناء لا نورث ما تركوا) .^(٧٨) والأب قال عليه السلام : (الوارث من الأبناء من تركوا) .^(٧٩)

القسم الثالث : أن يكون الحكم في القرآن مجملا في بعض النواحي ، فلهذا خصصت السنة الحكم في بعض النواحي .
 الكتابي بالسنة وهذا مثل حديثنا ، (لا يرث الرجل من زوجته ما تركت من أموالها) .
 للوالدين والأقربين الوارثين الثابت بقوله تعالى « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إكل نكاحه ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين »^(٨٠) . والنسخ من قبيل البيان لأنه بيان انتهاء أمد الحكم ولذلك يطلق عليه بعض علماء الأصول بيان التبديل»^(٨١) .

القسم الرابع : أن تكون السنة دالة على حكم لم يرد في القرآن وهذا القسم اختلف العلماء فيه : فذهب الجمهور الى أن السنة اثبتت أحكاما جديدة على طريق الاستقلال .

-
- (٦٨) أخرجه البخاري ج ١ ، ص ١٢٥ حاشية السندي وأخرجه الدارمي ج ١ ص ٢٣٠ بتأليف السيد بيان ، وأخرجه الامام أحمد ، والنسائي ج ٢ ص ٥٩ بنحوه والشافعي في مسند ص ١٩ .
 - (٦٩) المائدة « ٣٨ » .
 - (٧٠) الحديث والمحدثون ص ٣٨ .
 - (٧١) سورة النساء « ١١ » .
 - (٧٢) فتح الباري ج ٦ ص ٢٨٩ صحيح مسلم ج ٣ ص ١٣٧٨ مسند أحمد ج ١ ص ٣٣٤ شاكر والموطأ ص ٥٤ .
 - (٧٣) رواه أبو داود في سنه (٤ : ٣١٣) من طريق محمد بن راشد باسناد صحيح . ورواه الترمذي (٢ : ١٤) ، سنن ابن ماجه (٢ : ٧٤) .
 - (٧٤) سبق تخرجه ص ٦ .
 - (٧٥) سورة البقرة « ١٨٠ » .
 - (٧٦) الحديث والمحدثون ص ٤٠ .

وذهب صاحب الموافقات وآخرون الى أنها أثبتت احكاما داخله تحت نصوص القرآن ولو بتأويل . وقال الشافعى رحمه الله فى القسمين الأول والثانى :

(والوجهان يجتمعان ويتفرعان : أحدهما ما أنزل الله فيه نص كتاب فبين رسول الله مثل ما نص الكتاب . والآخر بما أنزل الله فيه جملة كتاب فبين عن الله معنى ما أراد وهذان الوجهان اللذان لم يختلفوا فيهما^(٧٧) ، ثم ذكر الامام الشافعى هذا القسم الذى دلت السنة فيه على حكم لم يرد فى القرآن فذكر اختلاف العلماء فيه قال « فمنهم من قال جعل الله له بما افترض من طاعته وسبق فى علمه من توفيقه لرضاه أن يسن فيما ليس فيه نص كتاب . ومنهم من قال لم يسن سنة قط الا ولها أصل فى الكتاب كما كانت سنته لتبين عدد الصلاة وعملها على أصل جملة فرض الصلاة ، وكذلك ما سن من البيوع وغيرها من الشرائع لأن الله قال : « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل »^(٧٨) وقال : « وأحل الله البيع وحرم الربا »^(٧٩) فما أحل وحرم فانما بين فيه عن الله كما بين الصلاة) ، ومنهم من قال (بل جاءت به رساله الله فثبتت سنته بفرض الله ، ومنهم من قال : (القى فى روعه كل ما سن وسنته المحكمة التى القى فى روعه عن الله فكان ما القى فى روعه سنته^(٨٠) . أ . ه .

ويتضح من كلام الامام الشافعى السابق أن أصحاب الرأى الأول والثالث والرابع يرون أن السنة تستقل بالتشريع فى بعض الأمور ، أما أصحاب الرأى الثانى فيرون أنها لا تستقل بالتشريع وإنما تدخل أحكامها ضمن نصوص القرآن .

(٧٧) الرسالة ص ٩٢ .

(٧٨) سورة النساء « ٢٩ » .

(٧٩) سورة البقرة « ٢٧٥ » .

أدلة القائلين بالاستقلال

استدل القائلون باستقلال السنة بالتشريع في بعض الأمور بأنه قد ورد في القرآن الكريم ما يوجب طاعة الرسول ﷺ وأتباعه قال تعالى : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » (٨١) وقال تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » (٨٢) . (قدلت الآيات على وجوب طاعة الرسول ﷺ فيما يأمر به وينهى عنه) دون تفريق بين السنة المبينة أو المؤكدة أو المستقلة ، وهكذا كل أدلة القرآن تدل على أن ما جاء به الرسول وكل ما أمر به ونهى فهو لاحق في الحكم بما جاء في القرآن ، فلا بد أن يكون زائداً عليه (٨٣) كما وردت بعض الأحاديث الدالة على وجوب الأخذ بما في السنة من الأحكام كما يؤخذ ما في الكتاب مثل قوله ﷺ « يوشك بأحدكم أن يقول هذا كتاب الله ما كان فيه من حلال أحلناه وما كان فيه من حرام حرمناه ألا من بلغه عنى حديث فكذب به فقد كذب الله ورسوله والذي حدثه » (٨٤) .

وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ بتبليغ أحكامه من أى طريق سواء كان بالكتاب أو غيره ، وعصمه من الخطأ فلا مانع من استقلال السنة بالتشريع .

وأما قوله تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » (٨٥) فلا تفيد الآية قصر مهمة الرسول ﷺ على البيان ، بل يستفاد منها ومن قوله تعالى « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » أن الرسول يبين للناس كتاب ربهم وإذا جاوز البيان إلى الأحكام التي لم يتعرض لها القرآن فانه حيثشذ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ، وقد صرح بذلك بعض علماء السلف ، فمن ذلك ما يروى عن عبد الرحمن بن يزيد أنه رأى محرماً عليه ثيابه فنهاه فقال : إئتني بآية من كتاب الله تنزع ثيابي ، فقرأ عليه « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » (٨٦) .

(٨١) سورة النساء « ٨٠ » .

(٨٢) سورة الحشر « ٧ » .

(٨٣) الموافقات « ٤ : ١٣ » .

(٨٤) رواه الطبراني في الأوسط عن جابر .

(٨٥) سورة النحل « ٤٤ » .

(٨٦) جامع بيان العلم ج ٢ ص ١٨٩ ، الحديث والمحدثون ص ٤٤ .

أدلة المنكرين للاستقلال

وقد استدل أصحاب هذا الرأي بأن السنة بيان للقرآن ، كما قال تعالى : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » . واجابوا عن أدلة القائلين باستقلال السنة بأن الآيات التي تفيد وجوب طاعة الرسول يقصد منها وجوب طاعته في بيانه وشرحه « ولا يلزم من أفراد الطاعتين تباين المطاع فيه باطلاق فلا دليل فيها على أن ما في السنة ليس في الكتاب ، واذا كانت هناك أحكام زائدة فليست زائدة بزيادة شيء ليس في القرآن بل زيادة الشرح على المشروح » (٨٧) وعلى هذا الرأي تكون الأحكام الواردة في السنة اشتمل القرآن عليها بطريق الاجمال فصح أن تكون السنة بيانا للقرآن عن طريق الالحاق أو القياس أو استنباط القواعد العامة من الجزئيات ، أما الالحاق فقد ينص القرآن على حل شيء وحرمة شيء آخر ويكون هناك شيء ثالث لم ينص على حكمه وهو آخذ من كل منهما بطرف فيكون ثم مجال للاجتهاد في إلحاقه بأحدهما فيعطيه النبي ﷺ حكم أحدهما ومثال ذلك : ان الله تعالى أحل صيد البحر فيما أحل من الطيبات وحرّم الميتة فيما حرّم من الخبائث فدارت ميتة البحر بين الطرفين وأشكل حكمها فقال ﷺ : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » (٨٨) وأما القياس فقد ينص القرآن على حكم شيء فيلحق به الرسول ﷺ ما يشاركه في العلة قياسا عليه ، ومثال ذلك أن الله تعالى حرّم الجمع بين الاختين ثم قال : « واحل لكم ما وراء ذلكم » (٨٩) ثم جاء نهي ﷺ عن الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها من باب القياس كما روى عن أبي هريرة رضی الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تنكح المرأة على عمتها ولا العمة على بنت أخيها ولا المرأة على خالتها ولا الخالة على بنت أخيها ولا تنكح الكبرى على الصغرى ولا الصغرى على الكبرى » (٩٠) . وأما طريق استنباط القواعد العامة من

(٨٧) السنة ومكانتها في التشريع ص ٤٣٢ بتصرف يسير .

(٨٨) أخرجه أصحاب السنن : سنن أبي داود بتحقيق محمد محي الدين ج ١ ص ٢١ ، والترمذي

ج ١ ص ٤٧ وقال هذا حديث حسن صحيح ، ورواه الامام مالك في الموطأ ص ٤٣ ط المجلس الأعلى

والدارمي ج ١ ص ١٥١ كلهم برواية أبي هريرة .

(٨٩) النساء « ٢٤ » .

(٩٠) صحيح مسلم بشرح النووي ج ٣ ص ٥٦٢ ، الموطأ ص ١٧٧ ، الأم ج ٥ ص ٤ ، نيل

الأوطار ج ٦ ص ٢٨٥ سنن أبي داود ج ٢ ص ٢٢٤ ، جامع الترمذي ج ٢ ص ٢٩٧ وقال : حديث

حسن صحيح ، وابن حبان بزيادة فإنكم إذا فعلتم قطعتم أرحامكم وهو المعنى الذي حرّم الجمع بسببه .

نصوص القرآن الجزئية فذلك بأن تأتي نصوص من القرآن في معان مختلفة لكن يشتملها معنى واحد فتأتي السنة بمقتضى ذلك المعنى الواحد فيعلم أنه مأخوذ من مجموع تلك النصوص ، ومثال ذلك قوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى . . . » (٩١) فهاتان قاعدتان تؤخذان من الآيات التي تحث على الإخلاص مثل قوله تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » (٩٢) وقوله تعالى : « ألا لله الدين الخالص » (٩٣) وقوله تعالى : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » (٩٤) .

ويمكن الجمع بين ما ذهب إليه الفريقان بأن الجميع متفقون على وجود أحكام في السنة لم ينص عليها في القرآن ولكن القائلين بأن السنة لا تأتي بأحكام زائدة عما في القرآن أرادوا أن القرآن اشتمل على جميع الأحكام اجمالا أو تفصيلا فعلى رأيهم أن الأحكام داخلة تحت النصوص بوجه من الوجوه ، وأما القائلون بأنها تأتي بأحكام زائدة فأرادوا بذلك الأحكام التفصيلية التي لم يرد فيها نص صريح فعلى رأيهم أن السنة تستقل بالتشريع لأنها أثبتت أحكاما جديدة ، فكل واحد من الفريقين متفق على وجود أحكام زائدة عما في القرآن وإنما الخلاف في مخرجها ، فالخلاف إذا لفظي لأن النتيجة واحدة وهي وجود أحكام جديدة سواء سمي ذلك استقلالا أم لا (٩٥) .

(٩١) فتح الباري ج١ ص ٩ المسند ج٢ ص ٣٠٢ ورواه مسلم ج٦ ص ٤٨ والترمذي ج٦

ص ٤٨ وهو حديث حسن صحيح .

(٩٢) البينة (٥٥) .

(٩٣) سورة الزمر (٣١) .

(٩٤) سورة الكهف (١١٠) .

(٩٥) الحديث والمحدثون ص ٤٥ السنة ومكانتها في التشريع ص ٤٣٢ .

بيان السنة في غير الاحكام

وهناك طائفة من الاحاديث النبوية على سبيل العظة ، وتنبية المكلفين وهدايتهم وخرجت مخرج القصص ، منها ما جاء موافقا ومؤكدا لما في القرآن ولا يخلو من بعض الشرح كحديث الخضر مع موسى عليه السلام الذي رواه سفيان عن عمرو عن سعيد بن جبير قال : « قلت لابن عباس : إن نوحا البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس موسى بنى اسرائيل ؟ فقال ابن عباس : كذب عدو الله ، أخبرني أبي بن كعب قال : « خطبنا رسول الله . . » وذكر حديث موسى والخضر بشيء يدل على أن موسى صاحب الخضر (٩٦) أهـ . فهذا الحديث يوافق القصة المذكورة عنها في سورة الكهف .

ومنها ما ورد على سبيل التوضيح كقوله عليه الصلاة والسلام (٩٧) يدعى نوح فيقال هل بلغت ؟ فيقول نعم بلغت ، فيدعى قومه فيقال : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد فيقال من شهودك ؟ فيقول : محمد وأمه ، قال : فيأتى بكم تشهدون أنه قد بلغ فذلك قول الله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » (٩٨) .

ومنها ما يرد على طريق الاستقلال ومن أمثلته : « حديث جريج العابد وحديث الابرص والاقرع والاعمى » و « حديث الصخرة » فهذه الاحاديث وما في معناها جاءت لتأكيد المقاصد التي جاء بها القرآن ، وحكمتها تنشيط المكلفين وتنبية الغافلين (٩٩) .

(٩٦) الرسالة للإمام الشافعي ص ٤٤٢ ، ورواه البخارى ج ١ ص ١٩٧ من فتح البارى ، ورواه

مسلم ج ٢ ص ٢٢٧ من طريق سفيان بن عيينة .

(٩٧) أخرجه البخارى والترمذى .

(٩٨) سورة البقرة « ١٤٣ » .

(٩٩) الحديث والمحدثون ص ٤٥ .

حول حجية السنة

من المباحث السابقة تتضح حجية السنة وحيث إن الله تعالى أمر بوجوب طاعة الرسول ﷺ ، وبين انه الذي يبين للناس ما نزل اليهم ، وقال تعالى : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » (١٠٠) وقال تعالى : « قل اطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين » (١٠١) .

فقد جعل سبحانه التولي عن طاعة الله ، وعن طاعة الرسول كفرا ، لأن من أركان الايمان بالله الايمان بالرسول ﷺ ، والايمان بأن كل ما أتى به صدق . وعن عمران بن حصين أنه قال لرجل : « إنك امرؤ احمق أتجد في كتاب الله الظهر أربعة لا يجهر فيها بالقراءة ثم عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا ، ثم قال : أتجد ذلك في كتاب الله مفسرا ؟ إن كتاب الله أبهم هذا وأن السنة تفسر ذلك » ومن كل ذلك يتأكد لنا حجية السنة .

رد بعض الشبه والطعون :

١ - ذهب بعض اصحاب الآراء الجائحة من الفرق والطوائف الى انكار حجية السنة جملة ، متواترة كانت أو آحادا مستندين في ذلك الى فهمهم السقيم في مثل قوله تعالى « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » (١٠٢) وقوله تعالى « ما فرطنا في الكتاب من شيء » (١٠٣) وأصل هذا الرأي الفاسد - وهو رد السنة والاقتصار على القرآن ان الزنادقة وطائفة من غلاة الرافضة ذهبوا الى انكار الاحتجاج بالسنة والاقتصار على القرآن (١٠٤) ونسبوا الى الرسول ﷺ انه قال : ما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله فما وافقه فأنوا

(١٠٠) سورة النحل « ٤٤ » .

(١٠١) سورة آل عمران « ٣٢ » .

(١٠٢) سورة النحل « ٨٩ » .

(١٠٣) سورة الانعام « ٣٨ »

(١٠٤) مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة

قلته ، وما خالفه فلم أقله (١٠٥) كما استدلوا على عدم حجيتها أيضا : بنهى الرسول ﷺ عن كتابة السنة وأمره بمحو ما كتب منها .

والإجابة عن هذه الشبهة تتلخص فيما يأتي :

أولا : أن قوله تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » فالمراد والله اعلم أن الكتاب يبين أمور الدين بالنص الذى ورد فيه ، أو بالاحالة على السنة التى تولت بيانه ، والا فلولا يمكن الامر كذلك لتناقضت هذه الآية مع قوله تعالى : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » .

ثانيا : وأما قوله تعالى : « ما فرطنا فى الكتاب من شيء » فالكتاب هو اللوح المحفوظ بدليل السياق (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم) وعلى تقدير أنه القرآن فالمعنى أنه يحتوى على أمور الدين إما بالنص الصريح وإما ببيان السنة له .

ثالثا : وأما الحديث الذى نسبوه إلى النبى والذى زعموا - حسب ادعائهم - أنه يفيد ضرورة عرض السنة على الكتاب فقد قال فيه الامام الشافعى رحمه الله تعالى : « ما روى هذا أحد يثبت حديثه فى شيء صغر ولا كبر . . . » (١٠٦) وذكر أئمة الحديث أنه موضوع وضعته الزنادقة قال عبد الرحمن بن مهدى : « الزنادقة والخوارج وضعوا ذلك الحديث وهذه الألفاظ لا تصح عنه ﷺ عند أهل العلم بصحيح النقل من سقيمه ، وقد عارض هذا الحديث قوم من أهل العلم وقالوا نعرض هذا الحديث على كتاب الله قبل كل شيء ونعتمد على ذلك قالوا فلما عرضناه على كتاب الله وجدناه مخالفا لكتاب الله ، لأننا لم نجد فى كتاب الله أنه لا يقبل من حديث رسول الله ﷺ إلا ما وافق كتاب الله بل وجدنا كتاب الله يطلق التأسى به والأمر بطاعته ويحذر من المخالفة عن أمره جملة على كل حال » (١٠٧) .

رابعا : وأما نبى الرسول ﷺ عن تدوين السنة فلا يدل على عدم حجيتها لأن المصلحة يومئذ تقضى بتضافر كتاب الصحابة - وهم قلة - على جمع القرآن الكريم وتدوينه وحفظه أولا خشية الضياع وخشية أن يلتبس بغيره على البعض فنهاهم عن تدوين السنة

(١٠٥) لم يرد بهذا المعنى حديث صحيح ولا حسن « وفى عون المعبود » (٤ : ٣٢٩) فأما ما رواه بعضهم أنه قال : « إذا جاءكم الحديث . . إلخ فإنه حديث باطل لا أصل له » .

(١٠٦) الرسالة للامام الشافعى ص ٢٢٥

(١٠٧) جامع بيان العمل وفضله (٢ : ١٩٠) .

حتى لا يكون تدوينها شاغلا لهم عن القرآن أو أن النهى كان بالنسبة لمن يوثق بحفظه .

واخيرا فكيف يترك الاحتجاج بالسنة اقتصارا على القرآن ؟ ولا سبيل الى فهم القرآن إلا عن طريق السنة الصحيحة التي بها يعلم المفسر أسباب النزول والظروف والمناسبات والوقائع الخاصة التي نزلت فيها آيات القرآن الكريم ولا سبيل الى معرفة كل ذلك الا عن طريق السنة الصحيحة .

٢ - الرد على من ينكر الاحتجاج بخبر الواحد :

من الحديث ما هو متواتر ومنه ما هو احاد ، أما الحديث المتواتر فقد عرفه العلماء بأنه (هو ما نقله من يحصل العلم بصدقهم ضرورة بأن يكونوا جميعا لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم من أول الاسناد الى آخره)^(١٠٨) ولذا كان مفيدا للعلم الضروري وهو الذى يضطر اليه الانسان بحيث لا يمكنه دفعه ، ويجب العمل به من غير بحث عن رجاله ولا يشترط فيه عدد معين فى الأصح^(١٠٩) ، وأما خبر الأحاد فهو :

« الخبر الذى لم تبلغ نقلته فى الكثرة مبلغ الخبر المتواتر سواء كان المخبر واحدا أو اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة إلى غير ذلك من الأعداد التى لا يشعر بأن الخبر دخل بها فى حيز المتواتر »^(١١٠) وقيل فى تعريفه : هو ما لم يوجد فيه شروط المتواتر سواء كان الراوى له واحدا أو أكثر^(١١١) . والتعريفان يتفقان فى أن خبر الواحد لا يجتمع فيه شروط المتواتر ، فهما متقاربان .

وقد اتفق جمهور المسلمين من الصحابة والتابعين وغيرهم على وجوب العمل بخبر الواحد وأنه حجة ، ويفيد الظن ، ومنع من وجوب العمل به بعض طوائف : كالروافض والقدرية ، والجبائى فى جماعة من المتكلمين .

والدليل على وجوب العمل بخبر الواحد ما يأتى :

أولا : قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا

(١٠٨) تدريب الراوى ص ٣٧١ .

(١٠٩) قواعد التحديث للقاسمى ص ١٤٦ .

(١١٠) توجيه النظر ص ٣٣ .

(١١١) قواعد التحديث ص ١٤٧ .

قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين» (١١٢) والنبا هو الخبر ، وهو نكرة في سياق الشرط فيعم كل خبر ، ويدخل فيه الخبر الذى يتعلق بالرسول ﷺ قبل غيره لأهميته . وقد أوجب الله تعالى الثبوت فيه لوجود الفسق ، فإذا انتهى هذا السبب بأن كان المخبر ثقة عدلا قبل الخبر من غير تثبيت ولا توقف .

ثانيا : ورد في السنة الشريفة ما يدل على قبول خبر الواحد ، من ذلك ما روى عن سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن ابن عبد الله بن مسعود عن ابيه أن النبى ﷺ قال : نضر الله عبدا سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه ، ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم : اخلاص العمل لله والنصيحة ، ولزوم جماعتهم ، فان دعوتهم تحيط من ورائهم (١١٣) .

وفي هذا الحديث يدعو الرسول ﷺ لاستماع مقالته وادائها ويدعو بالنصرة للقائم بذلك فيقول : (نضر الله عبدا) وفي رواية (امرأ) ، وكل واحدة من الكلمتين بمعنى (الواحد) ، والرسول لا يأمر أن يؤدي عنه الا الذى تقوم به الحجة ، فدل ذلك على وجوب العمل بخبر الأحاد .

وقد تواتر عن الرسول صوات الله وسلامه عليه أنه كان يبعث بكتبه ويلزم المسلمين العمل بالأحاد منها .

ثالثا : اجماع الصحابة المستفاد من الوقائع الكثيرة التى كانت تحدث ، وتتواتر عنهم فى العمل بخبر الواحد وكثيرا ما يكون لهم رأى فى أمر من الأمور فإذا جاءهم خبر عن رسول الله ﷺ أخذوا به وتركوا آراءهم ، كما كانوا يرجعون الى بيت النبوة فى بعض ما يحتاجون اليه فيسألون امهات المؤمنين رغبة منهم فى الوقوف على حكم النبى ﷺ فى مثل هذه الأمور ، وعلى هذا النهج سار التابعون من بعدهم (١١٤) .

(١١٢) سورة الحجرات آية ٦ .

(١١٣) رواه أحمد ج ١ ص ٤٣٦ عن زيد بن ثابت ، والترمذى ج ٤ ص ١٤٢ عن عبد الله بن مسعود عن ابيه بلفظ (نضر الله امرأ . .) وقال : حديث حسن صحيح ، والدارمى بنحوه ج ١ ص ٦٥ .

(١١٤) مكانة السنة فى الاسلام الدكتور محمد أبو زهو ص ٢١ .

وما يشهد للعمل بخبر الواحد أن الصحابة كانوا يكتفون به فيما ينزل من أحكام الدين ولا يطلبون خبراً آخر من ذلك ما روى عن عبد الله ابن دينار عن ابن عمر قال : (بينما الناس بقاء في صلاة الصبح اذ جاءهم آت ، فقال : ان النبی قد أنزل عليه الليلة قرآن ، وقد أمر أن يستقبل القبلة ، فاستقبلوها ، وكانت وجوههم الى الشام فاستداروا الى الكعبة) (١١٥) فقد أخبرهم بتحويل القبلة واحد صادق فلو لم يكن خبر الواحد جائزاً لما تحولوا الى الكعبة بخبره .

رد بعض الاعتراضات :

١ - وقد يعترض على العمل بخبر الواحد ، بتوقف بعض الصحابة في العمل به وطلبهم شاهداً أو يميناً .

والجواب على ذلك :

إن هذا كله لم يكن لأن الحديث خبر آحاد ، وإنما لزيادة الثبوت في الراوى والمروى وشدة الحجة في ذلك ، وربما وقع لهم الريب في الراوى بأن كان غير حافظ أو غير ضابط ، فطلبوا الشاهد أو اليمين لذلك .

٢ - وقد يعترض كذلك بأن الصحابة لم يكثروا من رواية السنة وقصروا العمل على القرآن والمشهور من الأحاديث ، واجتهدوا بالرأى بعد ذلك .

والجواب على ذلك :

انهم ما تركوا الحديث الصحيح ولا لجأوا الى الرأى ، وتشهد بذلك الوقائع الكثيرة الماثورة عنهم ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يقول : (إياكم والرأى فان أصحاب الرأى اعداء السنن أعيتهم الاحاديث أن يعوها ، وتفلتت منهم أن يحفظوها فقالوا في الدين برأىهم) (١١٦) .

وأما ما جاء عن الصحابة من الاجتهاد بالرأى ، فانه لم يكن الا بعد البحث عن الحديث ، فاذا لم يجدوه اجتهدوا برأىهم ، فاذا جاءهم بعد ذلك حديث عن رسول الله ﷺ

(١١٥) الموطأ ص ١٥٦ ، فتح البارى ج ١ ص ٤٢٤ ورواه مسلم من طريق مالك ج ١ ص ١٤٨ وأحمد ج ٢ ص ١١٣ والشافعى في الأم ج ١ ص ٨١ .
(١١٦) أعلام الموقعين ج ١ ص ٤٦ ط المنيرية .

اتبعوه وتركوا الرأى . وعن عبد الله بن مسعود قال : (من عرض له منكم قضاء فليقض بما فى كتاب الله فان لم يكن فى كتاب الله فليقض بما قضى فيه نبيه ﷺ ، فان جاء أمر ليس فى كتاب الله ولم يقض فيه نبيه ﷺ فليقض بما قضى به الصالحون فان جاء أمر ليس فى كتاب الله ولم يقض به نبيه ولم يقض به الصالحون فليجتهد رأيه فإن لم يحسن فليقم ولا يستحي) (١١٧) .

(١١٧) المرجع السابق ص ٥٣ .

شروط العمل بخبر الواحد

اشترط العلماء في قبول خبر الواحد ووجوب العمل به شروطا كفلت الاحتجاج به والعمل بما فيه ، وهذه الشروط اندفعت الشبه التي أثارها المشككون حول الحديث وأصبح لا مجال لظعنهم وقولهم : (إن الراوى يجوز عليه الكذب أو الغلط مع احتمال الصدق فثبت الخبر عن الرسول ﷺ غير مقطوع به) لا مجال لمثل هذا القول فان الشروط التي أشرطها الاثمة والعلماء كانت كافية في ترجيح جانب الصدق على جانب الكذب ، وهذه الشروط منها ما هو في راوى الحديث ، ومنها ما هو في متن الحديث ::

أما الشروط الخاصة براوى الحديث فهي :

- ١ - العدالة .
- ٢ - الضبط .
- ٣ - أن يكون فقيها .
- ٤ - أن يعمل الراوى بما يوافق الخبر ولا يخالفه .
- ٥ - أن يؤدى الحديث بحروفه .
- ٦ - أن يكون عالما بما يحيل معانى الحديث من اللفظ .

أما الشروط الخاصة بالحديث فهي :

- ١ - أن يكون متصل السند برسول الله ﷺ .
- ٢ - خلوه من الشذوذ والعلة .
- ٣ - ألا يخالف السنة المشهورة قولية كانت أو فعلية .
- ٤ - ألا يخالف ما كان عليه الصحابة والتابعون وألا يخالف عموم الكتاب أو ظاهره .
- ٥ - ألا يكون بعض السلف قد طعن فيه .
- ٦ - ألا يشتمل الحديث على زيادة في المتن أو لسند انفرد بها راويه عن الثقات .

وهكذا احتاط العلماء في قبول خبر الواحد فاشتروا الشروط الكافية ووضعوا الراويه الصفات اللازمة التي تجمع بين الثقة في الدين والصدق في الحديث . قال الخطيب : « وعلى العمل بخبر الواحد كان كافة التابعين ومن بعدهم من الفقهاء الخالفين في سائر أمصار المسلمين الى وقتنا هذا ولم يبلغنا عن أحد منهم انكار لذلك ولا اعتراض عليه » (١١٨) .

(١١٨) الكناية في علم الرواية للخطيب البغدادي ص ٧٢ ط مطبعة السعادة .

الأطوار التي مرت بها السنة في القرنين : الأول والثاني رواية السنة وكتابتها ، وتدوينها وتصنيفها

العهد النبوي :

اصطفى الله تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه ليلبغ الرسالة الإلهية الى الناس جميعا ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وأعد الله تعالى رسوله ﷺ اعدادا كاملا فرباه بعنايته ، وكلاه برعايته وعصمه من الناس وعلمه ما لم يكن يعلم ، قال تعالى : (ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك ، وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) (١١٩) .

وقام الرسول ﷺ بأداء الرسالة خير قيام ، وأدى الأمانة الإلهية على أكمل وجه وتحمل في سبيلها ما تحمل وصبر واستعذب الأذى حتى أرسى دعائم الدعوة وأقام دين الله تعالى .

وقد تضافرت عوامل ثلاثة حفزت هم المسلمين الى الاقبال الشديد على السنة الشريفة ومدارستها :

أولا : القدوة الحسنة التي تمثلت في الرسول ﷺ ، قال تعالى : (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) (١٢٠) .

ثانيا : ما تضمنته آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة من الحث على العلم والعمل ، بل كانت أولى آيات الوحي الإلهي من القرآن دعوة صريحة الى العلم ، توجه

(١١٩) سورة النساء (١١٣)

(١٢٠) سورة الأحزاب (٢١) .

أنظار البشرية اليه ، وتحض عليه ، قال تعالى : (اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الانسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الانسان ما لم يعلم) (١٢١) ، وقال تعالى : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) (١٢٢) ، كما حض الرسول ﷺ على طلب العلم وتبليغه ، عن ابن شهاب قال : قال حميد بن عبد الرحمن : سمعت معاوية خطيبا يقول سمعت النبى ﷺ يقول : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين وإنما أنا قاسم والله يعطى ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله » (١٢٣) وقال ﷺ « نضر الله عبدا سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه » (١٢٤) .

ثالثا : الاستعداد الفطرى ، والذوق العربى الأصيل والذاكرة الواعية الأمانة التى كانوا عليها ، وقد حركت هذه العوامل قلوب المسلمين للالتفاف حول رسولهم صلوات الله وسلامه عليه ، لينهلوا من معين سته المطهرة التى وجدوا فيها مادة خصبة لدينهم وأخراهم ، تكفل لهم سعادة الدارين ، لأن أحكامها الكريمة وآدابها الفاضلة تتعلق بالعبقيدة والشريعة والأخلاق وتتعلق بجميع آدابهم وأحوالهم .

ونهج النبى ﷺ معهم منهج القرآن ، يتدرج فى انتزاع الشر والباطل ، ويعمل على غرس الخير والحق ، ويفتيهم فى مسائلهم فى كل مكان حسبا اتفق فى الحل والترحال ، وكان « المسجد » هو المكان المتعارف الذى تعاهدوا على حضور المجالس العلمية فيه ، تلك المجالس التى يعقدها لهم رسولهم ﷺ تشرق بنور الله ، وتنبثق منها الروحانية الصافية ، فيتعلمون ويتفقهون ويعبدون فيها ربهم ويسبحون بالغدو والأصال . وكان الرسول ﷺ يتبع معهم أسنى الطرق فى التعليم : ويتوخى مخاطبتهم بلغاتهم ولهجاتهم وعلى قدر عقولهم متواضعا حليما ، ولم يجرم النساء من حقوقهن فى العلم وإنما خصص لهن وقتا يتلقين فيه العلم .

(١٢١) سورة العلق (١ - ٥) .

(١٢٢) سورة التوبة (١٢٢) .

(١٢٣) فتح البارى ج ١ ص ١٥٠ ، ١٥١ والسند عن أبى هريرة ج ١٢ ص ١٨٠ ورواه ابن ماجه

ج ١ ص ٤٩ وجمع الزوائد (١ : ١٢١) .

(١٢٤) الحديث سبق تخريجه ص ٢٧ .

وقد بلغ من حرصه ﷺ على تعليم المسلمين أنه كان يكرر القول ثلاثا حتى يفهم عنه ، وربما طرح المسألة على أصحابه (١٢٥) ليختبر افهامهم ، ويجذب انتباههم ، ويتحرى أن يكون التدريس والموعظة في الوقت الملائم والظروف المناسبة التي يتسنى لهم الحضور فيها ، وتكون عقولهم يقظة وواعية بعد صلاة الفجر وبعد العشاء ونحو ذلك .

تلقى الصحابة للحديث النبوي

حرص الرسول صلوات الله وسلامه عليه على تبليغ المسلمين سنته الشريفة وحبب إلى أصحابه رضوان الله عليهم حفظ الحديث وتبليغه ، فوضع منهج التلقى والتحديث ، وأرسى بينهم قاعدة الثبوت العلمي التي ساروا عليها ، واتخذوها منهجا في الرواية بعد ذلك وصار الصحابة في حرصهم على حضور مجالس الرسول ﷺ إلى جانب ما يقومون به من أمور المعاش . وإذا تعذر على بعضهم الحضور يتناوب مع غيره كما كان يفعل عمر رضي الله عنه ، قال : « كنت أنا وجارلي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهي من عوالم المدينة وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ ينزل يوما وأنزل يوما فإذا نزلت جئت به بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره وإذا نزل فعل مثل ذلك » (١٢٦) . ولم يكن يتسنى للجميع سماع الحديث من الرسول ﷺ لما كانوا يقومون به من أعمال فكانوا يطلبون ما يفوتهم سماعه من أقرانهم وكانوا يشددون على من يسمعون منه ، كما كانت القبائل البعيدة تبعث إلى النبي ﷺ من يتعلم أحكام الدين منه ثم يعود إليهم ليرشدهم ويعلمهم ، وهكذا عاش الصحابة مع رسولهم ﷺ يشاهدون تصرفاته في عباداته ومعاملاته وإذا عن لهم أمر من الأمور يحتاجون للبيان فيه رجعوا إليه يسألونه فيجيبهم ، ويفتيمهم . كما كان ﷺ يعلم النساء أمور الدين ويخصص وقتا يجلس لهن فيه وكانت أمهات المؤمنين على درجة سامية من العلم ، لذا وجد النساء عندهن الاجابة على أمورهن وأحوالهن التي يمنعهن الحياء من التصريح بها أمام الرسول عليه الصلاة والسلام كالأمور الخاصة بهن وإلى جانب هذه العوامل السابقة كانت هناك طرق كثيرة ساعدت على انتشار السنة وقوى نشاطها اجتهاد الرسول ﷺ في التبليغ وأثر أمهات المؤمنين الذي لا ينكر ، ومن ذلك بعونه صلوات الله وسلامه عليه إلى القبائل لتعليمهم وإرشادهم ، وكتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الاسلام ، كما كان لغزوة الفتح أثر كبير في نشر كثير من السنن حيث قام النبي ﷺ خطيبا بين ألوف المسلمين وغيرهم معلنا العفو عن أعدائه ومبينا كثيرا من الأحكام التي تناقلها الناس وحملوا توجيهه وإرشاده إلى أهلهم . وبعد أن استتب الأمر يم النبي ﷺ وجهه شطر المسجد الحرام حاجا ومعه ألوف من المسلمين ألقى فيهم خطبته الجامعة (١٢٧) التي تعتبر منهاجا

(١٢٦) فتح الباري جـ ١ ص ١٦٧ .

(١٢٧) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٣ ص ٣٣٣ ط الشعب .

عاما للدعوة الاسلامية تضمنت كثيرا من الاحكام والسنن وفيها بين الرسول ﷺ مناسك الحج ووضع من آثار الجاهلية ما أبطنه الاسلام ، فكانت من أعظم عوامل انتشار السنة ن كثير من القبائل والعشائر .

ومعلوم أن الصحابة رضى الله عنهم لم يكونوا في مستوى واحد من العلم بل كانت تتفاوت درجاتهم العلمية ما بين مكثرومقل ومتوسط تبعاً لظروف كل واحد منهم ، إذ كان من بينهم البدوى والحضرى ، والمنقطع للعبادة ، والمشتغل بأمر المعاش فكان أكثرهم علما أسبقهم اسلاما كالخلفاء الأربعة وعبد الله بن مسعود ، أو أكثرهم ملازمة لنبيه ﷺ كأبى هريرة ، أو أكثرهم كتابة كعبد الله بن عمرو بن العاص .

ولكن السمات العامة للمسلمين آنئذ تبرز لنا الدوافع القوية التى حفزتهم على تلقى السنة النبوية حتى أودعوها حوافظهم القوية وصدورهم الأمانة مما جعل السنة الشريفة محفوفة جنبا إلى جنب مع القرآن ، وتلك الدوافع هى اقتداؤهم بنبيهم واستعدادهم الفطرى واستجابتهم للقرآن والسنة .

السنة في عصر الصحابة والتابعين

انتقل الرسول صلوات الله وسلامه عليه الى الرفيق الأعلى ولم يترك وصية لمن يتولى الخلافة من بعده مكتفيا بتعاليمه الشريفة التي تضمن لهم سعادة الدنيا والآخرة ، وقد أكمل الله لهم الدين وأتم عليهم النعمة قال تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » (١٢٨) وقد تمثلت سعادتهم في الأصلين الكريمين : الكتاب والسنة فحرصوا على حفظهما وحراستها . ولا خوف على التراث النبوي في ظل الحياة المستقرة الآمنة مادام بعيدا عن أعداء الدعوة وأهل الأهواء ، أما حين تضطرب الحياة وتظهر العداوة والبغضاء والفتن والأهواء فحينئذ يخشى على التراث النبوي أن تمتد اليه أيدي من مردوا على البغي والعدوان .

وقد كان أول اهتزاز يخشى منه اضطراب الدولة الاسلامية ويشب بين المسلمين الخلاف من جرائه هو مسألة الخلافة بعد الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فقد اختلف المهاجرون والأنصار فيمن يكون خليفة ، واجتمعوا في السقيفة وبعد محاوره بينهم ومناقشة تداركهم الله بفضل منه ، فانحسم الأمر وتمت البيعة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وكان على الصديق أن يباشر مهام خلافته ، وكانت أولى مسؤولياته الضخمة التي واجهته تلك الحركة التمردية العنيفة التي تمثلت في المرتدين ومانعي الزكاة ، وهي حركة لوقوبلت بلين وهراة لهددت الدعوة وكانت خطرا جسيما على المسلمين لذا نشط الصديق في مقاومتها من أول يوم وتأهب للقتال وأعد عدته ، ونازلهم حتى أصابوا لحكم ربهم واستجابوا لأبي بكر رضوان الله تعالى عليه فدخلوا الاسلام وأدوا الزكاة فاننظم أمر الدعوة واستقرت الأمور وعادت الحياة آمنة ، وصفا الجور العلمي للصحابة فاستكمل صغارهم علومهم ومعارفهم كما أرادوا ، ونهل التابعون من علوم الصحابة التي حملتها إليهم صدورهم الأمانة وحوافظهم القوية وبعض صحائفهم العزيزة التي كانت تشكل روافد صافية الى منابع السنة الشريفة .

(١٢٨) سورة المائدة « ٣ » .

وهكذا سارت الحياة رخاء طيبة ، في عهد الخليفين أبي بكر وعمر رضى الله عنهما حتى كانت الخلافات التي بدأت تبرق شرارتها حين أخذ الناس على سيدنا عثمان رضى الله عنه بعض الأمور ، ومن ذلك الوقت تسربت الفتنة بين الناس وتولى كبرها عبد لله بن سبأ اليهودى ، حتى انتهت بمقتل الخليفة عثمان رضى الله عنه ، ومن هنا بدأت تتسعر نار الفتنة التي أطاحت بكثير من الصحابة .

ووسط هذا الجو الخائق تولى الامام على رضى الله عنه الخلافة فكان أول صدام واجهه على أثر مطالبة معاوية بدم عثمان - تلك المعارك التي أصابت سير الحياة بهزات عنيفة وفرقت المسلمين ، (وانتهت بمعركة صفين التي كان على أثرها تفرق أصحاب على إلى خوارج وشيعة) (١٢٩) .

أما الشيعة فهم الذين يرون أن الخلافة يجب أن تكون في بيت النبي وقد قرروا أنها حق لعلى بن أبي طالب ثم لأولاده بالوراثة من بعده .

وأما الخوارج فهم من أشياخ على بن أبي طالب الذين خرجوا عليه بعد التحكيم ثم صاروا حربا عليه وعلى جماعة المسلمين من بعده ، وقد قضى عليهم المهلب بن أبي صفرة في عهد الدولة الأموية . ووسط هذا الانقسام ، وبين تلك الثورات العارمة والمعارك الدامية لا بد أن يجد الأعداء وأصحاب الأهواء الطريق ممهدة لهم ، فاستغل اليهود والفرس وأعداء الدعوة تلك الفرصة السانحة ليكيدوا للإسلام وناهضوا ببغيهم وعدوانهم التراث النبوى ليدسوا ويضعوا ، فماذا ترى يفعل الصحابة ؟ !

منهج الصحابة في الرواية

لم يكن هناك مجال للخلاف في عهد النبي ﷺ ، ولا خوف على السنة الشريفة ، لأن الصحابة كانوا اذا ظهر بينهم خلاف في مسألة من المسائل يرجعون الى النبي ﷺ واذا عن لهم أمر يسألونه فيه . فلما انتقل الرسول ﷺ الى الرفيق الأعلى خيف العبث بالسنة ، خصوصا والحديث لم يدون بعد في كتاب ، والاسلام تتسع رقعته يوما بعد يوم ويدخل فيه الكثير وفيهم من لا يؤمن جانبهم على الدين من المنافقين ونحوهم ؛ لذا كان من الضروري أن يتثبت الصحابة في سنة نبهم الذى وضع لهم الاساس الأول في قاعدة التثبت فبنوا عليها منهجهم في الرواية وذلك بما بينه لهم عليه الصلاة والسلام من خطر الكذب عليه حين قال (من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار)^(١٣١) وقال « من حدث عنى بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين »^(١٣٢) وكان أول من وضع قوانين الرواية فيهم أبو بكر الصديق رضوان الله تعالى عليه وتبعه عمر بن الخطاب رضى الله عنه وسائر الصحابة ويتلخص منهجهم في أنهم أقلوا من رواية الحديث كراهية أن يشتغل الناس برواية الحديث وينصرفوا عن تلاوة القرآن ، وخشية الوقوع في الخطأ أو تسرب التحريف الى السنة ، والاقبال من الرواية كان سيرا سليما على ما رسمه لهم نبهم عليه الصلاة والسلام ، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال . قال رسول الله ﷺ « كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع »^(١٣٣) . كما سار الصحابة على طريق التثبت من الراوى والمروى فما

(١٣٠) تاريخ الاسلام : حسن ابراهيم جـ ٢ ص ١ ، ٣ .

(١٣١) رواه البخارى جـ ١ ص ١٧٩ فتح البارى بلفظ (من كذب على فليتبوأ مقعده من النار) ورواه مسلم جـ ١ ص ٥٥ ط الشعب عن أبي هريرة ، والترمذى جـ ٤ ص ١٤٢ - عن عبد الله وأخرجه الزهرى عن أنس بن مالك وقال الترمذى حديث حسن غريب ، صحيح من هذا الوجه من حديث الزهرى عن أنس بن مالك ، والدارمى جـ ١ ص ٦٦ عن جابر .

(١٣٢) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١ ص ٥١ عن سمرة بن جندب وعن المغيرة بن شعبة ط الشعب ، والترمذى جـ ٤ ص ١٤٣ عن المغيرة بن شعبة وقال حسن صحيح ورواه ابن ماجه جـ ١ ص ١٠ .

(١٣٣) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١ ص ٦٠ ط الشعب .

اطمأنوا اليه قبلوه، وما لم يتلمثنوا اليه طلبوا عليه شامدا ، وما لم تقم البيعة على صدقه رده، وكان تثبتهم قائما على ميزان النقد العلمي الصحيح . ومنع الصحابة الرواة من أن يحدثوا بما يعلو على فهم العامة . . لأن في هذا مدعاة الى تكذيبهم لمحدث فيما لا يفهمونه ومدعاة للخطأ والارتباب في الدين فامتنعوا عن ذلك خشية ان يستغل أصحاب الأهواء ظاهر النصوص لصالح بدعهم وأهوائهم .

عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن عبد الله بن مسعود قال : « ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة » (١٣٤) .

ومن أمثلة الثبوت عند الصحابة ما رواه البخارى عن أبي سعيد الخدرى قال : - « كنت في مجلس من مجالس الأنصار اذ جاء أبو موسى كأنه مذعور فقال : استأذنت على عمر ثلاثا فلم يؤذن لى فرجعت فقال : ما منعك ؟ فقلت : استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى فرجعت ، وقال رسول الله ﷺ : « اذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع » فقال : والله لتقيمن عليه بيعة ، أمنكم أحد سمعه من النبي ﷺ ؟ فقال أبو بن كعب : والله لا يقوم معك الا أصغر القوم فكنت أصغر القوم وقمت معه فأخبرت عمر أن النبي ﷺ قال ذلك فقال عمر لأبي موسى أما أنى لم اتهمك ولكن خشيت أن يتقول الناس على رسول الله ﷺ (١٣٥) .

وقد سار على سنة الثبوت التابعون ومن جاء بعدهم وعنوا بالاسانيد والنقد العلمي الدقيق . ولما كان الصحابة متفاوتين في العلم فلم يكن عند الجميع ما قاله الرسول ﷺ فقد بدأت الرحلات العلمية فقام الصحابة والتابعون بالرحلات الى كثير من البلاد حتى كان يتميز البعض بكثرة الرحلات والانتقال إلى أكثر من بلد ، وكانت الرحلة سبيلا الى طلب الحديث والثبوت منه .

كما كانت أيضا تدعيا لوحدة المسلمين وتعرفا على الجو العلمي في شتى الاقطار الاسلامية ، ومعرفة وإماما بطرق الحديث الكثيرة .

(١٣٤) صحيح مسلم شرح النووى ج ١ ص ٦٣ ط الشعب .

(١٣٥) فتح البارى ج ١١ ص ٢٢ ، شرح الزرقانى على الموطأ ج ٤ ص ١٨٨ ، الرسالة ص ٣٥ برقم ١١٩٨ مختصر .

تدوين السنة

قام أعداء الاسلام يعملون في ظلام الفرقة التي دبت بين المسلمين على أثر قتل الخليفة الثالث سيدنا عثمان رضى الله عنه - حين افترق المسلمون فرقا وأحزابا ما بين شيعة وخوارج وجمهور ، وساعدهم على ذلك اتساع البلاد ، فوجدوا المناخ ملائما لبث سمومهم ودس أكاذيبهم ، وبعد أن انقضى عهد الخلافة الراشدة وافترق المسلمون الى فرق ، ظهر أرياب الكذب والتفاق من الملل الأخرى يكذبون ويلفقون ويضعون الاحاديث ، فكان ظهور الوضع في الحديث أهم الأسباب التي حفزت هم العلماء لتدوينه وتصنيفه صيانة له من الايدى العابثة ، يقول الامام الزهري : « لولا أحاديث تأتينا من المشرق ننكرها لا نعرفها ما كتبت حديثا ولا أذنت في كتابه » (١٣٦) .

ولم يكن ذلك الوقت الذي ازداد فيه نشاط العلماء في الجمع والتدوين هو مبدأ زمن التدوين وإنما بدأت كتابة الحديث منذ عهد النبي ﷺ بصورة خاصة وغير رسمية فالسنة النبوية لم تبق مهملة طيلة القرن الأول الى عهد عمر بن عبد العزيز ، وإنما كانت تكتب كتابة فردية في عهد الرسول ﷺ والصحابة والتابعين ، وحفظت في الكراريس والصحف بجانب حفظها في الصدور ، حيث كانت توجد بعض الصحائف التي شاركت الصدور في حفظ السنة ومن بين هذه الصحائف صحيفة عبد الله بن عمرو بن العاص التي تسمى بالصادقة ، لأنه كتبها عن رسول الله ﷺ مباشرة ، يقول عبد الله بن عمرو بن العاص لمجاهد : « هذه الصادقة فيها ما سمعته من رسول الله ﷺ وليس بيني وبينه أحد » (١٣٧) .

وهي تشتمل على ألف حديث (١٣٨) وكان لسعد بن عباد الانصارى صحيفة ، ولسمرة بن جندب صحيفة ، والصحيفة التي دونت فيها حقوق المهاجرين والانصار واليهود وعرب المدينة .

وكان لجابر بن عبد الله الانصارى صحيفة ولأنس بن مالك صحيفة كان يبرزها اذ اجتمع الناس ولهمام بن منبه صحيفة تسمى الصحيفة الصحيحة رواها عن أبي هريرة

(١٣٦) تقييد العلم ص ١٠٨ .

(١٣٧) المحدث الفاضل ، وتقييد العلم ص ٨٤ .

(١٣٨) أسد الغابة ٣ / ٢٣٣ .

وكان ابن عباس معروفا يطلب العلم وبعد وفاة النبي ﷺ كان يسأل الصحابة ويكتب عنهم وكانت تلك الصحف والمجاميع تحتوي على العدد الأكبر من الأحاديث التي دونت في القرن الثالث .

يقول الاستاذ ابو الحسن الندوى في كتابه « رجال الفكر والدعوة » : « واذا اجتمعت هذه الصحف والمجاميع وما احتوت عليه من الأحاديث كونت العدد الأكبر من الاحاديث التي جمعت في الجوامع والمسائد والسنن في القرن الثالث وهكذا يتحقق أن المجموع الكبير الأكبر من الأحاديث سبق تدوينه وتسجيله من غير نظام وترتيب في عهد الرسول ﷺ وفي عصر الصحابة رضی الله عنهم وقد شاع في الناس حتى المثقفين والمؤلفين ان الحديث لم يكتب ولم يسجل الا في القرن الثالث الهجري وأحسنهم حالا من يرى أنه قد كتب ودون في القرن الثاني وما نشأ هذا الغلط الا عن طريقتين :

الأولى : أن عامة المؤرخين يقتصرون على ذكر مدون الحديث في القرن الثاني ولا يعنون بذكر هذه الصحف والمجاميع التي كتبت في القرن الأول لأن عامتها فقدت وضاعت مع أنها اندمجت وذابت في المؤلفات المتأخرة .

الثانية : أن المحدثين يذكرون عدد الأحاديث الضخم الهائل الذي لا يتصور أن يكون قد جاء في هذه المجاميع الصغيرة التي كتبت من القرن الأول « أ . هـ ، (١٣٩) .

ويقول العلامة مناظر أحسن الكيلاني متفقا مع الندوى في كتابه (تدوين الحديث) (وقد يتعجب الانسان من ضخامة عدد الاحاديث المروية فيقال أن أحمد بن حنبل كان يحفظ أكثر من سبعمائة ألف حديث ، وكذلك يقال عن أبي زرعة ، ويروى عن الامام البخارى أنه كان يحفظ مائتي ألف من الأحاديث الضعيفة ومائة ألف من الأحاديث الصحيحة ، ويروى عن مسلم أنه قال جمعت كتابي من ثلاثمائة ألف حديث ولا يعرف كثير من المتعلمين فضلا عن العامة ان الذي يكون هذا العدد الضخم هو كثرة المتابعات والشواهد التي عنى بها المحدثون فحديث إنما الاعمال بالنيات يروى من سبعمائة طريق فلو جردنا مجاميع الحديث من هذه المتابعات والشواهد لبقى عدد قليل (١٤٠) من الأحاديث ، وقد صرح الحاكم أبو عبد الله الذي يعتبر من المتسامحين المتوسعين أن الاحاديث التي في الدرجة الأولى لا تبلغ عشرة آلاف . . . « (١٤١) « أ . هـ .) .

(١٣٩) رجال الفكر والدعوة ص ٨٢ .

(١٤٠) أى بالنسبة الى ضخامة عدد الاحاديث المروية فالقلة نسبية .

(١٤١) القرآن والنبي للدكتور عبد الحليم عمود ص ٣٣٧ ، ص ٣٣٨ عن « تدوين الحديث » .

وأنا أرجح هذا الرأي وهو كتابة الحديث في القرن الأول ، لأن أهل القرن الأول هم حلقة الاتصال بالنسبة لمن بعدهم من اصحاب القرون التالية الذين انتقلت على أيديهم السنة ، وأهل العهد الأول وإن كانت الأحاديث المدونة عنهم يظن أنها قليلة إلا أنها صحيحة كلها لا يداخلها شك ، اذ لم يكن الكذب أو الوضع قد شاع فيهم كالذين جاءوا من بعدهم فهم عدول وهم خير القرون وما من شك فيما كانوا عليه في العهد الأول من المنزلة العالية في الحفظ والضبط ، وليس هذا غريباً على قوم انحدروا من أصلاب آباء كانوا قمماً عالية في الحفظ والانتقان ، ولكن مع هذا فقد كتب بعضهم الأحاديث فكان وصولها الى القرون التالية شفاهة وتحريراً وهذا أقوى وأوثق ، يقول ابن الصلاح « ولولا تدوينه - أى الحديث - في الكتب لدرس في الأعصر الآخر » (١٤٢) .

ومنذ سنة أربعين من الهجرة بعد وقوع الفتنة وحرب الامام على ومعاوية دبت الخلافات السياسية والمذهبية وظهر الوضع في السنة النبوية من الذين لا ثقة فيهم ولا صحة لهم حقيقية، إلا أن هذه الحركة قوبلت بقوة مؤمنة من علماء السنة الذين حصروا الرضاة وصابوا سنة نبهم عليه الصلاة والسلام سيرا على منهجه الكريم الذى وضعه لهم فى الحفاظ على السنة الشريفة ، قال عليه الصلاة والسلام : « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » (١٤٣) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « من قال على ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار » (١٤٤) .

وقد وردت بعض أحاديث تنهى عن الكتابة منها ما رواه أبو سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال « لا تكتبوا على ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه » (١٤٥) .

وعن أبى نصره قال : قيل لأبى سعيد لو اكتتبنا الحديث ؟ فقال لا نكتبكم ، خذوا عنا ، كما أخذنا عن نبينا ﷺ (١٤٦) .

(١٤٢) مقدمة ابن الصلاح ص ٧١ .

(١٤٣) الحديث سبق تحريجه ص .

(١٤٤) فتح البارى ج ١ ص ١٨٠ عن سلمة بن الاكوع بلفظ « من يقل . . . » واخرجه احمد ج ٢ ص ٥٠١ عن أبى هريرة (بلفظ من قال) بإسناد صحيح وابن ماجه ص ١٠ من طريق عماد بن عمرو وعن أبى سلمة ومسلم ج ١ ص ٥ والحاكم ج ١ ص ١٠٢ والشافعى فى الرسالة ص ٣٩٦ والدارمى ينحوه ج ١ ص ٦٧ .

(١٤٥) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٨ ص ١٢٩ وكتاب جامع بيان العلم وفضله ج ١ ص ٧٦ ورواه الدارمى ج ١ ص ٩٨ .

(١٤٦) - بيان العلم وفضله ج ١ ص ٧٦ .

وهذا النهى عن كتابة الحديث كان في بدء الدعوة خشية أن يختلط الحديث بالقرآن فيلتبس على بعض الناس ، أو أن النهى كان في حق من يوثق بحفظه وخيف اتكاله على الكتابة ولذا أذن بالكتابة لمن لا يوثق بحفظه كأبي شاه .

عن أبي هريرة رضى الله عنه : « أن خزاعة قتلوا رجلا من بنى ليث عام فتح مكة بقتيل منهم قتلوه فأخبر بذلك النبي ﷺ فركب راحلته فخطب فقال : « إن الله حبس عن مكة القتل أو الفيل » ، قال ابو عبد الله : كذا ، قال أبو نعيم وسلط عليهم رسول الله ﷺ والمؤمنون ألا وإنها لم تحل لأحد قبلى ولا تحل لأحد بعدى وإنها أحلت لى ساعة من نهار ألا وإنها ساعتى هذه حرام لا يختل شوكتها ولا يعضد شجرها ولا تلتقط ساقطتها الا لمنشد فمن قتل فهو بخير النظرين إما أن يعقل وإما أن يقاد أهل القتيل ، فجاء رجل من أهل اليمن - هو أبو شاه فقال : اكتب لى يا رسول الله : فقال : اكتبوا لأبى فلان » (١٤٧) .

أى الخطبة التى سمعها من رسول الله ﷺ أو أن النهى كان عاما وخص بالسماح له من كان كاتباً مجيداً لا يلتبس عليه الحال بين السنة والكتاب كعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، قال أبو هريرة رضى الله تعالى عنه : « ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه منى إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب » (١٤٨) .

كما كان للنهى عن الكتابة ثمرة عظيمة : هى اتساع المجال أمام القرآن الكريم حتى يأخذ مكانه فى الكتابة ويثبت فى صدور الحفاظ ، « أو أن النهى كان خاصاً بكتابة الحديث مع القرآن فى صحيفة واحدة والإذن فى تفريقهما » (١٤٩) .

أو أن النهى متقدم والإذن ناسخ له عند الأمن من الالتباس وهو أقرب الآراء ومن روى عنه كراهة الكتابة فى الصدر الأول (عمرو بن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى ، وابو سعيد الخدرى - ومن روى عنه إباحة ذلك أو فعله : على وابنه الحسن وأنس وعبد الله بن عمرو بن العاص) (١٥٠) .

(١٤٧) فتح البارى جـ ١ ص ١٨٣ ، مسند الامام احمد جـ ١٢ ص ٢٣٢ وجامع بيان العلم وفضله ج ١ ص ٨٤ .

(١٤٨) فتح البارى جـ ١ ص ١٨٤ ، وجامع بيان العلم جـ ١ ص ٨٤ ورواه الدارمى جـ ١ ص ١٠٣ .

(١٤٩) حاشية الدارمى جـ ١ ص ١٠٣ وتدريب الراوى ص ٢٨٧ .

(١٥٠) مقدمة بن الصلاح ص ٧١ .

(قال البلقيني : وفي المسألة مذهب ثالث وهو الكتابة والمحو بعد الحفظ) (١٥١)
وأرى أن النهي عن الكتابة كان عاما في بادئ الأمر ، وخص الرسول ﷺ بعض الصحابة
بالإذن في الكتابة لأسباب منها : أن البعض لا يوثق بحفظه كأبي شاه ، ومنها أن البعض
كان كاتباً مجيداً لا يلتبس عليه الحال كعبد الله بن عمرو بن العاص ، فإنه كان قارئاً
للكتب المتقدمة ويكتب بالسريانية والعربية (١٥٢) .

وظل النهي عن الكتابة قائماً حتى كثرت السنن وخيف عليها أن تضيع من البعض
فكان الإذن بالكتابة ناسخاً لما تقدم من النهي ، ولم يلحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى إلا
وكتابة الحديث مأذون فيها .

وقد هم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بكتابة الحديث واستشار أصحاب الرسول
ﷺ ، فأشاروا عليه ، فطفق يستخير الله في ذلك مدة ثم عدل عن ذلك ، روى البيهقي في
المدخل عن عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن ، فاستشار في ذلك
أصحاب الرسول ﷺ ، فأشاروا عليه أن يكتبها فطفق عمر يستخير الله فيها شهراً ، ثم
أصبح يوماً وقد عزم الله له وقال : إني كنت أردت أن أكتب السنن وإني ذكرت قوما كانوا
قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله ، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبداً
. (١٥٣)

وأستمر حال السنة على هذا حتى انتشر الإسلام ، واتسعت الفتوحات وتفرقت
الصحابة في الأقطار ومات الكثير منهم ، فدعت الحالة إلى تدوين الحديث النبوي ، وذلك
حين أفضت الخلافة إلى الامام العادل عمر بن عبد العزيز فأراد أن يجمع السنن ويدونها
مخافة أن يضيع منها شيء ، وكان ذلك على رأس المائة الأولى ، فكتب إلى بعض علماء
الامصار يأمرهم أن يجمعوا الأحاديث ، كما كتب إلى عماله في أمهات المدن الإسلامية ،
وهكذا أصدر الخليفة العادل أمره إلى أقطار الإسلام : « أنظروا حديث رسول الله ﷺ
فاجمعوه » (١٥٤) .

وكتب إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ١١٧ هـ . (اكتب إلى بما يثبت عندك
من الحديث عن رسول الله ﷺ ، وحديث عمرة فإني خشيت دروس العلم وذهابه) وفي

(١٥١) تدريب الراوي ص ٢٨٥ .

(١٥٢) تأويل مختلف الحديث ص ٣٦٦ .

(١٥٣) جامع بيان العلم وفضله ج ١ ص ٢٢ ، تدريب الراوي ص ٢٨٧ تقييد العلم ص ٥٠

(١٥٤) فتح الباري ج ١ ص ٢٠٤ .

رواية : (فاق خشيت دروس العلم وذهب العلماء ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺ وليفشوا العلم وليجلسوا حتى يعلم من لا يعلم فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرا) (١٥٥) .

كما أوصاه أن يكتب له بما عند القاسم بن محمد بن أبي بكر كما أمر ابن شهاب الزهري ١٢٤ هـ وغيره بجمع السنن فكتبوها مستجيبين لأمر الخليفة الذي حفزهم وصادف أمره في نفوسهم الاستجابة والقبول ، وهكذا أتم الله على يد عمر بن عبد العزيز تنفيذ رغبة جده عمر بن الخطاب التي عدل عنها خشية التباس السنة بالقرآن الكريم .

وكان تدوين الامام الزهري للسنة عبارة عن جمع الاحاديث التي تدور حول موضوع واحد في مؤلف خاص ، فكان لكل باب من أبواب العلم مؤلف قائم به ، فكتاب للصلاة مثلا ، وآخر للصوم ، وهكذا وكل مؤلف من هذه المؤلفات تدون في الاحاديث المتصلة بموضوعه ، ومختلطة بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين ، وقد أخلص الامام الزهري نيته وعمله لله وللرسول في تدوين السنة والتنبيه على العناية بأساليبها .

أما بعد الامام الزهري فقد تناول الأئمة رسالته ، وأخذوا يكملون ما بدأه فقد كان عمل الزهري بمثابة حجر الأساس لتدوين السنة في كتب خاصة ، ولكي يوضح الامام الزهري هذا العمل ويسلم أساس البناء للجيل الذي سيأتي بعده . كان يخرج لطلابه الأجزاء المكتوبة ليرووها عنه .

وفعلا فقد بدأ العمل بعده ، وتعاون الأئمة والعلماء في المدن الاسلامية : في مكة وفي المدينة وفي البصرة والكوفة والشام وخراسان واليمن وواسط والري ، واضطلع الأئمة من أمثال الامام بن جريج ١٥٠ هـ بمكة ، والامام مالك ١٧٩ هـ بالمدينة ، والامام سفيان الثوري ١٦١ هـ بالكوفة وغيرهم بالمهمة الجليلة الملقاة على عاتقهم ، فأكملوا ما بدأه الزهري ، الذي قام بالتدوين فجمع كل باب في مؤلف خاص كما سبق ، فجاء هؤلاء من بعده ، فجمعوا احاديث كل باب من أبواب العلم على حدة ثم ضموا الابواب بعضها الى بعض ، فكانت مصنفا واحدا ، وخلطوا الاحاديث بأقوال الصحابة والتابعين .

أما ما جاء بعد هؤلاء الأئمة - من أهل عصرهم فقد سار على دربهم ونسج على منوالهم الى أن رأى بعض الأئمة أفراد الحديث وخاصة على رأس اثنائين في أوائل القرن الثالث الهجري . . فألفت المسانيد ، ثم جاءت طبقة أخرى دونت السنة في كتب خاصة

(١٥٥) المرجع السابق .

تحروا في تدوينها الصحيح على شروطهم وأفردت الحديث عن غيره ، وجمعت على أبواب الفقه ، واختارت الرواة المشهورين بالثقة ، وبهذا يتضح أن تدوين السنة لم يأخذ وضعه في الظهور والتصنيف تماما الا في منتصف القرن الثاني في خلافة بني العباس ، وإن كان قد بدأ قبل ذلك .

وكان لتدوين السنة على هذه المراحل أثره الجليل في حفظها من الدخيل ، ومن الكذب على الرسول ﷺ ، كما كان لتدوين السنة على هذه المراحل أثره حيث سهل الطريق للاجتهد والاستنباط .

بعد هذا كله أرى أن السنة النبوية كانت تكتب في عهد الرسول ﷺ وأنه وإن وردت بعض الأخبار بالنهي عن كتابتها ، فإن إباحة الكتابة كانت جائزة للبعض ، وكانت آخر ما ترك الرسول ﷺ أصحابه عليه ، فلم يلحق بالرفيق الأعلى إلا وكتابة الحديث قائمة وقد حفظت في الصحف بجانب حفظها في الصدور ، ولم تبق مهملة طيلة القرن الأول الى عهد عمر بن عبد العزيز ، وأحاديث الإذن بالكتابة أكبر شاهد على ذلك . وهكذا كتبت الأحاديث ، وحفظ الكثير منها في الصدور من لدن صدورها من الرسول ﷺ الى ان تلتفتها الصدور الواعية ، والصحف الأمانة ، وتناقلتها جيلا بعد جيل الى أن تسلمها منهم أهل القرن الثالث .

الباب الأول

الحالة السياسية والفكرية

في القرن الثالث الهجرى

والكلام فيه يتناول فصلين :

الفصل الأول : ويشتمل على ثلاثة بحوث .

البحث الأول : الحالة السياسية وأثرها في تقدم العلوم .

البحث الثانى : النزاع بين المتكلمين والمحدثين .

البحث الثالث : أثر النزاع بين المعتزلة وأهل الحديث .

الفصل الثانى : ويشتمل على بحثين :

البحث الأول : الوضع في الحديث وأسبابه في القرن الثالث الهجرى .

البحث الثانى : مقاومة المحدثين للموضوعين .

البحث الأول

الحالة السياسية وأثرها في تقدم العلوم

شهد القرن الثالث الهجري عهدين من عهود الخلافة ، العهد الأول وهو مطلع هذا القرن كان يمثل عهد سلطان الخلفاء وقوتهم وحسن سياستهم لأمر الدولة وينحصر هذا العهد في الثلث الأخير من العصر العباسي الأول (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) هذا العصر الذي بدأ بأبي العباس السفاح الذي اجتهد في توطيد دعائم الدولة العباسية ، وسار على نهجه الخلفاء الذين جاءوا من بعده كالمصور والرشيد والمأمون والمعتمد وقد عمل الخلفاء في هذا العهد على تثبيت قواعد الدولة وحمايتها من الدخلاء والمؤثرين .

العهد الثاني :

عهد ضعف الخلفاء وتقلص نفوذهم . وبدأ هذا العهد بظهور الأتراك ، لأن المعتصم عندما تولى الخلافة وجد قوتين متصارعتين تحاول كل منهما السيطرة على الدولة ، وهما العرب من جانب والفرس من جانب آخر فأراد المعتصم أن يقيم قوة تسند سلطان الدولة ، فاستعان بالأتراك واستكثر منهم ، لأنه من أم تركية ، وقد بالغ في استعانه بهذا العنصر حتى وكل أمور الدولة اليهم وأبعد من سواهم فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار . فكانوا سبب انحلالها وضمحلها وتضاعف نفوذهم من بعده فقتلوا الخليفة المتوكل ومن بعد المتوكل أصبح الخلفاء العوية في أيدي الأتراك يولون من شاءوا ثم يخلعونه ويقتلونهم فساءت أمور الدولة وأصبحت لا تسير على منهج مستقيم ، فالتصم موزع بين الأتراك وغيرهم من رؤساء الجيش ، والحكومة سقطت هيبتها وضمحلت عظمتها وأصبحت حالة الدولة سيئة للغاية . الا بعض فترات يسيرة يبرز فيها خليفة حازم تعظم هيئته ويشيع الأمن والطمأنينة ويسكن غوارب الفتن ، ولكنه ما أن انتهى أمره الا وتعود الحياة أدراجها ويشيع الفساد . ويرجع بعض الباحثين ذلك الى أمور ثلاثة (أولا : الجفوة بين بني العباس والعرب . ثانيا : نظام الاقطاع الذي أسرف فيه بنو العباس إسرافا أدى الى تصدع العالم الاسلامي ، ثالثا : ضعف قيمة العهود)^(١)

(١) ابن قتيبة : عبد الحميد الجندى ص ٤٨ .

وهكذا ساء تصرف أمور الدولة مما أدى الى كثرة الفساد حتى تعرضت الدولة لثورات سياسية منها : ثورة الزنج التي ظهرت في بلاد البحرين سنة ٢٤٩ هـ (٢) ولئن كانت الدولة قد اعترها تقهقر سياسي وأصاب الخلفاء وهن شديد وتمزقت الدولة الى ممالك ودويلات فإن النهضة العلمية لم تتعثر خطاها ولم يتقهقر ركبها ، بل استمرت تشق طريقها نحو التقدم والرقى .

وكان عهد المأمون اسمى العهود العلمية في العصر العباسي ويرجع هذا لسببين :

أولا : ما شغف به المأمون من الاشتغال بالعلم ، ومجالسة العلماء عندما كان بمرور ، فأخذ عنهم الكثير من علوم الدين كالحديث والفقه ، ولذا كان محبا للعلم شغوقا بنشره .

ثانيا : أن الأمة إذ ذاك كانت تواقفة الى البحث والمعرفة وكثر علماءها وانتشروا في كل مصر من الامصار (٣) .

وكان القرن الثالث أزهى عصور الاسلام في شتى العلوم ، وما من علم إلا ونبغ فيه علماء أعلام في هذا القرن ، فنبع علماء في العلوم الدينية والعربية ، وفي التاريخ والجغرافيا ، والرياضة ، والطب ، وعلم النجوم ، كما نقلت الفلسفة اليونانية . وبالجملة فقد نضجت في هذا القرن معظم العلوم والمعارف ، ووصلت الحضارة الى أرقى أطوارها .

ولم يكن للضعف السياسي من أثر في تقدم العلوم ، بل إن العلماء شقوا الطريق الى الامام . وكانت هناك خصومات بين تلك الثقافات السابقة بعضها مع بعض وكان الخلاف بين المتكلمين وأهل الحديث قديما ، وأكثر أهل الكلام من الخوض في مسائل خالفوا فيها الجمهور أهل الحديث .

وظل الحال هكذا ، والخلاف يشتد بين الفريقين حتى عام ٢١٨ هـ ، حيث تطور بينهما الجفاء وكانت فتنة القول بخلق القرآن كما سيأتى بيانه وتولى المأمون كبرها مستغلا نفوذه في رد أهل الحديث إلى رأيه ، حتى لا يخذل أمام الرعية ، وجعل الدولة تجبر الناس على غير ما يعتقدون .

(٢) المراد : احمد حسين وعبد الحفيظ الرغنى ص ٩ « اعلام العرب » .

(٣) محاضرات في تاريخ الأمة الاسلامية ص ٢٠٦ الشيخ محمد الحضرتي .

وقد دافع المحدثون عن الحق ، وصبروا على السجن والتعذيب ، صامدين أمام التهديد ، حتى جاء عهد « المتوكل » سنة ٢٣٢ هـ فأزال المحنة ورفع من شأن المحدثين ، وانضمت السياسة الى جانب أهل السنة ، فكان لذلك أثره في تقدم العلوم الدينية ولا سيما السنة النبوية . وهكذا نرى أن الحالة السياسية لم يكن لها من أثر يذكر على الحياة العلمية .

بل إن العلوم ظلت سائرة في طريقها ، أما بالنسبة للحديث ورجاله ، فإن ما حدث بين رجاله وبين المتكلمين لم يكن ليعوق الحديث وعلومه ، بل إن الدولة في عهد المتوكل أيدت أهل الحديث ، وانتصرت للأئمة الكرام الذين صبروا وصابروا حتى جاء الحق وزهق الباطل نعم كانت هناك بعض الفترات التي منع فيها بعض الأئمة من التحديث ، ولكن كان لها رد فعل عظيم بعد ذلك في اقبال الناس على الحديث والانتصار له ، وإقامة أحكام الدين التابعة من القرآن الكريم والسنة النبوية كما سيأتى الحديث عن ذلك .

البحث الثاني

النزاع بين المتكلمين والمحدثين

يرجع النزاع بين المتكلمين والمحدثين الى ما قبل القرن الثالث الهجري منذ نشأة المعتزلة على يد واصل بن عطاء المتوفى سنة إحدى وثلاثين ومائة حينما اعتزل أستاذه الحسن البصرى وخالفه في بعض الأصول فسمى هو وأتباعه بالمعتزلة .

وكان للمتكلمين آراء خاصة في بعض مسائل الدين تختلف عما عليه الجمهور منها :

١ - أفعال العبادة^(٤) وقد ذهب المعتزلة الى أن أفعال العباد مخلوقة لهم لا لله ومن أجل ذلك يثابون عليها أو يعاقبون ، اما لجمهور فيرون انها من خلق الله سبحانه وليس للعباد منها الا جريانها على ايديهم باكتسابهم .

٢ - صفات الله تعالى : كما ذهب المعتزلة الى ان الله منزه عن ثبوت صفات قائمة بذاته كالقدرة والارادة . . . وأداهم الى ذلك الخشية من تعدد القدماء ، أما الجمهور فيرون أن هذه الصفات قديمة قائمة بالذات ليست عين الذات ولا غيرها ونشأ عن ذلك الخلاف حول القرآن الكريم أقديم هو لأنه صفة لله كما يرى الجمهور ؟

أم حادث لأنه ليس بصفة لله بل يخلق الله هذه الحروف والأصوات في جسم المحدث كما يرى المعتزلة ؟

وقد بلغ بالمتكلمين الأمر في تحكيم سلطان العقل في معظم أبحاثهم ووصلت بهم الجرأة الى رد بعض الأحاديث التي لا يرونها متفقة مع عقائدهم ولم يجدوا لها تأويلا ، الا أنهم لم يستطيعوا أن يعلنوا آراءهم وبطالعوها جماهير العامة ، لأنهم ليس معهم أحد من الخلفاء يؤيدهم وهم يخالفون جمهور المسلمين وقد ظلوا هكذا حتى كان القرن الثالث وتولى

(٤) محاضرات في تاريخ الأمم الاسلامية ، ص ٢٠٧ الشيخ محمد الحضري .

المأمون الخلافة ، وكان مولعا بالمنظرة تواقا الى حرية الفكر والبحث ، شغوفاً بالعلم والمعرفة ، كان هذا سبباً دعا المأمون أن يفسح المجال أمامهم ، حتى ظهروا بأرائهم^(٥) .

وسبب آخر دعا المأمون الى ذلك : وهو تأثير المعتزلة عليه ، كما سيأتى تفصيل ذلك ومناقشته ، وهكذا كان جو الحياة العلمية في عهد المأمون متمثلاً في خلاف عنيف بين أهل السنة والمتكلمين ، وبذل المأمون محاولات كثيرة أملاً في أن يجتمعوا على كلمة واحدة ، ويرأب صدع الخلاف القائم بين الفريقين ، فرأى أن يجمعهم في مجالس للمناظرة ، رجاء أن يتفقوا على رأى واحد يحمل الجميع عليه ويريح الأمة من عواقب هذا الخلاف الشديد . فعقد مجالس المناظرة ، وقد أسفرت المناقشات عن رأى المأمون في بعض المسائل ، وانحيازها الى المعتزلة في بعض الأمور التي من بينها القول بخلق القرآن ، وأعلن رأيه للفقهاء والعلماء منتظراً أن يستجيبوا له ، الا أنه كان لهذا الانحياز أثر كبير ، اذ رماه الناس بالابتداع ، وحكم البعض بكفر من قال بخلق القرآن ، فلما رأى أن طريقة المناظرة لم تجد في إقناع الناس ، استغل نفوذه في حمل الناس على رأيه .

وهنا أستطيع أن أقرر أن السبب في افساح « المأمون » المجال أمام الآراء الاعتزالية هو ولعه بالبحث والمناظرة وقد ترتب على ولع المأمون بالبحث والمناظرة أن كان الاعتزال أقرب المذاهب الى نفسه ، لأنه أكثر اعتماداً على العقل ، وأوسع حرية في الرأى ، والمأمون معروف بالعقل الفلسفى الذى ينزع الى حرية التفكير والرأى ، لذا قرب المعتزلة منه وأصبحوا ذوى نفوذ في القصر^(٦) فما لبث المعتزلة أن حركوا قلب المأمون ، وأثاروا عاطفته الى القول بخلق القرآن ، ونجحوا في ذلك أيما نجاح فقد أصبح المأمون مهتماً بهذه النظرية حتى أعلنها عقيدة رسمية^(٧) بعد ذلك :

وقد ظهرت فكرة القول بخلق القرآن على يد الجعد بن درهم في آخر عهد الدولة الأموية ، وقد قام بنشرها متأثراً بأفكار يهودية كان يذيعها طالوت اليهودى ، وأخذ عنه أبان ثم الجعد^(٨) وقد اعتنقها الجعد ويشها بين الناس ، ولما نفى الى الكوفة ، واستقر به المقام هناك ظل مصراً على ما هو عليه ، ولقن ما يعتقد له لجهم بن صفوان وأمره أن يقوم بنشره بين الناس وانتهت حياة الجعد على يد خالد بن عبد الله القسرى وإلى بغداد كما انتهت حياة

(٥) الحديث والمحدثون ص ٣١٧ .

(٦) عصر المأمون : الدكتور أحمد فريد الرفاعى ج ١ ص ٣٩٥ .

(٧) تاريخ الشعوب الاسلامية : كارل بروكمان ترجمة : نبيه أمين ومينير البعلبكي ص ٢٠١ .

(٨) احمد بن حنبل : احمد عبد الجواد الدومى ص ١١٠ .

جهم على يد سالم بن الخويز بمرور سنة ١٢٨ هـ ، ولكن الفكرة لم تمت بموتها ففى عهد هارون الرشيد ظهرت على لسان بشر المريسي فتوعده الرشيد ونامت الفتنة وتوارى بشر وورث المعتزلة هذا القول عن الجعد والجهم وظل الحال فى هدوء حتى جاء المأمون واستتب له الأمر بعد قتل الأمين فأفسح المجال أمام الآراء الاعتزالية للأسباب السابقة ، وفتح لها أبواب العلم ومنابع الفكر .

ولما كان المأمون محبا للمعتزلة ولوعا بأرائهم فقد تعصب كثيرا للمعتزلة ومال الى جانبهم بصورة كبيرة لدرجة أنه ألزم العلماء والفقهاء الأخذ بمذهبه ، وهذا ما يتناقى مع حرية التفكير والرأى التى عرف بها المأمون فى بدىء الأمر ، ولكنه التعصب الذى دعاه اليه ميله للمعتزلة وتسويغهم تلك الآراء إليه .

وليس من حرية التفكير فى شىء تلك النتائج السيئة التى انتهت إليها مأساة القول بخلق القرآن^(٩) وما كتبه المأمون الى ولاته فى الأخذ بمذهبه فى القول بخلق القرآن بوسائل الشدة والعنف ، وكان المأمون يتأثر برأيه من حوله من المعتزلة ولهذا وجدوا الطريق ممهدة للتأثير عليه ومن هؤلاء ابن ابى دؤاد الذى كان يجله المأمون ويصغى إليه ويقبل شفاعته فلما دس له القول بخلق القرآن وزينه له أصبح المأمون يعتقد حقا^(١٠) وأيضا فقد كان المأمون تلميذا لأبى الهذيل العلاف وهو من رؤوس المعتزلة ، وتلميذا ليحى بن المبارك الزيدى المهتم بالاعتزال كما كان محبا لثمامة بن الأشرس والمعتزلة وغيرهم فحبب هؤلاء الى المأمون مذهبهم وكان لهم أثرهم فى تنمية النزعة الاعتزالية عنده ، هذا بالإضافة الى حركة النقل والترجمة التى حييت الى المأمون الفلسفة والمنطق^(١١) وكل ذلك هيا لدى المأمون جوارحبا لنصرة الآراء الاعتزالية واتساع الجوانب لتأييد مأساة القول بخلق القرآن التى وجدت من المأمون الصدر الرحب ، وهكذا تحقق للمعتزلة الحلم الذى كان يراودهم ليتمكنوا من نشر مذهبهم وتعميم أصولهم حتى رأوا فى المأمون تحقيق ما كانوا يتمنونه فقرت عيونهم بتحقيق أملهم ، ومن هنا أخذت فكرة القول بخلق القرآن أكبر مجالاتها ظهورا وذيوعا رغم كراهية العامة لها ورفضهم الكلام فيها .

وقبل بيان ما قام به المأمون تجاه هذه المسألة وما تبع ذلك من محنة قاسية للمحدثين وخاصة الامام احمد بن حنبل لابد من بيان وجهة نظر المعتزلة فى المسألة وتوضيح رأى السلف فيها حتى يتضح الأمر :

(٩) عصر المأمون ج ١ ص ٣٩٥ .

(١٠) طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي ج ٢ ص ٣٧ بتحقيق عبد الفتاح الحلو .

(١١) عصر المأمون ج ١ ص ٣٧٥ .

يرى المعتزلة تنزيه الله تعالى عن صفات قائمة بذاته خشية تعدد القدماء في نظرهم كما سبق وأيضاً رأوا أن القرآن الكريم اذا كان كلاماً أزلياً وصفة من صفات الله تعالى يترتب على ذلك بعض الاستحالات منها أنه لا قيمة للأمر ما لم يصادف مأموراً فلا يصح أن تصدر (أقيموا الصلاة) الا اذا كان هناك مأمورون بالصلاة ، ولم يكن في الأزل مأمورون مخاطبون بذلك ، واستدلوا بقوله تعالى (إنا انزلناه) وقوله (كتاب انزلناه) ولا شك أنه لا انزال في الأزل الى آخر ما ساقوه من أدلة عقلية ونقلية حكموا بها على استحالة أن يكون القرآن قديماً ، وأوجبوا أنه مخلوق فكلام الله عندهم عبارة عن أصوات وحروف يخلقها الله في غيره وتصل الى النبي عن طريق ملك أو نحوه^(١٢) كما قال تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم)^(١٣) .

أما السلف فيرون الوقوف عند النص ولا يسمحون لأنفسهم بالتأويل لأن معرفة ذات الله وصفاته عندهم فوق العقل البشري فالعقل أضعف من ذلك ، ويرى بعض الحنابلة أن القرآن بحروفه وأصواته قديم فكان الخلاف حول القرآن من حيث حروفه وألفاظه فالمعتزلة يقولون بحدوثها وبعض الحنابلة يقولون بقدمها ، ويقول السلف لا نتكلم في هذا . وظل النزاع هكذا أيام المأمون والمعتصم والواثق حتى جاء أبو الحسن الأشعري المتوفى سنة ٣٣٠ هـ فقال : ان كلام الله يطلق بإطلاقين أحدهما المعنى النفسى القائم بذاته وهو الأزلى القديم وهو المراد بوصفنا كلام الله بالقدم والآخر بمعنى المقروء المكتوب وهذا حادث مخلوق كما يقول المعتزلة . وأرى أن المعتزلة قد أنكروا الكلام النفسى فحكموا بأن القرآن مخلوق لأنه عندهم ليس الا ما يقرأ أو يسمع أما أهل السنة فحكموا بأن لله كلاماً نفسياً قائماً بصفة أزلية في الذات الإلهية وهو قديم وكان رأى الامام أحمد واضحاً كل الوضوح فهو لا يعترف بالخلق بل يرى أن كلام الله غير مخلوق وهو الكلام الإلهى الأزلى .

(١٢) ضحى الاسلام ج ٢ ص ٤٠ .

(١٣) سورة الشورى ٥١ .

الحصنة

سبقت الاشارة الى أن المأمون بذل عدة محاولات لجمع العلماء على كلمة واحدة ورأى واحد يحمل الجميع عليه حتى لا يستمر الخلاف ولكن هذه المحاولات لم تكن ذات جدوى إذ أن المأمون وهو صاحب فكرة جمع العلماء وتوحيد الصف انحاز الى فريق المعتزلة بصورة واضحة وأعلن ذلك مما جعل الناس يرمونه بالابتداع فلجأ الى وسيلة القهر على الخصوم يريد أن يحمل الناس على رأيه بقوة السلطان ، ومهد الطريق أمام حملته بكتب شرح فيها نظريته بوضوح ، في سنة ثمان عشرة ومائتين كتب المأمون الى نائبه اسحاق بن ابراهيم الخزازي ببغداد في امتحان العلماء كتابا يقول فيه (وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة ممن لا نظر لهم ولا رؤية ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه أهل جهالة بالله وعمى عنه وضلالة عن حقيقة دينه وقصور أن يقدروا الله حق قدره ويعرفوه حق معرفته ويفرقوا بينه وبين خلقه ، وذلك أنهم ساووا بين الله وبين خلقه وبين ما أنزل من القرآن فأطبقوا على أنه قديم لم يخلقه الله ومحدثه ويخترعه وقد قال تعالى (إنا جعلناه قرآنا عربيا)^(١٤) فكل ما جعله الله فقد خلقه كما قال تعالى : (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور)^(١٥) وقال تعالى : (كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق)^(١٦) فأخبره أنه قصص لأمر أحدثها بعدها وقال تعالى : (آلر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير)^(١٧) والله محكم كتابه ومفصله فهو خالقه ومبتدعه ، ثم انتسبوا الى أهل السنة وأنهم أهل الحق والجماعة وأن من سواهم أهل الباطل والكفر فاستطالوا بذلك وأغروا به الجهال حتى مال قوم من أهل السمات الكاذب والتخضع لغير الله الى موافقتهم فنزعوا الحق الى باطلهم واتخذوا دين الله وليجة الى ضلالهم . . . الى أن قال : فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة المنقوصون من التوحيد حظا أوعية الجهالة وأعلام الكذب . الى أن ختم الكتاب بقوله . . فاجمع من بحضرتك من القضاة - فاقرأ عليهم كتابنا وامتحانهم فيما يقولون

(١٤) سورة الزخرف آية (٣) .

(١٥) سورة الأنعام آية (١) .

(١٦) سورة طه آية (١) .

(١٧) سورة هود آية (١)

واكتشفهم عما يعتقدون في خلق الله تعالى واحداً وأعلمهم أن غير مستعين في عمل ولا واثق بمن لا يوثق بدينه فإذا أقروا بذلك ووافقوا فمرهم بنص من حضرته من الشهود ومسألته عن علمهم في القرآن وترك شهادة من لم يقر أنه مخلوق واكتب لنا بما يأتيك عن قضاة أهل عملك في مسألتهم والأمر لهم بمثل ذلك^(١٨) . ويلاحظ على هذا الكتاب شدة الخصومة وقسوة اللهجة مع دقة التعبير ويرى بعض الباحثين أن الكتاب أُملي على المأمون املاء ولم يكن له نصيب فيه الا التوقيع ويرجح أنه من أسلوب^(١٩) ابن أبي ذؤاد . وأرى أنه لا مانع أن يكون الكتاب من املاء المأمون أو بإشرافه خصوصا بعد أن عرف موقفه السابق من أهل الحديث وتعصبه الشديد للمعتزلة وتشعبه بأرائهم والزامه الناس السير على مبادئهم وقد واجه علماء الامصار كتاب المأمون بشيء من الانكار والاستغراب خاصة أهل بغداد وعلى رأسهم الامام احمد بن حنبل الذي كان يعلن رأيه على تلامذته في المسجد وبين الأصدقاء والعشيرة حتى نفي الى علم المأمون وهو يتجهز لغزو البيزنطيين في آسيا الصغرى - أن الرأي العام في بغداد لا يقر فكرة القول بخلق القرآن ويتزعم المعارضة الامام احمد بن حنبل ، لذا كتب المأمون كتابا ثانيا الى عامله ببغداد بانفاذ سبعة أشخاص وهم محمد بن سعد كاتب الواقدي ويحيى بن معين وزهير بن حرب أبو خيثمة وأبو مسلم مستلمي يزيد بن هارون واسماعيل بن داود واسماعيل بن أبي مسعود واحمد ابن ابراهيم الدورقي .

فأشخصوا اليه فامتحنهم بخلق القرآن فأجابوا جميعا أن القرآن مخلوق فأعادهم الى بغداد فأحضرهم اسحاق بن ابراهيم داره وشهر قولهم بحضرة المشايخ من أهل الحديث فأقروا بذلك فخلى سبيلهم ، وسبب طلبهم أنهم توقفوا أولا ، ثم أجابوه تقيّة^(٢٠) .

وكان الامام أحمد من بين هؤلاء الا أن ابن أبي ذؤاد رفع اسمه من قائمتهم حتى لا تظهر جرأته فيتشجع بها سواه .

والذي يظهر أن هؤلاء العلماء قد أجابوا بخلق القرآن تحت الضغط والاكراه لما رأوا من مظاهر الشدة والشر لدى المأمون وبدل على ذلك ما قال يحيى بن معين وغيره : (أجبنا خوفا من السيف)^(٢١) ولما انتهز المأمون موافقتهم وجمع فقهاء بغداد وعلماءها وأسمعهم

(١٨) الكامل لابن الاثير ج ٥ ص ٢٢٢ ، عصر المأمون ج ٣ ص ٥ ، طبقات الشافعية الكبرى ج ٢ ص ٣٨ ، ص ٣٩ .

(١٩) أحمد بن حنبل - عبد الجواد الدومي ص ١٢٩ .

(٢٠) الكامل لابن الاثير ج ٥ ص ٢٢٢ ، طبقات الشافعية الكبرى ج ٢ ص ٣٩ .

(٢١) طبقات الشافعية الكبرى ج ٢ ص ٣٩ .

ما قالوا كان ذلك سببا في اضطراب الرأي العام مما جعل الامام أحمد يكاد يتميز من الغيظ وجهر بمخالفته للسلطان فبعث المأمون كتابا ثالثا الى اسحاق ابن ابراهيم عامله على بغداد يؤكد فيه اصراره على حمل الناس على رأيه ، ولما وصل الكتاب إلى بغداد جمع عددا من العلماء فيهم الامام أحمد وكانت اجاباتهم متفاوتة بتفاوت ايمانهم وفهمهم وقوة شجاعتهم أما الامام أحمد فكان رأيه صريحا وجريئا فحين قال له اسحاق : ما تقول في القرآن؟؟ قال هو كلام الله ، قال اسحاق أمخلوق هو قال كلام الله لا أزيد عليها ، ثم امتحن الباقيين وأرسل بالاجابة الى المأمون فهاج وماج وثارته حفيظته وكتب الكتاب الرابع يحمل الزجر والتقريع والوعيد والتوبيخ لمن يمتنع عن الاجابة بخلق القرآن ، ولكن الامام أحمد ظل على شجاعته لا يخشى في الله لومة لائم وسار على نهجه بعض العلماء وهم سجادة والقواريري ومحمد بن نوح ثم عاودهم ثالثا فأجاب القواريري ووجه بأحمد بن حنبل ومحمد بن نوح الى طرسوس حيث لم يجد حيلة في اقناع الامام أحمد عن طريق الحججة فاتخذ أسلوب الضغط والارهاب ، وحينئذ حمله مقيدا الى المأمون وكن المأمون مات في طرسوس وابن حنبل في الطريق - ورغم موت المأمون فلم تمت الفتنة ولم تخمد جذوة المحنة فقد أوصى قبل موته أخاه المعتصم الذي خلفه بأن يسير سيرته في القول بخلق القرآن وظل ابن حنبل سجيناً ينتظر مصيره فاستدعاه المعتصم بعد توليته اخلافة وجادله ولكنه أصر بحزم على موقفه وحين قال له المعتصم : ما تقول في القرآن؟؟ قال هو كلام الله ، أمخلوق هو؟؟ فيجيب : هو كلام الله ، فلما يشوا منه ولم يجدوا جدوى في ذلك ضربوه بالسياط ونخسوه بالسيوف حتى أغمى عليه ومكث في السجن عامين ونصف عام . وسار المعتصم على مبادئ المأمون القاسية حتى قتل خلقا من العلماء وأهان كثيرا من أهل الحديث ، واستمرت المحنة حتى مات المعتصم سنة ٢٢٧ هـ وتولى ابنه الواثق فسار على منهج سابقه غير أنه لم يؤذ ابن حنبل وإنما كان يبعده عن الناس ويبعد الناس عنه ولما مات الواثق وولى المتوكل سنة ٢٣٢ هـ أنهى الله على يديه هذه الفتنة فعاد ابن حنبل الى التدريس مكرما بعد أربع عشرة سنة عاشها مضطهدا محاربا في فكره وعقيدته من هؤلاء الذين لم يرعوا في الحق حرمة ولا ذمة وآذوا ذلك الامام الجليل الذي حمل مشاعل الحق والنور وكرس عمره لخدمة السنة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وقد استقبل عامة الناس رفع المحنة بالدعاء للمتوكل والثناء عليه حتى قيل : (الخلفاء ثلاثة : أبو بكر الصديق في قتل أهل الردة وعمر ابن عبد العزيز في رد المظالم والمتوكل في إحياء السنة وإماتة التجهم) (٢٢).

(٢٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣٤٦ ط الفجالة ، البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢٣٢ .

البحث الثالث

أثر النزاع بين المعتزلة وأهل الحديث

قام نزاع بين المتكلمين وأهل الحديث من جراء اختلافهم في كثير من الآراء والمعتقدات كما سبق توضيحه ، وقد أطلق المعتزلة ألسنتهم على أهل الحديث ورموهم بالنقص والكذب ورواية المتناقضات ، وكان أهل الحديث مثبتيين في رواية السنة ، سائرين على منهج الثبوت بالحیطة فيقفون عند ظواهر النصوص ولم يدخلوا على العامة من التأويلات ما يفتنون به وما لا تدركه أفهامهم وقاموا بنقد الرواة والوقوف على أحوالهم وتمييز الأحاديث الصحيحة من غيرها أمثال الامام أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وعلى بن المديني واسحاق بن راهويه وغيرهم . غير أن هناك من انتسب الى أهل الحديث وليس منهم ، أمثال القصاص الذين بثوا الغرائب التي كانت سببا في فتح أبواب الطعن في الاسلام . ووجد الى جوارهم بعض الجهلة الذين كانوا يفتنون بما هو منكرف في الشرع وقد ضاق اعلام المحدثين بهؤلاء الأعداء الذين كانوا سببا في رمي أهل الحديث بالمشالب والطعون التي وجهت اليهم بسبب هؤلاء الأعداء المتكسبين بالحديث .

وإذا نظرنا الى أهل الكلام نجدهم قد تطرفوا في تأويل النصوص وارتفعوا بسطان العقل صونا لأرائهم التي يعتقونها والتي حكموها في الدين وقاموا بتطبيق فهمهم لها على الكتاب والسنة ففتحوا باب التأويل والطعن في الأخبار . يقول ابن قتيبة : (ولو كان اختلافهم في الفروع والسنن لاتسع لهم العذر عندنا ، وان كان لا عذر لهم مع ما يدعون لأنفسهم كما اتسع لأهل الفقه ووقعت لهم الأسوة بهم ولكن اختلافهم في التوحيد وفي صفات الله تعالى وفي قدرته وفي نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار وعذاب البرزخ وفي اللوح وفي غير ذلك من الأمور التي لا يعلمها نبي إلا بوحي من الله تعالى) (٢٣) وقد انتهز المعتزلة مكانتهم من الخلفاء وتوليهم الوزارة والقضاء فنالوا من أهل الحديث وجمهور الأمة حتى وصل الأمر ببعضهم الى سفك الدماء البريئة ، ولم يكن لأهل الحديث من ذنب اللهم الا وجود أعداء الرواية والقصاص والجهلة بينهم .

(٢٣) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ١٧ .

وقد اندفع المعتزلة باعتمادهم الآراء الفلسفية الى رد الأحاديث الصحيحة والطعن في الصحابة الى أن جاء المأمون وحاول توحيد الصف كما سبق بيانه ولكن أخطأه التوفيق وغشيه التعصب الأعمى الذي انحاز بسببه الى المعتزلة . فانتسعت هوة الخلاف بين الفريقين فلم يجد المأمون بدا أمامه من أن يستعمل الشدة والارهاب .

والذي آخذه على المعتزلة أنهم أخذوا المنحى بذنب المبطل ولم يفرقوا بين الجهلة والعلماء فحاربوا الأمة ورواة الحديث مما دفع جمهور المسلمين أن يقابلوهم بما ينبغي بعد أن زالت المحنة ، وقد سار المحدثون على منهج السلف الصالح حيث أمسكوا عن الخوض في تلك الامور التي تضر بالعقيدة ، وإذا نظرنا الى شهور الخلاف بين الفريقين ليرى أن مسألة خلق القرآن واضحة بالنسبة للالفاظ القرآنية ونوعها الطولية وليست قديمة ولم يغف على الأمة الحديث أمثال الامام احمد بن حنبل هذه الحقيقة ولكنهم أمسكوا عن الخوض فيها ليحافظوا على عقيدة العامة الذين لا يستطيعون التمييز بين الكلام كصفة قديمة لله وبينه كالفاظ مقروءة مكتوبة فآثروا الامساك عن الكلام في المسألة خشية أن يعتقد لعامة خلاف الحقيقة فيلتبس عليهم الأمر بين الحادث والقديم وعلى هذا كان موقف المحدثين موقف الحريص على قدسية القرآن فسلكوا منهج سلفهم الصالح .

ومن خلال ما سبق أستطيع أن أبرز أثر هذا الخلاف على الحديث وهذا ما يهمننا في هذا البحث فقد تعرضت فيما سبق الى هذه المشكلة ووضحت وجهة نظر كل واحد من الفريقين ورجحت الحقيقة بما وفقني الله وألمني من فهم أرجو أن يكون صوابا فالفريقان كان حسن النية بينهما متوفرا وكلاهما كان يتبغى خدمة الاسلام ولكن جانب التوفيق فريق المعتزلة وذهبوا في تعصبهم ونزاعهم طرائق قدا فلابد من هذا الحكم عليهم بالخروج عن حظيرة الاسلام ، ولكن هذا لا يعفيهم بشهادة التاريخ ان نسجل عليهم ما ألقوه في محيط الحديث النبوي من تعكير وعقبات كان أهمها :

١ - تجريح الرواة ورد رواية من لم يقل بخلق القرآن وحكمهم بفسق الشهود والقضاة الذين لم يقولوا بذلك ، وان كان المحدثون قد حكموا بفسق من يقول بخلق القرآن الا أن هذا كان منهم سدا للذرائع^(٢٤) وكادت شظايا هذه الفتنة تصيب الامام البخارى فانه لما قدم نيسابور وسأله عن اللفظ (فقال القرآن كلام الله غير مخلوق وأعمالنا مخلوقة) فلما سمع بذلك الامام الذهلي قال (القرآن كلام الله غير مخلوق ومن زعم (لنظي

(٢٤) الحديث والمحدثون ص ٣٢ .

بالقرآن مخلوق) فهو مبتدع لا يجلس الينا ولا نكلم من يذهب بعد هذا الى محمد بن اسماعيل ، فانقطع الناس عن البخارى الامسلم بن الحجاج وأحمد بن سلمة (هـ (٢٥) .

٢ - كان لهذه المعركة أثرها فى وضع الحديث حيث انتهز الزنادقة الفرصة فوضعوا الاحاديث على رسول الله ﷺ ورووا عن أبى الزبير أن رسول الله ﷺ قال : « من قال القرآن مخلوق فقد كفر) وغير ذلك .

٣ - وكان من نتائج ذلك أيضا ما عاد على أهل الحديث مما فعله أصحاب الاهواء فقد طعنوا فى الصحابة ورموا المحدثين بالجهل والفقوا فى ذلك كتبا تلقفها المستشرقون بعد ذلك فى عصور الضعف العلمى والسياسى للمسلمين ودسوا عليهم كثيرا من المشالب وصوروا الاسلام فى غير صورته الكريمة ، ومن عجب أن ينخدع بيريقهم بعد ذلك بعض الباحثين ممن نسج على منوالهم .

٤ - كانت المحنة سببا فى أفول نجم المعتزلة وسقوط دولتهم وظهور رجال الحديث وارتفاع لوائهم حتى تبوعوا مكائتهم اللائقة واقاموا السنة ونفذوا حدود الله ، فكانوا اذا قابلوا سكيرا ضربوه وذا وجدوا مغنية منعوها وكسروا مزاميرها واذا صادفوا خمر اراقوه وهكذا حتى سادت السنة فى العالم الاسلامى فترة كبيرة من الزمن (٢٦) .

(٢٥) شروط الائمة الخمسة للحازمى ص ١٠ بتعليق الشيخ محمد زاهد الكوثرى .

(٢٦) أحمد بن حنبل : احمد عبد الجواد الدومى ص ٢١١ .

الفصل الثانى

ويشتمل على بحثين :

البحث الأول : الوضع فى الحديث

البحث الثانى : مقاومة المحدثين للوضاعين

البحث الأول : الوضع في الحديث

لم يشع الكذب في عهد الرسول ﷺ ولا عهد الخلفاء الراشدين من بعده وما كان بينهم من خلاف فقهي فلا يتعدى اختلاف وجهة النظر في أمور الدين ، أخرج البيهقي أن أنسا حدث بحديث فقال له رجل : (أسمعت هذا من رسول الله ﷺ قال نعم ، أو حدثني من لم يكذب والله ما كنا نكذب ولا كنا ندرى ما الكذب)^(١) .

وكان الكذب في عهد كبار التابعين أقل منه في عهد صغارهم لوجود الصحابة وكبار التابعين ، ولما كانوا عليه من الورع والتدين ، ولأن الخلاف السياسي كان في أول عهدهم بسيطاً كل ذلك كان سبباً في تضيق بواعث الوضع والحد من الكذب .

ولما كان الشيعة : هم أول من تجرأ على ذلك فيمكننا الحكم بأن أول بيئة نشأ الوضع فيها هي العراق وكان الامام مالك رضى الله عنه يسمى العراق دار الضرب أى تضرب فيها الأحاديث كما تضرب الدراهم ، ويقول : نزلوا أحاديث أهل العراق منزلة أهل الكتاب لا تصدقوهم ولا تكذبوهم . وقال له عبد الرحمن بن مهدي يا أبا عبد الله سمعنا في بلدكم - المدينة - أربعمائة حديث في أربعين يوماً ونحن بالعراق نسمع هذا كله في يوم واحد ، فقال له يا عبد الرحمن من أين لنا دار الضرب التي عندهم ؟ تضربون بالليل وتنفقون بالنهار . وقال ابن شهاب : يخرج الحديث من عندنا شبراً فيعود في العراق ذراعاً وذلك لبعدهم عن الحجاز ولوجود اخلاط المسلمين من مختلف الأمم وظهور المذاهب المختلفة في العراق من معتزلة ومرجئة وأصناف من المتكلمين وكل صنف من هؤلاء يؤيد رأيه بتأويل آيات القرآن واختلاف الحديث .

(١) مفتاح الجنة ص ٢٥ .

أسباب الوضع في الحديث

(١)

التعصب السياسى

كان للاحداث السياسية أثرها في انقسام المسلمين شيعا واحزابا وسبب هذا الانقسام قيام المذاهب الدينية التي حاول اصحابها تأييد موقفهم بالقرآن والسنة فتأول بعضهم القرآن على غير وجهه السليم وحملوا السنة ما لا تتحملة ، وقد عجزوا عن الوضع في القرآن لأنه ثبت بالتواتر المفيد لليقين والقطع ولتوفر المسلمين على حفظه وتلاوته ، فوجهوا عنايتهم الى الوضع في الحديث لتأييد ما يدعون فخلطوا الصحيح بغيره ، ووضعوا أحاديث في فضائل ائمتهم ورؤساء احزابهم ، وبهذا الوضع انغمست الفرق السياسية في حماة الكذب والوضع . وكانت الرافضة أكثر الفرق كذبا . يقول ابن تيمية : « وكذب الرافضة مما يضرب به المثل) وسئل مالك عن الرافضة فقال لا تكلمهم ولا تروعنهم فانهم يكذبون^(٢) وقال حماد بن مسلم حدثني شيخ لهم قال (كنا اذا اجتمعنا فاستحسننا شيئا جعلناه حديثا)^(٣) وقد اسرف الرافضة في وضع الاحاديث في فضائل على وآل بيته بجرأة بالغة وذلك (لأن أكثرهم من الفرس الذين تستروا بالتشيع لينقضوا عرى الاسلام ، وأما الشيعة فقد كثر الوضع منهم وصنعوا بعض الأخبار التي تنال من أبي بكر الصديق وعمر زاعمين أنها أساء إلى على . ومن الأخبار التي وضعوها (وصي وموضع سرى وخليفتي في أهل وخير من أخلف بعدى على)^(٤) وحينما وجد أهل الاحزاب الأخرى أن ما وضعه الشيعة ينقص من أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية هب بعض الوضعيين من احزابهم بوضع ما يقابل هذا من احاديث ترفع من شأنهم . من ذلك (ما في الجنة شجرة الا مكتوب على كل ورقة منها لا إله الا الله محمد رسول الله ، أبو بكر الصديق وعمر الفاروق وعثمان

(٢) منهاج السنة ج ١ ص ١٣ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) اللآلئ المصنوعة ج ١ ص ١٨٥ .

ذو النورين) (٥) كما وضع المتعصبون لمعاوية والأمويين اخبارا كثيرة منها قولهم (الأمناء عند الله ثلاثة أنا وجبريل ومعاوية) (٦) كما فعل الذين أيدوا العباسيين فانسبوا الى النبي قوله (العباسي وصي ووارثي) ولما رأى بعض الذين حسنت نياتهم من طعن وتجريح في حق الصحابة دفعهم حبهم للصحابة أن يضعوا أحاديث في فضلهم ليبينوا بها أنهم جميعا خيار ولا فرق بينهم وظنوا أنهم بهذا العمل يقدمون خيرا وفاتهم أنهم قد ارتكبوا منكرا بكذبهم على الرسول ﷺ وكان الشيعة منهم المعتادون الذين يرون أفضلية على وأولويته بالخلافة وهم مسلمون مخلصون ومنهم الغلاة الذين تظاهروا بالمحبة لآل البيت وهم بعيدون عن الاسلام وكان هدفهم ان يدخلوا ما معهم من مبادئ اليهودية والنصرانية والزرادشتية في الاسلام ليشوهوا معلمه وعقيدته ، وكان من هؤلاء طائفة تعتقد أن جبريل اخطأ في النزول بالرسالة على محمد وهي لعلى ، وطائفة تقول بألوهية على وهم اصحاب عبد الله بن سبا ، وقد أعلن على براءته منهم ، وأطلق المؤرخون على هؤلاء اسم (غلاة الشيعة) ولكن لما كانت آراؤهم الهدامة لا مجال لها في النفوس البسوها ثيابا مصطنعة وتقنعوا بالدين ، فلجأ أهل الزيغ منهم تأييدا لآرائهم الزائفة الى الوضع في السنة فأساءوا الى الحديث النبوي وإلى الاسلام عامة .

وأما الخوارج وهم الذين خرجوا على الامام على رضى الله عنه بعد قبوله التحكيم فكانوا أقل الفرق في الكذب لأن من مبادئهم أن يرتكب الكبيرة كافر والكذب كبيرة ولاسيما على رسول الله ﷺ فلم يستحلوا الكذب ، الا أن بعض الرؤساء منهم وقعوا في الكذب على الرسول ﷺ فقد روى عن شيخ لهم أنه قال : (ان هذه الاحاديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم فانا كنا اذا هويتنا أمرا صيرناه حديثا) (٧) وقد قال بعض الباحثين أن نسبة هذا القول إلى شيخ خارجي خطأ .

وأنا أرجح عدم نسبة الوضع الى الخوارج ، لما هو معروف عنهم من الصراحة والشجاعة وعدم الميل الى التقية ، ولو كانوا يستحلون كذبا لاستحلوا على بعض الامراء الطفافة كزياد والحجاج . يقول ابن تيمية : (ليسوا بمن يتعمدون الكذب بل هم معروفون بالصدق حتى يقال أن حديثهم من أصح الحديث) (٨)

(٥) المرجع السابق ص ١٦٥ .

(٦) تنزيه الشريعة ج ٢ ص ٤ .

(٧) اللالء المصنوعة ج ١ ص ٢٣٦ .

(٨) منهاج السنة ج ٣ ص ٣١ .

التعصب العنصرى

قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس من أهل خراسان وكانت هذه البلاد موضع التشيع لهذا البيت ولما كان الفرس يفهمون ان الملك ينال بالوراثة بآراء الشيعة فعدوا بنى أمية غاصبين لحقوق هذا البيت ينبغي قتالهم وتخليص الحق الى صاحبه الشرعى ، ومن المعلوم ان الفرس أمة ذات حضارة وتاريخ وكان لها نفوذها فلما وقعوا في يد العرب تحركت في نفوسهم نزعة العظمة الأولى وعندما قام العباسيون بطلب الخلافة كان الفرس على استعداد تام أملا في الحصول على نفوذهم القديم فتفانى أبو مسلم خراسانى وغيره في مناصرة بنى العباس ومحاربة بنى أمية ، ولما تم الامر للعباسيين لم ينحازوا للعرب ضد الفرس ، لأن الفرس هم الذين نصرهم من قبل ولأن بعض الخلفاء العباسيين كانوا من أمهات فارسيات ، وإنما انحازوا للدين فحاربوا الزنادقة وشهروا بهم ، وهنا ظهرت على السن بعض العامة فكرة تفضيل العجم على العرب وهى التى تعرف بالشعوبية ، وهذه الفكرة بلغت اشدها فى القرن الثالث وساعدها ان الخلفاء العباسيين لم يتعصبوا للعربية فانتهز الشعوبيون الفرصة فى محاربة العرب ووضعوا احاديث فى فضل الفرس وبلداتهم وعلمائهم والحط من قيمة العرب ومن ذلك ما وضعوه فى فضل أبى حنيفة النعمان لأنه من أصل فارسى وذم الشافعى لأنه عربى ومن ذلك :

(يكون فى أمتى رجل يقال له محمد بن ادريس أضر على أمتى من ابليس ويكون فى أمتى رجل يقال له ابو حنيفة هو سراج أمتى)^(٩) وضعه مأمون بن أحمد الهروى من أهل القرن الثالث وقابلهم بعض الجهلة من العرب بالمثل من ذلك قولهم : « ان الله اذا غضب أنزل الوحي بالفارسية واذا رضى أنزل الوحي بالعربية » ، كما وضعت احاديث فى فضائل بعض البلدان والقبائل^(١٠) . (ومن ذلك ما رووه فى فضل محمد بن كرام السبحستانى العابد المشهور بالتنجيم ووضع الحديث المتوفى سنة ٢٥٥ وقد ارتحل من خراسان الى الشام وأقام بها) « يجيء فى آخر الزمان رجل يقال له محمد بن كرام يجيى السنة والجماعة هجرته من خراسان الى بيت المقدس كهجرتى من مكة الى المدينة »^(١١) وقد بلغ بهم التعصب مبلغا كبيرا أدى بهم الى الالحاد فى الدين ، والتحلل من احكامه ، وأما احاديثهم الموضوعه فلم تكن بخافية على العلماء ، وائمة الحديث الذين تتبعوها وكشفوا زيفها وميزوا بين الصحيح وغيره .

(٩) اللالىء المصنوعة جـ ١ ص ٢٣٧ .

(١٠) السنة ومكانتها فى التشريع ص ١٠٠

(١١) الحديث والمحدثون ص ٣٣٥ .

(٣)

الزندقة

تطلق الزندقة في العصر العباسي على أتباع دين المجوس مع التظاهر بالاسلام ، وقد دعاهم الى ذلك دينهم الذي الفوه قديما ، وما توارثه الخلف منهم عن السلف من عادات وتقاليد ، ولما رأوا أنهم لا يستطيعون الوصول الى المنصب والجاه الا عن طريق الاسلام تظاهروا به ولم يدخل الايمان في قلوبهم ، تم اتسع اطلاق الزندقة ، فصارت تطلق على الملحدن الذين لا دين لهم ، فقد شك هؤلاء في الأديان ، وحكموا العقل فيما لا مجال فيه ونبذوا الأديان جملة .

واطلقت الزندقة أيضا على الاباحيين الذين يتبجحون بالقول فيما يمس الدين لا عن نظر ، وانما عن خلاعة ومجون ، وهؤلاء كان همهم في الحياة شهواتهم .
وقد ساعد على انتشار الزندقة في القرن الثالث خاصة أمور :

أولا : ما أثارته مذاهب الكلام من كثرة الجدل في أمور الدين الأصلية ، وانتشار بحوث الفلسفة التي كثر تناول العلماء والخلفاء لها .

ثانيا : وبما ساعد أيضا على انتشار الزندقة مكيدة الفرس للاسلام والمسلمين ، ومحاولتهم إفساد العقيدة ونشر مفاهيمهم المجوسية وخاصة مذهب (ماني) ، وكان ذلك بعد انتقال الخلافة من الأمويين الى العباسيين ، وكان الفرس يطمعون في ان تكون الحكومة فارسية ، فلما لم يحصلوا على ما يطمعون فيه رأوا أنهم لا يمكن أن يصلوا الى ما أرادوا والاسلام في قوته وسلطانه ، فعملوا على اضعافه بنفשו الزندقة .

ثالثا : وساعد على انتشار الزندقة في هذا القرن قيام الموالي من الفرس بالسلطة الحكومية وإبعاد العرب ، وهذا بدوره ، مكن للفرس أن يظهروا مذاهبهم القديمة ، فقد انتعش الموالي منهم في العصر العباسي . وكانت لهم ديانات سابقة ، ولم يجروا - في الحكم الاموي - ان يتكلموا بشيء من ذلك ، وما كان يهمهم الا الحصول على الحرية السياسية ، ربما أن اضماً ، الحياة وتحقق ما يتمنونه الا وأخبات دياناتهم القديمة والجديدة في الظهور ،

فوجدت الزنادقة حينئذ المناخ الملائم وكان الطريق الذي سلكوه لانتشار الزنادقة هو الكذب على رسول الله ﷺ لاثارة الشبه التي تشوه سماحة الاسلام وجماله رغبة منهم في تنفير الناس منه ، والتحلل من احكامه ، حتى تضعف قوة المسلمين ، فيتمكن هؤلاء من فرض سلطانهم ، فبثوا مذاهب المانوية والمجوسية وكثيرا من المذاهب الخبيثة التي تنطوى على اتجاهات ضالة مضلة . وكان منهم من تظاهر بالصلاح والورع ، وأضمر الحقد على المسلمين ، فهم إذا قوم من اعداء الاسلام تظاهروا به وانتحلوا نحلا وآراء لا تتفق وأصوله العامة وقواعده المقررة ، وكل هدفهم إنما هو استدراج العامة الى الخروج من الاسلام واضعاف شوكة المسلمين فهم يكرهون الاسلام كدين ودولة لأنه الذي أنهى عهودهم عهود الزعامات والعروش المتسلطة ، وفي الجوا الاسلامي نعم المسلمين وأمنوا على كرامتهم وتحرير عقولهم واحترام عقيدتهم فأقبلوا عليه وعز جانبه وقويت شوكته ولم يعد للزعماء ولا للامراء أمل في سلطانهم الزائل ، فلم يجد الزنادقة بدا للثأر من هذا الدين الا تشويه عقيدته وتفرق اتباعه ، فبدأوا بنشر تعاليم المجوسية والمانوية وكثير من المذاهب الضالة كما سبق ، وتقنعوا بأثواب نحل مختلفة يستهدفون من وراء ذلك أن يستدرجوا الناس ويحتذبوهم من دينهم وبهذا تنهار قوة المسلمين . كما شقوا طريق الوضع في الحديث النبوي الذي يمثل المصدر الثاني لهذا الدين وتستروا باسم التشيع احيانا وباسم الزهد والتصوف احيانا أخرى ووضعوا الحديث في العقائد والاخلاق والحلال والحرام .

ومما وضعوه تضليلا للمسلمين وتنفيرا من عقيدتهم : « قيل : يا رسول الله مم ربنا ؟ قال : من ماء عرور ، لا من أرض ولا سماء ، خلق خيلا فأجراها فعرقت فخلق نفسه من ذلك العرق » (١٢) .

وانه لضلال ما بعده من ضلال وخبث ما بعده خبث وغباء لا يتصوره أدنى عقل ولا يقره أى بشر .

وروى العقيلي بسنده إلى حماد بن زيد قال وضعت الزنادقة على رسول الله ﷺ أربعة عشر ألف حديث منهم عبد الكريم بن أبي العوجاء الذي قتل وصلب في زمن المهدي قال ابن عدى لما أخذ ليضرب عنقه قال : وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أجرم فيها الحلال واحلل الحرام (١٣) . وقد تعقب الخلفاء العباسيون هؤلاء الزنادقة فشتوهم وقتلوهم

(١٢) اللاليء المصنوعة ج ١ ص ٢ للسيوطي .

(١٣) تدريب الراوي ص ١٨٦ .

وفوموا تلك الحركة الخبيثة الضالة كما لم يخف على رجال الحديث فسادهم فشمروا الجهابذة والنقاد عن ساعد الجد فبينوا أمرها وتبعوا هؤلاء الكذابين الوضاعين ، وقد تنبه الخلفاء العباسيون الى ما وراء حركة الزندقة من خطر على الكيان السياسى للاسلام فناهضوهم قتلا وتشريدا حتى طهروا ساحة الدعوة من شرهم ، فأبو جعفر المنصور عاقبهم وأمر بعض الباحثين من رجال الكلام بالرد عليهم وتوضيح الحقيقة لمن خالطه الشك وأوصى ابنه موسى الهادى بإبادتهم وقد أنفذ الهادى الوصية وفى عهد هارون الرشيد والمأمون ومن بعدهم طورد هؤلاء الزنادقة وحوربوا وفى عهد المعتصم كانت محاكمة قائد جيوشه المسمى (بالأفشين) حين اتهم بالزندقة فحبس ومنع الطعام والشراب حتى مات وهكذا كانت يقظة الأمة الاسلامية فى حرصها على حراسة هذا الدين ومصادره وحمايته من كل دخيل أو عدو .

(٤)

القصاصون

ذاع القصص في القرن الثالث وكان من بين القائمين به فريق من الزنادقة ومنهم المرتزة وادعياء العلم الذين كثروا في هذا العهد لدرجة أن الخلفاء كانوا يخشون على الناس منهم فيصدرون أوامرهم بمنعهم من الجلوس في المساجد والطرقات ومن بيع كتب الفلسفة ، ففي سنة ٢٧٩ هـ . وهي السنة التي برع فيها المعتصم الخليفة العباسي بالخلافة أصدر أمره بمنع الوراقين من بيع كتب الفلاسفة وما شاكلها ، ومنع القصاص والمنجمين من القعود في الطريق^(١٤) وكان هؤلاء القصاص لا يهتمهم الا التفاف الناس حولهم فيشرون مشاعرهم وعواطفهم ويستدرون ما عندهم فوضعوا الاحاديث رغبة منهم في استمالة قلوب العامة اليهم ، ورغبة في التكبس والارتزاق . وذكر ابن قتيبة شأن القصاص فقال : (اهم كانوا يميلون وجه العوام اليهم ويستدرون ما عندهم بالمناكير والغريب والاكاذيب من الاحاديث ، ومن شأن العوام القعود عند القاص ما كان حديثه عجيبا خارجا عن فطر العقول أو كان رقيقا يحزن القلوب ويستغزر العيون فاذا ذكر الجنة قال فيها الحوراء من مسك أو زعفران وعجيزتها ميل في ميل وبيوىء الله تعالى وليه قصرا من لؤلؤة بيضاء فيه سبعون ألف مقصورة في كل مقصورة سبعون الف قبة . . فلا يزال هكذا في سبعين الف كذا وسبعين الفا كأنه يرى أنه لا يجوز أن يكون العدد فوق السبعين ولا دونها)^(١٥) .

وحكى أبو حاتم البستي انه دخل مسجدا فقام بعد الصلاة شاب فقال حدثنا أبو خليفة أبو الوليد عن شعبة عن قتادة عن انس وذكر حديثا ، قال ابو حاتم : فلما فرغ دعوته قلت : رأيت أبا خليفة ؟ قال لا . قلت : كيف تروى عنه ولم تره فقال إن المناقشة معنا من قلة المروءة أنا احفظ هذا الاسناد فكلها سمعت شيئا ضممته الى هذا الاسناد^(١٦) وروى

(١٤) تاريخ الخلفاء لسيوطي ص ٢٤٦ .

(١٥) تأويل مختلف احديث لابن قتيبة ص ٣٥٦ .

(١٦) الباعث الحثيث لابن كثير ص ٨٠ .

ابن الجوزى باسناده الى ابى جعفر بن محمد الطيالسى قال : صلى احمد بن حنبل ويحيى بن معين فى مسجد الرصافة ، فقام بين ايديهم قاص ، فقال : حدثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين قالا حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن انس قال : قال رسول الله ﷺ من قال لا اله الا الله خلق الله من كل كلمة طيرا منقاره من ذهب ، وريشه من مرجان . وأخذ فى قصة نحو من عشرين ورقة . فجعل احمد بن حنبل ينظر الى يحيى بن معين ، وجعل يحيى ابن معين ينظر الى أحمد ، فقال له : حدثه بهذا ؟ فيقول والله ما سمعت هذا الا الساعة . فلما فرغ من قصصه وأخذ العطيات ثم قصد ينتظر بقيتها قال له يحيى بن معين بيده : تعال ، ف جاء متوهما لنوال ، فقال له يحيى : من حدثك بهذا الحديث ؟ فقال أحمد بن حنبل ويحيى ابن معين . فقالا : أنا يحيى بن معين وهذا أحمد بن حنبل ، ما سمعنا بهذا قط فى حديث رسول الله ﷺ فقال : لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحق ما تحققت هذا الا الساعة . كأن ليس فيها يحيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركما . وقد كتبت عن سبعة عشر ، أحمد بن حنبل ويحيى بن معين . . فوضع أحمد كفه على وجهه وقال : دعه يقوم ، فقام كالمستهزىء بهما^(١٧) « أه » .

وأكثر هؤلاء القصاص من الجهال الذين تشبهوا بأهل العلم واندسوا بين صفوفهم فأفسدوا كثيرا من عقول العامة بما كانوا يثبونه بين الناس حين يقومون بمهمة الوعظ وليس يهمهم الا أن يستدروا المال وبكاء العيون وإعجاب الناس بهم فى سبيل ذلك يضعون الأكاذيب على رسول الله ﷺ ولا يخافون الله ومن عجيب أمرهم أنهم رغم كذبهم الفاضح وجهلهم الواضح وجدوا آذان العوام مصغية وقلوبهم متقبلة .

(١٧) الب ن الحديث لابن كثير ص ٨٥ .

(٥)

الخلافاة الفقهية والكلامية

اتجه أتباع المذاهب الفقهية - والكلامية إلى تأييد مذاهبهم بأحاديث مكذوبة وضعوها تأييدا لهم ومن ذلك ما روى أنه قيل لمحمد بن عكاشة الكرماني أن قوما يرفعون ايديهم في الركوع وفي الرفع منه فقال حدثنا المسيب بن واضح عن انس مرفوعا « من رفع يديه في الركوع فلا صلاة له »^(١٨) وحديث (كل ما في السموات والأرض وما بينهم فهو مخلوق غير الله والقرآن وذلك انه كلامه منه بدأ واليه يعود وسيجيء أقوام من أمتي يقولون القرآن مخلوق فمن قاله منهم فقد كفر بالله العظيم وطلقت امرأته من ساعته لأنه لا ينبغي لمؤمنة أن تكون تحت كافر الا أن تكون قد سبقته بالقول)^(١٩).

ويظهر في هذا القول ركافة اللفظ كما يكشف اتجاه مرماه عن الوضع في وضوح .

(١٨) تدريب الراوى ص ١٨١ ، والباعث الحديث .

(١٩) اللآلء المصنوعة ج ١ ص ٣ .

الجهل بالدين مع الرغبة في الخير

قام بعض الجهلة بالدين الذين كانوا على جانب من الصلاح والزهد بوضع احاديث في الترهيب والترغيب حينها ساءهم وجود بعض الناس المتكالبين على الدنيا والذين تركوا آخرتهم فوضعوا بعض الاحاديث التي ترغبهم في الآخرة وتخوفهم من عذاب الله ومن هؤلاء غلام خليل وهو أحمد بن محمد بن غالب الباهلي كان معروفاً بالزهد وتوفي في رجب سنة ٢٧٥ هـ (٢٠). قال له أبو عبد الله النهاوندي : ما هذه الرقائق التي تحدث بها قال : وضعناها لترقق بها قلوب العامة ، وهؤلاء هم أشد الوضاعين ضرراً وأفدح خطراً لأن أحاديثهم المختلفة كانت تجد قبولا عند بعض الناس لما كانوا عليه من الزهد والصلاح ولهذا قال يحيى القطان : ما رأيت الكذب في أحد أكثر منه فيمن ينسب الى الخير ، كما رأى البعض منهم انشغال الناس بالفقه فخاف أن يعرضوا عن القرآن فوضع أحاديث في فضائل سور القرآن ، وقد قيل لأبي عصمة نوح بن أبي مريم من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة وليس عند أصحاب عكرمة هذا ؟ فقال إنى رأيت الناس قد اعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقهاء أبي حنيفة ومغازى ابن اسحاق فوضعت هذا الحديث حسبة ، وروى ابن حبان في الضعفاء عن ابن مهدى قال قلت لميسرة بن عبد ربه من أين جئت بهذه الأحاديث من قرأ كذا فله كذا ؟ قال : وضعتها أرغب الناس فيها (٢١) ، وكان هؤلاء الوضاعون اذا قيل لهم في ذلك قالوا : نحن ما كذبنا عليه أى على الرسول وانما كذبنا له - وهذا من تمام جهلهم الفاضح وفجورهم وافتراءهم فانه عليه السلام لا يحتاج في كمال شريعته الى غيره (٢٢).

(٢٠) ميزان الاعتدال ج ١ ص ٦٧ .

(٢١) تدريب الراوى ص ١٨٤ .

(٢٢) الباء الحثيث ص ٧٩ .

البحث الثاني

مقاومة الوضع

قيض الله سبحانه لسنة نبيه ﷺ رجالات آمناء صدقوا في إخلاصهم لله ولرسوله ونصبوا أنفسهم للذب عن السنة الشريفة فأفوا أعمارهم في التمييز بين الصحيح والباطل صيانة للسنة النبوية وحفاظا على الاسلام من الدس والتحريف وفي سبيل تنقيح السنة وتنقيتها من الوضع بذل علماء الأمة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم جهودا مخلصا فوضعوا قواعد الجرح والتعديل ، وكان من ثمره أعمالهم (علم مصطلح الحديث) وهو يشمل على أدق الطرق العلمية للتحقيق والتوثيق وأقومها في التمهيص والنقد وكانت القواعد التي اتبعوها في جهودهم تتسم بالآتي :

١ - التزام اسناد الحديث : ظل الصحابة والتابعون بعد انتقال الرسول ﷺ الى الرفيق الأعلى منعمين في جوم من الصدق ، آمنين على تراث نبيهم ، حيث كانت صدورهم الأمانة تفيض بالثقة والاخلاص وقلوبهم الواعية تنبض بالايمان والصدق فكان البعض يسند الحديث مرة ولا يسنده أخرى الى أن حدثت الفتنة وظهرت الاحزاب والفرق واخذ الكذب على رسول الله ﷺ يزداد شيئا فشيئا ، فانبرى الصحابة والتابعون يحصون الأحاديث سندا ومتنا ويشددون في معرفة الرواة والطرق ويلتزمون الاسناد دائما ، وكان ابتداء مرحلة التحري والتزام الاسناد منذ عهد صغار الصحابة الذين تأخرت وفاتهم عن زمن الفتنة^(٢٣) . فمنذ ذلك الحين وهم يتشددون في التزام الاسناد دائما ، عن ابن سيرين قال : (لم يكونوا يسألون عن الاسناد فلما وقعت الفتنة قالوا : سموا لنا رجالكم فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم)^(٢٤) . وكانوا يتسارعون الى أخذ احديث وسماعه فلما وقعت الفتنة وركب الناس انصعب والذلول لم يأخذوا من الاحاديث إلا ما يعرفون والتزموا الثبوت والاسناد .

(٢٣) السنة ومكانتها في التشريع ص ١٠٧ .

(٢٤) مقدمة صحيح مسلم بشرح النووي ج ١ ص ٧١ .

٢ - الثبت من الاحاديث : كان من فضل الله تعالى وعنايته بالسنة النبوية ان بارك في أعمار عدد من الصحابة والفقهاء يرجع الناس اليهم ، ويلجأون لهم حين يقع الكذب ليستوثقوا من الاحاديث وقد كثرت الرحلات العلمية لبعض الصحابة والتابعين واتباعهم ومن بعدهم من علماء الحديث من أجل الثبوت ، يقول سعيد بن المسيب : (ان كنت لأسير الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد) (٢٥) .

وفي سبيل الثبوت كانوا يتذكرون الاحاديث فيما بينهم لمعرفة ما يأخذون منها ، وترك ما ينكرونه ، كما كانوا على جانب كبير من الوعي والحيلة بحيث يحفظون الاحاديث الصحيحة والضعيفة والموضوعة خشية أن تختلط عليهم وحتى يستطيعوا التمييز بين الصحيح وغيره بدقة فائقة وحيلة بالغة ، وروى أبو بكر بن الاثرم : أن أحمد بن حنبل رأى يحيى بن معين بصنعاء في زاوية وهو يكتب صحيفة معمر عن أبان عن أنس فاذا طلع عليه انسان كتبه ، فقال له احمد بن حنبل تكتب صحيفة معمر عن أبان عن انس وتعلم أنها موضوعة : فلو قال لك قائل : إنك تتكلم في أبان ثم تكتب حديثه على الوجه ؟ فقال : رحمك الله يا أبا عبد الله أكتب هذه الصحيفة عن عبد الرزاق عن معمر على الوجه فأحفظها كلها وأعلم أنها موضوعة حتى لا يحيىء بعده انسان فيجعل بدل أبان ثابتا ، ويروها عن معمر عن انس بن مالك ، فأقول له كذب انما هي عن معمر عن أبان لا عن ثابت (٢٦) .

ومن أجل الثبوت كذلك ناهض العلماء الكذابين ومنعهم من التحديث واشتدوا عليهم ، لدرجة أنهم كانوا يضربونهم أحيانا ويهددونهم بالقتل أحيانا أخرى . عن حمزة الزيات قال : سمع مرة الهمداني من الحارث الاعور شيئا فقال له : اقعد بالباب ، قال : فدخل مرة وأخذ سيفه ، قال وأحس الحارث بالشر فذهب (٢٧) .

٣ - نقد الرواة ودراسة حياتهم وتاريخهم وبيان أحوالهم من صدق أو كذب وقد وصلوا عن طريق هذه الدراسة الى تمييز الصحيح من المكذوب وكانت لديهم قواعد اتبعوها وساروا عليها في الأخذ من الرواة أو عدم الأخذ منهم فحصرها المتروكين الذين يكذبون على الرسول ﷺ والذين يكذبون في أحاديثهم العامة وإن لم يكذبوا على النبي ﷺ وأصحاب البدع والأهواء والزنادقة ، والذين لا يفهمون ما يحدثون ، ومن لا تتوافر فيهم صفات الضبط والعدالة والفهم .

(٢٥) جامع بيان العلم ص ٩٤ .

(٢٦) الجمع لأخلاق الراوى ص ١٠٧ .

(٢٧) ص ٩٩ شرح النووي ج ١ ص ٩٩ .

وقد عين أئمة النقاد أياما ليتكلموا في الرجال ، وكانوا يسألون عن الرواة لمعرفة أحوالهم والتمكن من صدقهم أو كذبهم فكانوا ينقدونهم نقدا دقيقا : عن يحيى بن سعيد قال سألت سفيان الثوري وشعبة ومالكا وابن عيينة عن الرجل لا يكون ثبوتا في الحديث ، فيأتيني الرجل فيسألني عنه قالوا : أخبر عنه أنه ليس بثبت^(٢٨) . وكانوا في حكمهم لا يخافون في الحق لومة لائم ، ولا تأخذهم عاطفة حتى ولو كان أخاه ، يقول زيد بن أبي أنيسة : « لا تأخذوا عن أخى »^(٢٩) ولم يجاب أحد من أهل الحديث أباه ولا أخاه وهذا على ابن المديني المتوفى سنة ٢٣٤ هـ . وهو إمام الحديث في عصره لا يروى عنه حرف في تقوية أبيه بل يروى عنه ضد ذلك^(٣٠) .

وهكذا أخلصوا عملهم لله وخدموا الشريعة السمحة بدفع ما يشوبها وتخليص الغث من الثمين وبهذا تكوّن علم الجرح والتعديل الذي وضع قواعده كبار الصحابة والتابعين وأتباعهم .

وكان الضعفاء في القرن الثاني أكثر منهم في القرن الأول وقد تناول الحديث في العدالة والتجريح كثير من الأئمة وبينوا من تقبل روايته ومن لا تقبل روايته وتكامل علم الجرح والتعديل من العهد النبوي الى عهد التدوين ، وألفت المصنفات الكبيرة في الرواة وألفت كتب خاصة بالضعفاء فصار من السهل التمييز بين المحق والمبطل على أساس من القواعد الدقيقة حتى اكتمل هذا العلم من القرن الثالث الهجري على أيدي الأئمة الاعلام الذين أخذوا على عاتقهم حفظ السنة الشريفة ، والدود عن حياضها ، فألفوا الكتب الكثيرة في الجرح والتعديل .

٤ - وضع قواعد عامة لتقسيم الحديث وتمييز الصحيح من غيره :

لم يكتف العلماء في التزام الاسناد ، والثبت من الاحاديث بالرحلة ومراجعة الاحاديث ودراسة الاسانيد والطرق وإنما ضموا مع هذا تقسيم الحديث الى درجات : صحيح وحسن وضعيف وذلك لمعرفة القوى من الضعيف وما يقبل وما يرد ، ولم يعرف الحسن في القرن الثاني الهجري وإنما عرف فيما بعد ، وكتاب^(٣١) أبي عيسى الترمذي أصل

(٢٨) صحيح مسلم شرح النووي ج ١ ص ٩٢ .

(٢٩) صحيح مسلم شرح النووي ج ١ ص ١٢١ .

(٣٠) شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي ص ٨٠ مخطوط بدار الكتب المصرية .

(٣١) تدريب الراوي للسيوطي تحقيق الشيخ محمد باقر المجلسي الطيف

في معرفة الحسن قال ابن الصلاح وان وجد في متفرقات من كلام بعض مشايخه ، والطبقة التي قبله كأحمد والبخارى وغيرهما .

وقد وضع العلماء قواعد يعرفون بها الحديث الموضوع ، وبينوا العلامات الدالة على وضعه منها ما هو في السند ، ومنها ما هو في المتن .

أما علامات الوضع في السند فأهمها :

١ - أن يكون راوى الحديث معروفا بالكذب ، وينفرد برواية الحديث ، ولا يرويه ثقة غيره .

٢ - اقرار واضع الحديث بوضعه كما أقر ميسرة بن عبد ربه الفارسي أنه وضع أحاديث في فضائل القرآن (٣٢) .

٣ - ما يقوم مقام الاعتراف بالوضع بأن يكون هناك قرينة مانعة من صحة الحديث كان يروى عن شيخ لم يثبت لقاؤه به أو ولد بعد وفاته أو لم يدخل المكان الذي سماعه فيه ، وهذا عن طريق دراسة تاريخ مولد الرواة وأقامتهم ورحلاتهم ووفاتهم ، كما قسموا الرواة الى طبقات وعرفوا عنهم كل صغيرة وكبيرة وبهذا تكون « علم الطبقات » الذي لا يستغنى عنه رجال الحديث ونقاده ، يقول سفيان الثوري : « لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ » .

٤ - معرفة حال الراوى وبواعثه النفسية مثل ما وقع من سعد بن ظريف حين جاء ابنه من الكتاب يبكى ، فقال : مالك ؟ قال : ضربني المعلم قال : لأخزينهم اليوم ، حدثني عكرمة عن ابن عباس مرفوعا : « معلمو صبيانكم شراركم أقلهم رحمة لليتيم ، وأغلظهم على المسكين » .

ولم تصل أمة من الأمم الى ما وصلت اليه الأمة الاسلامية في التحقيق والضبط ، فقد عنى رجال الحديث بالسنة عناية لم يجد معها أهل الأهواء ثغرة ينفذون منها الى نقض قواعدهم العلمية ، ولذا كان نقد بعض المستشرقين والمغرضين وأمثالهم يتجه الى المتن زعما أن المتن لم يلق من رجال الحديث ما لقيه السند من العناية .

(٣٢) الباعث الحثيث ص ٨١ .

علامات الوضع في المتن :

بذل علماء السنة جهودا مشكورة وعناية فائقة بالمتن ، ولئن كانت الجهود التي بذلت في العناية بالسند أكثر من المتن فليس هذا تقصيرا منهم لحال المتن ، وإنما يرجع ذلك الى كثرة أحوال السند وتعدد ما كان سببا فيما يتعلق به من علوم وبحوث كثيرة ، على أنه قد قام علماء السنة ببحث ودراسة الصفات التي يجب توافرها في صحة المتن وبيان العلامات الدالة على وضعه وهذه أهمها :

١ - ركاكة المعنى واللفظ وتعرف بكثرة الممارسة لألفاظ الحديث النبوي فتحصل هيئة نفسانية ومملكة يعرف بها اللفظ النبوي من غيره قال الحافظ ابن حجر : « المدار في الركة على ركة المعنى فحيثما وجدت دلت على الوضع ، وإن لم ينضم إليها ركة اللفظ فقط فلا تدل على ذلك لاحتمال أن يكون رواه بالمعنى فغير ألفاظه بغير فصيح نعم إن صرح بأنه من لفظ النبي ﷺ فكاذب ، وقال الربيع بن خثيم : « إن للحديث ضوءا كضوء النهار نعرفة أو ظلمة كظلمة الليل تنكره » (٣٣) .

٢ - فساد المعنى بأن يخالف الحديث بدهيات العقول أو القواعد العامة في الأخلاق والآداب أو يخالف الحس أو قواعد الطب أو ما يوجه العقل من تنزيه الله ، أو يخالف قطعيات التاريخ أو سنة الله في الكون والانسان ، أو يشتمل على سخافات يبعد عنها كل عاقل ، يقول ابن اجوزي : « ما أحسن قول القائل : إذا رأيت الحديث يباين المعقول أو يخالف المنقول أو يناقض الأصول فاعلم أنه موضوع » (٣٤) .

٣ - مخالفة القرآن أو السنة المتواترة أو الاجماع القطعي ، أما المعارضة مع امكان الجمع فلا (٣٥) وقال ابن قيم الجوزية : ومن الأمور التي يعرف بها أن الحديث موضوع مخالفته صريح الكتاب كحديث مقدار مدة الدنيا وأنها سبعة آلاف سنة ، لمخالفته قوله تعالى « قل إنما علمها عند ربى » (٣٦) وقوله تعالى « ان الله عنده علم الساعة » (٣٧) ومن ذلك أيضا مخالفته صريح السنة المسلم بها لشهرتها أو لتواترها (٣٨) مثل : « إذا حدثتم عنى

(٣٣) الباعث الحثيث ص ٨٢ .

(٣٤) تلريب الراوى ص ١٨٠ .

(٣٥) الباعث الحثيث ص ٨٣ .

(٣٦) سورة الأعراف ١٨٧ .

(٣٧) سورة لقمان آية ٣٤ .

(٣٨) المؤتمر الثالث بجمع البحوث المتكاملة ص ٤٨ .

بحديث يوافق الحق فخذوا به سواء حدثت به أو لم أحدث » فانه مخالف للحديث المتواتر : « من كذب على متعمدا فليتبوأ عقده من النار » ومثل : « من قضى صلوات من الفرائض في آخر جمعة من رمضان كان ذلك جابرا لكل صلاة فاتته في عمره الى سبعين سنة » فان هذا مخالف لما أجمع عليه من أن الفائتة لا يقوم مقامها شيء من العبادات (٣٩) .

٤ - مخالفته للوقائع التاريخية المقطوع بصحتها ومثاله ما رواه الامام مسلم بسنده عن أبي وائل قال : خرج علينا ابن مسعود بصفين فقال أبو نعيم : أترأه بعث بعد الموت (٤٠) لأن ابن مسعود توفي قبل « صفين » .

٥ - صدور الحديث من راو تأييدا لمذهبه : كالأحاديث الصادرة من أتباع المذاهب الفقهية والكلامية المغالين في تعصبهم مثل « من رفع يديه في الصلاة فلا صلاة له » أو أن يروى رافضى حديثا في فضائل أهل البيت أو مرجىء حديثا في الإرجاء (٤١) .

٦ - أن يشتمل الحديث على افراط في الثواب العظيم على العمل الصغير أو اشتماله على المبالغة بالوعيد الشديد على الامر الحقيق كالأحاديث التي وضعها القصاص في ثواب بعض الأعمال وجزاء بعض الجرائم مثل (من صلى الضحى كذا وكذا ركعة أعطى ثواب سبعين نبيا) ومثل (من قال لا إله إلا الله خلق الله تعالى له طائرا له سبعون ألف لسان لكل لسان سبعون ألف لغة يستغفرون له) (٤٢) .

٧ - أن يتضمن الحديث أمرا من شأنه أن تتوفر الدواعي على نقله لوقوعه بمشهد عظيم ثم لا يشتهر ولا يرويه إلا واحد ، بهذا حكم أهل السنة بالوضع على الحديث المتضمن النص على خلافة علي ووصايته .

٨ - ما يصرح بتكذيب جمع المتواتر (٤٣) .

بالإضافة الى هذه الأسس الرصينة والقواعد المحكمة نقد العلماء المتن من ناحية اضطرابه أو شذوذه أو إعلاله كما بحثوا فيما وقع فيه من قلب أو غلط أو إدراج الى غير ذلك

(٣٩) السنة ومكانتها في التشريع د . السباعي ص ١١٧ .

(٤٠) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١ ص ١٠٠ ط الشعب .

(٤١) السنة ومكانتها ص ١١٧ .

(٤٢) الموضوعات .

(٤٣) المبرج الحديث في علم الحديث للاستاذ : محمد محمد السماحي ص ١٨٧ .

من العلل التي عنى العلماء ببيانها وشرحها فيما وضع في ذلك من الكتب^(٤٤) كما كان للذوق المؤمن مجاله في النقد فاذا استساغت الملكات السليمة المؤمنة حديثاً قبلوه ، وإذا لم تستسغه رده وكان هذا الذوق متفقاً مع قوانين الرواية ، كذلك . يقول الربيع بن خثيم « ان من الحديث حديثاً له ضوء كضوء النهار تعرفه به وإن من الحديث حديثاً له ظلمة كظلمة الليل تعرفه بها »^(٤٥) ويقول ابن الجوزي : الحديث المنكر يقشعر له جلد الطالب للعلم وينفر منه قلبه في الغالب .

وهكذا وضع علماء الحديث القواعد الهامة التي عرفوا بها الحديث الصحيح من الموضوع ووجهوا جهودهم إلى نقد السند والمتن على السواء . هذا وقد بدأت حركة النقد منذ وقوع الفتنة وظلت حتى كان عصر التدوين ودون العلماء الحديث دون تمييز بين الصحيح وغيره ، وإنما تركوا ذلك لاهل الخبرة من العلماء ، لهذا تحرى الامام مالك رضى الله عنه في كتاب (الموطأ) جمع الحديث المقبول حتى شهد له الكثيرون بالصحة والقبول وعندما كتب الامام الشافعى رضى الله عنه (كتاب الرسالة) تعرض لشيء من علوم الحديث ، كما كتب أيضاً شيئاً من ذلك في كتاب (الأم) .

وقام العلماء كذلك بنقد الحديث سندا ومتناً خلال تأليفهم كما في كتاب الترمذى ، وبعضهم خصص مقدمة في هذا العلم تتعلق بالكتاب الذى يؤلفه كما صنع الامام مسلم في مقدمة كتابه أو خاتمة توضح المصطلحات التي أرادوها كما صنع الامام الترمذى في آخر جامعه ، وعنى البعض بالرواة فألف البخارى في الصحابة كتبه في التواريخ الثلاثة : الكبير والأوسط والصغير ، وعنى فيها بنقد المرويات من حيث السند والمتن . وألف غيره في تواريخ الرواه صحابة أو غيرهم كالامام محمد بن سعد كاتب الواقدى المتوفى سنة ٢٣٠ هـ ألف كتاب الطبقات كما أن بعضهم ألف في الثقات كأبي حاتم بن حيان المتوفى سنة ٣٥٤ هـ ألف كتاب الطبقات كما أنه خصصت تأليف في الضعفاء والعلل ككتاب الضعفاء للبخارى صاحب الصحيح وهكذا ، فرأى العلماء أن هذه الكتب قد تضمنت اصطلاحات خاصة لأهل الحديث وقواعد كثيرة لهم يعرف بها المقبول والمردود ففكروا في تخليصها من هذه الكتب وجمعها في علم خاص وتدوينها في كتاب مستقل ، وكان ذلك في القرن الرابع . وكان أول من ألف فيه الراهمرمزي^(٤٦) .

(٤٤) المؤتمر الثالث لمجمع البحوث الإسلامية سنة ١٣٨٦ هـ - سنة ١٩٦٦ م ص ٤٩ .

(٤٥) معرفة علوم الحديث للحاكم ص ٢٦ .

(٤٦) المنهج الحديث للاستاذ / محمد السماحى ص ٢١ .

ومن النتائج الجليلة القدر التي عادت على الاسلام والمسلمين من هذه الجهود الضخمة الموقفة أن تم تدوين السنة بعد أن سار أشواطه المباركة وانتهى الأمر بالتدوين التام ، والتصنيف الكامل في القرن الثالث الهجري الذي كان أسعد عصور السنة الشريفة بظهور أئمة الحديث وقيامهم بتلك التآليف الخالدة وتميز الأحاديث الصحيحة من غيرها .

نماذج من الرجال المجروحين في القرن الثالث

وجه علماء القرن الثالث همهمم العالية الى نقد السند والمتن ، وقد حفلت كتب الرجال والتراجم بالكثير الذي أطلعنا على جهودهم العظيمة في مجال النقد العلمي التزيه ، وسأضرب لذلك بعض الأمثلة لنرى من خلالها بعض النماذج للرجال المجروحين ، وآراء بعض الأئمة فيهم :

١ - ابراهيم بن ابى الليث المتوفى سنة أربع وثلاثين ومائتين ، حدث ببغداد عن عبيد الله الأشجعي متروك الحديث ، قال صالح جزرة : كان يكذب عشرين سنة وأشكل أمره على أحمد وعلى حتى ظهر بعد . وقال أبو حاتم كان ابن معين يحمل عليه والقواريري أحب الى منه وقال ابن معين ثقة لكنه أحمق ، وقال زكريا الساجي . متروك .

٢ - ابراهيم بن محمد بن مروان المتوفى سنة ثلاث وستين ومائتين عرف بالعتيق ، روى عن يعلى بن عبيد وطبقته ، وروى عنه ابن صاعد ومحمد بن مخلد ، قال البرقاني سمعت الدارقطني يقول « غمزه » .

٣ - أحمد بن بديل الكوفي القاضى المتوفى سنة ثمان ومائتين قال النسائي : لا بأس به وقال ابن عدى : حدث عن حفص بن غياث وغيره أحاديث أنكرت عليه وهو ممن يكتب حديثه على ضعفه ، وقال الدارقطني فيه لين .

٤ - احمد بن الحسن بن القاسم بن سمرة الكوفي المتوفى سنة اثنتين وستين ومائتين بمصر قال الدارقطني وغيره : متروك ، وقال ابن حبان : كذاب روى عنه وكيع عن سفيان عن ابن جريج عن عمرو بن دينار عن ابن عباس مرفوعا : « اذا كان يوم القيامة نادى مناد من تحت العرش فيؤتى بأبى بكر وعمر وعثمان وعلى) الحديث وقال ابن يونس حدث بمناكير .

٥ - احمد بن عبد الجبار العطاردي المتوفى سنة اثنتين وسبعين ومائتين ، روى عن
أبي بكر ابن عباس وطبقته ، ضعفه غير واحد ، قال ابن عدى : رأيتهم مجتمعين على ضعفه
ولا أرى له حديثا منكرا انما ضعفوه لأنه لم يلق الذين يحدث عنهم ، وقال مطين : كان
يكذب وقال الدارقطني : لا بأس به وقال أبو حاتم : ليس بالقوى ، وقال ابنه عبد
الرحمن : كتبت عنه وأمسكت عن التحديث عنه لما تكلم الناس فيه^(٤٧).

٦ - حبيب بن ابي حبيب ، واسم ابيه زريق وقيل مرزوق أبو محمد المصرى المتوفى
سنة ثمانى عشرة ومائتين . قال أحمد : ليس بثقة ، وقال ابن سعيد : كان يقرأ على مالك
وتصفح ورقتين وثلاثة فسألوني عنه بمصر فقلت : ليس بشيء ، وقال ابو داود : كان من
أكذب الناس وقال أبو حاتم : روى عن ابن أخى الزهرى أحاديث موضوعة ، وقال ابن
عدى : أحاديثه كلها موضوعة ، وقال ابن حبان : كان يورق بالمدينة على الشيوخ ويروى
عن الثقات الموضوعات وكان يدخل عليهم ما ليس من حديثهم . وساق له ابن عدى عن
مالك عن نافع عن ابن عمر حديثين موضوعين : أحدهما : لمالك بن عبد الله بن سيف
حدثنا حبيب حدثنا مالك وابن أخى الزهرى عن الزهرى عن ابي سلمه عن ابيه مرفوعا
قال : « تذهب زينة الدنيا سنة خمس وعشرين ومائة » والثانى : روى محمد بن مسعود
العجمى ابنا حبيب حدثنا مالك عن ابن شهاب عن محمد بن جبير عن ابيه مرفوعا :
(استنزلوا الرزق بالصدقة) .

٧ - حجاج بن نصيرت الفساطيطى بصرى المتوفى سنة أربع عشرة ومائتين . قال
يعقوب ابن شيبه : سألت ابن معين عنه فقال : صدوق لكن اخذوا عليه أشياء فى حديث
شعبة وقال ابن المدينى : ذهب حديثه ، وقال أبو حاتم : ضعيف ترك حديثه وقال
البخارى : سكتوا عنه ، وقال النسائى : ضعيف ، وقال ابو داود تركوا حديثه ، وقال
الدارقطنى وغيره : ضعيف ، وأما ابن حبان فذكره فى الثقات^(٤٨) . وبهذه النماذج يتضح
لنا دقة سلفنا فى نقد الرجال ، وتمحيص احوالهم ، وسبر صفاتهم فى دقة فائقة ، وتحقيق
علمى نزيه ، وكان بين المجروحين من تكلم فيه مع جلالته ، لأنهم لم يراعوا منزلة ولا جاها
للرجال الا بمقياس التقوى والصدق والحفظ والاتقان . كما كان أيضا من بين من تكلم
فيهم مع ثقتهم بأدى لين وبأقل تحريج . وتلك هى الدقة الكاملة التى يراعون فيها أمر
دينهم ، وحفظ شريعتهم ، لأن الرواة هم نقلة العلم النبوى فلا بد أن يكونوا على درجة
عالية فى الاتقان والضبط مع التقوى والأمانة .

(٤٧) ميزان الاعتدال فى نقد الرجال للذهبي ج ١ ص ٢٦ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٥٣ .

(٤٨) ميزان الاعتدال ج ١ ص ٢١٠ ، ١١٦ .

البحث الثالث

من جهود العلماء في مقاومة أعداء الحديث

الإمام ابن قتيبة الدينوري

تبين في البحث السابق كيف تصدى علماء الحديث لمحاربة بعض الطوائف ، وكيف قاموا بنخل جميع ما ألقوا به في محيط الأحاديث من الترهات ، فميزوا بذلك البهرج من الصحيح ، ونفوا عن السنة النبوية تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين .

وفي هذا البحث أسوق مثلاً من أمثلة هذا الجهاد المبرور المشكور ، لعلم من اعلام هذا القرن كان له في هذا المجال باع طويل ، وجهد عظيم ، الا وهو الامام محمد عبد الله ابن مسلم بن قتيبة الدينوري وقيل المروزي ، والدينوري نسبة الى (دينور) وهي بلدة من بلاد الجبل قرب قرميسين^(٤٩) ، أقام بها مدة قاضياً فنسب اليها ، ويقال له أيضاً (المروزي) لأن أباه من (مرو الروز) وأصله فارسي ، وقد صرح بذلك في قوله - حين حاج الشعوبية . (فلا ينعنى نسي في العجم أن أدفعها عما تدعيه لها جهلتها) .

وقبل التعرض لجهوده المشكورة في خدمة السنة النبوية والدفاع عنها ، أقدم نبذة سريعة تعطينا فكرة عن نشأته وحياته العلمية ، كمدخل لهذه الجهود .

نشأته :

ولد ابن قتيبة ببغداد ، وقيل بالكوفة ، وكانت ولادته سنة ثلاث عشرة ومائتين ، وتوفي في ذي القعدة سنة سبعين ومائتين وقيل سنة احدى وسبعين ومائتين ورجح ابن خلكان أنه توفي في منتصف رجب سنة ست وسبعين ومائتين وعاش ابن قتيبة معظم حياته ببغداد وهي في أوج مجدها العلمي ، وقضى جزءاً من حياته في الدينور أثناء ولايته القضاء فيها ، واتسم - منذ نشأته الأولى بمكارم الأخلاق ، والتحلل بحميد السجايا ، وكان يرى

(٤٩) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٣١٤ .

أن التجمل بالخلق أفضل من طلب العلم ، وعرف بالسماحة والتواضع والزهد والدعوة اليه فكان من أوائل من جعلوا الزهد ركنا هاما من أركان الأدب وأفرد له بابا خاصا في كتاب (عيون الأخبار) وابن قتيبه بما قام به من دعوة صارخة الى الزهد ، شارك في مقاومة تيارات التحلل والمجون التي ألحت على الدولة حينئذ . ولم يكن ابن قتيبه رحالة كغيره من الائمة وانما نشأته مستقرة أنفق الشطر الأكبر منها في بغداد في طلب العلم ثم في تصنيف الكتب وإملائها وأقام بالدينور مدة أثناء توليه القضاء .

حياة ابن قتيبة العلمية

اتسمت حياة ابن قتيبة العلمية بالاستقرار ، فلم يشتغل بالرحلة الى البلاد كشأن غيره من الأئمة ، وانما قضى معظم حياته في بغداد ، واخذ عن علمائها علوم الحديث والفقه واللغة والتفسير والنحو والأدب والأخبار وعاش مدة في الدينور أعانته على اتقان اللغة الفارسية .

واضطلع ابن قتيبة بمهمة جسيمة ، ورسالة عظيمة ملكت عليه أقطار نفسه ، وكانت شغله الشاغل وهذه المهمة هي (الدفاع عن أهل السنة ومذاهبهم ، ووضع المؤلفات لسد حاجة المسلمين وتحبيبهم في دراسة اللغة العربية) .

وكان غزير الثقافة استوعب معظم ما كان يعج به عصره من ثقافات وعلوم ، وهذا راجع الى أنه أخذ عن شيوخ مختلفين ، منهم المحدث ، ومنهم اللغوي ومنهم النحوي وهكذا . ومن أشهر الشيوخ الذين اخذ عنهم : ابو الفضل الرياش ، وأبو حاتم السجستاني واسحاق بن راهويه وأحمد بن حنبل (٥٠) .

وروى عنه ابنه أحمد وعبيد الله بن عبد الرحمن السكري وعبد الله وآخرون .

ومن تصانيفه : كتاب المعارف ، وأدب الكاتب ، وغريب القرآن ، ومشكل الحديث ومشكل القرآن وكتاب الشعر والشعراء ، والاشربة ، واصلاح الغلط ، وكتاب التفقيه ، وكتاب الحيل ، وكتاب اعراب القرآن وكتاب الانواء وكتاب المسائل والجوابات ، والميسر والقдах وغير ذلك (٥١) .

وبعض هذه المؤلفات ليس له فيها الا فضل الجمع والتبويب مثل كتاب : (عيون الاخبار) وكتاب : (المعارف) ومثل هذه الكتب لا تظهر لنا فيه شخصيته العلمية الا في القليل من - التنسيق الذى يدل فقط على خبرته وحسن اختياره ، أما البعض الآخر من

(٥٠) لسان الميزان لابن حجر ج ٣ ص ٣٥٧ تاريخ بغداد ج ١ ص ١٧٠ .

(٥١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣١٤ ، مرآة الجنان للياقنى ج ٢ ص ١٩١ .

مؤلفاته فصنّفه في الرد على اعداء أهل الحديث ، وعلى الشعوبية مثل كتاب (تأويل مختلف الحديث) وكتاب : (الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبّهة) وهذا النوع من مؤلفاته هو الذي كتبه واستمد مادته من عقليته الحافظة المفتحة وتفكيره الخصب ، الذي كان له أكبر الأثر في التوفيق بين نصوص القرآن والحديث ، وبيان المراد وشرح ما غمض على بعض العقول . وهذه المؤلفات تدل على تبحره في علوم الدين واللغة من حديث وفقه ونحو وأدب وغير ذلك .

مكانته وفضله

كان ابن قتيبة ثقة دينا فاضلا كما قال الخطيب^(٥٢) ، وهو أحد أعلام الأئمة الذين برزوا في الميدان العلمي بأعمال كثيرة ، ومصنفات وافرة فلم يترك حقلا من حقول العلم الا وكان من زارعيه ولا بحرا من بحور المعرفة الا وأدلى بدلوه فيه ، وكان من أجود الأئمة تصنيفا وأحسنهم ترصيفا ، له زهاء ثلاثمائة مصنف^(٥٣) وكانت له مكانته بين العلماء ، يقول فيه أهل المغرب : من استجاز الوقعة في ابن قتيبة يتهم بالزندقة . ويقولون كل بيت ليس فيه شيء من تصنيفه لا خير فيه . ومع المبالغة في هذا القول فهو يعطينا صورة لمكانته وفضله .

وقد حامت حوله شبهة لا أساس لها من الصحة وهي اتهامه بالانحراف عن أهل البيت النبوي . وإذا نظرنا الى كتبه وآرائه وجدنا ما يناقض هذه الشبهة ، فقد أحب ابن قتيبة الامام علي بن أبي طالب وآله رضوان الله عليه وكان يذكرهم بالاكبار والتجلة ، بل ويحث على حبيهم ويرى أن مناصرتهم مما ينفع المرء في يوم المعاد^(٥٤) .

وحب ابن قتيبة لآل البيت ليس فيه غلو كالشيعة بل كان معتدلا . ويرى بعض الباحثين أنه كان في بعض آرائه انحراف عن أهل البيت الا أنه رجع الى الصواب ولطف لهجته^(٥٥) .

وأرى أن ابن قتيبة كعالم اخذ على عاتقه مناصرة السنة وأهلها ، وظهرت ميوله الى آل البيت كما تبين في الرأي الاول وبهذا يكون بعيدا كل البعد عن هذه الشبهة ، ولعل الذي دعا بعض الباحثين الى ذلك هو ما أثار خصومه حول شخصيته العلمية وما أشاعوه فيه .

(٥٢) لسان الميزان ج ٣ ص ٣٥٧ .

(٥٣) مقدمة مشكل القرآن وغريبه لابن قتيبة ط الخانجي .

(٥٤) ابن قتيبة للدكتور عبد الحميد سند ص ٢٣٧ .

(٥٥) مقدمة الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمثبه لابن قتيبة بتعليق الشيخ محمد زاهد الكوثري ص ٣ .

وقد اخترت ابن قتيبة كمثال لجهود العلماء قن مناصرة الحديث ومقاومة اعدائه لانه كان من طليعة العلماء الذين مثلوا ثقافة القرن الثالث الهجرى بكل ما فيها من علوم ومعارف وثقافات مختلفة ، ألف في الحديث والتفسير وأخذ وضعه في امامة أهل السنة في زمنه جمع بين العلم والعمل ، وكان أديبا ناقدا ولقويا ضليعا وراوية للاخبار ، كل ذلك يدل على عقلية متفتحة وأفق واسع .

ابن قتيبة وأهل الرأي والكلام

كانت الخصومة حادة بين أهل الحديث وأهل الرأي ، وقد حمل أهل الرأي على أهل الحديث حملات عنيفة وانبرى ابن قتيبة يرد كيد خصومه من أهل الرأي ويدافع عن أهل الحديث الذين عانوا كثيرا من هذه الخصومة التي بلغت مبلغا كبيرا حتى اذ القضاة من أهل الرأي هم الذين قاموا باختبار المحدثين اثناء فتنة القول بخلق القرآن ، وكان لأهل الرأي فهم في الآيات على غير وجهها الصحيح ، وتأولوا الأحاديث تأويلا لا يقره دين ، فوقف ابن قتيبة منهم موقف المدافع عن الدين . ففند آراءهم ، ورد أباطيلهم . أما عن أهل الكلام فكان موقفهم من الحديث موقف الشك ، لأنهم يحكمون العقل في كل شيء ولا يثقون في الحديث الا اذا اتفق مع عقولهم ، وأحلوا العقل مكانة كبيرة ، وجعلوا له سلطانه مع ما فيه من جموح فكان غلوهم في تحكيم العقل وتعصبهم لبعض آرائهم هو الذي فتح سبيلا للغي . وهذا هو الذي حفز ابن قتيبة ليناهضهم ويتصدى للرد عليهم وعلى غيرهم من أعداء الحديث ، ويدود عن حمى الدين في اخلاص وحمية . وسأعطى نموذجا لعمل ابن قتيبة في الدفاع عن الحديث وهو كتابه (تأويل مختلف الحديث) :

الباعث لابن قتيبة على تأليف كتابه تأويل مختلف الحديث

مختلف الحديث فن من أهم الفنون التي يضطر العلماء الى معرفتها والوقوف عليها ، ومعناه : أن يأتي حديثان ظاهرهما التناقض في المعنى فيوفق بينهما أو يرجح احدهما على الآخر . والتوفيق بين الاحاديث قد يكون بتقييد المطلق أو تخصيص العام أو الحمل على تعدد الحادثة وما الى ذلك من الوجوه .

وأول من تكلم في هذا الفن هو الامام الشافعي في كتاب « الأم » وذكر السيوطي أن الشافعي لم يقصد استيفاءه ولا افراده بالتأليف^(٥٦) ، ولكنه في الجزء السابع الف على هامشه كتابا خاصا باسم « اختلاف الحديث » ثم صنف بعد ذلك ابن قتيبة كتابه في مختلف الحديث . وكان الباعث لابن قتيبة على تأليف هذا الكتاب : هو تنزيه ساحة السنة النبوية عن تلك الطعون الزائفة التي وجهها الى الحديث وأهله اعداء السنة ، فألف هذا الكتاب عندما رأى أهل الكلام يقومون بثلب أهل الحديث والتحامل عليهم ، فعز ذلك عليه سيما وأن أحد أنصار الحديث كتب الى ابن قتيبة يطلب منه أن يرد على أهل الكلام فصنف هذا الكتاب النفيس وقد بين الباعث له على تأليفه في مقدمة الكتاب اذ يقول : (فانك كتبت الى تعلمنى ما وقفت عليه من ثلب أهل الكلام أهل الحديث وامتهانهم واسهابهم في الكتب بدمهم ، ورميهم بحمل الكذب ورواية المتناقض حتى وقع الاختلاف وكثرت النحل وتقطعت العصم وتعادى المسلمون وكفر بعضهم بعضا ، وتعلق كل فريق منهم لمذهبه بجنس من الحديث)^(٥٧) .

(٥٦) تدريب الراوى ص ٣٨٧ .

(٥٧) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٢ .

منهج ابن قتيبة في هذا الكتاب

ويتحدد منهج ابن قتيبة في هذا الكتاب في أمرين :

١ - جمع الطعون التي وجهها أهل الكلام إلى الحديث ورجاله والرد عليها .

٢ - جمع الأخبار التي زعم البعض أنها متناقضة ومختلفة فتريل عنها ما زعموه من تناقض ويحجب عما أورده حولها من شبه .

وقد تناول ابن قتيبة الحديث عن أهل الكلام والرأى وعن بعض المعتزلة الذين طعنوا في أهل الحديث وبدأ بالنظام فبين طعنه في أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما ثم تعرض في رده للعلاف « وعبيد الله بن الحسن » « وبكر صاحب البكرية » ، « هشام ابن الحكم » كما تعرض « للجاحظ مبينا استهزاءه بالحديث ، وما قام به من وضع وكذب ، واخذ يفند مزاعمهم العجبية ، واقوالهم الغريبة وطعونهم الجريئة ويحجب عنها ، كما وضع موقفه من المعتزلة وأهل الكلام ، وكيف عزف عنهم وقاطع مجلسهم حينما رأى منهم ما لا يتفق مع عقيدته ومشربه ، وأخذ يذيع على الناس ما خفى من أمورهم وجراتهم في رد السنة الصحيحة ، ورد على الروافض الذين زعموا أنهم على علم بباطن القرآن ففسروا الآيات بما يملية عليهم الهوى والغرض .

قال ابن قتيبة : « ولو اردنا - رحمك الله - أن نتقل عن أصحاب الحديث ونرغب عنهم في اصحاب الكلام ونرغب منهم اخرجنا من اجتماع الى تشتت ، وعن نظام الى تفرق وعن أنس الى وحشة وعن اتفاق الى اختلاف » (٥٨) .

وقد وضع ابن قتيبة مسلك أهل الحديث في اتباع الطريق الصحيح ، واجاب عن الطعون التي وجهت اليهم وهم منها براء كما تصدى لما وضعه الزنادقة وأهل الاهواء من الاحاديث فبه وحذر منها ، ورد عليها ، وشرح ما قام به رجال الحديث من جهود مخلصه وأمانة في سبيل الدفاع عن السنة ، حتى ميزوا الصحيح من غيره ، وبين أن هذا هو ما حدا

بهم الى ذكر بعض الاحاديث الضعيفة موضحا ان وجهة نظرهم في ذكرها هو التنبيه عليها لتتضح للناس . وليميزوا بين الصحيح والسقيم .

وفي سبيل التماسهم للحق وتتبعهم له وجمعهم للاحاديث قام رجال الحديث برحلاتهم العلمية الهائلة ! وبحرا وشرقا وغربا ، ويرحل الواحد منهم في سبيل الخبر الواحد وهكذا عاشوا . بسهدين مخلصين حتى ادركوا الصحيح من الاحاديث (وفهموا صحيح الاخبار وسقيمتها وناسخها ومنسوخها وعرفوا من خالفها من الفقهاء فنبهوا على ذلك حتى نجم الحق بعد ان كان دارسا ، واجتمع بعد ان كان متفرقا وانقاد للسنن من كان عنها معرضا وتنبه لها من كان عنها غافلا وحكم بقول رسول الله ﷺ بعد ان كان يحكم بقول فلان وفلان^(٥٩) وقد مرد بعض المستشرقين والملحدون ممن يلبسون الحق بالباطل ، والصحيح بالعاطل فأخذوا تلك المطاعن ونسبوها الى ابن قتيبة ، وقدموها كقواعد مسلمة عند المسلمين ووجهوا على ضوئها طعونهم الزائفة في الدين دون أن يذكروا ما قام به هذا الامام الجليل من جهود مخلصه في الاجابة عليها وبيان الحق من الباطل^(٦٠) .

(٥٩) المرجع السابق ص ٨٩ .

(٦٠) الحدث والمحدثون ص ٣٦٩ .

نقد كتاب تأويل مختلف الحديث

وليس معنى دفاع ابن قتيبة عن الحديث وأهله أنه كان يتعصب لرأى البعض ممن يتسبون الى أهل الحديث ، أو ممن يروون احاديث غير صحيحة تجنح الى الخرافة أو الشك ، لا . وانما كان لا يقبل الاحاديث غير الصحيحة ، ومع ذلك قد اثرت حول ابن قتيبة الشبهة الآتية :

الشبهة : اتهم ابن قتيبة بانه لا يفرق بين الاحاديث الموضوعية ، والاحاديث الصحيحة ، وكان كل همه ان يتناول التوفيق بين الاحاديث المتناقضة ويبحث عما يؤيد آراءه من الأحاديث .

الرد على ذلك : وردنا على هذه الشبهة ، يتلخص في انها دعوى غير صحيحة لأن ابن قتيبة رفض احاديث كثيرة ورددها لأنه رأى فيها من الخرافات والكذب ما لا يستقيم مع العقل ، وما يضاعف شكوك المرتابين ، وهى ايضا تحمل بين طياتها دلائل وضعها وكذبها ، ومقام الرسول صلوات الله وسلامه عليه اعظم من ذلك . ومن امثلة ما رده ابن قتيبة من احاديث : « من قرأ سورة كذا وكذا ، ومن فعل كذا وكذا اسكن من الجنة سبعين الف قصر في كل قصر الف مقصورة في كل مقصورة سبعون الف مهاده على كل مهاده سبعون الف كذا . . الخ »^(٦١) ومثل ذلك ما قيل عن عوج بن عنق : « قالوا : حديث يكذبه النظر ، قالوا : رويت ان عوجا اقتلع جبلا قدره فرسخ في فرسخ على قدر عسكر موسى فحمله على رأسه ليطبقه عليهم فصار طوقا في عنقه حتى مات ، وأنه كان يخوض البحر فلا يجاوز ركبته وكان يصيد الحيتان من لججه ويشويها في عين الشمس وأنه لما مات وقع على نيل مصر فجسر للناس سنة أى صار جسرا لهم يعبرون عليه من جانب الى جانب وأن طول موسى عليه السلام كان عشرة أذرع وطول عصاه عشرة أذرع ووثب من الأرض عشرا ليضربه فلم يبلغ عرقوبه - قالوا هذا كذب بين لا يخفى على عاقل ولا على جاهل وكيف

(٦١) تأويل مختلف الحديث ص ٩ .

صار في زمن موسى عليه السلام من خالف أهل الزمان هذه المخالفة وكيف يجوز أن يكون من ولد آدم من يكون بينه وبين آدم هذا التفاوت؟ وكيف يطبق آدمي حمل جبل على رأسه قدره فرسخ في فرسخ؟»

قال أبو محمد: «ونحن نقول أن هذا حديث لم يأت عن رسول الله ﷺ ولا عن صحابته إنما هو خبر من الأخبار القديمة التي يرويها أهل الكتاب سمعه قوم منهم على قديم الأيام فتحدثوا به.»

وهكذا نرى كيف وقف ابن قتيبة من هذه الأخبار الكاذبة والخرافات الضالة موقف الناقد البصير فردها وحكم بكذبها ووضعها. بل إنه حدد الوجوه التي يدخل منها الفساد إلى الحديث وحصرها في ثلاثة أمور:

الأول: الزنادقة وما قاموا به من دس الأحاديث الشنيعة والمستحيلة التي لم يخف أمرها على رجال الحديث الذين كشفوا عوارها، وبينوا خطرها، وأشار إلى بعض أولئك الوضاعين أمثال ابن أبي العوجاء الزنديق، وصالح بن عبد القدوس الدهري.

الثاني: القصاص وما كانوا يقومون به من استمالة وجوه العوام اليهم ويستدرون ما عندهم بالمناكير والغريب والأكاذيب من الأحاديث.

الثالث: ما كان الناس عليه في الجاهلية من أخبار متقدمة تشبه أحاديث الخرافة كقولهم أن الضب كان يهوديا عاقا فمسخه الله تعالى ضبا، ولذلك قال الناس: أعق من ضب، وأيضا ما قام به أعداء الحديث والجهلة وما إلى ذلك، فبين هذه الأسباب، وطفق يدافع عن السنة في إخلاص المؤمن وحمية الغيور على دينه.

بعض المآخذ: والذي نأخذه على ابن قتيبة ما يأتي:

أولا: تعامله على أئمة الرأي والكلام، ويرى بعض الباحثين أن هذا راجع إلى أن بعض متكلمي المعتزلة، وبعض القضاة المتفقهين على مذهب أبي حنيفة قاموا باختبار المحدثين في القول بخلق القرآن في المحنة المشهورة التي قام بها المأمون^(٦٢)

وأرى أن السبب في ذلك يرجع إلى ما جنح إليه أهل الكلام والرأي من أقوال في

(٦٢) الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة لابن قتيبة تعليق الشيخ زاهد الكوثري ص ٣.

الدين غريبة ، وتجريح لأهل الحديث بالاضافة الى ما ذكره بعض العلماء من سبب المحنة ، والكتاب يفيض بالكثير من هذه الآراء التي ذكرها ورد عليها ، ولعله قد أخذته غيرته على الدين وأهل الحديث فتعامل على أهل الرأي والكلام .

ثانيا : نأخذ على ابن قتيبة أنه كان في بعض الأحوال النادرة لا يرد بعض الأحاديث غير المعقولة المنسوبة الى الصحابة مستبعدا أن يعتمد واحد منهم الكذب ، وذلك كبعض الأحاديث التي وقعت في (كتاب العرب) التي أيد بها رأيه في تفضيل العرب ، وفيما نقله أيضا في كتابه (تأويل مختلف الحديث) أن القردة مسخت من بني إسرائيل (٦٣) .

وأرى أن ابن قتيبة كان ثقة صادقا في روايته الا أنه ينقصه تحقيق بعض الأخبار ووزنها بالميزان العقلي السليم ، وإن كان قد قصر في البعض فقد أنجح في البعض الآخر وفتح باب الرد على أهل الأهواء وجاهدتهم مستبلا صابرا فله دره .

(٦٣) تأويل مختلف الحديث ص ١٦٧ .

الباب الثانى

تدوين الحديث

فى القرن الثالث الهجرى

ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول : وفيه بحثان :

البحث الأول : مناهج تدوين الحديث .

البحث الثانى : مثال لمنهج التدوين على المسانيد « مسند الامام

أحمد » .

الفصل الثانى : وفيه بحثان :

البحث الأول : الصحيحان والمقارنة بينهما .

البحث الثانى : السنن الأربعة .

الفصل الأول

البحث الأول : مناهج تدوين الحديث في القرن الثالث

أخذ تدوين الحديث في القرن الثالث الهجري شكلا جديدا غير الذى كان مألوفا في القرنين : الأول والثاني ، ذلك أن التدوين في القرن الأول الهجري « كان الغرض منه حفظ السنة النبوية من الضياع ، وصيانتها من أن يتطرق إليها الوضع ، فكانت كتابة الحديث آنثذ كتابة فردية ، ثم ما لبثت أن دونت في الصحف بجانب حفظها في الصدور .

أمّا في القرن الثاني فقد بدأ تدوين السنة فيه على يد الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هـ وكان منهج التدوين يقوم على جمع الاحاديث التي تدور حول موضوع واحد في مؤلف خاص ، فكان لكل باب من أبواب السنة مؤلف خاص به تدون فيه الاحاديث المتصلة بموضوعه مختلط بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين .

ثم كانت المرحلة الثانية ، من مراحل التدوين في القرن الثاني ، بعد الزهري حيث قام الائمة : مالك ، وابن جريج ، وسفيان الثوري وغيرهم فجمعوا احاديث الأبواب وضموا بعضها الى بعض فكانت مصنفا واحدا ومزجوا الاحاديث بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين ، ونسج على هذا المنوال بقية أهل عصرهم . ولم يصلنا من مؤلفاتهم الا موطأ الامام مالك ومسنند الامام الشافعي ، والاثار للامام محمد بن الحسن الشيباني ووصف لبعض المؤلفات الأخرى وأغلب الظن أن العلماء أدمجوها في مؤلفاتهم بعد ذلك ، بجانب حفظها في القلوب .

وكان الغرض من الجمع في هذا القرن الثاني هو خدمة التشريع وتسهيل استنباط الاحكام ، ومن أمثلة ذلك « موطأ » الامام مالك الذي يعتبر أول مصنف من المصنفات الصحيحة رتب على الابواب ، قال أبو بكر العري « الموطأ هو الأصل الاول واللباب ،

وكتاب البخارى هو الاصل الثانى فى هذا الباب وعليها بنى الجميع كسلم والترمذى ،^(١) وقد عنى الامام مالك فى كتابه بتدوين الاحاديث القوية ، ومكث فى تأليفه وتنقيحه وتهذيبه أربعين سنة ، وقد نهج فى تدوين الحديث فى كتابه أن يكون مرتبا على الأبواب فيذكر أحاديث كل باب ثم يتبعها بما ورد فيه من الاثار عن الصحابة والتابعين .

وأما فى القرن الثالث الهجرى فقد أخذ التدوين شكلا جديدا غير الذى كان عليه فيما مضى ، فقام علماء هذا القرن وأفردوا أحاديث الرسول ﷺ عن أقوال الصحابة وفتاوى التابعين ، وتصدى بعضهم لتدوين الأحاديث التى يوهم ظاهرها التناقض ، أو يقع فى حسابان البعض انها غير صحيحة ، ويجمع الطعون الواردة عليها وبين حقيقتها ويرد على تلك الطعون كما تقدم فى الحديث عن ابن قتيبة الدينورى .

وكانت مناهج التدوين فى القرن الثالث ترجع الى الطرق الآتية :

١ - منهج التدوين على المسانيد : ويتحقق بجمع المؤلف ما يروى عن الصحابة فى باب واحد من غير تقييد بوحدة الموضوع ، واتسم هذا المنهج بإفراط الحديث وتجريده من أقوال الصحابة وفتاوى التابعين ، وجمع كل ما يروى عن الصحابة وان اختلفت موضوعات الأحاديث ، فمثلا يوجد حديث للصلاة بجانب حديث للصوم وهكذا مع الجمع بين الحديث الصحيح وغيره .

فيذكر صاحب المسند مثلا ابا بكر لصديق رضى الله تعالى عنه ويجمع ما رواه من الأحاديث ثم عمر رضى الله تعالى عنه وهكذا .

وكان منهم من يرتب أسماء الصحابة على القبائل فيقدم بنى هاشم ثم الاقرب فالأقرب الى رسول الله ﷺ فى النسب ، ومنهم من رتبها على السبق فى الاسلام فقدم العشرة المبشرين بالجنة ثم أهل بدر ثم أهل الخديبية ثم من أسلم وهاجر بين الخديبية والفتح ثم من أسلم يوم الفتح ، ثم أصاغر الصحابة سنا ثم النساء . ومن سار على هذه الطريقة الامام احمد بن حنبل ، ومنهم من رتبهم على حروف المعجم كالطبرانى فى المعجم الكبير ، ومن طرق التصنيف على المسانيد تصنيفه معللا بأن يجمع فى كل حديث طريقة واختلاف الرواة فيه ، فان معرفة العلل أجل أنواع علم الحديث وبها يظهر ارسال بعض ما عد متصلا ، أو وقف ما ظن مرفوعا وغير ذلك من الأمور المهمة ، وقد ألف الحافظ

(١) تنوير الخوانك ص ٥

الكبير يعقوب بن شيبة البصرى المتوفى سنة ٢٦٢ هـ مسندا معللا غير أنه لم يتم ، ولو تم لكان في نحو مائتى مجلد . والذي تم منه مسند العشرة والعباس وابن مسعود وعتبة بن غزوان وبعض الموالى وعمار^(٣) . وطريقة المسانيد هذه هي التى ابتدأ التأليف عليها فى القرن الثالث الهجرى ، وأول من قام بذلك هو عبد الله بن موسى العيسى الكوفى ومسدد ابن مسرهد البصرى وأسد بن موسى الأموى ، ونعيم بن حماد والخزاعى نزيل مصر ثم انتشر التأليف على هذه الطريقة بعد ذلك بين الائمة والحفاظ كالامام احمد بن حنبل واسحاق بن راهويه ، وكان منهم من جمع بين طريقة المسانيد وطريقة الأبواب فى مصنفه كأبى بكر بن أبى شيبة^(٤) .

ومن أعظم المسانيد مسند الامام احمد بن حنبل ، وهو المراد عند المحدثين على الاطلاق ، واذا أرادوا غيره قيدوه باسم صاحبه^(٥) . وقد يطلق المسند على الكتاب المرتب على الأبواب أو الحروف أو الكلمات لكون أحاديثه مسندة ومرفوعة الى النبى ﷺ كصحیح البخارى فانه يسمى (المسند الصحيح) وصحيح مسلم ، وسنن الدارمى فانها تسمى بالمسند ، وهناك مسندات لم تصل إلينا كمسند الحارث ابن الحارث بن أبى أسامة المتوفى سنة ٢٨٢ ، ومسند عبد الحميد المتوفى سنة ٢٤٩^(٥) وكان لهذه الطريقة مزايا وعيوب :

أما مزاياها : فهى تجريد الاحاديث النبوية عن غيرها ، فقد افردت أحاديث الرسول ﷺ بالتدوين ، وجردت من أقوال الصحابة وفتاوى التابعين ففى هذه الطريقة اذا نوع من استقلال الحديث عن الفقه .

وأما عيوب هذه الطريقة : فهى صعوبة الوقوف على الحديث فى المسند ، لعدم جمع الاحاديث المتناسبة فى موضوعاتها فى باب خاص . كما كان من عيوبها كذلك تعذر معرفة درجة الحديث من الصحة والضعف والاحتجاج به أو عدمه ، لاحتمال أن يكون كل حديث فى نظر القارئ صحيحا أو ضعيفا . لأنها جمعت بين الصحيح وغيره فلا يستطيع إدراك هذا كله الا الحافظ المتضلع . وكان الباعث لأصحاب هذه الطريقة على تدوين الأحاديث التى لم تبلغ مرتبة الصحة هو أن الطرق قد تعدد فيصل الحديث الى درجة الصحة ، كما أنها أيضا صالحة للاعتبار بها وقد تبين صحة الحديث لنقاده بعد ذلك ، وما

(٢) تاريخ فنون الحديث ص ١٥ .

(٣) مقدمة فتح البارى لابن حجر ص ٥ .

(٤) الرسالة المستطرفة ص ٦١ .

(٥) نظرة عامة فى تاريخ الفقه الاسلامى ص ٣٠٢ الدكتور على حسن عبد القادر .

هو جدير بالذكر أن العلماء في هذا العصر كانوا على درجة عالية في معرفة الصحيح من الأحاديث التي دونوها ، أو دونت لهم ، ومعرفة الضعيف منها ومعرفة عللها ، وكانوا على علم بحال المتون والأسانيد التي في هذه المسانيد .

٢ - منهج التصنيف على الأبواب : ويقوم على تخريج الحديث على أحكام الفقه وغير ذلك وتبويب الأحاديث وترتيبها ترتيباً موضوعياً وتنوعها أنواعاً مختلفة بحيث يجمع المصنف ما ورد في كل حكم وفي كل باب على حدة فيجمع الأحاديث المتعلقة بالصلاة في باب والمتعلقة بالصوم في باب وهكذا ، وأهل هذه الطريقة منهم من اقتصر على إيراد ما صح فقط كالشيخين « البخاري ومسلم » ومنهم من لم يقتصر على ذلك كأبي داود والترمذي وكان من مزايا هذه الطريقة سهولة الحصول على الحكم الشرعي وغيره من الباب الخاص به ، والوقوف على درجة الحديث بيسر وسهولة بخلاف الطريقة الأولى « طريقة المسانيد » حيث يصعب فيها الحصول على المطلوب ، وهذا ما دعا الإمام البخاري إلى أن يتجه في كتابه إلى الاختصار على الحديث الصحيح وتبعه الإمام مسلم سيرا على منهجه ، وكان لهما الفضل في تمهيد الطريق أمام طلاب الحديث ليصلوا إلى الصحيح من الأحاديث دون عناء ، ولعل أقدم كتاب يمثل طريقة التصنيف على الأبواب هو « موطأ » الإمام مالك ، غير أنه مزجه بأقوال الصحابة والتابعين بخلاف عمل الشيخين فقد أفردا الحديث عن تلك الأقوال والفتاوى .

وكان الداعي لهذه الطريقة هو أن تكون عوناً للفقهاء وتسهيلاً لهم في الوقوف على الأحاديث التي يستنبطون منها أحكامهم أو يستدلون بها أو يجتهدون على ضوءها .

٣ - الطريقة الثالثة : طريقة الجمع لبعض الأحاديث والطعون الموجهة إليها والرد عليها كما سبق بيان ذلك في الكلام على كتاب (تأويل مختلف الحديث) لابن قتيبة . وبعد بيان مناهج تدوين الحديث في القرن الثالث نذكر أمثلة لها ، ولنبدأ في البحث التالي بكتاب المسند للإمام أحمد بن حنبل الذي يعد من أعظم الكتب المصنفة على هذه الطريقة ، وأقدم لذلك بترجمة عن الإمام أحمد صاحب المسند . . .

الامام أحمد بن حنبل

نسبه ومولده :

هو الامام الجليل الذي طبقت شهرته الآفاق ، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ابن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله بن حيان بن عبد الله ابن انس بن عوف بن قاسط ابن مازن بن شيان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صععب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفص بن دعس ابن جديله بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان الشيباني المروزي الاصل^(٦) يلتقى نسبه مع الرسول ﷺ في نزار بن معد بن عدنان ، واشتهر أبو عبد الله بابن حنبل مع أن حنبل جده وليس أباه ، لأن جده هذا كان معروفا مشهورا وعمل واليا على سرخس من أعمال خراسان في العهد الأموي وناصر الدعوة العباسية عند ظهورها ، على حين كان والده مجاهدا غير مشهور ومات في ريعان شبابه فعرف بابن حنبل نسبة الى جده ، واما أمه فاسمها صفية بنت ميمونة بنت عبد الملك الشيباني كان أبوه قد نزل بهم وبنى بها وجدها هو عبد الملك الذي كانت قبائل العرب تنزل عليه فيضيضهم ويكرم وفادتهم وقد نزل به محمد بن حنبل فزوجه من صفية حفيدته من بنته ميمونة ثم رحل الزوجان الى خراسان حيث كان الزوج يربط بمرو ثم عاد بها حاملا الى بغداد^(٧) فولد الامام احمد في بغداد بمدينة العلم في ربيع الأول سنة أربع وستين ومائة ١٦٤ هـ^(٨) وقيل انه ولد بمرو وحمل الى بغداد وهو رضيع^(٩) .

وأرجح الرأي الأول وهو أنه ولد في بغداد في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة وما يؤيد ذلك ما قاله صالح بن أحمد بن محمد بن حنبل : (سمعت أبي يقول ولدت في سنة أربع وستين ومائة في أولها في ربيع الأول وجيء بي حملا من مرو وتوفى أبي محمد بن حنبل وله ثلاثون سنة فوليتني أمي)^(١٠) .

(٦) مناقب الامام احمد لابن الجوزي ص ١٦ وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٠ .

(٧) احمد بن حنبل : عبد الحلیم الجندی ص ٢١ .

(٨) تهذيب التهذيب ج ١ ص ٧٢ .

(٩) وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٧ .

(١٠) مناقب الامام احمد بن صالح بن الامام احمد بدار الكتبة المصرية .

وهكذا نرى ان الامام احمد ولد من اسوين كريمين وجاء من اسرة عربية اصيلة ورث عنها الايمان الراسخ ، والعزيمة القوية ، وعزة النفس .

نشأته

في مدينة العلم بغداد نشأ الامام احمد وترى وحملت أمه تبعات هذه النشأة فهي التي كفلته وقامت برعايته لأن أباه مات في فجر شبابه ولم يرث الامام احمد عن أبيه سوى منزل يسكنه وعقار قليل لا يغل عليه الا سبعة عشر درهما كل شهر فكان يعمل بيده اذا أعوزته الحاجة قال عبد الله بن أحمد : حدثنا علي بن الجهم قال كان لنا جار فاخرج إلينا كتابا فقال : أتعرفون هذا الخط ؟ قلنا هذا خط احمد بن حنبل فكيف كتب لك ؟ قال كنا بمكة مقيمين عند سفیان بن عيينه ففقدنا احمد أياما ثم جئنا لنسأل عنه فاذا الباب مردود وعليه حلتان فقلت : ما خبرك ؟ قال : سرقت ثيابي فقلت له معي دنانير فان شئت صلة وان شئت قرضا فأبى فقلت تكتب لي بأجرة ؟ قال : نعم فاخرجت دينارا فقال اشتر لي ثوبا واقطعه نصفين يعني ازارا ورداء وجئني ببقية الدينار ففعلت وجئت بورق فكتب لي هذا^(١١) . وعندما كان يطلب العلم باليمن مع اسحاق ابن راهويه عند عبد الرزاق وفنت نفقته عرض عليه اسحق شيئا من المال صنة أو قرضا فامتنع من قبول ذلك وأخذ يشتغل بصناعة النسيج وبيعها وينفق منها^(١٢) . وفي هذا ما يدل على عزة النفس وشرفها وعفتها وكرامتها التي أبى معها أن يأكل الا من عمن يده ، ولم يمد عينه الى زينة الحياة ولا الى ثروة المال لانه اكتفى بثروة العلم التي أغتته عن كل شيء ، من اجل هذا لم يحاول ان ينمي ثروته ولم يتمن الغنى لأن ينابيع نفسه الطموحة لم تتفتح الا على الحديث والعلم ، بل كان من السهل عليه أن يكون من الأثرياء لو أراد ولكنه رفض ذلك كله ورفض عطايا الخلفاء ، ومنح الاصدقاء ورفض تولى القضاء حين عرض عليه الشافعي أن يكون قاضيا باليمن عندما كلفه الأمين أن يختار قاضيا لها فاختره ليستعين بذلك على معيشته وليسهل عليه طلب الحديث من عبد الرزاق دون تعب أو نصب ، ولكنه رفض واحب أن تكون هجرته لليمن خاصة للحديث لا تشوها شائبة ، وحينها كرر الشافعي العرض عليه قال له (يا أبا عبد الله ان سمعت منك هذا ثانية لم ترفى عندك)^(١٣) ومعلوم أن الامام الشافعي شيخه ، وابن حنبل يقدره ويحمله ولكن نفسه التي ارتقت بالحديث لا ترى لها مطمحا في سواء بل انه رغب في تحصيل العلم بجهد وجد .

(١١) ترجمة الامام احمد للذهبي من كتاب تاريخ الاسلام .

(١٢) ترجمة الامام احمد من كتاب تاريخ الاسلام الذهبي .

(١٣) المناقب لابن الجوزي ص ٢٧١ .

وشق ابن حنبل طريق نشأته في بغداد وهي يومئذ تزخر بالعلماء والمحدثين والحكماء والفلاسفة وهي حاضرة العلم الاسلامي تموج بالثقافات والفنون ، وقد توافرت في جوانب نشأته عوامل كثيرة كان لها أكبر الاثر في تكوينه العلمي ومن ذلك :

١ - ما فطر عليه من حب للعلم وتحصيل له : فكان من شدة شغفه به يخرج احيانا قبل الفجر فتأخذ أمه بثيابه ليقم ريشا يصبح الصباح .

٢ - توجيه أسرته له : وقد ركزت الاسرة فيه آمالها ليكون عالما ومحدثا يدعو الى سبيل ربه على بصيرة وهدى فوجهته أسرته أول ما وجهته الى حفظ القرآن الكريم ثم الى علم اللغة والحديث وسيرة الرسول ﷺ والصحابة والتابعين وكانت أمه تحببه في العلم وتعيّنه على طلبه فاتفق هذا التوجيه مع ما كانت تصبو إليه همته العالية .

٣ - ذاكرته الحافظة : وقد زكى هذا الاستعداد والتوجيه ذاكرة قوية وجهها الى حفظ الحديث اسنادا ومتنا والى فتاوى الصحابة والتابعين فاستوعب ذلك باستظهار منقطع النظر فيها واستنباطا .

٤ - ورعه وتقواه : وتوج هذه العوامل السابقة ما فطر عليه منذ صغره من الورع والتقوى والثقة والامانة .

واستفاضت شهادات الائمة له بالعلم والعمل وكانت تطلعات أهل زمانه اليه ترهص بمكانة عاليه له ، يقول الهيثم بن جميل « ان عاش هذا الفتى فسيكون حجة على أهل زمانه » (١٤) .

حياته العلمية

كان العصر الذي نشأ فيه الامام احمد هو عصر التدوين والنضج العلمي ففيه ازدهرت علوم الدين وغيرها فكان معنيا بتدوين ما يسمعه من الاحاديث وآثار الصحابة ولا يكتفى بما أودعه قلبه الحافظ وذاكرته الواعية وانما كان يدون ما يسمعه . وكان يتلقى علم الفقه والاستنباط من الشافعي وغيره حتى أصبح حافظا للحديث والفقه قال احمد بن سعيد الرازي ما رأيت أسود الرأس احفظ لحديث رسول الله ﷺ ولا أعلم بفقهه ومعانيه من احمد بن حنبل (١٥) كما كان يحفظ كتب أهل الرأي ولا يأخذ بها .

(١٤) امرأة الجنان لليافعي ج٢ ص ١٣٢ .

(١٥) منة السند ص ٦٤ تحقيق الاستاذ احمد شاکر .

وكان طبيعياً أن يلم بمثل هذه العلوم الكثيرة لأنها كانت موجودة في عصره وكان تلقيه من الفقهاء الذين جمعوا بين الحديث والرأى كالقاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة . ثم انصرف بعد ذلك الى المحدثين فتلقى الحديث أولاً ببغداد سنة تسع وسبعين ومائة واستمر بها سبع سنين واقتصر فيها على جمع أحاديث علماء بغداد وما يحفظون من الفتاوى ، ولازم في هذه الفترة احد ائمة الحديث ببغداد نحو اربع سنوات وهو هشيم بن بشير بن حازم الواسطي المتوفى سنة ١٨٣^(١٦) ولم يكن في هذه الفترة التي لزم فيها هشياً منقطعاً عن غيره ولكنه تلقى عن غيره من الثقات ذوى الشهرة العلمية كعبد الرحمن بن مهدي وأبي بكر بن عياش وبعد موت هشيم مكث ثلاث سنوات ببغداد يجهتد في طلب الحديث من العلماء دون تقييد بواحد منهم .

رحلاته

وابتداً الامام احمد رحلاته العلمية في السنة السادسة والثمانين بعد المائة فرحل المراحل البعيدة وركب المركب الصعب واحتمل خشونة العيش ، فرحل الى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والجزيرة ورحل الى الحجاز خمس مرات ، أولاها سنة سبع وثمانين ومائة والتقى في هذه الرحلة بالشافعي رضى الله عنه كما التقى به في بغداد كذلك عندما أتى اليه الشافعي .

وكان يستعذب المشقة في طلب الحديث ، لأن تحصيل العلم بصعوبة يكون أشد تمكناً واكثر حفظاً وأبعد عن النسيان ، كما أنه كان يخلص نيته في سبيل الله مستمراً في دأبه لطلب الحديث حتى بعد أن بلغ درجة الامامة ، ولما سئل في ذلك قال : (مع المحبرة الى المقبرة) وكثيراً ما كان يقول (أنا طالب للعلم الى ان ادخل القبر)^(١٧)

شيوخه

أخذ الامام احمد عن كثير من الشيوخ الاعلام والائمة الحفاظ منهم هشيم بن بشير والشافعي وسفيان بن عيينة ويحيى بن سعيد القطان وإسماعيل بن علي وعبد الرزاق والقاضي أبو يوسف صاحب الامام ابي حنيفة وإبراهيم بن سعد وجريير بن عبد الحميد وعبد الرحمن بن مهدي ومعتز بن سليمان وغيرهم^(١٨) ، ويعتبر هشيم بن بشير هو

(١٦) المناقب لابن الحوزى ص ٢٥ .

(١٧) المرجع السابق ص ٣١ .

(١٨) تهذيب ج ١ ص ٧٢ .

الشخصية الأولى من شيوخه الذين كان لهم أكبر الاثر في حياته العلمية فقد ذهب اليه وهو في السادسة عشرة من عمره ولازمه أربع سنين تكونت خلالها الملكة العلمية في الحديث ومن شيوخه الذين كان لهم أكبر الاثر في حياته الامام الشافعي وقد التقى به حين ذهابه للحج وكان الشافعي يدرس بالمسجد الحرام والتقى به مرة أخرى في بغداد .

فقهه :

وقد أخذ احمد عن شيخه الشافعي الفهم الصحيح للكتاب والسنة والمقابلة بين الأصول واشتقاق الفروع ومعرفة الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والمطلق والمقيد ، حتى صار فقيها له مذهبه المعروف ، ولا معول اذا على قول من قال : انه محدث لا فقيه ، وحسبنا دلالة على إمامته في الفقه ما خلفه من ثروة فقهيه ضخمة أخذها عنه تلاميذه .

وهو وإن لم يدون مذهبه في كتاب - لأنه كان يكره ذلك - الا أن أصحابه قاموا بجمع مسائله وتدوينها ، ثم انتشرت ثروته الفقهيه في كتب الحنابلة .

وقد خالف بعض العلماء هذه الحقيقة وأثاروا حول الفقه الحنبلي كثيرا من الكلام ، فابن جرير الطبري قال (انه رجل حديث لا رجل فقه) ولذا اثار الحنابلة عليه ، وابن قتيبة لم يذكره بين الفقهاء واقتصر ابن عبد البر على الائمة الثلاثة أبي حنيفة ومالك والشافعي في كتابه « الانتقاء » .

والحق أنه فقيه له مذهبه المعروف ، ويشهد بذلك الكثير من المتقدمين والمتأخرين ويشهد بذلك الانتخاب التاريخي وعلى رأس الشاهدين بفقهه الامام الشافعي الذي قال : « خرجت من بغداد وما تركت بها أفقه ولا ازهد ولا أروع ولا أعلم من أحمد بن حنبل » (١٩) .

جلوسه للدرس والافتاء

تصدي الامام أحمد للدرس بعد أن بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ، ولم ينصب نفسه للدرس قبل ذلك ، وقد جاءه بعض معاصريه يطلب منه الحديث سنة ثلاث ومائتين فأبى أن يحدثهم فذهب الى عبد الرزاق بن همام باليمن ثم عاد الى بغداد سنة أربع ومائتين فوجد أحمد قد حدث واستوى الناس عليه (٢٠) ولعل السبب في امتناعه عن الحديث قبل هذه

(١٩) تهذيب التهذيب ج ١ ص ٧٢ .

(٢٠) المنقب ص ٨٨ .

السن يرجع الى أنه كان يستحى أن يحدث أو يفتى وبعض شيوخه الذين تخرج على أيديهم وأخذ عنهم ما زال موجودا وحيا ، ولعله كذلك استحس أن يجلس للدرس في هذه السن تأسيا بصاحب السنة المطهرة عليه الصلاة والسلام الذي بعث في سن الأربعين ، وهذه السن غالبا ما تتكامل فيها القوة العلمية . وليس معنى هذا أنه لم يكن يفتى إذا سئل بل بالعكس فقد كان يرى أن الإعراض عن الاجابة والامتناع عن ارشاد السائلين كتمان للعلم منهى عنه لذا كان يفتى « في مسجد الحيف » وهو في الرابعة والثلاثين وغير ذلك .

أما التصدى للتدريس والفتيا رسميا فلم يكن إلا بعد بلوغه سن الأربعين . وكان مجلسه غاصا بطلاب العلم والمسترشدين من تلاميذه ومحبيه وعارفي فضله ، وكان له درس عام يعقده بعد العصر في المسجد وآخر خاص يعقده في منزله للخاصة من تلاميذه وابنائهم . وكان الوقار والهيبه يسودان مجلسه فلا مجال لغير العلم ، وهذا يعطينا صورة صادقة لما كان عليه من حياة جادة وخالصة لخدمة الاسلام وجهاد كبير في سبيل السنة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

تلاميذه

وقد روى عنه كثيرون منهم الائمة الستة : البخارى ومسلم وأبو داود بلا واسطة والترمذى والنسائى وابن ماجه بواسطة ، وابنه صالح ، وابنه عبد الله .

وقد روى عنه بعض شيوخه كعبد الرزاق والشافعى ، وفي هذا ما يدل على مكانته الجليلة وعظمته العلمية .

وروى عنه من أقرانه على بن المدينى ويحيى بن معين . وبما روى عنه كذلك محمد بن يحيى الذهلى وأبو زرعة الرازى وأبو القاسم وهو آخر من حدث عنه وغير هؤلاء^(٢١) .

محبته

جعل الله تعالى ابن حنبل علما يقتدى به وملجأ للمهتدين وهيأته الاقدار لذلك . قال فيه ابن حبان (اغاث الله به أمة محمد ﷺ وذلك أنه ثبت في المحنة وبذل نفسه)^(٢٢) .

(٢١) تهذيب التهذيب ج ١ ص ٧٢ .

(٢٢) تهذيب التهذيب ج ١ ص ٧٢ .

وقد سبق في الباب الأول بيان أسباب المحنة ونتائجها وتتمة للترجمة عن حياة هذا الامام الجليل ألقى بعض الضوء على أهم جوانب العظمة في حياته وهو موقفه في « المحنة » هذا الموقف الذي تجلت فيه شجاعته الابدية واحترامه لاقتناعه السليم آخذاً من موقفه ما يوضح القدوة في حياته ، تمسكا بالسنة ومحافظة عليها .

وكانت هذه المحنة في عهد « المأمون » الخليفة العباسي حين قامت فرقة المعتزلة ورأت أن القرآن مخلوق وكان المأمون متعصبا للمعتزلة فلما زينوا له القول بخلق القرآن اقتنع به وحمل الناس والعلماء عليه ، ومعظمهم وافق عن اكرامه كما سبق بيان ذلك في الباب الأول . وحمل لواء المعارضة الامام أحمد ، واستمرت الفتنة حتى عهد المتوكل الذي كان محبا للسنة وأهلها ، فرفع المحنة وكتب الى الأفاق الا يتكلم أحد في القول بخلق القرآن . وقد تعرض الامام أحمد أثناء هذه المحنة الرهيبة لأعنف صنوف الأذى والاضطهاد ولكنه استعذب الأذى في سبيل دينه وعقيدته حتى أصبح كما قال بشر بن الحارث : (أدخل الكبر فخرج ذهباً أحمر)^(٢٣) وهكذا أصحاب العزائم القوية واليقين الراسخ لا تزيدهم الفتن الا قوة في الحق وزيادة في الايمان ، وهذا شأن أولى العزم من الائمة المتفانين في سبيل الله ، وقد كان من الممكن أن يأخذ بالرخصة في أوقات البلاء عندما ازدادت به الشدة فيقف موقف التقية ولكنه ليس كذلك ، إنه فوق كل هذا ، ومكانته بين الناس مكانة الامام المقتدى به فلو أنه أخذ بالتقية والرخصة فلربما ضل الناس الذين يقتدون به من ورائه دون أن يعلموا أن ذلك تقية ، وهذا يعطينا رؤية واضحة لتمسك الامام بالسنة وحرصه على هداية الناس مهما كلفه ذلك .

كما ان روحه السمع جعله يصفح عن كل من ذكره الا المبتدع فهو يتسامح في حق نفسه وايدائها أما ما يتعلق بالدين والسنة فلا يتسامح فيه يقول : « كل من ذكرني في حل الا مبتدع وقد جعلت ابا اسحاق المعتصم في حل ورأيت الله تعالى يقول « وليعفوا وليصفحوا إلا تحبون أن يغفر الله لكم » وأمر النبي ﷺ أبا بكر بالعفو في قصة مسطح ، قال ابو عبد الله : العفو أفضل ، وما ينفعك أن يعذب اخوك المسلم في سبيك » .

وبعد حياة حافلة بجلال الاعمال وجهاد في سبيل الحق مشكور ، فاضت روحه الى بارئها لاثنتي عشرة خلت من ربيع الاول سنة مائتين وإحدى وأربعين رضى الله عنه وجزاه عن السنة خير الجزاء .

(٢٣) مقدمة المسند ج ١ ص ١٠٤ تحقيق الامتاذ احمد شاکر .

وبعد أن طوفنا مع هذا الامام الجليل في حياته المشرقة نقدم لأهم أعماله العلمية التي تمثل طريقة التدوين على المسانيد وهو كتابه « المسند » .
مسند الامام أحمد

المسند في اصطلاح المحدثين هو الكتاب الذى تذكر فيه الاحاديث عن الصحابة رضى الله عنهم مرتبين على حروف الهجاء أو السوابق فى الاسلام أو شرف النسب^(٢٤)

ومنهج الامام احمد فى المسند هو جمع الاحاديث على ترتيب الصحابة الذين انتهى الحديث إليهم عن النبى ﷺ ، بحيث يوافق ترتيبهم السوابق الاسلامية ، وإن كان الحديث مرسلا كان على حسب التابعى الذى انتهى الحديث اليه عن النبى ﷺ فبدأ بأحاديث العشرة المبشرين بالجنة ثم أحاديث أهل الحديبية ثم مسلمة الفتح ثم أحاديث النسوة الصحابيات وهكذا حتى إذا وصل اتابعين رتبهم كذلك ، فهو يدون أحاديث كل صحابى على حدة دون نظر الى وحدة الموضوع حتى اذا فرغ من حديث واحد من الصحابة أخذ فى حديث غيره فكان مسلكه فى المسند متجها الى التدوين والجمع دون نظر الى التوبىب والترتيب الموضوعى رغبة منه فى جمع السنة والعمل على نشرها .

وكان الذى حدا به الى اتباع هذا المنهج فى التدوين هو :

١ - أن يصل الى أهل كل إقليم ما لم يصل إليهم من الاحاديث فقد رأى أن بعض الاحاديث فى الكوفة لا يصل إليها أهل بغداد وبعضها فى مكة لا يصل إليها أهل دمشق وأحاديث فى دمشق لا يصل إليها أهل اليمن ، وهكذا كان فى كل بلد محدثون فكيف يحصل على ما جمع هؤلاء وهؤلاء ؟ من احل هذا رأى انه لا بد من الرحلة فى جمع هذه الاحاديث المتفرقة فى البلاد النائية فبدأ بما سمعه ببغداد ثم اتجه الى الكوفة فالبصرة فمكة فالمدينة فاليمن وكان فى هذه البلاد يحرص على لقاء أهل الحديث ، ويجمع كل ما صح عنده وبهذا خطأ خطوة جديدة فى جمع الحديث وهى الرحلة فكانت سنة لمن جاء بعده ، وقد توسع فيها البخارى حتى قام برحلات اكثر منه .

ولئن كانت هناك مدونات قبل المسند الا أنها إقليمية منها ما هو بالمدينة ومنها ما هو بمصر وهكذا ، وأظهر الكتب المدونة قبله « الموطأ » للامام مالك رضى الله عنه ، وكان الغرض منه خدمة الفقه ولذا بويه تبويبا فقها بحيث يسهل الحصول منه على استخراج الدليل الشرعى واستنباط الحكم الفقهى وجاءت احاديث الموطأ محدودة بالنسبة الى المسند الذى اشتمل على أربعين ألف حديث بالمكرر ، ومن غير المكرر على ثلاثين ألفا .

(٢٤) مقدمة تحفة الاحوذى ص ٦٦ .

٢ - ما رآه أحمد في عصره من كثرة الأحاديث التي وضعها أعداء الدين والمنحرفون من أصحاب النحل الأخرى حتى عجز تيار الموضوعات بصورة أفزعت هذا الامام الجليل مما جعله يتصدى للقيام بهذا العمل الضخم والمجهود الكبير ليقدم ما صح في رأيه من أحاديث رسول الله ﷺ .

وقد ابتداء كتابة الحديث وتدوينه في مستهل حياته العلمية سنة ثمانين ومائة ١٨٠ هـ وعمره ستة عشر عاما ، وأثر كتابة الحديث رغم كراهته للكتابة لما رآه من الضرورة حتى لا يختلف الناس في السنة النبوية . وروى أن عبد الله قال : (قلت لأبي رحمه الله تعالى لم كرهت وضع كتب وقد عملت المسند ؟ فقال : عملت هذا الكتاب إماما اذا اختلف الناس في سنة عن رسول الله ﷺ رجع إليه) (٢٥) .

وقد ظل الامام احمد يجمع المسند الى آخر حياته في أوراق منفردة وأجزاء متفرقة على نحو ما تكون المسودة وأورد فيه أربعين ألف حديث منها عشرة آلاف مكررة من مجموع سبعمائة ألف حديث وخمسين ألفا كما جمع في المسند ثلاثمائة حديث ليس بينه وبين رسول الله ﷺ فيها غير ثلاثة رواة وهي ما تعرف بثلاثية الاسناد .

ومما ينبغي ملاحظته أن هذه السن المبكرة كانت بداية اشتغاله بالعلم وجمع الحديث ولكن تأليف المسند لم يشرع فيه الا بعد أن جاوز السادسة والثلاثين بعد رجوعه من عند عبد الرزاق بن همام وأخذ يتقحه مدة طويلة بعد ذلك حتى تمت ثقته فيما جمعه فأملاه على خاصته وولديه وابن عمه اسحاق ، يقول حنبل :
« ما سمعه - أي المسند - منه تاما غيرنا » (٢٦) .

وهذا الرأي هو الذي أرجحه وأراه أقرب الى الصواب ، اذ ان التصنيف في سن السادسة والثلاثين يكون الباحث فيها أكثر إلماما حيث تنمو المواهب العلمية عنده وكان الامام أحمد رغم ثقته فيما جمعه ورغم تحير الثقات الذين روى عنهم كان كثير التهذيب والتنقيح فيه وعندما أحس باقتراب أجله جمع أهل بيته وخاصته وسمعهم المسند كله ، ولكنه لم يكمل ما قام به من ترتيب وتهذيب .

(٢٥) خصائص المسند للحافظ أبي موسى اللدني مطبوع مع المسند جـ ١ ص ٢٢ تحقيق الاستاذ / احمد محمد شاكر .

(٢٦) احمد بن حنبل : عبد الحلیم الجندی ص ٢١٣ .

وكان المسند أجزاء ومجموعات في أوراق منفردة لم يرتب الا على يد ابنه عبد الله كما قام عبد الله هذا فألحق به ما ألحق ، وقد رأى بعض الباحثين ان الذي ألحقه عبد الله بالمسند قد زاده عليه عن سماع من غير أبيه ، ويرى البعض أنه من سماعه عن أبيه غير أنه لم يكن مما أملاه عليهم عند املاء المسند^(٢٧) وقد فصل الشيخ احمد البنا الرأي في هذا فقال : (بتبعي لاحاديث المسند وجدتها تنقسم الى ستة أقسام) .

- ١ - قسم رواه أبو عبد الرحمن عبد الله بن الامام أحمد عن أبيه سماعا منه وهو المسمى بمسند الامام أحمد وهو كبير جدا يزيد عن ثلاثة أرباع الكتاب .
- ٢ - قسم سمعه عبد الله من أبيه ومن غيره وهو قليل جدا .
- ٣ - وقسم رواه عن غير أبيه وهو المسمى عند المحققين بزوائد عبد الله وهو كثير بالنسبة للاقسام كلها عدا القسم الاول .
- ٤ - وقسم قرأه عبد الله على أبيه ولم يسمعه وهو قليل .
- ٥ - وقسم لم يقرأه ولم يسمعه ولكنه وجدته في كتاب أبيه بخط يده .
- ٦ - وقسم رواه الحافظ أبو بكر القطيعي عن غير عبد الله وأبيه رحمهما الله تعالى وهو أقل الجميع فهذه ستة أقسام وكل هذه الاقسام من المسند الا الثالث فانه من زوائد عبد الله والسادس فانه من زوائد القطيعي ،^(٢٨) (أ . هـ) .

وهذا الرأي الأخير وهو أن المسند قد اشتمل على هذه الاقسام السابقة وفيه من زيادة ابنه عبد الله ما فيه هو ما أرجحه وما يدعو الى الاطمئنان لما نقله عبد الله أن أباه كان يقبل ما يذكاره فيه من الحديث مما لم يسمعه ، وانه لم يكتب عن أحد الا من أمره أبوه أن يكتب عنه^(٢٩) ومن المستبعد أن يستجيز عبد الله لنفسه أن يروي في المسند عمن لم يأمره أبوه أن يكتب عنه ، وهو المعروف باخلاصه في طلب الحديث وأمانته العلمية وامتداد فضل أبيه إليه مما جعل خاصة العلماء يثنون عليه عاطر الثناء .

شرطه في الرواة الذين يأخذ عنهم

نهج الامام احمد فيما يدونه على الحيطه سندا ومتنا ، فاشترط الا يروي عمن كان معروفا بالكذب عنده ، كما تحمير الثقات الذين يروي عنهم فما كان يروي عن شخص يعتقد

(٢٧) ابن حنبل : الشيخ أبو زهرة ص ١٦٠ .

(٢٨) مقدمة الفتح الرباني ص ١٩ للشيخ أحمد البنا .

(٢٩) ابن حنبل : الشيخ أبو زهرة ص ١٦١ .

أنه ضعيف غير ضابط أو غير فاهم ، وإنما يروى عن الثقات العدول الذين اشتهروا بالصدق والتقوى . قال الحافظ أبو موسى : « لم يخرج أحمد في مسنده إلا من ثبت عنده صدقه دون طعن في أمانته » (٣٠) . وكان يرد بعض الأحاديث إذا عارضها أقوى منها سنداً وأوثق رجالاً ، ويقبل عن أهل التقوى الذين لم يعرفوا بالكذب وإن كان في ضبطهم بعض النقص فيقبل روايتهم على أن يوازن بينها وبين غيرها ، فإن عارضها ما هو أوثق منها ردها وقد يأخذ بها للاعتبار ، يقول : (قد أكتب حديث الرجل للاعتبار به) (٣١) .

وقد يكتبها احتياطاً منه ومخافة أن يترك حديثاً للرسول ﷺ يحتمل الصحة وبهذا النهج اشتمل المسند على أكثر الأحاديث النبوية .

(٣٠) مقدمة المسند تحقيق الأستاذ شاکر ص ٣٤ .

(٣١) ابن حنبل للاستاذ محمد أبى زهرة ص ٢٣٢ .

موازنة بين المسند وبين ما قبله وما بعده

من كتب الحديث

أما إذا نظرنا الى الكتب المصنفة قبل المسند فحسبنا أن نوازن بينه وبين أعظم كتاب صنف قبله في القرن الثاني وهو كتاب « الموطأ » للإمام مالك .

وأما بالنسبة لما صنف بعد المسند فحسبنا أن نوازن بينه وبين أعظم كتاب صنف بعده وهو صحيح البخارى .

أما « الموطأ » فهو كتاب الامام مالك بن أنس الأصبحى المولود بالمدينة حوالى سنة ٩٣ هـ المتوفى سنة ١٧٩ هـ وألف كتابه هذا فى أربعين سنة ، وقد قيل فى سبب تسميته بالموطأ أنه تجنب فيه شذائد ابن عمر ورخص ابن عباس ووطأه للناس كما أشار عليه المنصور فسماه « الموطأ » وذكر السيوطى فى سبب تسميته ما روى عن مالك أنه قال : عرضت كتابى هذا على سبعين فقيها من فقهاء المدينة فكلهم واطأن عليه فسميته « الموطأ » .

وقد بين ولى الله الدهلوى مكانة الموطأ من كتب السنة فوضعه فى درجة واحدة مع صحيح البخارى ومسلم ، وهى الدرجة الأولى فى الصحة قال : « وكتب (٣٢) الحديث على طبقات فالطبقة الأولى منحصرة فى ثلاثة كتب : الموطأ وصحيح البخارى وصحيح مسلم . كما بين أثر الموطأ فى كتب أئمة الحديث فقال : « ان الكتب المصنفة فى السنن كصحيح مسلم وسنن ابن داود وما يتعلق بالفقه من صحيح البخارى وجامع الترمذى مستخرجات على الموطأ تحوم حومه وتروم رومه » وقد بين الشيخ محمد الشنقيطى أن مشايخ أصحاب الكتب الستة ومن عاصرهم كالامام أحمد أغلبهم تلامذة الامام مالك الذين رووا عنه الموطأ بروايات عديدة قل أن تخلو واحدة عن زيادة تنفرد بها ، ولم يتركوا شيئاً من أحاديث الموطأ بل أخرجوها فى مصنفاتهم ووصلوا كثيراً من مراسلاته ومنقطعاته وموقوفاته (٣٣)

(٣٢) حجة الله البالغة للدهلوى ج ١ ص ١٠٦ ط الخيرية .

(٣٣) دليل السالك الى موطأ مالك . و مقدمة موطأ مالك للزرقانى .

وبذلك يتضح لنا ما للموطأ من أثر عظيم بالنسبة لتلك الكتب ، كما يتبين لنا ما لأصحاب هذه الكتب من مقدرة عالية في وصل المرسل ورفع الموقوف واستدراك ما فات وذكر المتابعات والشواهد لما أسنده ، ومن ذا الذي يستطيع القيام بهذا غير العالم بالسنة ورجالها . إذاً فأعمال هؤلاء الاثمة متممة لأعمال الامام مالك ، والامام أحمد هو أحد هؤلاء الاثمة الذين قاموا بواجبهم ، فدون كتابه بعد الموطأ فخرج أحاديثه في مسنده وكان له هذا العمل الجليل .

وإذا نظرنا الى الكتب المصنفة بعد الموطأ نجد أن أصحابها قد انتفعوا بمادة الموطأ ومنهجه ، ثم أخذوا في التجديد والابتكار بالنسبة للمنهج وطرق التدوين وشروط الرجال مما يشهد لهم بالجهود العظيمة المشكورة .

ومن الملاحظ أن الامام أحمد يتفق مع الامام مالك في قبول الحديث المرسل وهو الذي سقط من سننه الصحابي ورواه التابعي عن رسول الله ﷺ مباشرة ، كما قبل الحديث المنقطع وهو ما لم يتصل اسناده على أى وجه كان انقطاعه سواء كان الساقط منه الصحابي أو غيره فهو والمرسل واحد ، ولكن أكثر ما يستعمل في رواية من دون التابعي عن الصحابي كما لك عن ابن عمر (٣٤) .

ولعل وجهة كل من الامام مالك والامام أحمد في قبول المرسل والمنقطع أن رواية الحديث مظنة الورع ويبعد أن يزيد واحد منهم على الرسول ﷺ وكذلك فإن المتن في الغالب لا يتنافى مع ما جاء في الكتاب والسنة لذا قبل كل منها المرسل أو المنقطع دون غيرها .

ويختلف الامام احمد في « مسنده » عن الامام مالك في « الموطأ » من ناحيتين :

- ١ - نهج الامام مالك في ترتيب الاحاديث على حسب الأبواب الفقهية ، بينما نرى الامام احمد يرتبها على حسب الرواة .
- ٢ - من ناحية عدد الاحاديث : نرى أحاديث الموطأ محدودة بالنسبة للمسند الذي زادت أحاديثه على أربعين ألف حديث .

أما الموازنة بين المسند وصحيح البخارى فتتلخص في أمرين :

- ١ - بالنسبة للشروط ، فقد تشدد الامام البخارى في صحيحه أكثر من الامام أحمد حيث

(٣٤) تدريب الراوى ص ١٢٧ .

اشترط في الحديث أن يكون متصل الاسناد لا مرسلا ، وأن يكون راويه مسلما صادقا غير مدلس ، عدلا ضابطا سليم الذهن والاعتقاد ، معاصرا لمن روى عنه ، وثبت لقاؤه به .

٢ - من ناحية الترتيب : كان ترتيب المسند مغايرا لترتيب صحيح البخارى فترتيب المسند على حسب الرواة ، وترتيب صحيح البخارى على حسب الموضوعات ، وهذا الترتيب هو السبب في تقطيع البخارى للحديث في أبواب مختلفة ، أما مسند أحمد فقد سلم من ذلك الا أنه وقع في عيب آخر هو صعوبة الوصول الى الحديث المطلوب فكانت طريقته شاقة على الباحثين ، لأن الباحث لا يصل الى مطلوبه فيه الا بعد جهد كبير ، فمثلا اذا أراد الوصول الى معرفة حديث في حكم من أحكام الفقه فعليه معرفة راويه ، ثم يستعرض كل ما رواه هذا الصحابي حتى يصل الى الحديث المطلوب فاذا لم يكن يعرف راوى الحديث فان الجهد يكون أكثر ، إذ عليه حينئذ أن يستعرض قراءة الكتاب من أوله حتى يصل إلى ما يريد .

وكان عذر الامام أحمد في سلوك هذه الطريقة آنذاك يتلخص في أمرين :

الأول :

أنه جعل كل هدفه من تأليف المسند شيئا واحدا وهو جمع الاحاديث فقط ولم يضع في حسبانها فكرة الترتيب والتبويب ولا مسائل الفقه والأحكام ولذا جاء ترتيبه حسب الرواة .

الثانى :

ان هذه الطريقة التي جمع بها المسند (كانت سائغة ميسورة لأهل القرن الثالث الذين عظمت عنايتهم بحفظ الحديث وضبطه ومذاكرته ودرسه حتى كان الواحد منهم يحفظ المسند الكبير كما يحفظ السورة من القرآن الكريم ويعرف صحيحه من سقيمه وغثه من ثمينه) (٣٥) أ . هـ .

(٣٥) الحديث والمحدثون ص ٣٧٠ .

وقد تولى عبد الله بن الامام أحمد اخراج المسند الى الناس وهو الذى انتهج هذه الطريقة فى روايته للمسند حين قام يجمع المتناثر الذى جمعه أبوه ورتبه وهذبه وتسلسلت من بعده الروايات عن الثقات الى ان حفظته الأجيال وتلقته الأمة بالقبول . يقول الذهبى فى نقد هذا الترتيب « ولو أنه حررت ترتيب المسند وقربه وهذبه لأتى بأسنى المقاصد ، فلعل الله تبارك وتعالى أن يقبض لهذا الديوان السامى من يخدمه ويوب عليه ويتكلم عن رجاله ويرتب هيئته ووضعه فانه محتو على أكثر الحديث النبوى . وقل أن يثبت حديث الا وهو فيه » وقد قام بترتيب المسند الامام أبو بكر محمد بن عبد الله ابن المحب الصامت فرتبه على معجم الصحابة ورتب الرواة كذلك وأخذ هذا الكتاب أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير وأضاف إليه أحاديث الكتب الستة وكتاب ابن كثير اسمه « جامع المسانيد والسنن » وجمع غريبه أبو عمر محمد بن عبد الواحد المتوفى سنة ٣٤٥هـ واختصره عمر بن على المعروف بابن الملقن المتوفى سنة ٣٠٥هـ ورتبه على الأبواب الفقهية على بن حسين بن عروة ، وأبو الحسن على بن زكنون الحنبلى سنة ٨٣٧هـ وشرحه كذلك بعض الحفاظ الاصبهانيين والحافظ ناصر الدين بن زريق وبعض من تأخر عنه (٣٦) .

وقبض الله تعالى للمسند عالما جليلا هو المرحوم الشيخ أحمد بن عبد الرحمن بن محمد البنا الشهير بالساعاتى وانتهى من ترتيبه فى عام ١٣٥١هـ . ورتبه وبوبه حسب الموضوعات ووافته منيته بعد أن أخرج واحدا وعشرين جزءا وسمى هذا الكتاب « الفتح الربانى لترتيب مسند الامام أحمد بن حنبل الشيبانى » ثم شرح الكتاب وخرج أحاديثه فى كتاب آخر معه سماه « بلوغ الأمانى من أسرار الفتح الربانى » وقسمه سبعة أقسام :

- ١ - التوحيد وأصول الدين
- ٢ - الفقه .
- ٣ - التفسير
- ٤ - الترغيب
- ٥ - الترهيب
- ٦ - التاريخ وفيه السير والمناقب .
- ٧ - القيامة وأحوال الآخرة .

وميز بين الاحاديث التى هى أصل المسند والاحاديث التى هى من زيادات ابنه عبد الله وأبى بكر القطيعى .

(٣٦) كشف الظنون ج ٢ ص ٢٦٥ ، الرسالة المستطرفة ص ١ .

كما أخرج كتاب المسند اخراجا آخر عالم محقق هو الشيخ أحمد محمد شاكر رحمه الله وقام بعمل فهارس علمية ولفظية تعين الباحث على الاطلاع على مواضع الاحاديث . والفهارس اللفظية وفهارس الاعلام والجرح والتعديل والاماكن وغريب الحديث أما الفهارس العلمية فهي فهارس الأبواب والمسائل التي ترشد الى ما جاء في المسند من المعاني وقد رقم الأحاديث فأصبح ميسورا لكل قارئ أن يجد الباب الذي يقصده والمعنى الذي يريده ، ولم يخرج الأحاديث كلها وانما عني ببيان درجة الحديث ، فيذكر صحة الحديث ان كان صحيحا ويبين سبب الضعف ان كان ضعيفا . وصدر الكتاب ببحوث سماها طلائع الكتاب تضمنت ما قاله بعض الاثمة في المسند . كما ذكر ترجمة للامام احمد نقلها من كتاب تاريخ الاسلام للحافظ الذهبي . وقد أكمل منه خمسة عشر جزءا ثم لحق بربه ، رحمه الله رحمة واسعة . ثم أكل من بعده فضيلة الدكتور الحسين هاشم رحمة الله واسعة من الجزء السادس عشر حتى الجزء التاسع عشر ، ثم اشترك معه الدكتور أحمد عمر هاشم في الجزء العشرين والحادي والعشرين ، وهو بصدد اكمال بقية الأجزاء حيث اكتمل الجزء الثاني والعشرين . . ثم بقية الأجزاء ان شاء الله تعالى .

درجة أحاديث المسند :

اختلف العلماء في درجة أحاديث المسند على أقوال منها :

أولا : ذهب بعضهم : الى أن كل ما في المسند صحيح يحتج به ، والى هذا يشير كلام الحافظ أبي موسى المديني : « وهذا الكتاب أصل كبير ، ومرجع وثيق لأصحاب الحديث ، انتقى من حديث كثير ، ومسموعات وافرة فجعله إماما ومعتمدا وعند التنازع ملجأ ومستندا ، وما قاله الامام أحمد : « فما اختلف المسلمون فيه من حديث رسول الله ﷺ فارجعوا اليه ، فان كان فيه وإلا فليس بحجة » (٣٧) .

واستند أصحاب هذا الرأي الى حيلة ابن حنبل فيما يرويه سندا ومتنا كما سبق . واذا نظرنا الى قول الامام احمد السابق نرى أنه ليس صريحا في أن كل ما فيه حجة ، ولكنه صريح في أن ما ليس فيه ليس بحجة ، هذا مع أن هناك أحاديث صحيحة مخرجة في الصحيحين وليست فيه ، منها حديث عائشة في قصة أم زرع (٣٨) وقد أجاب بعض العلماء على ما فات المسند من الاحاديث الصحيحة والمخرجة في الصحيحين بعدة أجوبة منها :

(٣٧) مقدمة المسند ص ٢١ تحقيق الاستاذ شاكر .

(٣٨) تدريب الراوي ص ١٠٠ .

١ - ان الامام أحمد جمع المسند في أوراق مفردة ، وفرقه في أجزاء منفردة وبعد أن توفي قام ابنه فالحق به ما يشاكله ، وضم إليه من بعض مسموعاته ما يماثله ، فسمع القطيعي ما ظفر به منها ، وبقي كثير من الاحاديث في الأوراق والأجزاء لم يظفر بها ، فيما لم يوجد فيه من الاحاديث الصحاح فهو من هذا القبيل (٣٩) .

٢ - وقال الحافظ الذهبي : « هذا القول منه على غالب الأمر والا فلنا احاديث قوية في الصحيحين والسنن والأجزاء ما هي في المسند » (٤٠) أ . هـ ، فيكون القول محمولاً على الغالب والأكثر .

٣ - أو أنه يريد بقوله (. . .) فان كان فيه وإلا فليس بحجة) يريد أصول الاحاديث بمعنى : أنه ما من حديث في الغالب ، الا وكان له أصل في المسند وما لم يوجد فيه من حديث صحابي معين يكون معناه موجوداً من حديث صحابي آخر . والحق أنه كتاب عظيم تحرى فيه صاحبه جمع السنة ، والرجوع اليه اذا اختلف الناس . وأرجح أن القول السابق محمول على غالب الأمر ، اذ لا يحيط أحد بسنة الرسول ﷺ جميعها لما سبق بيانه من بعض الاحاديث المخرجة في الصحيحين والتي لم توجد في المسند . كما أن المحدثين قد يختلفون في درجة الحديث كاختلاف الفقهاء في الاحكام الشرعية الظنية .

ثانياً : وذهب قوم الى أن فيه الصحيح والضعيف والموضوع ، ومن هؤلاء : ابن الجوزي فقد ذكر في موضوعاته تسعة وعشرين حديثاً من مسند الامام أحمد ، وحكم عليها بالوضع أيضاً ورد على من قال : أن أحمد شرط الصحيح في مسنده وبين أن المراد بكلام الامام أحمد هو أن ما ليس في المسند فليس بحجة لا أن جميع ما فيه حجة .

ثالثاً : وذهب قوم الى أن في المسند الصحيح والضعيف الذي يقرب من الحسن ومن ذهب الى ذلك الذهبي وابن حجر والسيوطي ، وتعقبوا ابن الجوزي والعراقي فيما زعماه من وجود احاديث موضوعة ، فذكروا لها شواهد ودافعوا عنها ، ولم يسلم ابن حجر الا بثلاثة أو أربعة احاديث لا أصل لها ، منها حديث عبد الرحمن بن عوف أنه يدخل الجنة زحفاً ، وقيل في الاعتذار عنه : أنه مما أمر أحمد بالضرب عليه فترك سهواً ، أو ضرب وكتب من تحت الضرب . وهذا هو الحديث المذكور .

(٣٩) مقدمة المسند ص ٢٠ بتحقيق الأستاذ / شاکر .

(٤٠) الباعث الحثيث ص ١٨٦ .

قال الامام أحمد أنا عبد الصمد بن حسان أنا عمارة عن ثابت عن أنس قال : بيني عائشة في بيتها سمعت صوتنا في المدينة فقالت ما هذا ؟ فقالوا غير عبد الرحمن بن عوف قدمت من الشام تحمل كل شيء قال وكانت سبعمائة بعير فارحجت المدينة من الصوت فقالت عائشة سمعت رسول الله ﷺ يقول قد رأيت عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبوا فبلغ ذلك عبد الرحمن فقال إن استطعت لأدخلنها قائما فجعلتها في سبيل الله عز وجل بأقنابها وأحمالها . وهذا الحديث أورده ابن الجوزي في الموضوعات وقال: قال أحمد هذا الحديث كذب منكر قال وعمارة يروي أحاديث مناكير وقال أبو حاتم الرازي عمارة بن زاذان لا يحتج به . انتهى .

وقد أجاب عن هذا الحديث ابن حجر بقوله : « حديث (٤١) أنس عن عائشة في قصة عبد الرحمن بن عوف لم ينفرد به عمارة الراوي المذكور فقد رواه البزار من طريق أغلب بن تميم عن ثابت البناني بلفظ : أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتي عبد الرحمن بن عوف والذي نفس محمد بيده لن يدخلها الا حبوا . قلت : « وأغلب » شبيه بعمارة بن زاذان في الضعف لكن لم أر من اتهمه بالكذب . وقد رواه عبد بن حميد في مسنده أتم سياقاً من رواية أحمد . قال عبد بن حميد في مسنده حدثنا يحيى بن اسحاق ثنا عمارة بن زاذان عن ثابت عن أنس أن عبد الرحمن بن عوف لما هاجر أخى النبي ﷺ بينه وبين عثمان بن عفان فقال له إن لي حائطين فاختر أيهما شئت فقال بارك الله لك في مالك ما لهذا أسلمت دلتى على السوق قال فذله فكان يشتري السمنة والإقط و لاهاب فجمع فتزوج فأتى النبي ﷺ فقال له : بارك الله لك أو لم ولو شاة قال فكثرت ماله حتى قدمت له سبعمائة راحلة تحمل البر وتحمل الدقيق والطعام فلما دخلت المدينة سمع لأهل المدينة رجة فقالت عائشة ما هذه الرجة فذكر الحديث . وفيه من النكارة أيضا إثناء عبد الرحمن لعثمان والذي في الصحيحين أنه سعد بن الربيع وهو الصواب والذي أراه أنه يكفينا شهادة الامام أحمد بأنه كذب وأولى ما يحمل عليه أن نقول هو من الاحاديث التي أمر الامام أحمد أن يضرب عليها فيما أن يكون الضرب ترك سهواً وأما أن يكون بعض من كتبه عن عبد الله كتب الحديث وأخل بالضرب والله أعلم « أ . ه .

ويرى ابن تيمية : أن في بعض أحاديث المسند ضعفاً من حيث الاصطلاح ، ولكنه لا يسلم أن فيه موضوعاً برواية أحمد ، وما يظهر أنه موضوع فهو من زيادات القطيعي راويه وقد ألف ابن حجر كتابه ، « القول المسدد في الذب عن المسند » وسرد فيه

الأحاديث التي جمعها العراقي وحكم عليها بالوضع ، وهي تسعة ، وأضاف إليها خمسة عشر حديثاً أوردها ابن الجوزي في الموضوعات وهي فيه وأجاب عنها حديثاً حديثاً ، ويقول السيوطي « وقد فاته أحاديث أخر أوردها ابن الجوزي وهي فيه ، وجمعتهما في جزء سميته (الذيل الممهد) مع الذب عنها . وعدتها أربعة عشر حديثاً » (٤٢) .

وقد أجاب ابن حجر - في دفاعه عن الأحاديث التي أوردها ابن الجوزي - أجابة اجمالية أولاً ، ثم تناول الأحاديث بعد ذلك بالتفصيل ، أما الاجابة الاجمالية : فبين فيها أن الأحاديث المذكورة « ليس فيها شيء من أحاديث الأحكام في الحلال والحرام والتساهل في إيرادها مع ترك البيان بحالها شائع ، وقد ثبت عن الامام أحمد وغيره من الأئمة انهم قالوا : اذا روينا في الحلال والحرام شددنا واذا روينا في الفضائل ونحوها تساهلنا وهكذا حال هذه الأحاديث » (٤٣) .

وأما الاجابة التفصيلية : فلنضرب مثلاً عليها بحديث من الأحاديث التي كان الحق فيها مع الحافظ ابن حجر ، بل وأخرجه الامام مسلم في صحيحه :

قال الامام احمد : حدثنا أبو عامر نا أفلح بن سعيد نا عبد الله بن رافع سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « إن طالت بك مدة أو شك أن ترى قوما يغدون في سخط الله عز وجل ويروحون في الفتنة في أيديهم مثل أذنان البقر » (٤٤) ذكره ابن الجوزي في الموضوعات باسناد المسند أيضاً ، ونقل عن ابن حبان أنه قال : « إن هذا الخبر باطل » ، وأفلح « كان يروى عن الثقات الموضوعات » ، وهذا الحديث أخرجه مسلم عن جماعة من مشايخه عن أبي عامر العقدي بهذا وأخرجه من وجه آخر وقال ابن حجر : ولم أقف في كتاب الموضوعات لابن الجوزي على شيء حكم عليه بالوضع وهو في أحد الصحيحين غير هذا الحديث ، وإنما لغفلة شديدة منه ، « وأفلح » المذكور يعرف بالقبائى مدنى من أهل قباء ثقة مشهور ، وثقه ابن معين وابن سعد ، وقال ابن معين أيضاً والنسائي : لا بأس به وقال أبو حاتم شيخ صالح الحديث . وأخرج له مسلم في صحيحه . وقد روى عنه عبد الله بن مبارك ، وطبقته . ولم أر للمتقدمين فيه كلاماً الا أن العقيلي قال : لم يرو عنه ابن مهدي وقال ابن حجر : وليس هذا بجرح ، وقد غفل ابن حبان فذكره في الطبقة الرابعة من

(٤٢) تدريب الراوى ص ١٠١ .

(٤٣) القول المسدل لابن حجر ص ١١ .

(٤٤) رواه الامام أحمد في المسند ج ٢ ص ٢٠٨ رقم ٨٠٥٩ والامام مسلم في صحيحه ج ٢ ص ٣٥٥ .

الثقات وقد أخطأ ابن الجوزى فى تقليده لابن حبان فى هذا الموضوع خطأ شديداً وغلط ابن حبان فى « أفلح » فضعفه بهذا الحديث وعقبه بأن قال : هذا بهذا النلفظ باطل والمحفوظ عن سهيل عن أبيه عن أبى هريرة بلفظ : « اثنان من أمى لم أرهما : رجال بأيديهم سياط مثل أذنان البقر ونساء كاسيات عاريات » وتعقب الذهبى فى الميزان كلام ابن حبان هذا فقال : « حديث أفلح حديث صحيح غريب ورواية سهيل شاهدة له وابن حبان ربما جرح الثقة » وقد صححه من طريق أفلح أيضا الحكم فى المستدرک وصححه من طريق سهيل عن أبيه عن أبى هريرة قال حدثنا أبو حيشمة ثنا جرير عن سهيل عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذنان البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مميلات مثلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا » وأخرج البيهقى فى دلائل النبوة من طريق الحسن بن سفيان عن محمد بن عبد الله بن نمير ثنا زيد بن الحباب حدثنا أفلح بن سعيد فذكره ولفظه : « يوشك إن طالت بك مدة أن ترى قوما فى أيديهم مثل أذنان البقر يغدون فى غضب الله ويروحون فى سخطه » قال البيهقى رواه مسلم عن محمد بن عبد الله بن نمير وهو كما قال : قال ابن حجر : « فلقد أساء ابن الجوزى لذكره فى الموضوعات حديثا من صحيح مسلم (٤٥) أ . ه .

وهذا الذى قدمناه نموذج لاجابة ابن حجر التفصيلية على الأحاديث لتي أوردوها بين الموضوعات وقد رأينا الى أى حد كان ابن حجر موفقا فى دفاعه .

وخلصا الأراء :

١ - أن العلماء يقررون فى شبه اتفاق على أن فى المسند الضعيف لأن الامام أحمد كان يروى عن من لا يعرف بالكذب ، ويروى عن من ضعف حفظه ويعتضد به .

٢ - يرى البعض أن المسند ليس فيه موضوع قط وعن ذهب الى ذلك الحافظ أبو موسى المدينى وأبو العلاء الهمدانى ونحوهما .

٣ - ويرى البعض أن فى المسند الأحاديث الموضوعة كأحاديث فضائل مروى وعسقلان وغير ذلك . وهؤلاء يختلفون : هل هى برواية أحمد أم لا ؟ فىرى البعض : ان المسند ليس فيه موضوع برواية أحمد ، وإنما هو من زيادة القطيعى . ويرى البعض الآخر

أن في المسند الموضوع برواية أحمد أو ابنه وعن ذهب إلى ذلك العراقي وقد رد عليه ابن حجر كما سبق .

والذي أرجحه هو أن بعض الأحاديث كان الحق فيها مع الحافظ ابن حجر ، وهي لا تصل إلى حد أن يحكم عليها بالوضع ، وأن البعض الآخر تكلف الحافظ في الرد عليهما ، وبدل على ذلك رجوعه في الرأي وحكمه بالوضع على بعض الأحاديث .

ويمكن التقريب بين الآراء في درجة أحاديث المسند بحيث لا يكون هناك اختلاف كبير بينهما وذلك بإرجاع الرأيين : الأول والثاني إلى الثالث .

فمن قال بأن في المسند بعض الأحاديث الموضوعية نظر إلى زيادات القطيعي وعبد الله ، ومن قال : بأن ما فيه صحيح يحتاج به لا يتنافى قوله مع وجود الضعيف ، لأن الضعيف دائر بين الحسن لذاته والحسن لغيره .

وإذا كنا قد وقفنا الآن على النقد القديم ، فلننظر بعد ذلك إلى النقد الحديث الذي وجه إلى المسند ، ثم ترد عليه . . .

الطعن في مسند الامام أحمد بن حنبل والرد عليه

وقد طعن (أبو رية) في مسند الامام أحمد وغيره من كتب المسانيد ، وذلك في كتابه : أضواء على السنة المحمدية حيث يقول في صفحة « ٣٢٢ » : (واننا لم نعرض لهذا الكتاب - يعنى مسند الامام أحمد - ولا إلى غيره من كتب المسانيد بالتفصيل وهي كثيرة ، الا لأن العلماء قد تكلموا فيها ، وقضوا بأنه لا يسوغ الاحتجاج بها ولا التعويل عليها ، على أننا قد رأينا أن نتكلم عن مسند أحمد الذي هو أشهرها ، لتبين للمسلمين حقيقته ، ونكشف عن درجته) وفي خلال عرضه للدليل على دعواه الزائفة ينقل كلام الشيخ طاهر الجزائري في كتاب (توجيه النظر) حيث قال : « وكتب المسانيد هي ما أفرد فيها حديث كل صحابي على حدة من غير نظر للأبواب وقد جرت عادة مصنفها أن يجمعوا في مسند كل صحابي ما يقع لهم من حديثه صحيحا أو سقيا ، ولذلك لا يسوغ الاحتجاج بما يورد فيها مطلقا » (٤٦) أ . هـ .

(٤٦) توجيه النظر ص ١٥٣ .

الاجابة على هذا الطعن

والحق أن كتب المسانيد دون كتب السنن في الرتبة ، وهذا لا خلاف فيه ، ولا ينكره أحد ولكن دعوى أن الأئمة لا يحتجون بما في كتب المسانيد ، ولا يعولون عليها ، فهذا هو الجهل الفاضح ، والظلم بعينه ، والتجنى على هذه الكتب تجنيا لا يرضاه ذو عقيدة صحيحة .

وفن الواضح أن قولهم : (لا يحتج بما ورد فيها مطلقا) مراد به انه لا يحتج بكل حديث منها لأنها تجمع بين الصحيح والحسن والضعيف ، والعلماء إنما يحتجون بالصحيح والحسن دون الضعيف ولهذا كان الواجب البحث عن درجة أحاديث المسند ، والتأكد من صلاحيتها للاحتجاج . ومن المعلوم أن معظم الأحاديث التي دونت في مسند الإمام أحمد مما يصح الاحتجاج بها ، لأنها إما صحيحة ، أو حسنة ، وفيه أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما من كتب السنة المعروفة ، وما يشهد لمسند الامام أحمد بالفضل وأنه اشتمل على كثير من أحاديث الصحيحين ما قاله الحافظ الفقيه محمد البيهقي حين سئل : أنت تحفظ الكتب الستة ؟ فقال : أحفظها وما أحفظها ، ف قيل له : كيف هذا ؟ فقال : أنا أحفظ مسند أحمد وما يفوت المسند من الكتب الستة إلا قليل فأنا أحفظها بهذا الوجه^(٤٧) نعم ، في المسند أحاديث ضعيفة ، بل وموضوعة على ندره إلا أن أغلب تلك الأحاديث إنما هي من زيادات عبد الله ابن الامام ، وزيادات أبي بكر القطيعي راويه ، وهي مع ذلك قليلة ، وفي الفضائل فقط لا في الاحكام ، ولهذا فهي لا تؤثر على درجة المسند ، ولا تنقص من قيمته الجليلة في نفوس الأئمة والعلماء ، وبهذا يرد ما أثير حول المسند من دعاوى زائفة تدل على خبث نية أصحابها وسوء طويتهم ، وتتضح لنا درجة المسند من الصحة وأنه مرجع وثيق لأصحاب الحديث كما قال الامام الحافظ الكبير أبو موسى المديني : (وهذا الكتاب - أي المسند - أصل كبير ومرجع وثيق لأصحاب الحديث انتقى من حديث كثير وموسوعات وافرة فجعله إماما ومعتمدا وعند التنازع ملجأ ومستندا) . أهـ .

منهج الامام أحمد في الأخذ بالأحاديث الضعيفة

كان الامام أحمد لا يروى في المسند عن عرف بالكذب وإنما يروى عن الثقات العدول ولا يرد حديثا لنقد في متنه الا اذا عارضه حديث غيره أقوى منه . ومن المعلوم أن الأحاديث في عصر الامام أحمد وقبل الترمذي تنقسم الى أحاديث :

(٤٧) مقدمة الفتح الرباني ص ٩ للاستاذ عبد الرحمن الساعاتي .

١ - صحيحة تتوافر فيها شروط الصحة فتكون مقبولة .

٢ - والى احاديث ضعيفة لا تتوافر فيها هذه الشروط وعلى ذلك يدخل في الفرع الثاني الحديث الحسن كما يدخل الحديث الضعيف الذي ارتفع الى درجة الحسن بتعدد الطرق . قال ابن تيمية في ذلك : أول من عرف أنه قسم الحديث الى صحيح وحسن وضعيف أبو عيسى الترمذى ولم تعرف هذه القسمة عن أحد قبله وقد روى عن الامام أحمد أنه كان يعمل بالحديث الضعيف ويجعل منزلته في العمل بعد فتاوى الصحابة وأن المسند فيه الاحاديث الضعيفة وأن الامام أحمد كان يقبل الرواية على الضعفاء اذا لم يعرفوا بالكذب فيروى عن من لم يشتهر بالضبط كأبن لهيعة وغيره ممن لا يكذبون ، ويعرفون بالصلاح .

وكان الضعيف عندهم نوعين : ضعيف ضعفا لا يمنع العمل به وهو يشبه الحسن في اصطلاح الترمذى ، وضعيف ضعفا يوجب تركه وهو الواهى . وقبل بيان منهج الامام أحمد في الأخذ بالاحاديث الضعيفة أبين مذاهب العلماء في العمل بها :

١ - مذهب كبار الحفاظ والمحدثين كالبخارى ومسلم وهو أنه لا يعمل بالاحاديث الضعيفة مطلقا لا في الأحكام ولا للاعتبار والمواعظ ووجهتهم في ذلك : أن أمور الدين لا تأخذ الا من كتاب الله تعالى أو من سنة رسوله عليه الصلاة والسلام الصحيحة أما الاحاديث الضعيفة فغير صحيحة والأخذ بها إنما هو زيادة في الشرع على غير علم بل إنه يعتبر منيها عنه أخذا من قوله تعالى « ولا تقف ما ليس لك به علم » فالخير إذاً أن يقول الانسان برأيه فيما لم يرد فيه نص حتى اذا اعتراه خطأ كان منسوباً الى رأيه لا الى الرسول ﷺ ولذا لم يأخذوا بالضعيف من الأحاديث الا اذا رويت من وجوه متعددة ترفعها الى درجة الحسن .

٢ - مذهب بعض علماء الفقه والأثر : وهو أنه يعمل بالاحاديث الضعيفة في الفضائل : روى عن عبد الرحمن بن مهدي كما أخرجه البيهقي إذا روينا عن النبي ﷺ في الحلال والحرام والاحكام شددنا في الاسانيد وانتقدنا في الرجال واذا روينا في الفضائل والعقاب سهلنا في الاسانيد وتسامحنا في الأحاديث . وروى مثل هذا القول عن الامام أحمد وبذلك تتضح وجهة نظرهم في أن الحديث الضعيف اذا لم يترتب عليه حكم بالحلال والحرام يتساهلون فيه .

٣ - مذهب الامام أحمد وأبي داود وهو العمل بالحديث الضعيف اذا لم يكن في الباب حديث صحيح أو حسن أو فتوى صحابي . هذا وقد اشترط الحافظ ابن حجر في الأخذ بالاحاديث الضعيفة ثلاثة شروط :

الأول : أن يكون الضعف بسيطا غير شديد وهذا الشرط متفق عليه .

الثاني : أن يدخل تحت أصول معمول بها حتى لا يكون غريبا عن قواعد الاسلام .

الثالث : ألا يعتقد ثبوته بل يحتاط للحديث لاحتمال أن تصح نسبه الى النبي ﷺ . تلك هي آراء العلماء في العمل بالحديث الضعيف وهذا ما اشترطه الحافظ ابن حجر في الأخذ بها .

أما الامام أحمد بن حنبل فانه من الذين يذهبون إلى الأخذ بالأحاديث الضعيفة ويقدمونها على الرأي الا أنه لا يجعل الحديث الضعيف في مرتبة الصحيح وانما يؤخره عن فتوى الصحاب فيقول في هذا . لا تكاد ترى أحدا ينظر في الرأي الا وفي قلبه غل والحديث الضعيف أحب الى من الرأي . وقال عبد الله : سألته عن الرجل الذي يكون يبلى لا يجد فيه إلا صاحب حديث لا يدري صحيحه من سقيمه وصاحب رأى فمن يسأل ؟ قال يسأل صاحب الحديث ولا يسأل صاحب الرأي (٤٨) .

ولقد دون الامام أحمد في مسنده ضمن ما دون بعض الأحاديث الضعيفة لأنه أراد من المسند أن يكون جامعا لكل ما روى عند أهل عصره فكان يدون كل ما يتلقاه اذا لم يثبت أن هناك ما يخالفهم متقيدا في ذلك بالشروط التي اشترطها العلماء في الأخذ بالحديث الضعيف . وقد قرر ابن تيمية أن الحديث الضعيف في نظر أحمد والذي يقبله هو من قبيل الضعف الذي يرتفع الى مرتبة الحسن وأن أحمد كان يعتبر الضعيف قسيم الصحيح ولا يعتبر الحسن الا ضعيفا ويقبله بهذا الاسم ، ويقول في ذلك : وأما قولنا أن الحديث الضعيف خير من الرأي فليس المراد به الضعيف المتروك ولكن المراد به الحسن ، وكان الحديث في اصطلاح من قبل الترمذى إما صحيح وإما ضعيف والضعيف نوعان ضعيف متروك وضعيف ليس بمتروك وتكلم أئمة الحديث بهذا فلما جاء من لا يعرف الا اصطلاح الترمذى فسمع قول بعض الأئمة الحديث الضعيف أحب الى من القياس فظن أنه يحتج بالحديث الذي يضعفه مثل الترمذى (أ . هـ) . فرأى ابن تيمية اذا : ان الضعيف الذي يقبله أحمد هو من القسم المسمى بالحسن الا أن في المسند من الأحاديث ما ليس محكوما عليه بأنه من قبيل الحسن بل من قبيل الضعف حتى في اصطلاح الترمذى ومن بعده ، ومثل ذلك إنما يقدمه الامام أحمد احتياطا في الدين لاحتمال صحة نسبه الى النبي ﷺ ، ذلك أنه حين لا يجد حديثا صحيحا في موضوع الفتوى وليس أمامه غير الحديث الضعيف

(٤٨) ابن حنبل : الأستاذ أبو زهره ص ٢٣٩ .

يرى نفسه بين حرجين : فهو إما أن يفتى برأيه وهذا ما يكرهه ، ولا يلجأ إليه إلا في الضرورة القصوى رجاء أن يكون الرأي صواباً ، أما إن أخطأ فنسبة الخطأ تعود عليه ، وإما أن يأخذ بضعيف الاخبار فيكون فيه مدعاة للحكم بصحة نسبه فيثبت الى الرسول ﷺ قولاً لم يثبت بطريق سليم ، اذا كان يتخذ موقفاً وسطاً فعمل بموجب الحديث الضعيف حيلة في الدين واحتمالاً للصدق دون أن يحكم بصحة نسبه ، ويقول في ذلك : انه ضعيف وأنه مع ضعفه أحب عندي من الرأي ، (٤٩) .



الفصل الثاني

ويشتمل على بحثين :

البحث الأول : الصحيحان .

البحث الثاني : السنن الأربعة .

ولنبداً بالتعريف بشيخ الحفاظ وصاحب أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى ألا وهو :

الإمام البخارى

نسبه ونشأته :

هو أمير المؤمنين في الحديث الامام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة بن بردزبة^(١) الجعفى ولاء حيث أسلم جده المغيرة على يد اليمان الجعفى وإلى بخارى فانتمى اليه بالولاء ، البخارى مولدا .

ولد أبو عبد الله بمدينة بخارى احدى مدن ما وراء نهر جيحون على بعد ثمانية أيام من سمرقند من بلاد فارس وهذه المدينة الآن تتبع الاتحاد السوفيتى .

وكانت ولادة البخارى بها يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال سنة أربع وتسعين ومائة من الهجرة^(٢) . وكان والده ورعا تقيا ومحدثا فاضلا . كما كان ثقة ترجم له ابن حبان في كتاب الثقات كما ترجم له ولده في التاريخ الكبير . وقد خرج اسماعيل حاجا قبل سنة ١٧٩ هـ وتقابل مع امام المدينة مالك بن أنس وحدث عن أبي معاوية بن صالح وجماعة وروى عنه أحمد بن حفص وغيره من العراقيين وبلغ اسماعيل في ورعه درجة عالية ، فكان يتعد عن الشبهات وثروته الطائلة التى جمعها نقيه خالصة استثمرها في

(١) بردزبة : كلمة فارسية معناها الزراع أى الفلاح أو البستان .

(٢) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٥٧٦ ومقدمة فتح البارى ص ٤٧١١

الخيرات روى عنه أحمد بن حفص قال : دخلت عليه عند موته فقال : لا أعلم في جميع مالى درهما من شبهة ، فتصاغرت الى نفسى^(٣) وفى بيثة الظهر والورع والدين والدنيا استقبل بيت الحديث والنعمة محمد بن اسماعيل وقد لبث الوالد قرير العين بابنه الى أن عاجلته المنية فترك ابنه طفلا صغيرا فكفلته أمه وقامت بتربيته ورعايته وعقدت عليه اسمى الآمال ، ثم وجهته الى التعليم لينسج على منوال أبيه ويستفيد مما خلفه من ثروة العلم فاتجهت به الى الكتاب ليحفظ القرآن الكريم والحديث الشريف وما أن بلغ البخارى العاشرة من عمره إلا وأهمه الله حفظ الحديث الشريف فى هذه السن المبكرة مما يدل على ما وهبه الله له من قدرة فائقة فى الحفظ وقرىحة وقادة فيه ، يقول محمد بن أبى حاتم وراق البخارى : سمعت البخارى يقول : أهدمت حفظ الحديث وأنا فى الكتاب فقلت كم أتى عليك اذ ذاك؟؟ فقال عشر سنين أو أقل^(٤) ولهذا النبوغ الهائل انطلق البخارى فى سن الحادية عشرة قاصدا أئمة الحديث لينهل من مواردهم يساعده على ذلك عقلية واعية وحافضة قوية ومما يدل على نبوغه العلمى ما تحدث به عن نفسه فى هذه المرحلة : (ثم خرجت من الكتاب فجعلت اختلف الى الداخلى وغيره فقال يوما فيما كان يقرأ الناس : سفيان عن أبى الزبير عن ابراهيم فقلت : إن أبأ الزبير لم يرو عن ابراهيم فانتهرنى فقلت له : ارجع الى الأصل إن كان عندك فدخل فنظر فيه ثم رجع فقال كيف هو يا غلام ، فقلت : هو الزبير وهو ابن عدى بن ابراهيم ، فأخذ القلم وأصلح كتابه ، وقال لى : صدقت ، قال : فقال له انسان ابن كم حين رددت عليه؟؟ فقال : ابن احدى عشرة سنة^(٥) .

منهج البخارى فى طلب الحديث :

ينحصر منهج البخارى فى طلب الحديث فى أمور ثلاثة الأول : العناية بالسند والمتن ، والثانى : رحلاته العلمية ، والثالث : حفظه ومعرفته بعوم الحديث .

١- العناية بالسند والمتن : أما بالنسبة للاول فمنذ اتجه البخارى الى طلب الحديث وهو يعنى بالاسناد فعرف الرجال وتواريخهم وأحوالهم ، وعنى بالمتن وأصوله وكان لا يروى الموقف الذى روى عن الصحابى أو لمقطوع الذى وقف على التابعى الا اذا كان له أصل

(٣) الطبقات الكبرى لابن السبكي جـ ٢ ص ٢١٣ .

(٤) النكت لابن حجر ص ٧ مخطوط بمكتبة الأزهر .

(٥) مقدمة فتح البارى ص ٤٧٩ ، الطبقات الكبرى لابن السبكي جـ ٢ ص ٢١٦ .

من القرآن الكريم أو السنة الصحيحة المسندة يقول سليم بن مجاهد كنت عند محمد بن سلام البيكندی فقال : لوجئت قبل لرأيت صبيا يحفظ سبعين ألف حديث فخرجت حتى لحقته فقلت له : أنت تحفظ سبعين ألف حديث ؟ قال نعم وأكثر ولا أجيئك بحديث عن الصحابة والتابعين الا عرفت مولد أكثرهم ووفاتهم ومساكنهم ولست أروى حديثا من حديث الصحابة والتابعين إلا ولى من ذلك أصل أحفظه من الكتاب أو السنة^(٦) . وهكذا حياته عناية الله وتوفيقه لسلوك طريق العلم منذ صغره على أساس متين مع الاستعداد الفطرى والعقلية الحادة مما جعل لمروياته الثقة المتوفرة كما أعانه على تحصيل العلم واستيعابه ما تركه والده من التراث العلمى النافع فظل يحفظ ويناقش ويطلب العلم حتى ذاع صيته وأصبح موضع الإعجاب من شيوخه ، وما أن بلغ من عمره ست عشرة سنة الا وحفظ كتب ابن المبارك ووكيع وعرف مذاهب أهل الراى وكلامهم .

٢ - رحلاته العلمية : أما عن رحلات البخارى فى طلب العلم فقد كابد الاخطار فى رحلاته وبذل كثيرا من الجهود المفضية فى طلب العلم وتحرى الاحاديث الصحيحة ولم يكتف البخارى فيما يرويه على ما جمعه من احاديث بلده الذى يعيش فيه وإنما هاجر ورحل الى كثير من البلاد يجالس المحدثين والحفاظ لياخذ عنهم ويسمع منهم ولم يأل جهدا فى استيعاب ما عند المحدثين حتى جمع الكثير من الحديث . وقد حفزه الى الرحلة ما وفقه الله تعالى اليه من إلهامه الصواب وتذليل طرق البحث والتعليم ، وما كان يستشعره فى نفسه من نهم علمى وطموح مبكر وتوجيه سديد . وقد ابتداء البخارى رحلته بمكة المكرمة مهبط الرسالة ليؤدى فريضة الحج فخرج هو وأمه وأخوه أحمد سنة عشرة ومائتين ٢١٠ هـ وأقام البخارى بمكة يطلب العلم ورجع أخوه أحمد الى بخارى ، وفى مكة سمع من أبى الوليد أحمد بن محمد الارزقى واسماعيل بن سالم الصايغ ثم اتجه بعد ذلك الى المدينة المنورة دار الهجرة ، وفى رحاب المسجد النبوى ويجوار صاحب الرسالة ﷺ بدأ البخارى تأليف ما وفقه الله اليه فصنف قضايا الصحابة والتابعين ثم صنف التاريخ الكبير قال البخارى : فلما طعنت فى ثمانى عشرة صنف كتاب قضايا الصحابة والتابعين ثم صنف التاريخ فى المدينة عند قبر النبى ﷺ وكننت أكتبه فى الليالى المقمرة وقل اسم فى التاريخ الا وله عندى قصة الا أنى كرهت أن يطول الكتاب (٧) .

ومكث البخارى فى المدينة سنة ثم رحل بعدها الى البصرة وأقام بها خمس سنين وكان

(٦) الطبقات الكبرى لابن السبكي ج٢ ص ٢١٨ .

(٧) هدى السارى ص ٤٧٩ .

يتردد منها على مكة أيام الحج يقول البخارى (دخلت الى الشام ومصر والجزيرة مرتين وإلى البصرة أربع مرات وأقمت بالحجاز ستة أعوام ولا أحصى كم دخلت الى الكوفة وبغداد مع المحدثين)^(٨) . وهكذا طوف البخارى فى سبيل العلم فى اقطار شتى فمن مكة الى المدينة والشام وبغداد والبصرة والكوفة ومصر وبخارى ومرو ونيسابور وقيسارية وعسقلان وحمص وخراسان وكان لهذه الجهود التى بذلها من الأهمية ما يعطينا الثقة الكاملة بمردياته يقول البخارى كتبت عن ألف شيخ أو أكثر ما عندى حديث لا أذكر اسناده^(٩) .

٣ - حفظه ومعرفة بعلمه الحديث : تميز البخارى منذ صغره بمواهب عظيمة منحه الله إياها فكان لديه الاستعداد الفطرى الذى فطره الله عليه : حافظة قوية وعقلية صافية وعمل دائب فلا غرو أن كان فى حفظه ومعرفة بعلمه الحديث آية بهرت العقول وقد سلك فى دراسته أدق الطرق وأسماها فكان ينمى ما عنده من القدرات بالجد والاجتهاد والمداومة على المذاكرة ، يقول البخارى : موضحا المنهج السليم للحفظ (لا أعلم شيئا أنفع للحفظ من نعمة الرجل ومداومة النظر)^(١٠) كما كان يستعين على تثبيت المعلومات بربطها بما يحيط بها كما كان يربط بين أقوال الصحابة والتابعين وبين الكتاب والسنة حتى يتضح القول فى ذهنه من جميع الجوانب فسبق علماء النفس بهذا المنهج التربوى فى الدراسة . وما يشهد البخارى بسعة حفظه ومعرفة بعلمه الحديث مارواه أحمد بن الحسين الرازى قال : سمعت أبا أحمد بن عدى الحافظ يقول : سمعت عدة من مشايخ بغداد يقولون أن محمد بن اسماعيل البخارى قدم بغداد فسمع به أصحاب الحديث فاجتمعوا به وأرادوا امتحان حفظه فعمدوا الى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها وجعلوا متن هذا الاسناد لاسناد آخر واسناد هذا المتن لمتن آخر ودفعوها الى عشرة أنفس لكل رجل عشرة أحاديث وأمروهم اذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك على البخارى وأخذوا عليه الموعد للمجلس فحضروا وحضر جماعة من الغرباء من أهل خراسان وغيرهم من البغداديين فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث .

فقال البخارى لا أعرفه ، فما زال يلقي عليه واحدا بعد واحد حتى فرغ والبخارى يقول لا أعرفه وكان العلماء ممن حضروا المجلس يلتفت بعضهم الى بعض ويقولون فهم الرجل ومن كان لم يدر القصة يقضى على البخارى بالعجز والتقصير وقلة الحفظ ثم انتدب

(٨) المرجع السابق .

(٩) تاريخ بغداد جـ ٢ ص ١٠ .

(١٠) هدى السارى ص ٤٨٨ .

رجل من العشرة أيضا فسأله عن حديث من الاحاديث المقلوبة فقال : لا أعرفه فسأل عن آخر فقال : لا أعرفه فلم يزل يلقي عليه واحدا واحدا حتى فرغ والبخارى يقول لا أعرفه ، ثم الثالث والرابع الى تمام العشرة حتى فرغوا كلهم من إلقاء تلك الاحاديث المقلوبة والبخارى لا يزيدهم على (لا أعرفه) فلما علم أنهم قد فرغوا التفت الى الأول فقال اما حديثك الأول فقلت كذا : وصوابه كذا وحديثك الثاني كذا وصوابه كذا والثالث والرابع على الولاء حتى أتى على تمام العشرة فرد كل متن الى اسناده وكل اسناد الى متنه وفعل بالآخرين مثل ذلك فأقر الناس له بالحفظ وأذعنوا له بالفضل^(١١) . يقول ابن حجر هنا يخضع للبخارى فما العجب من رد الخطأ الى الصواب ؟ فانه كان حافظا بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما القوه عليه من مرة واحدة وفي هذا الامتحان الصعب الذى اجتازه البخارى بنجاح باهر ما يدل على قوة ذاكرته ، وبلوغه في الاحاطة بالحديث حدا لم يصله سواه حتى أقر له الجميع بالامامة والفضل . وكان البخارى حجة في معرفة علوم الحديث ولم يتصدر للتحدث الا بعد احاطته بالصحيح من السقيم كما قال (ما جلست للحديث حتى عرفت الصحيح من السقيم وحتى نظرت في كتب أهل الرأى) . وهكذا تتضح شخصيته العلمية متكاملة الجوانب في مجال السنة المطهرة ، يجمع بين حفظ الاسانيد والمتون والاحاطة الدقيقة بعلم الحديث مما جعله مرجعا لكبار العلماء . قال أحمد بن حمدون الحافظ (رأيت البخارى في جنازة ومحمد بن يحيى الذهلى يسأله عن الاسماء والعلل والبخارى يمر فيه مثل السهم كأنه يقرأ هو الله أحد)^(١٢) . وقد شهد الامام مسلم للبخارى بالسبق والامامة معترفا له بالفضل ، قال أحمد بن حمدون : جاء مسلم بن الحجاج الى البخارى فقبل بين عينيه ، وقال : (دعنى اقبل رجلك يا استاذ الاساتذة ويا سيد المحدثين وطيب الحديث في علله)^(١٣) .

كما شهد له أيضا أبو عيسى الترمذى قال : (لم أر بالعراق ولا بخراسان في معنى العلل والتاريخ ومعرفة الاسانيد أعلم من محمد بن اسماعيل)^(١٤) كما شهد له أقرانه وشيوخه وأثنوا عليه عاطر الثناء ، فلا غرابة أن يلقب بأمر المؤمنين في الحديث ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

(١١) هدى السارى ص ٤٨٧ ، ووفيات الاعيان ج ١ ص ٥٧٦ .

(١٢) هدى السارى ص ٤٨٩ .

(١٣) البداية والنهاية ج ١١ ص ٩٦ .

(١٤) تاريخ بغداد ج ٢ ص ٢٧ .

شيوخ البخارى :

رسم البخارى منهاجا لنفسه فى اختيار شيوخه الذين يأخذ عنهم لا يتعداه ولا يجيدون عنه فقد طاف بأفاق كثيرة يبحث عن أئمة الحديث واشترط على نفسه ألا يأخذ الحديث الا عن الرواة الثقات المعروفين بالورع ، واهتم بمعرفة احوالهم وكيفية تلقيهم للحديث فميز بين من كان محل ثقة كاملة فى نظر الأئمة المحدثين فأخذ حديثه وبين من لم يكن محل ثقة فترك حديثه . يقول البخارى : (كتبت عن ألف شيخ وأكثر ما عندى حديث الا وأذكر اسناده)^(١٥) وفى هذا دلالة على احاطته الدقيقة وتحريه الشديد فى معرفة الرجال وتمييزهم فمن كان من الرواة فيه نظر ترك حديثه مهما كان عدد احاديثه ، سئل عن خبر حديث ، فقال : (يا أبا فلان اترانى ادلس ؟ تركت أنا عشرة آلاف حديث لرجل فيه نظر ، وتركت مثلها أو أكثر لغيره لى فيه نظر)^(١٦) .

وكما تحرى الدقة فى معرفة الثقات وغيرهم فقد تحرى الدقة كذلك بالنسبة للاحاديث الصحيحة وغيرها فحفظ كثيرا من الاحاديث الصحيحة وغير الصحيحة ، وحفظه لغير الصحيحة إنما هو لتجنبها وتمييزها وتنقية الاحاديث الصحيحة منها .

وقد كان شيوخ البخارى من الكثرة بمكان بحيث يصعب استيعابهم أو تحديد بعض الشخصيات العلمية الذين كان لهم أثرهم فى تركية مواهبه وتنمية ثروته العلمية لانه كان ذا رحلات واسعة متأثرا بجميع شيوخه الافاضل حتى تكونت شخصيته العلمية المستقلة ومن شيوخه بمكة : أبو لوليد أحمد بن محمد الارزقى واسماعيل بن سالم الصائغ وأبو بكر الحميدى ، وبالمدينة : ابراهيم بن المنذر الحزامى ومطرف بن عبد الله بن حمزة ، وبالشام : محمد بن يوسف الفريابى من اوائل من صنف المسانيد وأبو اسحاق بن ابراهيم وأبو ابراهيم وأبو اليمان بن نافع ، وبيخارى : محمد بن سلام البيكندى ومحمد بن يوسف ابن محمد المسندى ، وبمرو : على بن الحسن بن شقيق وعبد الله بن عبد الله بن عثمان ومحمد بن يحيى الصائغ ، وبيبلخ : مكى بن ابراهيم ويحيى بن بشر وقتيبة بن سعيد ومن هراة أحمد بن الوليد الخنفي ، ومن نيسابور : يحيى بن يحيى التميمي وإسحاق بن راهويه ومحمد بن يحيى الذهلي ومن الرى : ابراهيم بن موسى ومن بغداد : أحمد بن حنبل ومحمد ابن سابق وابو بكر بن الاسود ومن واسط حسان بن عبد الله وسعيد بن عبد الله بن سليمان ومن البصرة : أبو عاصم النبيل وأبو الوليد الطيالسى ومن الكوفة : عبد الله بن

(١٥) تهذيب التهذيب ج ٢ ص ٤٧ .

(١٦) تاريخ بغداد ج ٢ ص ٢٥ .

موسى وأبو نعيم بن يعقوب وعمصر عثمان بن صالح وسعيد بن كثير ويحيى بن عبد الله بن بكير وبالجزيرة : أحمد بن بن عبد الملك الحراني وأحمد بن يزيد وعمر بن خلف ، وقد ميز الحاكم بين كل ناحية وسمى شيوخها من المتقدمين ليستدل على عالى اسناد البخارى (١٧) وإذا نظرنا الى مراتب شيوخ البخارى نرى انهم ينحسرون فى خمس طبقات :

الطبقة الاولى (١٨) : من حدثه عن التابعين مثل محمد بن عبد الله الانصارى حدثه عن حميد ومثل مكى بن ابراهيم حدثه عن يزيد بن أبى عبيد ، ومثل أبى عاصم النبيل حدثه عن يزيد بن أبى عبيد أيضا ومثل عبد الله بن موسى حدثه عن اسماعيل بن أبى خالد ومثل أبى نعيم حدثه عن الأعشى وشيوخ هؤلاء كلهم من التابعين .

الطبقة الثانية : قوم حدثوا عن أئمة حدثوا عن التابعين وهم شيوخه الذين روى عنهم عن ابن جريج ومالك وابن أبى ذئب فى الحجاز وشعبة والاوزاعى وطبقتهما بالشام والثورى وحماد وأبى عوانة بالعراق ويعقوب بن عبد الرحمن بمصر وفى هذه الطبقة كثرة .

الطبقة الثالثة : قوم حدثوا عن قوم أدرك زمانهم وأمكنه لقيتهم ، ولكن لم يسمعهم كزيد بن هارون وعبد الرزاق .

الطبقة الرابعة : قوم فى عداد طبقته حدث عنهم عن مشايخه كأبى حاتم بن ادريس الرازى .

الطبقة الخامسة : قوم فى عداد طلبته فى السن والاسناد سمع منهم للفائدة كعبد الله ابن حماد وعبد الله بن أبى العاص الخوارزمى وحسين بن محمد القبانى وغيرهم وقد روى عنهم أشياء يسيرة وعمل فى الرواية عنهم بما روى عثمان بن أبى شيبه عن وكيع قال لا يكون الرجل عالما حتى يحدث عمن هو فوقه وعمن هو مثله وعمن هو دونه ، وعن البخارى أنه قال لا يكون المحدث كاملا حتى يكتب عمن هو فوقه وعمن هو مثله وعمن هو دونه (١٩) . ولعل مرادهم بذلك زيادة العلم وكثرة التحديث والتمكن فرمما يكون عند البعض مالىس عند الآخرين حتى ولو كانوا أدنى منهم .

ولتفصيل هذه الطبقات وبيانها فائدة هامة هى أنه يتعد عن الالتباس والابهام عن

(١٧) طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي ج ٢ ص ٢١٤ .

(١٨) هدى السارى ص ٤٧٩ .

(١٩) هدى السارى ص ٤٨٠ .

الذى لا معرفة له اذا كان الحديث بإسناد عال مرة ونازل أخرى وبمعرفة الطبقات يمكن ادراك أن الاسناد العالى قد حذف منه أو الاسناد النازل قد زيد فيه^(٢٠) يقول ابن طاهر مبينا ذلك : لكلا يظن من لا معرفة له اذا حدث البخارى مثلا عن مكى عن يزيد بن أبى عبيد عن سلمة . ثم حدث فى موضع آخر عن قتيبة عن بكر بن مضر عن عمرو بن الحارث عن بكير بن عبد الله الأشج عن يزيد بن أبى عبيد عن سلمة أن الاسناد الاول سقط منه شيء وعلى هذا سائر الاحاديث إذ لو لم يعرف ذلك لوقع الإلتباس فى كثير من الاحاديث على من لا معرفة له « أ . هـ » .

ومن شيوخ البخارى الذين كان لهم أثرهم : الامام على بن المدينى والامام أحمد بن حنبل والإمام يحيى بن معين والامام اسحاق بن راهويه وسيأتى الحديث عنهم ان شاء الله .

من صفات الامام البخارى :

كان البخارى نحيف الجسم ليس بالطويل ولا بالقصير ويميل لونه الى السمرة^(٢١) وقد جمع مع علمه كثيرا من محامد الفعال وكريم الخصال وعرف بالتقوى والورع ومكارم الاخلاق ، وبتلك المعانى النبيلة والمثل المشرفة التى استقاها من منابع السنة المطهرة احتل مكانة مرموقة بين علماء عصره فجمع بين الحسينيين : علما وعملا ، وكان كثير العبادة والتهجد بالليل وقراءة القرآن الكريم زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة . وذات يوم كان يصلى فلسعه الزنبور سبع عشرة مرة فلما قضى صلاته قال انظروا أى شيء هذا الذى آذانى فى صلاتي؟؟ فنظروا فاذا (الزنبور) قد ورمه فى سبعة عشر موضعا ولم يقطع صلاته وقال كنت فى آية فأحببت أن أتمها^(٢٢) وفى هذا ما يدل على مدى اتصاله بربه ولذة مناجاته فى صلاته مما لا يجعله ينصرف عن العبادة مهما كانت الاحوال . كما كان حسن المعاملة غاية فى الحياء وعفة اللسان وتحرى القول فى نقد الرجال ، يظهر ذلك واضحا لمن يتأمل كلامه فى الجرح والتعديل فيقول مثلا « سكتوا عنه » ، « فيه نظر » ، (تركوه) (ونحو هذا من العبارات التى يتبين منها دقته وتحريه ، ولذلك كان يقول انى لارجو أن القى الله ولا يحاسبنى أنى اغتبت احدا)^(٢٣) وبما اتصف به البخارى كذلك الكرم فقد ورث ثروة

(٢٠) البخارى محدثا وفقهيا للدكتور الحسينى هاشم ص ٤٠ .

(٢١) تهذيب التهذيب ج ٧ ص ٤٩ .

(٢٢) (مرجع السابق ص ٤٧ ، هدى السارى ص ٤٨١ .

(٢٣) هدى السارى ص ٤٨١ .

عظيمة انفق منها على طلبه العلم والفقراء وسائر وجوه البر يقول في ذلك كنت استغل في كل شهر خمسمائة درهم فأنفقها في الطلب وما عند الله خير وأبقى^(٢٤) وهكذا وطن البخارى نفسه على معاني النبل والفضيلة ، وكان حريصا على أن يدعو الى ما تحلى به من هذه الاخلاق ومن ذلك دعوته الى اغتنام الوقت في العبادة والاتعاظ بالموت ومن أشعاره المأثورة في ذلك .

أغتتم في الفراغ فضل ركوع .. فعمى أن يكون موتك بغته
 كم صحيح رأيت من غير سقم .. ذهب نفسه الصحيحة فلتة^(٢٥)

كما وطن نفسه على تتبع الرسول ﷺ والتأسي به في كل الجوانب فافتدى به في حب الجهاد والمهارة في الحرب فأتقن الثقافة الحربية وتعلم استخدام آلات الحرب ، وحذق أساليب الجهاد في عصره حتى قيل أنه ما أخطأ في حياته إلا مرتين .

البخارى ومسألة اللفظ

وقدم البخارى نيسابور سنة خمسين ومائتين فاستقبله أهلها بالبشر والترحاب ومعهم شيخه الذهلي ولما دخل البلد نزل دار البخارين فقال محمد بن يحيى : لا تسألوه عن شيء من الكلام فانه أن أجاب بخلاف ما نحن عليه وقع بيننا وبينه وشمتم بنا كل ناصبي ورافضي وجهمي ومرجئي بخراسان^(٢٦) وقال الذهلي اذهبوا الى هذا الرجل الصالح العالم فاسمعوا منه فأقبل أناس عليه حتى ظهر الخلل في مجلس محمد بن يحيى ، فحسده بعد ذلك وتكلم فيه^(٢٧) وكان لهذا الحسد نتيجة السيئة بعد ذلك التي عادت على البخارى ، قال أحمد بن عدى ذكر لى جماعة من المشايخ أن محمد بن اسماعيل لما ورد نيسابور واجتمع الناس عنده حسده بعض شيوخ الوقت فقال لأصحاب الحديث : أن محمد بن اسماعيل يقول لفظى بالقرآن مخلوق فلما حضر المجلس قام اليه رجل فقال يا أبا عبد الله ما تقول في اللفظ بالقرآن مخلوق هو أو غير مخلوق ؟ فأعرض عنه البخارى ولم يجبه فلما ألح عليه قال البخارى القرآن كلام الله غير مخلوق وأفعال العباد مخلوقة والامتحان بدعة ، فشغب الرجل وقال قد قال لفظى بالقرآن مخلوق ، ومنذ حدوث هذا الشغب وزعمهم أنه قال

(٢٤) الطبقات الكبرى لابن السبكي ج ٢ ص ١١ .

(٢٥) هدى السارى ص ٤٨٢ .

(٢٦) هدى السارى ص ٤٩١ .

(٢٧) تهذيب التهذيب ج ٩ ص ٥٣ ، طبقات الشافعية لابن السبكي ج ٢ ص ٢٢٨ .

بخلق القرآن حدث الجفاء والقطيعة بينه وبين شيخه الذهلي بصورة واضحة وساعد على ذلك ما كان في النفوس البشرية من حسد ، فقال الذهلي من زعم : لفظى بالقرآن مخلوق فهو مبتدع ولا يجالس ولا يكلم ومن ذهب بعد هذا الى مجلسه فاتهموه ، فانقطع الناس عنه الا مسلم وأحمد بن سلمة ، فقال الذهلي ألا من قال باللفظ فلا يحل له أن يحضر مجلسنا فأخذ مسلم بن الحجاج رداءه وقام على رؤوس الناس فبعث الى الذهلي جميع ما كان كتبه عنه على ظهر حمل (٢٨) .

وفي الحقيقة ان البخارى برىء من هذه التهمة وليس فيما رآه من عيب يؤخذ عليه لكنها العصبية العنيفة والتهيب الشديد من الكلام في هذا الموضوع مما جعل القوم على هذه الصورة خاصة بعد ما نال أهل السنة وإمامهم أحمد بن حنبل من الفتنة . وما أثير حول البخارى إنما هو وليد الحسد ، واثارة هذه الفتنة قائمة على وجه غير صحيح وهو عدم التفريق بين القرآن والقراءة ، وقد التزم البخارى منهج السلف فأعرض عن سائله في بادىء الامر . ولكنه تحت الالحاح بين أن السؤال في ذلك بدعة وأجابه اجابة واضحة مبينة الفرق بين القرآن وهو قديم وبين التلفظ والنطق بالألسنة وبين الكتابة بالأيدى وكل ذلك حادث .

رجوعه الى بخارى :

ولكن البخارى أثر السفر الى بلده « بخارى » خشية اشتعال هذه الفتنة ، وعندما عاد الى بلده استقبلوه استقبالا حارا وفرحوا بمقدمه ، ومكث في بلده مدة يحدث الناس ويعلمهم وزاد الاقبال عليه ، وسوى بين الجميع في طلب العلم فلم يخص بدرسه قوما دون الآخرين حتى ولو كان الأمير ، وعى هذا المنهج عاش البخارى في بلده حتى وقع بينه وبين أمير بخارى خالد بن أحمد الذهلي ما عكر الصفو وكان السبب المباشر في ذلك هو اعتزاز البخارى بالعلم ، فقد بعث الامير الى البخارى أن يحمل اليه كتاب الجامع والتاريخ لسمع منه فقال البخارى لرسوله قل له إني لا أذل العلم ولا أحمله الى أبواب السلاطين فان كانت لك حاجة الى شيء منه فليحضرني في مسجدى أو في دارى فان لم يعجبك هذا فأنت سلطان فأمنعني من المجلس ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة لأنى لا أكتم العلم (٢٩) فكان هذا هو السبب في الجفاء والقطيعة بينها وظل يترقب الامير ويتحين الفرص حتى وصله كتاب محمد بن يحيى الذهلي الذى واصل عدااه بما كتبه تلولاة والعلماء بالتشنيع على

(٢٨) هدى السارى ص ٤٩٢ .

(٢٩) تاريخ بغداد ج ٢ ص ٣٣ .

البخارى فى مسألة اللفظ واتهامه بالاعتزال كما كتب الى الامير خالد بن يحيى فانتهز الامير الفرصة للانتقام منه وصرف الناس عنه مستعينا بحديث ابن ابى الوراق وغيره من اهل بخارى حتى تكلموا فى مذهبه فنفاه عن البلد فخرج الى « خرتنك » وهى قرية من قرى سمرقند « وكان له اقرباء بها فنزل عندهم » (٣٠) فاتفق ان مرض بها وتوفى ليلة عيد الفطر سنة ست وخمسين ومائتين ودفن بعد ظهر يوم عيد الفطر بعد حياة حافلة بالعلم والعمل فرضى الله عنه وارضاه .

وقد شهد للامام البخارى بالعلم والفضل والامامة فى الحديث والفقہ كثيرين لا يحصون من شيوخه وقرانه وتلاميذه قال يعقوب بن ابراهيم الدورقي : محمد بن اسماعيل البخارى فقيه هذه الامة وقال محمد بن بشار : هو افقه خلق الله فى زماننا ، ولعظم مكانته فيهم ولشدة حبهم تمنوا ان يفدوه بأرواحهم . قال يحيى بن جعفر : لو قدرت ان أزيد فى عمر محمد ابن اسماعيل لفعلت فان موتى يكون موت رجل واحد وموت محمد ابن اسماعيل ذهاب العلم ، قال ابن حجر : ولو فتحت باب ثناء الائمة عليه ممن تأخر عن عصره لفتى القرطاس وتقدت الانفاس فذاك بحر لا ساحل له أه . وفى هذا ما يدل على ما كان عليه البخارى من مكانة عظيمة وتقدير بالغ بين عارفيه وجميع اهل عصره .

(٣٠) هذيب التهذيب ج ٩ ص ٥٢ ، مرآة الجنان لليافعى ج ٢ ص ١٦٧ .

مؤلفات البخارى

كان للامام البخارى مجال فسيح فى التأليف يدل على أفقه العلمى الواسع ومعرفته الفائقة بأحوال الرواة فكتب فى كل ما يتصل بالسنة النبوية الشريفة ومن هذه المؤلفات :

- ١- الجامع الصحيح .
- ٢- الأدب المفرد .
- ٣- رفع اليدين فى الصلاة .
- ٤- بر الوالدين .
- ٥- التاريخ الكبير .
- ٦- التاريخ الأوسط .
- ٧- التاريخ الصغير .
- ٨- كتاب الضعفاء .
- ٩- كتاب التفسير الكبير .
- ١٠- القراءة خلف الامام .
- ١١- الكنى .
- ١٢- العلل .
- ١٣- أسامى الصحابة .
- ١٤- كتاب الأشربة .
- ١٥- كتاب الوحدان وهو من ليس له الاحديث واحد .
- ١٦- كتاب الهبة .
- ١٧- كتاب المسند الكبير .
- ١٨- كتاب المبسوط .
- ١٩- كتاب الفوائد (٣١) .

ولتناول الآن أعظم مصنفات هذا الامام الجليل وهو كتابه (الجامع الصحيح)
الذى صنفه على الأبواب .

كتاب الجامع الصحيح للإمام البخارى

التعريف بالكتاب :

كتاب الجامع الصحيح للإمام البخارى هو الكتاب الذى قال فيه العلماء : إنه أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى وبه أصبح البخارى أمير المؤمنين فى الحديث وهو أعلى وأهم مؤلفات البخارى ، قطع قبله رحلات واسعة ، وكتب عدة مؤلفات كانت بمثابة المقدمة التى مهدت لكتابه العظيم (الجامع الصحيح) . وقد صنفه البخارى فى روية وأناة ، متحريرا العناية التامة والدقة الكاملة ومكث فى تصنيفه ستة عشر عاما . قال البخارى : صنفت الجامع الصحيح لست عشرة سنة وخرجته من ستمائة ألف حديث وجعلته حجة بينى وبين الله عز وجل^(٣٢) وكان يتأهب لكتابة كل حديث بالطهارة ، والصلاة يقول البخارى « ما كتبت فى كتاب الجامع الصحيح حديثا الا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين » وقيل أنه وضع تراجم جامع بين قبر النبى ﷺ ومنبره وكان يصل لكل ترجمة ركعتين ، وروى عن البخارى أنه قال : صنفت كتاب الجامع فى المسجد الحرام وما ادخلت فيه حديثا الا بعد ما استخرت الله تعالى وصليت ركعتين وتيقنت صحته . وقيل صنف كتابه ببخارى ، وقيل صنفه بمكة ، ويمكن الجمع بين هذه الآراء بأن الامام البخارى كان يصنف من كتابه الجامع الصحيح بعضا بمكة والبعض الآخر بالمدينة والبصرة وببخارى ، فقد صنفه فى ست عشرة سنة ويرى الحافظ أنه ابتداء تصنيفه ووضع التخطيط العام للكتاب كمسودة فى المسجد الحرام ثم أكمله وبيضه فى بخارى وغيرها .

والاسم الكامل لكتاب الجامع الصحيح هو (الجامع الصحيح المسند المختصر من حديث رسول الله ﷺ وسنته وأيامه) وقد أطلق عليه صحيح البخارى اختصارا وكان البخارى نفسه يطلق عليه الصحيح اختصارا ، وقد خرج البخارى احاديث جامع من ستمائة ألف حديث ويبدو أن مراده بالمسند هو تخريج الاحاديث المتصلة الإسناد ببعض الصحابة عن النبى ﷺ سواء اكانت قولاً أو فعلاً أو تقريرا . وأما ما وقع فى الكتاب مما يخالف ذلك فانما وقع فيه عرضا لا أصلا فهو غير مقصود كالمعلقات والموقوفات التى ذكرها

(٣٢) كتاب الطنون ج ١ ص ٥٤٤ ، تهذيب التهذيب ج ٩ ص ٤٩ ، هدى السارى ص ٤ ، ٥

استثناسا وتبعاً وهي لا تخرج الكتاب عن أصل موضوعه وهو الحديث الصحيح . ولم يفت البخارى أن يسجل في جامعه بعض الفوائد الفقهية فاستخرج بما وفقه الله من فهم في المتون المعاني الكثيرة التي فرقها في أبواب الكتاب بحسب ما يناسبها ، كما عني بآيات الاحكام التي استنبط منها واستخرج من كنوزها ، فلم يكن مقصوده الاقتصار على الاحاديث فقط بل إنه استهدف الاستنباط منها والاستدلال على بعض الاحكام التي أرادها .

الباعث له على تليفه

كانت الكتب المؤلفة قبل الجامع الصحيح منها ما هو ممزوج بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين ومنها ما هو جامع بين الصحيح والحسن والضعيف ، فكان الذى يقرأ هذه الكتب لا يستطيع تمييز الصحيح من غيره الا اذا كان على جانب كبير من الخبرة التامة فى فنون الحديث كما شاعت الأحاديث الضعيفة بل والموضوعة عن طريق القصاص واصحاب البدع والاهواء كما ظهر بعض المتسيبين الى أهل الرأى فأوغلوا فى مخالفتهم بعض السنن الثابتة الصحيحة وظل الوضع هكذا حتى جاء الامام البخارى فاضطلع بدور هام ، وأخذ على عاتقه رسالة جليلة هى أن يخص الأحاديث الصحيحة بالجمع وأن يرتبها على حسب الأبواب الفقهية ، وعلى حسب الموضوعات المختلفة الواردة فى الأحاديث ، لأنه كان يرى الدواوين المؤلفة قبله تجمع بين الاحاديث بدافع حفظها على الأمة وصيانتها ولم يراع أصحابها فيها المناسبات فى ترتيبها فكانت صعبة على من يريد أن يستخرج منها حديثا يتعلق بموضوع من أحكام الشرع ، فدفعه الى هذا العمل العظيم وقوى عزمه فيه ما سمعه من استاذه الامام اسحاق بن راهويه . قال البخارى كنا عند اسحاق بن راهويه فقال : (لو جمعتم كتابا مختصرا لصحيح سنة رسول الله ﷺ) ، قال فوقع ذلك فى قلبى فأخذت فى جمع الجامع الصحيح ، كما قوى عزمه وشرح صدره لذلك رؤيا منامية رأى فيها النبى ﷺ والبخارى واقف بين يديه ويده مروحة يذب بها عنه فسأل بعض المعبرين عن ذلك فقال له : انت تذب عنه الكذب . ومع دقة البخارى العلمية وتحريه الكبير فقد كان يطلب التوفيق والعون من الله سبحانه وتعالى ويستلهم الجانب الروحى فى نفسه ، قال الفربرى : يقول البخارى ما كتبت فى كتاب الصحيح حديثا الا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين ، ولما ألف البخارى كتابه عرضه على الأئمة : أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وعلى بن المدينى وغيرهم فاستحسنوه وشهدوا له بالصحة إلا فى أربعة أحاديث ، قال العقيلي : والقول فيها قول البخارى وهى صحيحة أهـ (٣٣) .

منهج البخارى فى الجامع الصحيح

صنف الامام البخارى كتابه الجامع الصحيح على منهج التأليف على الابواب ، وهو تخريجه على أحكام الفقه وغيرها فجمع ما ورد فى كل نوع من الانواع فى باب خاص بحيث يتميز ما يتعلق من الاحاديث مثلا بالصلاة عما يتعلق منها بالصوم وهكذا ، مقتصرًا على ايراد ما صح من الاحاديث فقط فلم يدون فى كتابه الا ما صح مسنده واتصل بنقل العدول الضابطين وخلا من الشذوذ والعلة كما كان يتخير الرجال الذين يخرج عنهم فينتقى أكثرهم صحبة لشيخه وأكثرهم معرفة لحديثه .

وإذا نظرنا الى تسمية البخارى لكتابه (الجامع الصحيح المسند المختصر من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه) يتضح لنا منهج البخارى وشرطه فى كتابه فقوله (الجامع) يتضح به أنه لم يختص بصنف دون صنف ، وإنما أورد فيه الاحكام والفضائل والاخبار وغير ذلك من الآداب . . بما يتضح من قوله (الصحيح) أنه لا يوجد فيه ما ثبت ضعفه عنده ، وأما قوله (المسند) فهو أن الأصل تخريج الاحاديث المتصلة السند بالصحابى عن النبي ﷺ قولاً كان ذلك أو فعلاً أو تقريراً وأما ما عدا ذلك فقد ذكر فيه تبعا وعرضاً لا أصلاً مقصوداً^(٣٤) . وبهذه الطريقة استنتج ابن حجر شرط البخارى فى صحيحه ومنهجه فيه . وقد أكثر الامام البخارى فى كتابه الجامع الصحيح من التراجم فذكر الترجمة التى تناسب الحديث أولاً كشرح أو توجيه إلى معنى خفى وغرضه من ذلك : الاستنباط منها والاستبدال لأبواب ارادها من الفقه والاصول والزهد والادب وغيرها وربط كثيراً من احاديثه بآيات القرآن واقوال من السلف وما يستنبطه بفهمه من لاحاديث فكانت بمثابة المفتاح لفهم الحديث .

وإذا كان صحيح البخارى يتفق فى منهجه مع موطأ مالك حيث إن الكتابين مرتبان على الأبواب لكن صحيح البخارى يختلف عن الموطأ فى أمرين :

١- تجريد البخارى احاديثه من أقوال الصحابة والتابعين بخلاف الموطأ .

(٣٤) النكت لابن حجر مخطوط بمكتبة الأزهر .

٢- جمع البخارى لاحاديث الفقه وغيرها من الأنواع بخلاف الموطأ ، فإن أغلبه فى احاديث الاحكام الفقهية . بهذا كان الامام البخارى أول من الف جامعا صحيحا ، لانه جمع فى كتابه معظم الابواب الفقهية وغيرها وهو أول صحيح فى القرن الثالث ، أما الموطأ فهو أول صحيح فى القرن الثانى وكما قال الامام النووى : « أول من صنف الصحيح المجرى البخارى » (٣٥) .

(٣٥) تدريب الراوى (٤١) .

شرط البخارى فى صحيحه

وأما عن شرط الامام البخارى فى كتابه ، فقد ورد فى ذلك اختلاف لبعض العلماء وذلك لأنه لم يؤثر عن الامام البخارى ، ولا الامام مسلم التصريح بشروطهما فى كتابهما على وجه التفصيل ، ولذا استتج العلماء بدراسة الكتب وسيرها شروطا لكل منها .

وقد اشترط الحافظ أبو بكر الحازمى فى الحديث الصحيح : أن يكون اسناده متصلا ، وأن يكون راويه مسلما صادقا غير مدلس ولا مختلط ، متصفا بصفات العدالة ، ضابطا متحفظا ، سليم الذهن قليل الوهم ، سليم الاعتقاد .

واشترط البخارى أن يكون الحديث صحيح السند متصلا بنقل العدول الضابطين خاليا من الشذوذ والعلّة كما سبق واشترط فى المعنعن : اللقاء مع المعاصرة والثقة وعدم التدليس ، فاذا ثبت ذلك حملت العننة على السماع ، وطريق ثبوت اللقاء عند البخارى قائم على التصريح بالسماع فى الاسناد ، ثم بين الحازمى مذهب الاثمة فى كيفية استنباط مخارج الحديث فقال : (إن^(٣٦) مذهب من يخرج الصحيح أن يعتبر حال الراوى العدل فى مشايخه وفيمن روى عنهم وهم ثقات أيضا ، وحديثه عن بعضهم صحيح ثابت يلزمهم إخراجهم ، وعن بعضهم مدخول لا يصلح إخراجهم الا فى الشواهد والمتابعات وهذا باب فيه غموض ، وطريقه : معرفة طبقات الرواة عن راوى الاصل ومراتب مداركهم ، ولنوضح ذلك بمثال : وهو أن نعلم مثلا أن أصحاب الزهري على طبقات خمس ، ولكل طبقة منها مزية على لتي تليها وتفاوت ، فمن كان فى الطبقة الأولى : فهو الغاية فى الصحة وهو غاية مقصد البخارى ، والطبقة الثانية : شاركت الاولى فى العدالة غير ان الاولى جمعت بين الحفظ والاتقان وبين طول الملازمة للزهري حتى كان فيهم من يزامله فى السفر ويلازمه فى الحضر . والطبقة الثانية لم تلزم الزهري الا مدة يسيرة وكانوا فى الاتقان دون الطبقة الاولى وهم شرط مسلم .

والطبقة الثالثة : جماعة لزموا الزهري مثل اهل الطبقة الاولى غير انهم لم يسلموا من غوائل الجرح فهم بين الرد والقبول وهم شرط أبو داود والنسائى .

(٣٦) شروط الاثمة الخمسة للحازمى ص ٤٣ بتعليق الشيخ محمد زاهد الكوثري .

والطبقة الرابعة : قوم شاركوا أهل الطبقة الثالثة في الجرح والتعديل وتفردوا بقله ممارستهم لحديث الزهري ، لأنهم لم يصاحبوا الزهري كثيرا وهم شرط أبي عيسى . وفي الحقيقة شرط الترمذي أبلغ من شرط أبي داود ، لأن الحديث اذا كان ضعيفا أو مطلقه من حديث أهل الطبقة الرابعة فانه يبين ضعفه وينبه عليه فيصير الحديث عنده من باب الشواهد والمتابعات ويكون اعتماده على ما صحح عند الجماعة ، وعلى الجملة فكتابه مشتمل على هذا الفن فلماذا جعلنا شرطه دون شرط أبي داود .

والطبقة الخامسة : نفر من الضعفاء والمجهولين لا يجوز لمن يخرج الحديث على الأبواب ان يخرج حديثهم الا على سبيل الاعتبار والاستشهاد عند أبي داود فمن دونه فأما عند الشيخين فلا .

فأما أهل الطبقة الاولى : فنحو مالك وابن عيينة وعبيد الله بن عمر ويونس وعقيل الايليان وشعيب بن أبي حمزة وجماعة سواهم .

وأما أهل الطبقة الثانية : فنحو عبد الله بن عمر والاوزاعي والليث بن سعد والنعمان بن راشد وعبد الرحمن بن خالد بن مسافر وغيرهم .

والطبقة الثالثة : نحو سفيان بن حسين السلمى وجعفر بن برقان وعبد الله بن عمر ابن حفص والعمري وزمعة بن صالح المكي وغيرهم .

والطبقة الرابعة : نحو اسحاق بن يحيى الكلبي ومعاوية بن يحيى الصدفى واسحاق ابن عبد الله بن أبي فروة المدني وابراهيم بن يزيد المكي والمثنى بن الصباح وجماعة سواهم .

والطبقة الخامسة : نحو بحر بن كنيز السقا والحكم بن عبد الله الايلي وعبد القدوس بن حبيب الدمشقى ومحمد بن سعيد المصلوب وغيرهم ، وهم خلق كثير « أ . هـ » .

وأما الطبقة الأولى فهم شرط البخارى ، وقد يخرج من حديث أهل الطبقة الثانية ما يعتمد عليه من غير استيعاب ، وأما مسلم فيخرج حديث الطبقتين على سبيل الاستيعاب ويخرج أحاديث أهل الطبقة الثالثة على النحو الذى يصنعه البخارى في الثانية وأما الرابعة والخامسة فلا يعرجان عليهما (٣٧) .

(٣٧) تدريب الراوى ص ٧٠ .

وقد علق ابن حجر بعد ذكر كلام الحازمي بقوله : « وهذا المثال الذي ذكرناه هو في حق الكثيرين فيقاس على هذا أصحاب نافع وأصحاب الاعشى ، وأصحاب قتادة وغيرهم . فأما غير الكثيرين فانما اعتمد الشيخان في تخريج احاديثهم على الفقه والعدالة وقلة الخطأ لكن منهم من قوى الاعتماد عليه فأخرج ما تفرد به كيحيى بن سعد الانصارى . ومنهم من لم يقو الاعتماد عليه فأخرج له ما شاركه فيه غيره وهو الاكثر (٣٨) .

ويلاحظ أن الحازمي قارن بين البخاري وغيره من الأئمة في كلامه ووضع البخاري في مقدمة الأئمة فجعل شرطه أن يخرج من أحاديث أهل الطبقة الاولى التي امتازت بالحفظ والاتقان وطول ملازمتها لشيخها .

ونرى أن ابن حجر في كتابه « النكت » قد استنتج شرط البخاري من تسمية الكتاب وهو (الجامع الصحيح المسند . .) إلخ ، ومن استقرائه لتصرفه في تعريف الصحيح ، واشتراط اللقاء مع المعاصرة ، والثقة وعدم التدليس .

وأرى أن رأى ابن حجر يتفق في المعنى مع ما رآه الحازمي كما سبق . وقد ارتضاهما العلماء ولم يرد عليهما اعتراض فكل من الرأيين ينتهي الى أن البخاري لا يخرج الا الاحاديث الصحيحة المتصلة السند على ما سبق بيانه من شروط .

رأى ابن طاهر المقدسى فى شرط البخارى ومسلم

وأما الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسى المتوفى سنة ٥٠٧ هـ ، فىرى أن شرط البخارى ومسلم : ان يخرجوا الحديث المتفق على ثقة نقلته الى الصحابي المشهور من غير اختلاف بين الثقات ، ويكون اسناده متصلا غير مقطوع ، فان كان للصحابي راويان فصاعدا فحسن وإن لم يكن راو واحد ، فاذا صح الطريق الى ذلك الراوى اخرجاه ، الا ان مسلما اخرج احاديث اقوام كحماد بن سلمة وسهيل بن ابى صالح وداود بن ابى هند ، فلما تكلم فى هؤلاء بما لا يزيل العدالة والثقة ترك البخارى اخراج حديثهم فى الاصول تحريا لشبهة وقعت فى نفسه ، وانما اخرج مسلم حديثهم لزوال الشبهة .

وقد اعترض عليه الحافظ العراقى فى قوله : « المتفق على ثقة نقلته . . » فقال : وليس ما قاله ابن طاهر بجيد : لأن النسائى ضعف جماعة اخرج لهم الشيخان أو أحدهما وأجيب : بأنهما أخرجا من أجمع على ثقته الى حين تصنيفهما ، ولا يقدم فى ذلك تضعيف النسائى بعد وجود الكتابين وقال شيخ الاسلام : تضعيف النسائى ان كان باجتهاده أو نقله عن معاصر فالجواب ذلك وإن نقله متقدم فلا ، قال : ويمكن أن يجاب : بأن ما قاله ابن طاهر هو الاصل الذى بنى عليه أمرهما ، وقد يخرجان عنه لمرجع يقوم مقامه ، (٣٩) .

رأى الحاكم النيسابورى : وأما الحافظ الحاكم أبو عبد الله النيسابورى المتوفى سنة ٤٠٥ هـ . فقد رأى أن الدرجة الأولى من الصحيح اختيار البخارى ومسلم وهو أن يروى الحديث عن النبى ﷺ صحابي زائل عنه اسم الجهالة ، بأن يروى عنه تابعيان عدلان ، ثم يروى عنه التابعى المشهور بالرواية عن الصحابة وله راويان ثقتان ، ثم يرويه عنه من أتباع التابعين حافظ متقن وله رواية من الطبقة الرابعة ثم يكون شيخ البخارى أو مسلم حافظا مشهورا بالعدالة فى روايته « أ . هـ » .

قال أبو على الغسانى : ليس المراد أن يكون كل خبر رواه مجتمع فيه راويان عن

(٣٩) شروط الأئمة للمقدسى ، تدريب الراوى ص ٦٥ .

صحابيه ثم عن تابعيه فمن بعده ، فان ذلك يعز وجوده ، وإنما المراد أن هذا الصحابي وهذا التابعى قد روى عنه رجلان خرج بهما عن حد الجهالة^(٤٠) .

والحقيقة أن الشيخين لم يشترطا هذا الشرط ، ولا نقل عن واحد منهما أنه قال ذلك ، والحاكم قدر هذا التقدير وشرط لهما هذا الشرط على ما ظن ، ومن استقرأ اليكتابين وجد ما يرد هذه الدعوى ، فمن ذلك حديث مرداس الأسلمى « يذهب الصالحون الأول فالأول » ، الحديث ، وهو حديث تفرد البخارى باخراجه عن يحيى بن حماد عن أبى عوانة عن بيان عن قيس عن مرداس ، وليس لمرداس فى صحيح البخارى سوى هذا الحديث ولم يروه عن مرداس غير قيس بن أبى حازم^(٤١) .

وقال ابن حجر : والشرط الذى ذكره الحاكم وإن كان منتقضا فى حق بعض الصحابة الذين أخرج لهم فانه معتبر فى حق من بعدهم ، فليس فى الكتاب حديث أصل من رواية من ليس له إلا راو واحد قط^(٤٢) أ ه .

(٤٠) تدريب الراوى ص ٦٦ .

(٤١) شروط الائمة الخمسة ص ٢٢ .

(٤٢) هدى السارى ص ٧ .

عدد أحاديث الجامع الصحيح

وجميع أحاديث الجامع الصحيح بالمكرر سوى المعلقات والمتابعات على ما حرره ابن حجر : سبعة آلاف وثلاثمائة وسبعة وتسعون حديثا ، وجملة ما في الكتاب من التعاليق ألف وثلاثمائة وواحد وأربعون حديثا وأكثرها مخرج في الكتاب أصول متونه ، والمتون التي لم تخرج في الكتاب مائة وستون حديثا ، وجملة ما فيه من المتابعات والتنبيه على اختلاف الروايات ثلاثمائة وواحد وأربعون حديثا . وجميع ما في صحيح البخارى من المتون الموصولة من غير تكرار ألفا حديث وستمائة حديث وحديثان ، ومن المتون المعلقة المرفوعة التي لم يوصلها في موضع آخر من الجامع مائة وتسعة وخمسون حديثا ، فجميع ذلك ألفا حديث وسبعمائة وواحد وستون حديثا .

قال ابن حجر : « فجميع ما في الكتاب على هذا بالمكرر تسعة آلاف واثنان وثمانون حديثا وهذه العدة خارجة عن الموقوفات على الصحابة والمقطوعات عن التابعين فمن بعدهم^(٤٣) ، ورأى ابن حجر في عدد أحاديث كتاب البخارى هو الذى أرجحه فهو من الدقة والتحريير بمكان بحيث يطمئن اليه الباحث بعد نظره في كتابه ، وما ساعد ابن حجر على ذلك انه شرح صحيح البخارى وكان يذكر في آخر كل كتاب منه عدد الأحاديث .

(٤٣) هدى السارى ص ٤٧٠ .

رواة الجامع الصحيح

سمع كتاب الجامع الصحيح رواة كثيرون من أشهرهم أبو عبد الله بن يوسف بن مطر بن صالح بن بشر الفربري المتوفى سنة ٣٢٠ ، نسبة الى فربرية ببخارى ، وكان سماعه للصحيح كله مرتين : مرة بفربرية سنة ٢٤٨ ومرة أخرى ببخارى سنة ٢٥٢ ، أى قبل وفاة الامام البخارى بأربع سنين ، ومنهم إبراهيم بن معقل بن الحجاج النسفى المتوفى سنة ٢٩٤ وكان من الحفاظ وله تصانيف وقد فاته من كتاب صحيح البخارى أوراق رواها الاجازة عن البخارى ومنهم حماد بن شاکر النسوى ، المتوفى سنة ٢٩٠ ومنهم أبو طلحة منصور بن محمد بن على بن قرينة البزدوى المتوفى سنة ٣٢٩ وهو آخر الذين حدثوا عن الامام البخارى (٤٤) .

وقد تناول تلامذتهم كتاب الجامع الصحيح ثم أخذوه عنهم من بعدهم وهكذا تابعت روايته عن الكثيرين فى كل زمان وتلقته الأمة بالقبول .

(٤٤) مقدمة فتح البارى ج ١ ص ٤ .

الأحاديث الصحيحة والرواة الثقات في كتاب البخارى

سبق بيان أن الامام البخارى تحرى أن يدون في كتابه الاحاديث الصحيحة ولا يروى الا عن الرواة الثقات الذين اشترط فيهم الشروط السابقة ، ولكنه لم يستوعب الاحاديث الصحيحة كلها ، وقد صرح البخارى بذلك في قوله : (ما أدخلت في كتاب الجامع إلا ما صح وتركت من الصحاح حتى لا يطول) (٤٥) .

وكان البخارى يحفظ الاحاديث الصحيحة ، والاحاديث غير الصحيحة أيضا لمعرفة وتمييز الصحيح من غيره . قال : احفظ مائة ألف حديث صحيح ، ومائتى ألف حديث غير صحيح وهذا يتضح أن البخارى لم يثبت في كتابه كل حديث صحيح كان يحفظه ، ولا كل حديث صحيح على شرطه بل إن الصحيحين لم يستوعبا الاحاديث الصحيحة في كتابيهما ، وقال الحافظ ابن كثير : ثم إن البخارى ومسلما لم يلتزما باخراج جميع ما يحكم بصحته من الاحاديث فانها قد صححا أحاديث ليست في كتابيهما ، كما نقل الترمذى وغيره عن البخارى تصحيح أحاديث ليست عنده بل في السنن وغيرها (٤٦) .
وبهذا يتبين أن البخارى لم يستوعب الصحيح ولم يلتزم استيعابه كما أنه لم يستوعب الرواة الثقات المتوفرة فيهم صفات القبول والصحة ، قال الحازمى : إن قصد البخارى وضع مختصر في الحديث وإنه لم يقصد استيعابا لافى الرجال ولا فى الحديث ، وقد قال : لم أخرج فى هذا الكتاب إلا صحيحا . ولم يخرج الشيخان شيئا فى الصحيحين من حديث الامام أبى حنيفة ولا حديث الامام الشافعى ولا أخرج البخارى من حديث الامام أحمد إلا حديثين روى اخرج مسلم فى صحيحه عن الامام البخارى ولا عن الامام أحمد الا قدر ثلاثين حديثا ولا أخرج الامام أحمد فى مسنده عن الامام مالك عن نافع بطريق الشافعى وهو أصح الطرق إلا أربعة أحاديث ، وما رواه أحمد عن الشافعى بغير هذا الطريق لا يبلغ عشرين

(٤٥) تاريخ بغداد جـ ٢ ص ٨ مقدمة ابن صلاح ص ٨ .

(٤٦) الباعث الحثيث ص ٢٥ .

حديثا . ولعل السبب في ذلك كما رأى الشيخ زاهد الكوثري^(٤٧) أن ذلك راجع الى أنهم كانوا يرون أن أحاديث هؤلاء في مآمن من الضياع لكثرة أصحابهم القائمين بروايتها شرقا وغربا . وجل عناية أصحاب الدواوين بأناس من الرواة ربما كانت تضع أحاديثهم لولا عنايتهم بها لأنه لا يستغنى من بعدهم عن دواوينهم في أحاديث هؤلاء دون هؤلاء فالاطمئنان على حفظ مروياتهم وعدم الخوف عليها هو الذى حدا بالائمة الى ترك بعض الرواة ، وأيضا فقد يكون السبب طلب علو الاسناد بأن يكون الحديث من طريق ذلك الامام نازلا ، ومن طريق غيره من الثقات عاليا فيختار صاحب الطريق العالى لقربه من الرسول ﷺ واذا تبين أن صحيح البخارى لم يستوعب الصحيح ولا التزمه فليس لأحد أن يرد حديثا صحيحا أولا يأخذ به بحجة أنه ليس في الصحيحين وكما يقول الامام مسلم : إنما أخرجت هذا الكتاب وقلت هو صحاح ، ولم أقل إن ما لم أخرج من الحديث في هذا الكتاب ضعيف^(٤٨)

(٤٧) شروط الائمة الخمسة ص ٤٣ .

(٤٨) المرجع السابق ص ٦٠ .

تراجم كتاب الجامع الصحيح

تميز الامام البخارى بالحفاظة القوية ، والذهن السيال ، الذى وجهه الى فهم الكتاب والسنة واستنباط ما فيها من كنوز ، فاستخرج ما شاء الله له من الاحكام ، وقد اودع فى تراجم الأبواب ما آداه اليه اجتهاده ، وما اهتدى إليه بعقله العلمى المتفتح ، مما يشهد له كإمام من أئمة الفقه - بالبراعة فى استنباط الأحكام من الأحاديث النبوية وما زاد البخارى توفيقا فى الفهم والاستنباط أنه كان يتجه الى نصوص القرآن والسنة بطاقاته الروحية ، فيهيىء نفسه بطهارة الجسم والنفس ويجوار صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه . وهذا السلوك العقلى والروحى وصلت تراجم أبوابه منزلة عالية روى أبو أحمد بن عدى عن عبد القدوس بن همام ، قال : (شهدت عدة مشايخ يقولون : حول البخارى تراجم جامعة - يعنى يُّضها - بين قبر النبى ﷺ ومنبره ، وكان يصلى لكل ترجمة ركعتين) وقد قسم الامام البخارى كتابه الجامع الصحيح الى كتب وقسم الكتب الى أبواب وبدأه بباب : كيف بدء الوحي الى رسول الله ﷺ وقول الله جل ذكره : (إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده) (٤٩) ، ثم ذكر كتاب الإيمان ، ثم العلم ، ثم كتاب الطهارة ، ثم كتاب الصلاة وهكذا ، وبعد أن انتهى من ذكر العبادات والمعاملات ذكر غير ذلك من الأبواب غير الفقهية كالسيرة والمغازى ، والتفسير وغير ذلك ، وبلغ عدد كبير من الأحاديث وفى بعض الأبواب ما فيه حديث واحد وفى بعضها ما فيه آية من القرآن وبعضها لا شىء فيه ، وقيل أنه صنع ذلك ليبين أنه لم يصح عنده حديث بشرطه فى المعنى الذى ترجم عليه ، ومن ثم قام بعض الناسخين للكتاب فضم بابا لم يذكر فيه حديث إلى حديث لم يذكر له باب ، فأشكل فهمه على الناظر فيه .

ويقوم منهج البخارى فى تراجمه على طريقتين :

- ١ - طريقة ظاهرة .
- ٢ - طريقة خفية .

(٤٩) فتح البارى ج ١ ص ٥ ، ٦ .

١ - الطريقة الظاهرة

هي أن تكون الترجمة دالة بالمطابقة على ما يورده من الاحاديث ، كأن يقول : هذا الباب الذى فيه كيت وكيت أو باب ذكر الدليل على الحكم الفلان ، مثلا وقد تكون الترجمة بلفظ المترجم له ، وقد تكون ببعض ألفاظه ، وقد تكون بمعناه ، وهذا النوع من التراجم ، وهو التراجم الظاهرة ذكر ابن حجر أن فائدتها : الاعلام بما ورد فى ذلك الباب^(٥٠) ، مثال ذلك : (باب ذكر هند بنت عتبة بن ربيعة رضى الله عنها . وجاء بالاسناد المتصل الى عروة ان عائشة رضى الله عنها قالت : جاءت هند بنت عتبة قالت : يا رسول الله ما كان على ظهر الأرض من أهل خباء أحب الى أن يذلوا من أهل خيائك ثم ما أصبح على ظهر الأرض من أهل خباء أحب الى أن يعزوا من أهل خيائك^(٥١) فليس فى هذه الترجمة اجتهاد ، ولكنها مجرد عنوان لما ترجم له .

ومثال الترجمة بلفظ المترجم له : (باب قول النبى ﷺ اللهم علمه الكتاب) وجاء بالحديث المتصل عن ابن عباس قال ضمنى رسول الله ، وقال : اللهم علمه الكتاب^(٥٢) .

فقد جاء فى الترجمة هنا بنفس الحديث المترجم له .

ومثال الترجمة ببعض المترجم له : (باب من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين) وجاء بالإسناد المتصل ، قال حميد بن عبد الرحمن : سمعت معاوية خطيبا يقول سمعت النبى ﷺ يقول : (من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين وإنما أنا قاسم والله يعطى ، ولن تزان هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله)^(٥٣) فقد ترجم هنا ببعض عبارات الحديث المترجم له .

(٥٠) مقدمة فتح البارى ص ١١ .

(٥١) فتح البارى ج ٧ ص ٩٧ .

(٥٢) المرجع السابق ص ١٥٥ .

(٥٣) فتح البارى ج ١ ص ١٥٠ .

ومثال الترجمة التي جاءت تفسيراً لمعنى كلمة في الحديث . (باب الاغتيال في العلم والحكمة) وقال عمر تفقهوا قبل أن تسودوا ثم ذكر الحديث المسند عن عبد الله بن مسعود قال قال النبي ﷺ لا حسد الا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها^(٥٤) . فقد فسر في هذه الترجمة المعنى المراد بالحسد وهو الغبطة ومعناها : أن يتمنى أن يكون له مثل ما لغيره من غير أن يزول عنه بخلاف الحسد .

(٥٤) فتح الباري ج ١ ص ١٥١ .

الطريقة الثانية

أن يأتي للحديث العام بترجمة خاصة ، أو يأتي للحديث الخاص بترجمة عامة ، فمثال الأول : « باب جهر الامام بالتأمين »^(٥٥) ثم يأتي بالحديث المسند عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أمن الامام فأمنوا فانه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » فليس في الحديث التصريح بالجهر بالتأمين ولكنه وضع في الترجمة أن المراد : الجهر بالتأمين في الصلاة الجهرية ، وأخذ ذلك من قول الرسول ﷺ : إذا أمن الامام فأمنوا ، فتحديدها بوقت تأمين الامام ، لا يعرف إلا حال الجهر حيث يتمكن المقتدى أن يؤمن ، فبين بالترجمة اذ أن الحديث وإن كان عاما، الا أنه أراد منه الخصوص .

ومثال الثاني وهو ما جاء فيه بترجمة عامة للحديث الخاص : (باب التسمية على كل حال وعند الوقاع)^(٥٦) وجاء بالاسناد المتصل عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : لو إن أحدكم إذا أتى أهله قال : « باسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا ففضى بينهما ولد لم يضره) . فالحديث ورد خاصا بالحالة المعينة وهي عند الوقاع ، اما الترجمة فجاءت عامة في هذه الحالة وفي سائر الاحوال ، وذلك للإشارة الى ان التسمية مستحبة عموما ، والحديث وإن جاء خاصا الا انه يراد به العموم ، وهكذا الحال بالنسبة للمطلق والمقيد وشرح المشكل وتفسير الغامض وتأويل الظاهر وتفصيل المجل .

وقد يأتي بلفظ الترجمة ، ثم يورد بعدها أية أو أثرا لا حديثا مسندا ، فكأنه يقول لم يصح في الباب شيء على شرطى . وقد يترجم بأية ويأتي بعدها بالحديث ، وقد يترجم بلفظ الاستفهام كقوله : باب هل يكون كذا ؟ أو من قال كذا ؟ وذلك عندما لا يتجه له القطع بأحد الاحتمالين ، ويكون غرضه بيان هل يثبت الحكم أم لا ؟ فترجم على الحكم ومراده ما يفرضه بعد ذلك من إثباته أو نفيه أو احتمالهما ، وربما كان أحد الاحتمالين أظهر ، وغرضه : أن يبقى للنظر مجالا . وقد يترجم بأمر يكون في الظاهر قليل الجدوى ولكن اذا نظر فيه الناظر ونديبه وجده كثير النفع كقوله : (باب قول الرجل ما صلينا)^(٥٧) فانه أشار به الى الرد على من كره ذلك .

(٥٥) فتح البارى ج ٢ ص ١٧٧ .

(٥٦) المعنى ج ٢ ص ٣٦٦ .

(٥٧) صحيح البخارى ج ١ ص ١٠٩ .

نقد الجامع الصحيح للإمام البخارى

تلقت الأمة كتاب الجامع الصحيح للإمام البخارى بالقبول واحتل هذا الكتاب النفيس مكانته الجليلة وتقديره العظيم عند أئمة الحديث ولذا عنوا به عناية عظيمة فكان منهم من دفعه اهتمامه بالكتاب وتقديره له الى أن قام بتطبيق ما فيه من الأحاديث على ما اشترطه البخارى فى صحيحه فاذا ما بدا له أن بعض الاحاديث لا تتفق وما اشترطه البخارى ، وتبين له أنها نزلت عن الدرجة العالية التى التزمها ، إذا ما بدا له ذلك تناول هذه الأحاديث بالنقد . وليس معنى تقديم لها أنها قد وصل بها الضعف الى حد الموضوع أو المنكر ما سيتضح ذلك .

وقد كان من بين الاحاديث المتقدمة على البخارى ما وافقه مسلم على تخريجه وهو اثنان وثلاثون حديثا ، ومنها ما انفرد البخارى بتخريجه وهو ثمانية وسبعون حديثا ، وقبل بيان الرد الاجمالى والتفصيلى على هذا النقد أحب أن أقرر أن الدافع لهؤلاء النقاد الذى حفزهم على هذا النقد هو شدة حذرهم ويقظتهم ، وكمال اهتمامهم وعنايتهم بهذه المصنفات النفيسة ، على أساس من الاخلاص وليس بدافع القدح أو الحسد .

الجواب الاجمالي

ذكر ابن حجر في مقدمة فتح الباري جوابا إجماليا قال فيه : « لا ريب في تقديم البخارى ثم مسلم على أهل عصرهما ومن بعده من أئمة هذا الفن في معرفة الصحيح والمعلل فانهم لا يختلفون في أن على ابن المدينى كان أعلم أقرانه بعلم الحديث وعنه أخذ البخارى ذلك حتى كان يقول : ما استصغرت نفسى عند أحد الا عند على بن المدينى ، ومع ذلك فكان عل ابن المدينى إذا بلغه ذلك عن البخارى يقول : دعوا قوله فانه ما رأى مثل نفسه . وكان محمد بن يحيى الذهلى أعلم أهل عصره بعلم حديث الزهري وقد استفاد منه ذلك الشيخان جميعا وروى الفربرى عن البخارى قال : ما أدخلت في الصحيح حديثا إلا بعد أن استخرت الله تعالى وتيقنت صحته ، وقال مكى بن عبد الله : سمعت مسلم بن الحجاج يقول : عرضت كتابي هذا على أبي زرعة الرازى فكل ما أشار أن له علة تركته فاذا عرف وتقرر أنها لا يخرجان من الحديث إلا ما لا علة له أو له علة إلا أنها غير مؤثرة عندهما فتقدير توجيه كلام من انتقد عليهما يكون قوله معارضا لتصحيحهما ولا ريب في تقديمهما في ذلك على غيرهما فيندفع الاعتراض من حيث الجملة » أ . هـ (٥٨) .

الجواب التفصيلي

وأما من حيث التفصيل فإن الاحاديث المتقدمة تنقسم الى ستة أقسام :

القسم الأول :

ما تختلف الرواة فيه بالزيادة والنقص من رجال الاسناد ، فان أخرج صاحب الصحيح الطريق المزيده وعلله الناقد بالطريق الناقصة فهو تعليل مردود كما صرح به الدارقطني لأن الراوى إن كان سمعه فالزيادة لا تضر لأنه قد يكون سمعه بواسطة عن شيخه ثم لقيه فسمعه منه وان كان لم يسمعه في الطريق الناقصة فهو منقطع ، والمنقطع من قسم الضعيف والضعيف لا يعلل الصحيح ، وإن أخرج صاحب الصحيح الطريق الناقصة وعلله الناقد بالطريق المزيده تضمن اعتراضه دعوى انقطاع فيما صححه المصنف فينظر أن كان ذلك الراوى صحابيا أو ثقة غير مدلس قد أدرك من روى عنه إدراكا بينا أو صرح بالسماع إن كان مدلسا من طريق أخرى فان وجد ذلك اندفع الاعتراض بذلك وإلا لم يوجد وكان الانقطاع فيه ظاهرا فحصل الجواب عن صاحب الصحيح أنه إنما أخرج مثل ذلك في باب ماله متابع وعاضد أو ما حفته قرينة في الجملة تقوية ويكون التصحيح وقع من حيث المجموع وربما علل بعض النقاد ، أحاديث ادعى فيها الانقطاع لكونها غير مسموعة كما في الاحاديث المروية بالمكاتبة والاجازة وهذا لا يلزم منه الانقطاع عند من يسوغ الرواية بالاجازة بل في تخريج صاحب الصحيح لمثل ذلك دليل على صحة الرواية بالاجازة عنده .

القسم الثاني :

ما تختلف الرواة فيه بتغيير رجال بعض الاسناد ، فالجواب عنه إن أمكن الجمع بأن يكون الحديث عند ذلك الراوى على الوجهين جميعا فأخرجها المصنف ولم يقتصر على احدهما حيث يكون المختلفون في ذلك متعادلين في الحفظ والعدد ، وإن امتنع بأن يكون المختلفون غير متعادلين بل متقاربين في الحفظ والعدد فيخرج المصنف الطريق الراجحة ويعرض عن الطريق المرجوحة أو يشير إليها بالتعليل بجميع ذلك من أجل الاختلاف غير قادح اذ لا يلزم من مجرد الاختلاف اضطراب يوجب الضعف فينبغي الاعراض أيضا طالما هذا سبيله .

القسم الثالث :

ما تفرد بعض الرواة بزيادة فيه دون من هو اكثر عددا أو أضيف ممن لم يذكرها فهذا لا يؤثر التعليل بها الا إن كانت الزيادة منافية بحيث يتعذر الجمع أما إن كانت الزيادة لا منافاة فيها بحيث تكون كالحديث المستقل فلا ، اللهم الا إن وضح بالدلائل القوية أن تلك الزيادة مدرجة في المتن من كلام بعض رواه فما كان من هذا القسم فهو مؤثر .

القسم الرابع :

ما تفرد به بعض الرواة ممن ضعف منهم وليس في هذا « الصحيح » من هذا القبيل غير حديثين وتبين أن لكل منهما متابعا احدهما حديث أبي بن عباس بن سهل بن سعد عن أبيه عن جده قال : كان للنبي ﷺ فرس يقال له اللحييف ، قال الدارقطني : وأبى هذا ضعيف قال الحافظ وقد تابعه عليه أخوه عبد المهيمن بن عباس ، وثانيتها : حديث اسماعيل بن أبي أويس عن مالك وعن زيد بن اسلم عن ابيه أن عمر رضى الله عنه استعمل مولى له يدعى هنيا على الخمس ، الحديث . قال الدارقطني واسماعيل ضعيف قال الحافظ : لم يتفرد به بل تابعه عليه معن بن عيسى فرواه عن مالك كرواية اسماعيل سواء .

القسم الخامس :

ما حكم فيه بالوهم على بعض رواه ، والجواب أن الوهم إنما يؤثر إذا لم يرو الحديث من غير طريق الذى حكم عليه بالوهم وقال ابن حجر وليس في الصحيح منه بحمد الله شيء وأما إذا روى الحديث من غير طريقه فذلك الوهم لا يؤثر ويكون المعتمد عليه أصل الحديث لا خصوص ذلك الطريق .

القسم السادس :

ما اختلف فيه بتغيير بعض ألفاظ المتن والجواب : إن هذا أكثره لا يترتب عليه قرح لإمكان الجمع في المختلف من ذلك أو الترجيح أ . هـ . (٥٩) . ويعد أن ذكر ابن حجر الاحاديث المنتقدة وأجاب عنها بين أن هذا هو جميع ما تعقبه الحفاظ النقاد العارفون بعلم الاسانيد . وقد ظهر واضحا أنه ما من حديث الا ورد من طريق آخر وثبتت صحة المتن

(٥٩) هدى السارى .

كلها فضلا عن رد كل نقد وجه الى الاحاديث ولا يغض هذا النقد من قيمة الجامع الصحيح وأصحيته فهو في الدرجة الاولى من الصحة .

ومن أمثلة الأحاديث المتقدمة :

١ - قال الدار قطنى : (وأخرجا جميعا - أى البخارى ومسلم - حديث الاعمش عن مجاهد عن طاوس عن ابن عباس يعنى فى قصة القبرين وأن أحدهما كان لا يستبرىء من بوله قال وقد خالفه منصور فقال عن مجاهد عن ابن عباس وأخرج البخارى حديث منصور على إسقاطه طاوسا ، وهذا الحديث قد أخرجه البخارى فى كتاب الطهارة عن عثمان بن أبى شيبة عن جرير وأخرجه فى كتاب الأدب عن كثير بن سلام عن عبدة بن حميد كلاهما عن منصور به ، ورواه من طريق أخرى من حديث الاعمش وأخرجه باقى الستة من حديث الاعمش أيضا وأخرجه أبو داود والنسائى وابن خزيمة فى صحيحه من حديث منصور أيضا ، وقال الترمذى بعد أن أخرجه : رواه منصور عن مجاهد عن ابن عباس وحديث الاعمش أصح يعنى المتضمن للزيادة قال الحافظ وهذا فى التحقيق ليس بعلة لأن مجاهدا لم يوصف بالتدليس وسماعه من ابن عباس صحيح فى جملة من الاحاديث ومنصور عندهم أتقن من الاعمش مع أن الاعمش أيضا من الحفاظ والحديث كيفما دار دار على ثقة الأسناد كيفما دار كان متصلا فمثل هذا لا يقدر فى صحة الحديث إذا لم يكن راويه مدلسا ، وقد أكثر الشيخان من تخريج مثل هذا ولم يستوعب الدار قطنى انتقاده (٦٠) .

٢ - قال الدار قطنى : وأخرجا جميعا حديث ابن جريح عن الزهرى عن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه وعمه عبيد الله بن كعب عن النبى ﷺ كان اذا قدم من سفر ضحى بدأ بالمسجد الحديث . . . وقد خالفه معمر فقال عن الزهرى عن عبد الرحمن ابن كعب عن أبيه وقال عقيل عن الزهرى عن ابن كعب عن أبيه وهو يشبه رواية معمر ، قال الدار قطنى ورواية ابن جريح أصح ولا يضره من خالفه ، قال ابن حجر قول معمر وغيره عن عبد الرحمن بن كعب يحمل على أنه نسبة الى جده فتكون روايتهم منقطعة وهذا الجواب صحيح من الدار قطنى فى أن الاختلاف فى مثل هذا لا يضر (٦١) .

(٦٠) هدى السارى .

(٦١) هدى السارى ص ٣٦٢ .

نقد الرجال

وجه بعض النقاد الطعن في بعض رجال البخارى الذين خرج لهم في كتابه « الجامع الصحيح » ومعظمهم من شيوخه الذين لقيهم وجالسهم وخبرهم وميز بين صحيح مروياتهم من سقيمها وقد أخرج لبعضهم في أصول الكتابة وأخرج لبعضهم الآخر في المتابعات والشواهد .

وانبرى الحافظ ابن حجر في مقدمته للإجابة عن تلك الاعتراضات والطعن وتناول الدفاع عنهم واحدا واحدا ورتبهم على حروف المعجم مما يشهد له بدقة النقد العلمى ونزاهته ، يقول الحافظ ابن حجر^(٦٢) : ينبغي لكل منصف أن يعلم أن تخريج صاحب الصحيح لأى راو كان . مقتضى لعدالته عنده وصحة ضبطه وعدم غفلته ولا سيما ما انضاف الى ذلك من إطباق جمهور الائمة على تسمية الكتاين بالصحيحين وهذا معنى لم يحصل لغير من خرج عنهم فى الصحيح فهو بمثابة إطباق الجمهور على تعديل من ذكر فيهما هذا اذا خرج له فى الأصول فاما إن خرج له فى المتابعات والشواهد والتعليق فهذا تتفاوت درجات من أخرج له منهم فى الضبط وغيرهم من حصول اسم الصدق لهم ، وحينئذ اذا وجدنا لغيره فى واحد منهم طعنا فذلك الطعن مقابل لتعديل هذا الامام فلا يقبل الا ميين السبب مفسرا بقادح يقدر فى عدالة هذا الراوى وفى ضبطه مطلقا ، أوفى ضبطه لخبر بعينه لأن الاسباب الحاملة للأئمة على الجرح متفاوتة منها ما يقدر ومنها ما لا يقدر وقد كان الشيخ أبو الحسن المقدسى يقول فى الرجل الذى يخرج عنه فى الصحيح هذا جاز القنطرة يعنى بذلك أنه لا يلتفت إلى ما قيل فيه .

وقد وضع ابن حجر مقاييس دقيقة لنقد الرجال يزن بها قيمة رجال الصحيح فقال لا يقبل الطعن فى أحد منهم إلا بقادح واضح لأن أسباب الجرح مختلفة ومدارها على خمسة أشياء .

- ١ - البدعة .
- ٢ - المخالفة .
- ٣ - الغلط .
- ٤ - جهالة الحال .

(٦٢) المرجع السابق ص ٣٨١ .

٥ - دعوى الانقطاع في السند بأن يدعى في الراوى أنه كان يدلس أو يرسل . فأما جهالة الحال فمندفعة عن جميع من اخرج لهم في الصحيح لأن شرط الصحيح أن يكون راوية معروفا بالعدالة فمن زعم أن أحدا منهم مجهول فكأنه نازع المصنف في دعواه أنه معروف ولا شك أن المدعى لمعرفته مقدم على من يدعى عدم معرفته لما مع المثبت من زيادة العلم ومع ذلك فلا تجرد في رجال الصحيح أحدا يسوغ اطلاق اسم الجهالة عليه أصلا وأما الغلط : فتارة يكثر من الراوى وتارة يقل فحيث يوصف بكونه كثير الغلط ينظر فيما أخرج له إن وجد مرويا عنده وعند غيره من رواية غير هذا الموصوف بالغلط علم أن المعتمد أصل الحديث لا خصوص هذه الطريقة وإن لم يوجد إلا من طريقه ، فهذا قادح يوجب التوقف عن الحكم بصحة ما هذا سبيله وليس في الصحيح بحمد الله من ذلك شيء .

وحيث يوصف بقلة الغلط كما يقال سيء الحفظ وله أوهام أوله مناكير وغير ذلك من العبارات فالحكم فيه كالحكم في الذى قبله أى تارة يكثر وتارة يقل وينظر فيما أخرج له . . . الخ . إلا أن الرواية عن هؤلاء في المتابعات أكثر منها عند المصنف من الرواية عن أولئك مع عدم التفرد فلا طعن - إلا أن الرواية عنهم إنما هى للاستثناس والشواهد وتكثير الطرق فهى معادة .

وأما المخالفة : فيثبت بها الشذوذ والنكارة ، فإذا روى الضابط والصدوق شيئا فرواه من هو أحفظ منه وأكثر عددا بخلاف ما روى الحديث يتعذر الجمع على قواعد المحدثين فهذا شاذ ، وقد تشدد المخالفة بأن يضعف الحفظ فيحكم على من يخالف فيه بكونه منكرا وهذا ليس في الصحيح منه إلا قدر يسير . وكان البخارى بعد ذكر الروايات جميعها ينبه عليها ويذكر رأيه فلا اعتراض عليه . وأما دعوى الانقطاع فمدفوعة عنم أخرج لهم البخارى كما علم من شرطه . وهو أن العنينة تفيد الاتصال بشرط المعاصرة واللقاء . ومع ذلك فحكم من ذكر من رجاله بتدليس أو ارسال أن تسبر أحاديثهم الموجودة عنده ، فإن وجد التصريح بالسماع فيها - بأن يوجد هذا في طرق أخرى - اندفع الاعتراض وإلا فلا . وقد ثبت السماع في المنعن فلا وجه للاعتراض .

أما البدعة : فالموصوف بها إما أن يكون ممن يكفر بها أو يفسق . فالمكفر بها لا بد أن يكون ذلك التكفير متققا عليه من قواعد جميع الأئمة كما في غلاة الروافض من دعوى بعضهم حلول الألوهية في على أو غيره أو الإيمان برجوعه الى الدنيا قبل يوم القيامة أو غير ذلك ، وليس في الصحيح من حديث هؤلاء شيء ألبتة .

والمفسق بها : كبدع الخوارج والروافض الذين لا يغفلون ذلك الغلو وغير هؤلاء من الطوائف المخالفة لأصول السنة خلافا ظاهرا لكنه مستند الى تأويل ظاهره سائغ فقد اختلف أهل السنة في قبول حديث ما هذا سبيله اذا كان معروفا بالتحرز من الكذب مشهورا بالسلامة من خوارج المروءة موصوفا بالديانة والعبادة فقبل مطلقا وقيل يرد مطالقا والثالث التفصيل بين أن يكون داعية لبدعته أو غير داعية فيقبل غير الداعية ويرد حديث الداعية ، وهذا المذهب هو الأعدى وصارت إليه طوائف من الأئمة وادعى ابن حبان اجماع أهل النقل عليه لكن في دعوى ذلك نظر فقد روى عن الامام مالك رد روايتهم . ثم اختلف القائلون بهذا التفصيل فبعضهم أطلق ذلك وبعضهم زادهم تفصيلا فقال إن اشتملت رؤية غير الداعية على ما يشيد ببدعته ويزينها ويحسنها ظاهرا فلا تقبل وإن لم تشتمل فتقبل ، هذا وطرده بعضهم هذا التفصيل بعينه في حق الداعية فقال : ان اشتملت روايته على ما يرد بدعته قبل وإلا فلا وعلى هذا اذا اشتملت رواية المبتدع سواء كان داعية أم لم يكن على ما لا تعلق له في بدعته أصلا هل ترد مطلقا أو تقبل مطلقا ؟

مال أبو الفتح القشيري الى تفصيل آخر فيه فقال : إن وافقه غيره فلا يلتفت إليه هو اخادا لبدعته واطفاء لناره والا لم يوافقه حد ولم يوجد ذلك الحديث إلا عنده مع وصفنا من صدقه وتحرزه عن الكذب واشتهاره بالدين وعدم تعلق ذلك الحديث ببدعته فينبغي أن تقدم مصلحة تحصيل ذلك الحديث ونشر تلك السنة على مصلحة إهائه واطفاء بدعته .

واعلم أنه قد وقع من جماعة الطعن في جماعة بسبب اختلافهم في العقائد فينبغي التنبيه لذلك وعدم الاعتداد به إلا بحق وكذا عاب جماعة من الورعين جماعة وخذلوا في الدنيا فضعفهم لذلك ، ولا أثر لذلك التضعيف مع الصلح والضبط والله الموفق . وأبعد من ذلك كله من الاعتبار تضعيف من ضعف بعض الرواة بأمر يكون الحمل فيه على غيره أو التحامل بين الاقران ، وأشد من ذلك تضعيف من ضعف من هو أوثق منه أو أعلى قدرا أو أعرف بالحديث فكل هذا لا يعتبر به « أ . هـ » .

وقد عقد ابن حجر فصلا مستقلا جمع فيه أسماء الرجال الذين طعن فيهم مع ذكر الطعن الموجه اليهم وسببه وقام بالاجابة عنه ومن أمثلة ذلك :

١ - احمد بن بشير الكوفي أبو بكر مولى عمرو بن حريث المخزومي ، قال النسائي : ليس بذاك القوى ، وقال عثمان الدارمي متروك وقواه ابن معين وأبو زرعة وغيرهم وأخرج له البخارى حديثا واحدا تابعه عليه مروان بن معاوية وأبو سلمة وهو في كتاب الطب أما تضعيف النسائي له فمشمع بأنه غير حافظ ، وأما كلام عثمان الدارمي

فقد رده الخطيب بأنه اشتبه عليه براو آخر اتفق اسمه واسم أبيه وهو كما قال الخطيب رحمه الله تعالى وقد روى له الترمذى وابن ماجه .

٢ - احمد بن شبيب بن سعيد الحبطى روى عنه البخارى أحاديث بعضها قال فيه حدثنا وبعضها قال فيه : قال أحمد بن شبيب ووثقه ابو حاتم الرازى وقال ابن عدى : وثقة أهل العراق ، وكتب عنه على بن المدينى وقال أبو الفتح الأزدي : منكر الحديث غير مرضى ، ولا عبرة بقول الأزدي لانه هو ضعيف فكيف يعتمد في تضعيف الثقات .

وأرى بعد هذا النقد والاجابة عليه : أن كتاب الجامع الصحيح للامام البخارى هو أول الكتب الستة في الصحة ، ولا يغض من قيمته مثل هذا النقد ، فقد وردت الاحاديث المنتقدة من طرق أخرى ، وقد تبين من الاجابة عليها ، وعلى الرجال المنتقدين ان الامام البخارى كان شديد التحرى بالغ الحيطه ، في رواية الأحاديث وفي اختيار من يروى عنهم من الرجال حتى أخذ كتابه الصحيح مكانته المرموقة وتبوأ درجته الأولى على قمة أمهات كتب السنة ، حتى قيل فيه أنه أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى .

وكما توجه النقد قديما الى صحيح البخارى فقد توجه أيضا النقد حديثا وسنقدم بعض النماذج من الأحاديث التي توجه إليها النقد ثم نجيب عنها .

نقد حديث الذباب ، والاجابة عليه

روى البخارى بمسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إذا وقع الذباب فى اناء أحدكم فليغمسه كله ثم ليطرحه فان فى أحد جناحيه داء وفى الآخر شفاء) (٦٣) .

وقد توجه النقد الى هذا الحديث ، فانكره الدكتور محمد توفيق صدقى ، وطعن فى صحته لأنه فى نظره لا يوافق العقل والعرف ، كما طعن فى الحديث كذلك أبورية ناقلا آراء من تقدمه من الطاعنين فى هذا الحديث المستبعدين اجتماع الداء والدواء فى شىء واحد والمستبعدين أن يكون فى الذباب دواء وهو الذى يحوى الجراثيم .

الاجابة على ذلك : والحق ان هذا الحديث صحيح رواه البخارى وأبو داود والنسائى وابن ماجه وسنده فى الدرجة العالية من الصحة ، أما ما يستبعده الطاعنون فى صحة الحديث فانه لا أساس له فقد أثبت الطب صدق هذا الحديث النبوى وصحته اذ أن بعض المهرة من الأطباء توصل الى أن فى الذباب مادة قاتلة للميكروب ، فحينما يغمس فى الاناء يظهر مفعول هذه المادة حيث تقوم بافرازات تقضى على ما يحمله الذباب من الجراثيم التى تعلق به ، وتسمى تلك المادة المبيدة للجراثيم (مبيد البكتريا) كما يسميها علماء الطب وتتكون هذه المادة عندما يقع الذباب على بعض الاماكن الملوثة فينقل بعض الجراثيم بأطرافه ، ويتناول بعضها فيأكله فتتكون فى هذه المادة (مبيد البكتريا) ، وقد توصل بعض الأطباء الى ما فى هذه المادة من خصائص ، وأنه لا بقاء للجراثيم فى وجود هذه المادة ويساعد هذه المادة فى عملها أن أحد الجناحين فى الذبابة يقوم بتحويل مبيد البكتريا الى ناحيته وبهذا نرى ان الذباب اذا وقع فى الشراب أو فى الطعام وحل بعض الجراثيم ونقله فإن المادة المبيدة مبيد البكتريا تقوم بوقاية الشراب أو الطعام من الجراثيم والقضاء عليها فى الحال .

(٦٣) اخرجه البخارى فتح البارى جـ ١٠ ص ١٩٦ باب اذا وقع الذباب فى الاناء ، وفى بدء الخلق بلفظ « شراب » وفى حديث أبى سعيد عند النسائى وابن ماجه وصححه ابن حبان اذا وقع فى الطعام ورواه البزار من حديث أنس ورواه أبو داود بلفظ « فان فى أحد » .

وقد حقق كل من الدكتور محمود كامل ، والدكتور محمد عبد المنعم حسين صدق حديث الذباب تحقيقا علميا قاما فيه بدراسة كافية حول خصائص الذباب وتكوينه وما يشتمل عليه من طفيليات ومواد ، وقد وضحا الأمر بالمراجع العلمية وذكرنا ان الاستاذ الالماني (بريفلد) من جامعة هال بالمانيا وجد في عام ١٨٧٢ ان الذبابة المنزلية مصابة بطفيلي من جنس الفطريات سماها (اميوزا موسكى) من عائلة (انترموفترالى) من تحت فصيلة (سيجومايسيس) من فصيلة فيكوماييسيس ويقضى هذا الفطر حياته في الطبقة الدهنية داخل بطن الذبابة ، وذكر الاستاذ (لانجيرون) اكبر الاساتذة في علم الفطريات في عام ١٩٤٥ ان هذه الفطريات تعيش في شكل خميرة مستديرة داخل أنسجة الذبابة وهي تفرز انزيمات قوية تحلل وتذيب أجزاء الحشرة الحاملة للمرض كما تم عزل مادة مضادة للحويوة في كل من سويسرا وبريطانيا وانجلترا تسمى (جافاسين) ومادة أخرى تسمى (كلونتيزين) ومادة تسمى (انياتين) وهذه المواد مضادة للحويوة من مزرعة الفطريات الموجودة على جسم الذبابة وأنها ذات مفعول قوى في بعض الجراثيم .

إما بخصوص تلوث الذباب بالجراثيم المرضية كجراثيم الكوليرا والتيفود والدوستاريا وغيرها التي ينقلها الذباب بكثرة فمكان هذه الجراثيم يكون فقط على أطراف أرجل الذبابة أو في برازها ، وهذا ثابت في جميع المراجع البكتريولوجية . . . ويستدل من كل هذا على انه اذا وقعت الذبابة على الاكل فستلمس الغذاء بأرجلها الحاملة للميكروبات المرضية التيفود أو الكوليرا أو الدوستاريا أو غيرها ، واذا تبرزت على الغذاء فسيلوث الغذاء أيضا كما ذكرنا بارجلها أو الفطريات التي تفرز المواد المضادة للحويوة والتي تقتل الجراثيم المرضية الموجودة في براز الذبابة وفي أرجلها فتوجد على بطن الذبابة ولا تنطلق مع سائل الخلية المستطيلة من الفطريات والمحتوى على المواد المضادة للحويوة إلا بعد أن يلمسها السائل الذى يزيد الضغط الداخلى لسائل الخلية ويسبب انفجار الخلية المستطيلة واندفاع البذور والسائل (أ . هـ ، ٦٤) .

وهكذا يتضح لنا الأمر ، ويتبين لنا أن هذا الحديث الذى طعن فيه الطاعنون يعتبر من المعجزات الدالة على صدق الرسول ﷺ ، فقد ظهر فعلا أن في أحد أجزاء الذبابة داء وفي الآخر شفاء بما تحمله من المواد المضادة للحويوة .

وليس معنى هذا أن نتهاون في أمر الذباب وأن نتساهل بالنسبة له في حياتنا ، لا فإن

الاسلام دين النظافة وقد حرص في كل تشريعاته على وقاية الصحة والبعد عن مواطن الضرر والتهلكة ، وانما لأن الذباب مما يتعذر دفعه كثيرا ، وتتعدر الوقاية منه في كثير من الأحوال ونحن مع ذلك ينبغي علينا نظافة المكان والمطعم والمشرب من الذباب وأمثاله ولكن اذا دعت الضرورة ووقع في طعامنا فان الحديث الشريف يكشف لنا عن شيء كان غامضا علينا وهو ما تحتوى عليه الذبابة من مادة مضادة لكثير من الأمراض فان نحن غمنا الذبابة وخرج السائل قتلت المادة الموجودة فيه تلك الجراثيم المرضية .

واذا كان الطب الحديث قد اكتشف ما في الذباب من مواد علاجية ، فان الأطباء القدماء قد اكتشفوا مثل ذلك في الذباب حيث ذكروا ان الاكتحال به مع الأثمد يزيد في نور البصر ويشد مراكز الاجفان في حافات انعيون . وقد بين ابن قتيبة ان حمل أمر الدين على المشاهدة يعتبر انسلاخا من الدين فقال : (أن من حمل أمر الدين على ما شاهد فجعل « الذباب » لا يعلم موضع السم وموضع الشفاء واعترض على ما جاء في الحديث مما لا يفهمه : فانه منسلخ من الاسلام مخالف لما جاء به الرسول ﷺ وما درج عليه الخيار من صحابته والتابعون ، ومن كذب ببعض ما جاء به رسول الله ﷺ كان كمن كذب به كله) (٦٥) والحقيقة أن مثل هذه الأمور التي أخبرها بها الرسول ﷺ وإن صدقها العلم الحديث باكتشافاته ، فانها لا يضبطها حدس ولا تخمين ولا يحصرها قياس ولا اكتشاف ، وهي وإن اعطتنا ما نظمته بصحته فليست وحدها الدليل على صحة الحديث لأن مثل ذلك خاضع للخطأ والصواب خاضع لاختلاف الآراء ، أما ما أخبر به الرسول ﷺ فهو فوق ذلك كله لان المخبر معصوم من الخطأ ولا ينطق عن الهوى . وضافة الى ما سبق فقد ورد في رواية أبي داود وصححه ابن حبان من طريق سعيد المقبري عن أبي هريرة وأنه يتقى بجناحه الذي فيه الداء .

وقال الخطابي « تكلم على هذا الحديث من لا خلق له فقال : كيف يجتمع الشفاء والداء في جناحي الذباب وكيف يعلم ذلك من نفسه حتى يقدم جناح الشفاء ؟ وما الجاه الى ذلك ؟ قال : وهذا سؤال جاهل أو متجاهل فان كثيرا من الحيوان قد جمع الصفات المتضادة وقد ألف بينها وقهرها على الاجتماع وجعل منها قوى احيوان وان الذي ألهم النحلة اتخاذ البيت العجيب الصنعة لتعمل فيه وألهم النملة أن تدخر قوتها أو ان حاجتها وأن تكسر الحبة نصفين لثلاث تستنبت ، لقادر على إلهام الذبابة أن تقدم جناحا وتؤخر آخر .

(٦٥) تاويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٢٩٠ .

وقال ابن الجوزى ان النحلة تعسل من أعلاها وتلقى السم من اسفلها والحية القاتل سمها تدخل لحومها فى الترياق الذى يعالج به السم ، والذبابة تسحق مع الاثمد لجلاء البصر . وذكر بعض حذاق الاطباء أن فى الذباب قوة سمية يدل عليها الورم والحكة العارضة عن لسعه وهى بمنزلة السلاح له ، فاذا سقط الذباب فيما يؤذيه تلقاه بسلاحه فأمر الشارع أن يقابل تلك السمية بما أودعه الله تعالى فى الجناح الآخر من الشفاء فتقابل المادتان فيزول الضرر باذن الله تعالى « أ . هـ » (٦٦)

(٦٦) فتح البارى ج ١٠ ص ١٩٧ .

الطعن في حديث : (من اصطبغ كل يوم سبع تمرات عجوة

لم يضره سم ولا سحر ذلك اليوم الى الليل) (٦٧)

والاجابة على ذلك

وقد طعن في هذا الحديث أحمد أمين وغيره ، فقال ان البخارى يثبت أحاديث دلت الحوادث الزمنية والمشاهد التجريبية على أنها غير صحيحة ، وضرب مثلا لذلك بهذا الحديث . الاجابة - وقد وضع العلماء معنى الحديث ، وأثبتت اكتشافات العلم الحديث ما يتضمنه من أسرار وما يحتوي عليه من صدق وحقيقة .

ومن العلماء من خصص التمر النافع في هذه الأحوال بتمر المدينة نظرا للأحاديث التي وردت مقيدة لمعناه ، ومن العلماء من أطلقه سواء كان من المدينة أو من غيرها ولكن الذي ارتضاه أكثرهم أنه خاص بعجوة المدينة .

قال ابن اقيم في زاد المعاد : (والتمر غذاء فاضل حافظ للصحة ولا سيما لمن اعتاد الغذاء به كأهل المدينة وغيرهم . . .) الى أن قال : ونفع هذا العدد من التمر من هذا البلد من هذه البقعة بعينها من السم والسحر بحيث تمنع اصابته من الخواص التي لو قالها بقراط وجالينوس وغيرهما من الاطباء لتلقاها عنهم الأطباء بالقبول والاذعان والانتقاد ، مع أن القائل إنما معه اخدس والتخمين والظن فمن كلامه كله يقين وقطع وبرهان ووحى أولى بأن تتلقى أقواله بالقبول وترك الاعتراض^(٦٨) . واذا ما عرفنا أن السحر نوع من الأمراض النفسية ، وللايماء النفسى أثره الكبير في العلاج فإن أثر الغذاء بالتمر يقى الصحة من الناحية النفسية خاصة وأن الذى أخبر هو الصادق الأمين الذى لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى . وما دام سند الحديث صحيحا وما دام متنه كذلك صحيحا ، فلا يضيرنا في شيء إن كان العلم الحديث اكتشف ما في التمر من خواص أم لا ، فليس ذلك إلا قصورا في التقدم العلمى لا غير ، أما الحديث فلا غبار عليه . وقد شاء الله تعالى أن تبرز هذه الحقيقة الى عالم الوجود وتكشف البحوث العلمية الأثر العظيم للتمر وذلك فيما نشرته جريدة الأهرام تحت عنوان^(٦٩) : (البلح علاج لأمراض العيون

(٦٧) صحيح البخارى بشرح السندى ج ٤ ص ٢٠ ، فتح البارى ج ١٠ ص ١٨٧ ، صحيح مسلم ج ٣ ص ١٦١٨ ، مسند أحمد ج ٣ رقم ١٤٤٢ ، ١٥٢٨ عن سعيد بن أبى وقاص .
(٦٨) زاد المعاد ٩٤ / ٣ .

(٦٩) جريدة الأهرام ١٢ ذو الحجة ١٣٨٢ هـ ٢٦ مايو ١٩٦٣ ص ٤

والجلد والأنيميا والتزيف ولين العظام والبواسير ويساعد على الولادة بسهولة : - « أثبتت الأبحاث العلمية التي أجريت أخيرا بالمركز القومي للبحوث أن البلح غذاء كامل ويفيد في وقاية الجسم وعلاجه من أمراض العيون وضعف البصر وعلاج الأمراض الجلدية كالبلاجرا وأمراض الأنيميا وحالات التزيف ولين العظام والبواسير ويساعد المرأة الحامل على الولادة بسهولة . صرخ بذلك الدكتور عبد العزيز شرف المشرف على وحدة بحوث الأدوية بالمركز القومي للبحوث . وأضاف قائلا : أن الأبحاث أثبتت كذلك أن البلح يعادل اللحم في قيمته الغذائية ، ويتفوق عليه بما يعطيه من سرعات حرارية ومواد معدنية وسكرية وذلك بالإضافة الى أنه غني بالكالسيوم والفسفور والحديد ويحتوى على غالبية الفينامينات المعروفة) أ . ه .

ومما سبق يتضح أن الحديث روى بطرق صحيحة ، عن رواة عدول ثقات وأن متن الحديث يفيد ما للبلح من خصائص ومزايا أثبتت قديما ، حيث إنه مفيد في حالات كثيرة وله فوائد في لين المعدة وتنشيط أعضاء الجسم ، وما يحتوى عليه من الغذاء الكامل هذا بالإضافة الى ما اكتشفه العلم الحديث من المزايا السابقة ، إذن فالحديث صحيح بالمشاهدة وبأدلة العلم .

وقد أخرج البخارى عقب الحديث السابق حديثا آخر بلفظ : « من تصبح سبع تمرات عجوة لم يضره سم ولا سحر » ويبدو أن هذه الخاصية انما تكون لمتناول التمر أول النهار ، حيث يقع على الريق ، وقال ابن حجر : « وظاهر الاطلاق المواظبة على ذلك » ، وقال النووي : في الحديث تخصيص عجوة المدينة بما ذكر وأما خصوص كون ذلك سبعا فلا يعقل معناه كما في أعداد الصلوات ونصب الزكوات أ . ه . ويمكن أن نستنبط من الحديث الشريف والأقوال العلمية السابقة ثمرة التمر ، وأن خاصيته مشروطة بما اذا كان أول النهار على الريق مع المواظبة على ذلك وتخصيص العدد « بالسبع » انما لخاصية في هذا العدد لا يعلمها إلا الله أو من أطلقه على ذلك .

نقد حديث : (لا يبقى على ظهر الأرض بعد مائة سنة

نفس منقوسة)

والاجابة على ذلك

وهذا الحديث فهم منه أحمد أمين وغيره من الناقدين أن النبي ﷺ يريد بذلك الاخبار بانتهاء الدنيا بعد مائة سنة ومن هنا حكم عليه بالوضع لمخالفته للمحادثات التاريخية ومخالفته للواقع والحس والمشاهدة .

الاجابة : وهذا الحديث أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما ، وهو جزء من حديث رواه البخارى فى باب « السمر فى العلم (٧٠) » وهو أن عبد الله بن عمر قال : صلى النبي ﷺ العشاء فى آخر حياته فلما سلم قام فقال : (أرأيتم ليلتكم هذه ، فإن رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد) وأخرجه البخارى فى باب السمر فى الفقه والخبر بعد العشاء من كتاب الصلاة وهو أن عبد الله بن عمر قال : صلى النبي ﷺ صلاة العشاء فى آخر حياته فلما سلم قام النبي ﷺ فقال : (أرأيتم ليلتكم هذه فإن رأس مائة لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد) ورواه مسلم عن جابر : (ما من نفس منقوسة اليوم تأتى عليها مائة سنة وهى حية يومئذ) وعندما قال الرسول ﷺ هذا الحديث لم يفتن بعض الصحابة الى تقييد الرسول بمن هو على ظهرها اليوم فظنوه على اطلاقه ، وأن الدنيا تنتهى بعد مائة سنة فنبههم ابن عمر الى القيد فى لفظ الرسول وبين لهم المراد منه ، والقيد هو : لا يبقى ممن هو « اليوم » على ظهر الأرض يريد بذلك أنها تحرم ذلك القرن ، وإذا نظرنا الى آخر الصحابة موتا وجدناه أبا الطفيل عامر بن وائلة وقد مات سنة عشر ومائة وهى رأس مائة سنة من حديث الرسول ﷺ فيكون الحديث معجزة للرسول ﷺ حيث وقع الأمر كما أخبر به .

وقد أشار الى ذلك ابن حجر فى فتح البارى بقوله « لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض » أى الآن موجود أحد إذ ذاك ، قال ابن بطال : إنما أراد رسول الله ﷺ أن هذه المدة تحتم الجيل الذى هم فيه فوعظهم بقصر أعمارهم وأعلمهم أن أعمارهم ليست كأعمار من تقدم من الأمم ليجتهدوا فى العبادة أ . ه .

وربما يكون الرواة قد أسقطوا كلمة « منكم » نسيانا ، أو أن الرسول ﷺ أخفاها فلم يسمعوها وهي كلمة (منكم) أى لا يبقى ممن حضر ذلك المجلس من الصحابة ، قال (ابن قتيبة) : « ونراه بل لا نشك أنه قال : لا يبقى على الأرض منكم يومئذ نفس منفوسة » .

وقد وضع الرسول ﷺ إن نهاية صحابته رضوان الله تعالى عليهم يكون على رأس المائة ومعلوم أن الأمل معقود بعد هذه المدة على نشر الدين واتساع الفتوحات الإسلامية ونزول الرخاء وغير هذا من الأمور التي أخبر بها الرسول ﷺ وقد فهم الصحابة كما سبق ، ووضح العلماء وشراح الحديث المعنى المقصود ، فكيف يتأول المتأولون معنى غير هذا ؟ وكيف أداهم فهمهم السقيم الى أن المقصود نهاية الدنيا وأن الحديث بهذه الصورة يخالف الحق والمشاهدة فيحكمون عليه بالوضع ؟ إن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم بينوا ذلك ، ونبه ابن عمر الى تقييد الرسول ﷺ ، فلم يعد بعد ذلك مجال للكلام فى هذا الحديث ، وتشويه الحقائق ، ومحاولة بتر الحديث .

شروح صحيح البخارى ومختصراته

حظى (صحيح البخارى) بعناية كبيرة من علماء المسلمين ، فتناوله ، ما بين شارح له ودارس لرجاله ، وكان أعظم شروح صحيح البخارى وأوفاهها :

١ - « فتح البارى بشرح صحيح البخارى » للإمام الحافظ أبى الفضل أحمد بن على بن محمد بن حجر العسقلانى والمولود سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة ، والمتوفى سنة اثنتين وخسين وثمانمائة ، وقد اشتمل هذا الشرح على فوائد حديثة واستنباطات فقهية ونكات بلاغية وأدبية ، كما امتاز باستقراء الأحاديث التى رويت فى الباب ، وبيان منزلتها من القوة والضعف . وقد نهج ابن حجر فى كتابه بالنسبة للأحاديث المكررة أن يقوم بشرح ما يتصل بمقصد البخارى منها فى كل مناسبة ثم يحيل الباحث على المواضع الأخرى .

ولكتاب « فتح البارى » مقدمة نفيسة تضمنت بحوثا قيمة واشتملت على بيان منزلة صحيح البخارى وبيان التراجم والتعليقات والأحاديث المنتقدة والرجال الذين انتقدوا والاجابة على ذلك وترجمة لحياة الامام البخارى وما الى ذلك . . وقد أخذ كتاب فتح البارى مكانته فى نفوس العلماء والباحثين بحيث يدرك كل واحد منهم عظيم قدره وسمو مادته العلمية ، ولما طلب من الشيخ محمد ابن على الصنعانى الشوكانى المتوفى سنة ١٢٥٥ هـ صاحب « نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار » أن يشرح صحيح البخارى التزم مكانه وقال : « لا هجرة بعد الفتح » معترفا لابن حجر بالأمانة والمكانة ومعترفا للكتاب بالسبق والعظمة ، ويقع الشرح فى ثلاثة عشر مجلدا ، ومقدمته فى مجلد ، وهو مطبوع فى الهند وفى مصر .

٢ - « أعلام السنن » وهو شرح الامام أبى سليمان أحمد بن محمد بن ابراهيم بن خطاب البستى المشهور بالخطابى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ ، وهو شرح عظيم ، وفيه من اللطائف والدقائق الكثير ، وقد قام بتأليف هذا الشرح استجابة لطلب أهل « بلخ » ، فعندما فرغ من تأليف كتابه « معالم السنن » شرح سنن أبى داود طلبوا منه أن يصنف لهم شرحا لصحيح البخارى فأجابهم الى ذلك .

٣ - « الكواكب الدرارى فى شرح صحيح البخارى » شرح العلامة شمس الدين

محمد ابن يوسف بن علي الكرمانى المتوفى سنة ٧٨٦ هـ ، عنى فيه بشرح الألفاظ اللغوية ووجوه الاعراب ، وضبط الأسانيد والمتون ، والتوفيق بين الأحاديث التى يوهم ظاهرها التعارض ، وقد انتهى من تأليفه بمكة المكرمة سنة ٧٧٥ هـ .

٤ - « عمدة القارى » شرح العلامة بدر الدين محمود بن أحمد العيني الحنفى المولود سنة ٧٦٢ هـ والمتوفى سنة ٨٥٥ هـ عنى فيه بما يؤخذ من الأحاديث من الأحكام الفقهية والآداب ، وبيان النواحي اللغوية والاعرابية. ووجوه المعانى والبيان ، ومنهج العيني فى شرحه يقوم على تخريج الحديث وذكر من خرج من أصحاب الكتب المشهورة ، وعند شرح الأحاديث المكررة ينص على سياق الحديث بأكمله ، ولا يجمل على المواضع الأخرى . وسار فى شرحه على طريقة السؤال والجواب ، وهى طريقة حسنة ومجدية ، وابتدأ فى كتابة هذا الشرح سنة ٨٢١ هـ وانتهى منه سنة ٨٤٧ هـ ، وهذا الشرح مطبوع فى استانبول ومصر .

٥ - « ارشاد السارى الى صحيح البخارى » للعلامة الشيخ شهاب الدين بن محمد الخطيب المصرى الشافعى المعروف بالقسطلانى المتوفى سنة ٩٢٢ هـ وهو أوجز من شرح ابن حجر ومن شرح العيني ، وكان يعتمد كثيرا على شرح سابقه لا سيما « فتح البارى » . وكتب له مقدمة تناول فيها منزلة الحديث وعناية المسلمين به . وقد طبع هذا الكتاب مرارا .

٦ - شرح العلامة أبى الحسن بن عبد الهادى السندى نزىل المدينة المنورة المتوفى سنة ١١٣٨ ، اقتصر فيه على تفسير الغامض أو المشكل ، وهذا الشرح على اقتصاره يتضمن فوائد عظيمة .

وهناك شروح كثيرة لكتاب البخارى بعضها لم يتم مثل : شرح الامام النووى وشرح الحافظ ابن كثير وشرح الحافظ ابن رجب الحنبلى وغير ذلك . ومن مختصرات الجامع الصحيح :

١ - مختصر الامام جمال الدين أبى العباس أحمد بن عمر الانصارى القبرطى المتوفى سنة ٦٥٦ .

٢ - « ارشاد السامع والقارى المنتقى من صحيح البخارى » للعلامة بدر الدين حسن بن عمر بن حبيب الحلبي المتوفى سنة ٧٧٩ هـ .

٣ - مختصر الامام زين الدين أبي العباس أحمد بن عبد المطيف الشرجي الزبيدي المتوفى سنة ٨٩٣ هـ ، حذف المكرر منه وحذف الأسانيد واقتصر على الصحابي ، وقد فرغ منه في شعبان سنة ٨٨٩ هـ . وقد شرحه لشيخ عبد الله الشرقاوي معتمدا في شرحه على الشروح السابقة ولا سيما « فتح الباري » .

٤ - ومن المختصرات الهامة : مختصر الصوفي الشيخ أبي محمد عبد الله بن سعد بن أبي جرة الأندلسي المتوفى سنة ٦٩٥ هـ . وقد شرح مختصره هذا في كتاب سماه « بهجة النفوس وغايتها ، بمعرفة ما لها وما عليها » .

وعنى في هذا الشرح بالمعاني دون الألفاظ ، وتضمن كثيرا من التحقيقات الهامة .

وبهذه الشروح والمختصرات وغيرها من الكتب الأخرى التي تناولت الجامع الصحيح بالدراسة والتحقيق والشرح والتحليل ، كما تناولت بالدراسة والتوضيح ، والتعديل والتجريح رجال البخاري ، بهذا كله نرى كيف كانت عناية الأمة الاسلامية بهذا الكتاب النفيس ، والى أى مدى بذل علماؤنا من الجهود العظيمة ما يشهد لهم بسعة الأفق ، وقوة الايمان وشدة الحب لصاحب السنة المطهرة عليه أفضل الصلاة والسلام .

ومن الكتب التي وجه أصحابها همهم الى دراسة الرجال « كتاب التعديل والتجريح » لرجال البخاري ألفه القاضي أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي المتوفى سنة ٤٧٤ هـ ، وكتاب « أسماء رجال البخاري » للامام أحمد بن محمد الكلاباذي المتوفى سنة ٣٩٨ هـ .

ومن الكتب التي تناولت توضيح المشكلات : كتاب « التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح » للامام جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك النحوي المتوفى سنة ٦٧٢ هـ ، وكتاب « الافهام بما وقع في البخاري من الابهام » لجلال الدين عبد الرحمن بن عمر البلقيني المتوفى سنة ٨٢٤ هـ ، وكتاب « تعليق التعليق » لابن حجر .

الامام مسلم بن الحجاج

نسبه ونشأته :

هو الامام أبو الحسن بن الحجاج بن مسلم بن ورد بن كوشان القشيري نسبا النيسابوري وطنا صاحب « المسند الصحيح » وأحد الأئمة والحفاظ المتقنين .

قيل أنه ولد سنة مائتين واثنتين ، وقيل مائتين وأربع ، وقيل مائتين وست ، وأرجح الرأي الأخير وهو أنه ولد سنة ست ومائتين لما روى أنه (توفي مسلم بن الحجاج رحمه الله عشية الأحد ، ودفن يوم الاثنين لخمس بقين من رجب سنة إحدى وستين ومائتين وهو ابن خمس وخمسين سنة رحمه الله ورضي عنه)^(٧١) « أ . ه . » . فاذا ما تبين أن وفاته كانت سنة إحدى وستين ومائتين وأنه عاش من العمر خمسا وخمسين سنة فتكون ولادته في سنة ست ومائتين على الأرجح .

وقد ولد الامام مسلم بنيسابور وهي أحسن مدن خراسان ونشأ شغوفا بالعلم ، طلبه منذ صغره ، وساعده على طلب العلم ما كان يتمتع به من ثروة علمية ، كما كان لمسلم بعض العقارات التي أنفق منها في شئون الحياة وطلبه للعلم واشتغل في مطلع حياته بزاوا الى جانب طلبه للحديث .

واقتمدى مسلم بالبخارى في تأليف صحيحه ، وكان شديد الحب والتقدير له وعندما جاء البخارى نيسابور لازمه مسلم وترك من أجله شيخه محمد بن يحيى الذهلي الذي كان يقول : (من زعم لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع ولا يجالس ولا يكلم ومن ذهب بعد هذا الى محمد بن اسماعيل فاتهموه ، فانه لا يحضر مجلسه إلا من كان على مذهبه فانقطع الناس عن البخارى إلا مسلم بن الحجاج وأحمد بن سلمة . ولما قال الذهلي : الا من قال باللفظ فلا يجلس له أن يحضر مجلسنا ، قام مسلم على رؤوس الناس وبعث الى الذهلي جميع ما كان كتبه عنه على ظهر حمال كما سبق بيانه ، فاستحكمت بذلك الوحشة وتحلت عنه

(٧١) مقدمة النووي على شرح صحيح مسلم ص ٧ ط الشعب ، وتهذيب التهذيب ج ١٠ ص

وعن زيارته (٧٢) ، وقد ترك الامام مسلم الرواية عنه في الصحيح وغيره . ويعتبر الامام مسلم أحد أركان الحديث الذين ضربوا فيه سهم وافر واشتركوا في تدوينه بنصيب كبير ، ومناقبه مشهورة وسيرته عاطرة ، قال فيه شيخه محمد بن عبد الوهاب الفراء : كان مسلم من علماء الناس وأوعية العلم ما علمته الا خيرا ، وكان بزازا ، وكان أبوه الحجاج من المشيخة . وقال ابن الاخرم : انما خرجت مدينتنا هذه من رجال الحديث ثلاثة : محمد بن يحيى ، وابراهيم بن أبي طالب ومسلما . وقال ابن عقدة : قلما يقع لغلط لمسلم في الرجال لأنه كتب الحديث على وجهه (٧٣) « أ . هـ » .

وهذه الأقوال من شيوخه ومعاصريه إنما تدل على كرم نشأته وطيب منبته وعظيم سيرته ومدى اجتهاده وأمانته في طلب الحديث الشريف .

حياته العلمية

عاش الامام مسلم حياة مباركة حافلة بالبحث العلمي الجاد والضبط والحفظ والاتقان وشق طريق حياته يساعده على ذلك قوة حافظته وسعة أفقه الفكرى مما جعل الكثيرين من الأئمة يشنون عليه ويقدمونه على مشايخ عصرهم في معرفة الصحيح (٧٤) ، قال فيه ابن أبي حاتم : كان من الحفاظ كتبت عنه بالرى . وقال أبو قريش الحافظ : حفاظ الدنيا أربعة وذكر منهم مسلما وهو إنما يريد بذلك الذين بلغوا في الحفظ والاتقان درجة سامية ، ولا غرابة في ذلك فالامام مسلم تتلمذ على يد الامام البخارى وسار على دربه ونظر في علمه وأخذ عنه .

شيوخه :

وابتدأ الامام مسلم الاقبال على العلم منذ نعومة أظفاره سنة ثمان عشرة ومائتين فسمع من شيوخ بلدته ، ثم حج سنة عشرين فسمع من القعنبي بمكة ومن بعض الشيوخ الذين التقى بهم في البلاد التي سارع فيها ثم أسرع في العودة الى وطنه وقام قبل سنة ثلاثين برحلة واسعة طوف فيها بمعظم الأقطار الاسلامية ليضم الى علم بلده مرويات أخرى من بلاد غيرها .

(٧٢) هدى السارى ص ٤٩٢ ، وفيات الأعيان ج ٢ ص ١١٩ ، مرآة الجنان لليافعى ج ٢ ص ١٧٥ .

(٧٣) مقدمة تحفة الاحوذى ج ١ ص ١٢٢ .

(٧٤) مقدمة شرح النووى على صحيح مسلم ص ٧ ، تذكرة الحفاظ للذهبي ج ٢ ص ١٥٠ .

فسمع بخراسان : يحيى بن يحيى ، وإسحاق بن راهويه وغيرهما ، وسمع بالرى : محمد ابن مهران الجمال ، وأبا غسان ، وغيرهما ، وسمع بالعراق : أحمد بن حنبل وعبد الله بن مسلمة القعنبي وغيرهما ، وبالحجاز : سعيد بن منصور وأبا مصعب وغيرهما ويمصر : عمرو بن سواد وحرمة ابن يحيى وغيرهما^(٧٥) وشيوخه كثيرون ولا يحصيهم العد .

تلاميذه :

وقد قدم الامام مسلم الى بغداد غير مرة فروى عنه أهلها وكان آخر قدومه سنة تسع وخمسين ومائتين^(٧٦) .

ومن روى عن الامام مسلم الكثيرون من أئمة عصره الحفاظ وكان من بينهم جماعات في ذريته منهم : أبو حاتم الرازي ، وموسى بن فضل واحد بن سلمة ، وأبو عيسى الترمذى ، وأبو بكر بن خزيمة ويحيى بن على وأبو عوانه الاسفراينى وآخرون لا يحصون * .

وقد أجمع العلماء على إمامته في الحديث وتضلعه في الرواية . ومن أكبر الدلائل على إمامته وحذقه في هذه الصنعة كتاب « المسند الصحيح » الذى بلغ في حسن الترتيب وتلخيص الطرق مبلغا عظيما .

وكان الامام مسلم صنوا الامام البخارى في ضبطه وحفظه وفي ورعه فجمع بين العلم والعمل وكان له فضل كبير في المحافظة على السنة وعلومها وصيانة الحديث من الأعداء والجهلاء كما تصدى للرد على ما أثير من شبه ضد المحدثين .

وأعترف بفضل الامام مسلم وثقته وصدقه كثير من الأئمة ، يقول ابو بكر الجارودى : حدثنا مسلم بن الحجاج وكان من أوعية العلم . وقال مسلمة بن قاسم ، (ثقة جليل القدر من الأئمة) . وقال ابن أبي حاتم : (كتبت عنه وكان ثقة من الحفاظ له)

(٧٥) مقدمة شرح النووى على صحيح مسلم ص ٧ ط الشعب ، تهذيب الأسماء واللغة جـ ٢ ص ٩١ .

(٧٦) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١١٩ .

(*) مقدمة شرح النووى على صحيح مسلم ص ٧ .

معرفة بالحديث ، وسئل أبي عنه فقال (صدوق)^(٧٧) أ . هـ . ولما كان للامام مسلم هذه المكانة العلمية الجليلة ، فقد تأثر به كثير من العلماء ، وحاول بعض النيسابورين أن ينسجوا على منواله فلم يبلغوا شأوه ، وصنفوا المستخرجات على كتابه ، وقد أجمع العلماء على علو مرتبته وحقه في هذه الصنعة وتقدمه فيها تقدما عظيما قال النووي : (ومن أكبر الدلائل على ذلك كتابه الصحيح الذي لم يوحد في كتاب قبله ولا بعده من حسن الترتيب وتلخيص طرق الحديث بغير زيادة ولا نقصان والاحتراز من التحول في الاسانيد عند اتفاقها من غير زيادة وتبسيه على ما في ألفاظ الرواة من اختلاف في متن أو إسناد ولو في حرف واعتائه بالتنبيه على الروايات المصرحة بسماع المدلسين وغير ذلك مما هو معروف في كتابه^(٧٨) . وفي قول النووي هذا نرى أنه استخلص أكبر الدلائل على حذق الامام مسلم في الصنعة الحديثية فساقها من استقرائه للكتاب وأجملها في هذه العبارة وهي دلائل تدل بحق على مكانة المسند الصحيح وعظم شأن صاحبه .

مؤلفاته

يتميز التصنيف بما يتميز به صاحبه ، فهو ثمرة فكره ودليل عبقريته ، وكلما كثرت أنواع التصنيف كلما دلت على سعة أفق صاحبها وخصوبة فكره وعقليته ، وهكذا كان شأن الامام مسلم رحمه الله بالنسبة لمصنفاته فقد كثرت وتنوعت في فنون مختلفة من فنون الحديث وهذا يدل على تمكنه في هذا المجال ورسوخ قدمه فيه ، فقد أسهم في تصنيف الحديث رواية ودراية فوضع مؤلفات في الحديث وفنونه ومن أجل كتبه (كتاب المسند الصحيح) ، ومن آثاره^(٧٩) :

- ١ - المسند الكبير : وقد رتبته على الرجال
- ٢ - الجامع وقد رتبته على الأبواب .
- ٣ - الاسماء والكنى : في أربعة أجزاء
- ٤ - الافراد والوحدان .
- ٥ - مشايخ الثوري .
- ٦ - تسمية شيوخ مالك وسفيان وشعبة .

(٧٧) تذكرة الحفاظ للذهبي ج ٢ ص ١٨٢ ، مقدمة تحفة الأحوذى ج ١ ص ٢٣ .

(٧٨) تهذيب الاسماء واللغات للنووي ج ٢ ص ٩٠ .

(٧٩) مقدمة شرح النووي على صحيح مسلم ، تهذيب الاسماء واللغات للنووي ج ٢ ص ٩١ .

- ٧ - كتاب المخضرمين .
- ٨ - كتاب أولاد الصحابة .
- ٩ - الطبقات .
- ١٠ - أوهام المحدثين .
- ١١ - كتاب التمييز .
- ١٢ - العلل .
- ١٣ - أفراد الشاميين .

ومؤلفات الامام مسلم تجمع بين طياتها كثيرا من النفائس والمحاسن ولم تزل ميدانا خصبا للباحثين فهو بحق إمام لم يلحقه أحد من بعد عصره .

وبعد الحياة الحافلة بخدمة السنة الممتلئة بأجل الأعمال توفي الامام مسلم عشية يوم الاحد بنيسابور ودفن يوم الاثنين لخمس وقيل لست بقين من شهر رجب سنة احدى وستين ومائة وعمره خمس وخمسون سنة (٨٠) .

وبعد هذه الصحبة المباركة لحياة هذا الامام الجليل يصل بنا المطاف إلى أهم أعماله العلمية وأعظم ثمرات حافظته الحادة وفكره المعطاء ألا وهو كتاب « المسند الكبير » ثاني الكتب الستة وأحد الصحيحين اللذين تلتتهما الأمة الاسلامية بالقبول . عرفانا بأنه أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى .

(٨٠) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢ ص ١١٩ تهذيب الأسماء واللغات للنووي جـ ٢ ص ٩٢ .

الجامع الصحيح للإمام مسلم بن الحجاج

التعريف بالكتاب :

هو المسند الصحيح الذي طبقت شهرته الآفاق وتلقته الأمة بالقبول ، انتقاه الامام مسلم من آلاف الروايات ، روى الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي بإسناده لمسلم رحمه الله قال : (صنف هذا المسند الصحيح من ثلاثمائة ألف حديث مسموع) وبهذا القول يتضح الاسم الأصلي لصحيح مسلم وهو (المسند الصحيح) أخذنا من قوله السابق : (صنف هذا المسند الصحيح) .

وقد تحرى الامام مسلم في كتابه تمحيص الروايات والموازنة بينها وتحرير ألفاظها وقطع في سبيل ذلك الرحلات الواسعة واستعان ببعض تلاميذه في كتاباته وتحريره حتى جاء الكتاب ثمرة طيبة للجهد والاجتهاد الذي بذله هذا الامام . واستغرق في تأليفه خمس عشرة سنة ، روى عن أحمد بن سلمة أنه قال : كتبت مع مسلم في تأليف صحيحه خمس عشرة سنة وهو اثنا عشر الف حديث وما يدل على تحريه للروايات الصحيحة وشدة نقده وتمحيصه قوله : ما وضعت شيئاً في هذا إلا بحجة وما أسقطت منه شيئاً إلا بحجة ، ولشدة حيطة كذلك فيما دون أنه قام بعد الفراغ من تأليفه بعرضه على أئمة المحدثين لينقدوه وليروا فيه رأى الحق وهذه سمة العلماء المخلصين يبتغون الحق ويرون في الرجوع إليه اذا ظهر فضيلة ، قال الامام مسلم : « عرضت كتابي على أبي زرعة الرازي فكل ما أشار أن له علة تركته وكل ما قال أنه صحيح وأنه ليس به علة خرجته » (٨١) « أ . هـ .

(٨١) مقدمة صحيح مسلم بشرح النووي ص ١١ ط للشعب .

سبب تصنيف الامام مسلم « للمند الصحيح »

قام الامام مسلم بتأليف كتابه في وقت كانت الحاجة فيه ملحة لظهور مثل هذا الكتاب خاصة وقد توجه إليه بعض المعاصرين وسأله أن يلخص مؤلفا في جملة الأخبار الماثورة عن رسول الله ﷺ في سنن الدين وأحكامه وما كان منها في الثواب والعقاب والترغيب والترهيب وغير ذلك بالأسانيد التي نقلت بها وتداولها أهل العلم فيما بينهم .

وقد صادف هذا السؤال من أحد المعاصرين هوى في نفس الامام اذ كان لديه الاستعداد والرغبة من قبل وكان يحفزها لهذا العمل دافعان :

الأول : رغبته في القيام بجمع طائفة من الأحاديث الصحيحة المتصلة الى رسول الله ﷺ على وجه يسهل على العامة والخاصة النظر في وجوه الحديث واستثمارها وتقريبها للباحثين في الفقه وغيره حتى يمكن الوقوف على كل العطاء الذي تمنحه السنة النبوية ، ذلك لأن المصنفات في ذلك العصر كانت صعبة المآخذ ممزوجة فيها الصحيح بغيره . ولئن كان الجامع الصحيح للامام البخاري مرتبا على الأبواب إلا أن الكشف فيه يحتاج إلى من له خبرة دقيقة بفنون الحديث لحفاء تراجمه على غير أهل الخبرة .

الثاني : ما كانت عليه الحال آنذا قبل جمع الصحيحين من اختلاط الأحاديث القوية بالضعيفة والصحيحة بغير الصحيحة ، وما قام به القصاص والزنادقة والجهلاء وأهل الأهواء من أغراء العامة وتشويه الحقائق أمام أعينهم وابرز أخبار منكرة في صورة أحاديث صحيحة ، كل ذلك كان حافزا للامام مسلم أن يقدم كتابا شاملا للأحاديث الصحاح التي يطمئن الناس إليها ويشغلون بها ويتعدون عن تيارات الفساد والتضليل .

واستجابة لهذا كله نهض الامام مسلم بتصنيف كتابه في بلده وفي حياة الكثير من شيوخه متحريرا في الألفاظ وفي السياق ، ولا يتصدى لما تصدى له البخاري من استنباطات فقهية أو تفريعات علمية وقدم لكتابه بمقدمة علمية تعتبر من المؤلفات المبتكرة في علم أصول الحديث واحتوت على خطته التي سار عليها في تصنيف كتابه والباعث الذي دفعه الى هذا التصنيف موضحا أن ضبط القليل المتقن أسير من معالجة الكثير عند غير

المختصين . قال الامام مسلم في مقدمة صحيحه : (إن ضبط القليل من هذا الشأن واتقانه أيسر على المرء من معالجة الكثير منه ولا سيما عند من لا تمييز عنده من العوام إلا بأن يوقفه على التمييز غيره وإذا كان الأمر في هذا كما وصفناه فالقصد منه الى الصحيح القليل أولى بهم من ازدياد) (٨٢) .

ويتضح مما سبق أن الامام مسلماً أراد بتأليفه هذا الكتاب أن يقوم بتقريب السنة النبوية الى الناس على منهج مستساغ مناديا كل محب لها وكل راغب في الاستشهاد والاستنباط . كما أراد أن يظهر ما صح من أحاديث الرسول ﷺ في ثوبها الإلهي المشرق بالحق الدامغ لأباطيل الزنادقة والقصاص والجهلة .

(٨٢) مقدمة صحيح مسلم ص ٣٧ .

منهج الامام مسلم فى كتابه

تأثر الامام مسلم بالامام البخارى فنهج نهجه فى تأليف صحيحه فجمع الحديث الصحيح المجرد عن أقوال الصحابة وفتاوى التابعين ويؤنه على أبواب العلم من فقه وغيره إلا أنه اقتصر على سرد المسند دون ذكر الموقوفات إلا نادرا ، ولم يذكر تراجم للأبواب كما صنع البخارى وإنما قام بالتبويب والترجمة من تصدى لشرحه لا سيما الامام أبوزكريا النووى . وقد سلك الامام مسلم فى صحيحه طريقة حسنة ، إذ قام بجمع المتون كلها بطرقها فى موضع فلم يقطع الحديث فى أبوابه كما فعل البخارى ، قال النووى : « وقد انفرد مسلم بفائدة حسنة وهى كونه أسهل متاولا من حيث أنه جعل لكل حديث موضعا واحدا يليق به جمع فيه طرقه التى ارتضاها واختار ذكرها وأورد فيه أسانيده المتعددة والفاظه المختلفة فيسهل على الطالب النظر فى وجوهه واستثمارها ويحصل له الثقة بجميع ما أورده مسلم من طرقه بخلاف البخارى فإنه يذكر تلك الوجوه المختلفة فى أبواب متفرقة ومتباعدة ويذكر الكثير منها فى غير بابها الذى يسبق الى الفهم أنه أولى به وذلك لدقيقة يفهمها البخارى منه فيصعب على الطالب جمع طرقه وحول الثقة بجميع ما ذكره البخارى من طرق هذا الحديث أ . هـ .

والذى سهل للامام مسلم سلوك هذا المنهج فى كتابه أنه لم يقصد فى جمع الاحاديث النبوية عرض ما فيها من أحكام فقهية وغيرها ، أما البخارى فقد قصد ذلك ، ولذا اضطر الى طريقته التى سلكها فى تقطيع الأحاديث وذكرها فى أبواب متعددة ومتباعدة ، ومن دقة الامام مسلم فى كتابه واعتناؤه أنه تحرى التمييز بين « حدثنا وأخبرنا » فأما لفظ حدثنا فلا يجوز اطلاقه الا لما سمعه من لفظ الشيخ خاصة ، وأما أخبرنا فأطلقه على ما قرىء على الشيخ ، وهذا هو مذهب الامام الشافعى وأصحابه وجمهور أهل العلم بالشرق وهو مذهب أكثر أصحاب الحديث . وروى ذلك أيضا عن ابن جريج والأوزاعى وابن وهب والنسائى وصار هو الشائع الغالب على أهل الحديث . وذهب جماعة من العلماء الى جواز اطلاق « حدثنا وأخبرنا » فيما قرىء عن الشيخ وهو مذهب الزهرى ومالك وسفيان ابن عيينة ويحى بن سعيد القطان وغيرهم من المتقدمين وهو مذهب الامام البخارى ومعظم الحجازيين والكوفيين .

وذهبت طائفة إلى أنه لا يجوز اطلاق « حدثنا ولا أخبرنا » في القراءة وهو مذهب ابن المبارك ويحيى بن يحيى وأحمد بن حنبل والمشهور عن النسائي .

وكما عني الامام مسلم بلفظ « حدثنا وأخبرنا » عني أيضا بضبط ألفاظ الرواة وبيان اختلافها بقوله حدثنا فلان وفلان واللفظ لفلان قال أو قالا حدثنا فلان ، كما كان يبين ما هناك من اختلاف في حرف من متن الحديث أو صفة الراوي أو نسبه سواء أكان بعض هذه الأمور يتغير به المعنى أو كان لا يتغير به .

ومن تحرى الامام مسلم : دقته في رواية صحيفة همام بن منبه عن أبي هريرة كقوله حدثنا محمد بن رافع قال : حدثنا عبد الرزاق معمر عن همام قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن محمد رسول الله ﷺ فذكر أحاديث منها وقال رسول الله ﷺ : « اذا توضأ أحدكم فاستشق » الحديث ، وذلك لأن الصحائف والأجزاء والكتب المشتملة على أحاديث باسناد اذا اقتصر عند سماعها على ذكر الاسناد في أولها ولم يجدد عند كل حديث منها وأراد انسان ممن سمع كذلك أن يفرد حديثا منها غير الأول بالاسناد المذكور في أولها فهل يجوز له ذلك ؟ قال وكيع بن الجراح ويحيى بن معين وأبو بكر الاسماعيلي الشافعي الامام في الحديث والفقه والأصول : يجوز ذلك ، وهذا مذهب الاكثرين من العلماء ، لأن الجميع معطوف على الأول فالاسناد المذكور أولا في حكم المعاد في كل حديث وقال الأستاذ أبو اسحاق الاسفراييني : لا يجوز ذلك فعلى هذا من سمع هكذا فطريقه أن يبين ذلك كما فعله مسلم فمسلم رحمه الله سلك هذا الطريق ورعا واحتياطا وتحريا واتقانا . ومن ذلك تحريه في مثل قوله « حدثنا » عبد الله بن مسلمه حدثنا سليمان يعني ابن بلال - عن يحيى وهو ابن سعيد فلم يستجز رضى الله عنه أن يقول سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد لكونه لم يقع في روايته منسوبا فلو قاله منسوبا لكان مخبرا عن شيخه أنه أخبره بنسبه ولم يخبره ، ومن دقته أيضا احتياطه الشديد في تلخيص الطرق وتحويل الاسانيد في عبارة موجزة تؤدي المعنى على التمام ، كما امتاز منهجه بروعة الترتيب وجمال التنسيق والدقة العلمية في قواعد الاسناد والمتن . وهكذا يطالعنا منهج الامام مسلم في تدوين كتابه على الأمانة مما يعلمه وعلى الدقة الفائقة بفنون الحديث وعلى حسن العرض والتنسيق مما يشهد له بتضلعه في الحديث وامامته فيه .

وقد قسم الامام مسلم الاحاديث ثلاثة أقسام ، والرجال ثلاث طبقات من حيث العدالة والضبط وذلك دون تكرار إلا لضرورة تقتضى تكرار الحديث كزيادة المعنى في الطريق الآخر وبيان علة في اسناد بمقارنته بغيره من الاسانيد .

القسم الأول : ما رواه الحفاظ المتقنون الذين بلغوا أقصى درجات الصحة في رواياتها .

القسم الثاني : ما رواه المستورون المتوثقون في الحفظ والانتقان المتصفون بالصدق .

القسم الثالث : ما رواه الضعفاء والمتروكون .

فاذا ما فرغ من القسم الأول اتبعه الثاني وأما الثالث فلا يعرج عليه فذكر في كتابه حديث الطبقتين الأولين وأتى بأسانيد الثانية منها على طريق الاتباع للأولى والاستشهاد أو حيث لم يجد في الأولى شيئا وهذا ما رآه القاضي عياض ، وقد رأى الامام أبو عبد الله الحاكم وأبو بكر البيهقي رحمهما الله أنه ذكر القسم الأول وعاجلته المنية قبل اخراج القسمين الباقيين وتناول الحاكم أنه انما أراد أن يفرد لكل طبقة كتابا ويأتى بأحاديثها خاصة ويرى ابن سفيان صاحب مسلم أن مسلما أخرج ثلاثة كتب من المسندات : أحدها هذا الذي قرأه على الناس وقال ابن عساكر أنه رتب كتابه على قسمين وقصد أن يذكر في الأول أحاديث أهل الثقة والانتقان وفي الثاني أحاديث أهل الستر والصدق (٨٣) .

والذي أراه أن هذا ليس مراد الامام مسلم ولكنه قد خرج أحاديث الطبقتين الأولين كما هو موجود في كتابه وكما ظهر من تأليفه ولم يذكر شيئا من أحاديث الطبقة الثالثة وهذا هو ما رجحه القاضي عياض .

رموز كتاب الامام مسلم

سلك الامام مسلم أيضا مسلك الایجاز في كتابه فقام بجمع الطرق متتهجا طريقة التحويل ورمز اليها بحرف (ح) والمذهب المختار أنها مأخوذة من التحويل لتحوله من الإسناد الى إسناد آخر ، وان القارىء اذا وصل اليها يقول (ح) ويستمر في قراءة ما بعدها وقيل أنها من حال بين الشيئين اذا حجز لكونها حالت بين الاسناد وأنه لا يلفظ بها عند الانتهاء اليها بشيء وليست من الرواية وقيل أنها رمز الى قوله الحديث ، وأن أهل المغرب كلهم يقولون اذا وصلوا إليها الحديث وقيل أنها رمز الى لفظ (صح) وحسنت كتابتها لثلاثا يتوهم أنه سقط متن الإسناد الأول وهي كثيرة في صحيح مسلم قليلة في صحيح البخارى .

(٨٣) كشف الظنون جـ ١ ص ٥٥٦ ، مقدمة شرح النووى على صحيح مسلم ص ١٦ - ١٨ .

ولطريقة التحويل التي انتهجها الامام مسلم في كتابه ثمره وهي الايجاز حيث يكون للحديث أكثر من اسناد وبين الأسانيد اتفاق في بعض الرواة ومغايرة في البعض فيأتي بموضع الاختلاف وإذا ما انتهى الى موضع الاتفاق يحول الى اسناد آخر وذلك بدلا من أن يسوق كل رواية على حدة ولم يكثر الامام مسلم رحمه الله في كتابه من التعليق ، اذ ليس في كتابه منها إلا اثنا عشر موضعا وهي في المتابعات لا الأصول . وكل وما ورد في الكتاب من التعليقات انما هو موصول من جهات صحيحة .

رواة صحيح مسلم

روى صحيح مسلم رواية ثقات عرفوا بالورع والصلاح والثقة والحفظ وقد ذكر الامام النووي في مقدمة شرحه أن اسناد سماعه وسماع أهل زمانه لكتاب الامام مسلم في نهاية العلوبينه وبين مسلم ستة هم :

شيخه أبو اسحاق ، ثم شيخ أبي اسحاق منصور بن عبد المنعم القراوى ثم جد أبي منصور وهو محمد بن الفضل ثم شيخ القراوى وهو أبو الحسين عبد الغافر الفارسى ثم شيخ الفارسى أبو أحمد الجلودى أبو اسحاق ابراهيم ثم شيخه الامام مسلم بن الحجاج .

أما ابو اسحاق إبراهيم بن أبي حفص عمر بن مضر الواسطى فكان معروفا بالصلاح والكرم والوقار توفى بالاسكندرية في اليوم السابع من رجب سنة أربع وستين وستمائة .

وأما شيخ أبو اسحاق فهو الامام ذو الكنى أبو القاسم أبو بكر أبو الفتح منصور بن عبد المنعم القراوى النيسابورى نسب الى فراوة وهى بلدة من ثغر الخراسان وكان شيخا جليلا فقه سمعه صحيح روى عن أبيه وجدته وجد أبيه أبو عبد الله محمد بن الفضل وروى عن غيرهم ، ولد في رمضان سنة اثنتين وعشرين وخمسائة وتوفى بنيسابور في شعبان سنة ثمان وستمائة .

وأما أبو عبد الله محمد بن الفضل القراوى جد أبي منصور النيسابورى فكان بارعا في الفقه والأصول كثير الروايات بالأساليب الصحيحة العالية وقد سمع المسانيد والصحاح وأكثر عن مشايخ عصره ، توفى في العشر الأواخر من شوال سنة ثلاثين وخمسائة وكان قد سمع صحيح مسلم من عبد الغافر في السنة التي توفى فيها عبد الغافر سنة ثمان وأربعين وأربعمائة بقراءة أبي سعيد البحرى .

وأما شيخ القراوى فهو أبو الحسين عبد الغافر بن محمد عبد الغافر بن أحمد بن محمد الفارسى النيسابورى التاجر وسمع مسلم من الجلودى سنة خمس وستين وثلاثمائة كان شيخا ثقة صالحا وقرأ الحافظ حسن السمرقندى عليه صحيح مسلم نيفا وثلاثين مرة كما قرأه عليه الكثيرون وتوفى يوم الثلاثاء السادس من شوال سنة ثمان وأربعين وأربعمائة

أما شيخ الفارسي فهو أبو أحمد بن عيسى بن محمد بن عبد الرحمن بن عمرو بن منصور الزاهد النيسابوري الجلودي قال الحاكم أبو عبد الله كان صالحاً زاهداً من كبار عباد الصوفية توفي يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة ثمان وستين وثلاثمائة .

وأما شيخ الجلودي فهو أبو اسحاق إبراهيم بن محمد بن سفيان النيسابوري الفقيه الزاهد وكان من الملازمين لمسلم بن الحجاج ، قال إبراهيم فرغ مسلم من قراءة الكتاب في رمضان سنة سبع وخمسين ومائتين ومات في رجب سنة ثمان وثلاثمائة .

وأما شيخ إبراهيم بن محمد بن سفيان فهو الامام مسلم صاحب الكتاب .

وهكذا نرى هذا الاسناد المسلسل بالروايات الصحيحة عن الرواة الثقات لهذا الكتاب العظيم المسند الصحيح للامام مسلم . وقال النووي : وحصل لروايتنا لطيفة وهو أنه اسناد مسلسل بالنيسابوريين وبالمعمرين فإن رواته كلهم معمر بن وكلمهم نيسابوريون من شيخنا أبي اسحاق الى مسلم (٨٤) و أ . هـ .

(٨٤) مقدمة النووي على صحيح مسلم ص ٧ .

عدد أحاديث صحيح مسلم

وعدد أحاديث صحيح مسلم دون المكررة أربعة آلاف ، روى الامام أبو عمرو بن الصلاح بسنده عن أبي قريش الحافظ قال : كنت عند أبي الرازي فجاء مسلم بن الحجاج فسلم على وجلس ساعة وتذاكرا ، فلما قام قلت له : هذا جمع أربعة آلاف حديث في الصحيح قال أبو زرعة : فلمن ترك الباقي : وقال الشيخ : أراد أن كتابه هذا أربعة آلاف حديث أصول دون المكررات^(٨٥) . وأما عدد صحيح مسلم بالمكرر فهو كثير ، روى عن أحمد بن سلمة أنه قال : كتبت مع مسلم في تأليف صحيحه خمس عشرة سنة وهو اثنا عشر ألف حديث وقد انتقى الامام مسلم هذه الاحاديث من ثلاثمائة ألف حديث مسموعة ، فقد روى عنه أنه قال : « صنفت هذا المسند الصحيح من ثلاثمائة ألف حديث مسموعة » . وقد وافق الامام مسلم الامام البخاري على تخريج ما فيه إلا ثمان مائة وعشرين حديثا ، وجملة ما في صحيح مسلم باسقاط المكرر نحو أربعة آلاف ، قال العراقي : وهو يزيد على البخاري بالمكرر لكثرة طرقه ، قال وقد رأيت عن أبي الفضل أحمد بن سلمة أنه اثنا عشر ألف حديث ، وقال الماينجي : ثمانية آلاف^(٨٦) ، وأرجح رأى ابن سلمة ، فهو الذي اشترك مع الامام مسلم في كتابه الصحيح ومكث معه خمس عشرة سنة فرأى من مارس التدوين مع صاحبه أقرب الى الصحة .

(٨٥) مقدمة شرح النووي على صحيح مسلم ص ١٥ .

(٨٦) تدريب الراوي ص ٥١ .

شروط الامام مسلم في صحيحه

اشترط الامام مسلم أن يكون الحديث الصحيح السند متصلًا بنقل العدول الضابطين ، خاليا من الشذوذ والعلة كما اشترط في « المعنعن » : المعاصرة ، وقد ضرب الحازمي مثلا بمعرفة طبقات الرواة بأصحاب الزهري وأنهم على خمس طبقات :

فالتبقة الأولى : « في غاية الصحة ، وهم شرط البخارى » .

والتبقة الثانية : « شاركت الأولى في العدالة غير أن الأولى جمعت بين الحفظ والاتقان وبين طول الملازمة للزهري حتى كان فيهم من يزامله في السفر ، ويلازمه في الحضر أما الطبقة الثانية فلم تلازم الزهري إلا مدة يسيرة فلم تمارس حديثه ، وكانوا في الاتقان دون الطبقة الأولى وهم شرط الامام مسلم وأهل هذه الطبقة مثل : عبد الرحمن بن عمرو والاوزاعي والليث بن سعد والنعمان بن راشد ، وعبد الرحمن بن خالد بن مسافر وغيرهم » .

التبقة الثالثة : « جماعة لزموا الزهري مثل أهل الطبقة الأولى غير أنهم لم يسلموا من غوائل الجرح فهم بين الرد والقبول وهم شرط أبي داود والنسائي نحو سفيان بن حسين السلي وجعفر بن برقان » والامام مسلم انما يخرج أحاديث الطبقتين : الأولى والثانية على سبيل الاستيعاب ويخرج أحاديث أهل الطبقة الثالثة على النحو الذي يصنعه البخارى في الثانية أى أنه يخرج من أحاديث الطبقة الثالثة ما يعتمده من غير استيعاب .

وأما الرابعة والخامسة فلا يعرج عليهما ، وقد سبق بيان ان الامام البخارى اشترط في الحديث المعنعن اللقاء مع المعاصرة بخلاف الامام مسلم فانه يكتفى بالمعاصرة ولا يشترط اللقاء وهذا يدل على أن مسلما اكتفى من الشروط بما هو دون شروط البخارى ، وقال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح : شرط مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه أن يكون الحديث متصل الاسناد بنقل الثقة عن الثقة من أوله الى انتهاه سالما من الشذوذ والعلة ، قال : وهذا حد الصحيح فكل حديث اجتمعت فيه هذه الشروط فهو صحيح بلا خلاف بين أهل الحديث ، وما اختلفوا في صحته من الاحاديث فقد يكون سبب اختلافهم انتفاء

شرط من هذه الشروط ، وبينهم خلاف في اشتراطه كما اذا كان بعض الرواة مستورا أو كان الحديث مرسلا ، وقد يكون سبب اختلافهم أنه هل اجتمعت فيه هذه الشروط أم انتفى بعضها وهذا هو الأغلب في ذلك كما اذا كان الحديث في رواته من اختلف في كونه شرط الصحيح فاذا كان الحديث رواته كلهم ثقات غير أن فيهم الزبير المكي مثلا أو سهيل بن أبي صالح أو العلاء بن مسلم وليس بصحيح على شرط البخارى لكون هؤلاء عند مسلم مما اجتمعت فيهم الشروط المعتبرة ولم يثبت عند البخارى ذلك منهم « أ . هـ » .

وجاء عن الامام مسلم أنه قال في الصحيح : ليس كل شيء صحيح عندي وضعته هنا ولكن وضعت ههنا ما أجمع عليه وقد نوقش في ذلك حيث ان فيه أحاديث انتقدت عليه واختلفت في صحتها لكونها من حديث من اختلف في صحة حديثه ، وقد أجاب ابن الصلاح على ذلك فقال وجوابه من وجهين :

أحدهما : أن مراده أنه لم يضع فيه الا ما وجد عنده فيه شروط الصحيح المجمع عليه وان لم يظهر اجتماعها في بعض الأحاديث عند بعضهم .

والثاني : انه أراد : « أنه لم يضع فيه الا ما اختلف الثقات فيه في نفس الحديث متنا أو إسنادا » ولم يرد « ما كان اختلافهم انما هو في توثيق بعض رواته وهذا هو الظاهر من كلامه ، فانه قال ذلك لما سئل عن حديث أبي هريرة (فاذا قرىء فأنصتوا) هل هو صحيح ؟ فقال هو عندي صحيح فليل : لم لم تضعه ها هنا ؟ فأجاب بالكلام المذكور (٨٧)

« أ . هـ » .

وعلى كل فشرط الامام مسلم دون شرط الامام البخارى وقد كان للامام مسلم فضل كبير في ما دون في صحيحه من الأحاديث الصحيحة التي انتفع العلماء بها في التشريع والمواظع وكثير من الأداب تلك الاحاديث التي ما كانت لتأت لو أنه شدد في شرط كتابه 'صحيح' .

(٨٧) مقدمة صحيح مسلم بشرح النووي ص ١١ ، ١٢ .

ترك الامام مسلم لبعض الأحاديث الصحيحة

اشترط الامام مسلم في كتابه أن يخرج الاحاديث الصحيحة على شرطه ، ولكنه لم يلتزم استيعاب جميع الاحاديث الصحيحة ، ومن هنا فقد وجدت أحاديث صحيحة كثيرة في كتب السنن الأربعة لم تخرج في كتاب مسلم ، ولا في كتاب البخارى كما وجدت أحاديث صحيحة في مسند الامام أحمد بن حنبل ومستدرک الحاكم ومعجم الطبراني الكبير والأوسط ومسند أبي يعلى وغير ذلك من المسانيد والمعاجم .

وقد سبق توضيح أن الامام البخارى لم يستوعب الصحيح في كتابه ولا التزم استيعابه وأما بالنسبة للامام مسلم فقد روى عنه أنه قال : (ليس كل شيء عندي صحيح وضعته ههنا انما وضعت ههنا ما أجمع عليه) ومراده بذلك انه لم يدون في كتابه الا الاحاديث التي انطبقت عليها شروط الصحيح المجمع عليه وإلا لم يكن هذا الاجتماع ظاهرا في بعضها عند البعض .

واذا تبين أن الامام مسلما لم يستوعب الصحيح في كتابه ولا التزم استيعابه فليس لاحد من أهل الأهواء والبدع أن ينكر حديثا من الاحاديث الصحيحة متعللا بأنه ليس في الصحيحين واحتياطا لمثل ذلك عوتب الامام مسلم على جمع الاحاديث الصحاح في كتاب فقد روى عن أبي زرعة الرازى أنه قال : أن هذه الطريقة تتيح لأهل البدع أن يجدوا السبيل الى المعارضة اذا احتج عليهم بحديث يقنونون ليس هذا من كتاب الصحيح كما عاتبه أبو عبد الله محمد بن مسلم بن وارة وقال له : نحو ما قاله أبو زرعة فقال له مسلم (انما أخرجت هذا الكتاب وقلت هو صحاح ولم أقل أن ما لم أخرج من الحديث في هذا الكتاب ضعيف ولكن خرجت هذا من الحديث الصحيح ليكون مجموعا عندي وعند من يكتبه عنى ولا يرتاب في صحتها ولم أقل أن ما سواه ضعيف) .

ويتضح مما سبق أن الامام مسلما لم يستوعب الصحيح كالبخارى ولا التزم فلا وجه اذا لا لزوم من ألزم كل منهما إخراج أحاديث لم يخرجها مع كونها صحيحة على شرطها كالدارقطنى والبيهقى ، فانهما لم يستوعبا لصحيح وانما قصدا جمع جمل من الصحيح كما يقصد المصنف في الفقه الى جمع جملة من مسائله^(٨٨) .

(٨٨) شروط الأئمة الخمسة ص ٥ ، مقدمة شرح النووى ص ١٥ .

وكما لم يستوعبا الأحاديث الصحيحة لم يستوعبا كذلك الرواة الذين توافرت فيهم صفات القبول والصحة وهم كثيرون فلا يلزم من عدم تخريج الشيخين لراو من الرواة في الصحيحين سقوطه أو ضعفه ، وهناك جماعة من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين لم يخرج لهم في الصحيحين وذلك لأن أحاديثهم كانت في مآمن من الضياع لكثرة أصحابهم القائمين بروايتها شرقا وغربا وجل - أصحاب الدواوين بأناس من الرواة ربما كانت تضع أحاديثهم لولا عنايتهم بها . وقد يكون السبب في ترك الشيخين لبعض الرواة أحيانا وجود ضعف في الاسناد انقائم بين هذا الراوى وبين صاحب الصحيح فيترك طريقه وقد يكون السبب طلب الاسناد العالى بأن كان الحديث من طريق هذا الراوى نازلا ويكون من طريق غيره عاليا فيختار صاحب الصحيح الاسناد العالى لقربه .

هل ترجم مسلم كتابه كالبخارى ؟

نهج الامام مسلم في تأليف كتابه نهجا حسنا اتسم بحسن التنسيق والتبويب فجمع الاحاديث المتعلقة بموضوع واحد في موضع واحد ولم يفرقها في الأبواب ولم يقطعها في تراجم متعددة أو يكررها الا للحاجة ، وبهذا لم يصنع في كتابه تراجم للابواب وربما خشي إن ذكر ذلك أن يطول الكتاب ، أو أنه اراد بعدم ذكر التراجم أن يعمل القارىء فكره في الاستنباط . وقد نهض شراح صحيح مسلم فيما بعد فأولوه العناية التامة ووضعوا له التراجم ، الا أن بعض هذه التراجم كان جيدا والبعض غير جيد وسبب ذلك هو القصور في عبارة الترجمة وعدم قوة الصياغة فيها وقد حرص الامام النووى على ذلك فقال : وأنا إن شاء الله تعالى أحرص على التعبير عنها - أى التراجم - بعبارات تليق بها في مواطنها .

وهكذا قدم لنا الامام النووى كتاب الامام مسلم في صورة سهلة المأخذ قريبة المنال فذل كل عسير على القراء ويسر كل صعب على الباحثين .

نقد الرجال في صحيح مسلم

وجه بعض العلماء النقد الى الامام مسلم في تخريجه عن بعض الرجال الضعفاء كما وجه النقد فيما سبق الى الامام البخارى فعاب بعضهم الامام مسلما بأنه روى في كتابه عن بعض الرجال الضعفاء والمتوسطين الذين وقعوا في الطبقة الثانية الذين ليسوا من شرط الصحيح .

وقد أجاب الامام أبو عمرو بن الصلاح بالآتي :

أولا : أن يكون ذلك فيمن هو ضعيف عند غيره ثقة عنده ولا يقال الجرح مقدم على التعديل لأن ذلك فيما اذا كان الجرح ثابتا مفسر السبب والا فلا يقبل الجرح اذا لم يكن هكذا لأن بعض العلماء قد يجرح من لا يستحق الجرح ، وقد قال الامام الحافظ الخطيب البغدادي وغيره : ما احتج البخارى ومسلم وأبو داود به من جماعة علم الطعن فيهم من غيرهم محمول على أنه لم يكن الطعن المؤثر مفسر السبب .

ثانيا : أن يكون ذلك واقعا في المتابعات والشواهد لا في الاصول وذلك بأن يذكر الحديث أولا باسناد نظيف رجاله ثقات ثم يتبعه باسناد آخر أو اسانيد فيها بعض الضعفاء على وجه التأكيد بالمتابعة أو لزيادة فيه تنبه على فائدة فيما قدمه وقد اعتذر الحاكم أبو عبد الله بالمتابعة والاستشهاد في اخراجه عن جماعة ليسوا من شرط الصحيح منهم مطر الوراق وبقية بن الوليد ومحمد بن اسحاق بن يسار وعبد الله بن عمر العمري والنعمان بن راشد وأخرج مسلم عنهم في الشواهد في اشباه لهم كثيرين .

ثالثا : أن يكون ضعف الضعيف الذي احتج به طراً بعد أخذه عنه باختلاط حدث عليه فهو غير قادح فيما رواه من قبل زمن استقامته كما في أحمد بن عبد الرحمن بن وهب بن أخى عبد الله ابن وهب فذكر الحاكم أبو عبد الله أنه اختلط بعد الخمسين ومائتين بعد خروج مسلم من مصر فهو في ذلك كسعيد بن أبي عروبة وعبد الرزاق وغيرهما ممن اختلط آخراً ولم يمنع ذلك من صحة الاحتجاج في الصحيحين بما أخذ عنهم قبل ذلك

رابعا : أن يعلو بالشخص الضعيف اسناده وهو عنده من رواية الثقات نازل فيقتصر على العالی ولا يطول باضافة النازل إليه مكتفيا بمعرفة أهل الشأن في ذلك وهو خلاف حاله

فما رواه الثقات أولاً ثم اتبعه بما دونهم متابعة وكان ذلك وقع منه على حسب حضور باعث النشاط وغيبته وهذا الوجه مما اعتذر به مسلم لما اعترض عليه ببعض الرواة الذين خرج لهم روى عن سعيد بن عمرو البرذعي انه حضر أبا زرعة الرازي وذكر صحيح مسلم وانكار أبي زرعة عليه روايته فيه عن سباط بن نصر وقطن بن نسير وأحمد بن عيسى المصري ، قال سعيد بن عمرو فلما رجعت الى نيسابور ذكرت لمسلم انكار أبي زرعة فقال لي مسلم انما ادخلت من حديث أسباط وقطن وأحمد ما قد رواه الثقات عن شيوخهم أي ما هو معلوم عند أهل الحديث ، الا أنه ربما وقع الى عنهم بارتفاع - وأصل الحديث معروف من رواية الثقات قال ابن الصلاح وفيما ذكرته دليل على أن من حكم لشخص بمجرد رواية مسلم عنه في صحيحه بأنه شرط الصحيح عند مسلم فقد غفل وأخطأ بل يتوقف ذلك على النظر في أنه كيف روى عنه على ما بيناه (٨٩) .

الإحاديث المنتقدة على صحيح مسلم

انتقد بعض العلماء على الصحيحين عشرة أحاديث ومائتين انفرد البخارى بشمانية وسبعين ، واشترك في اثنين وثلاثين حديثا وانفرد مسلم بالباقي وهو مائة حديث وقد سقت ما أجاب به ابن حجر عن صحيح البخارى أثناء الحديث عن البخارى وأما من انفرد به مسلم فقد اجاب عنه الامام النووى في شرحه ، وكان معظم هذه الانتقادات يسيرة في الجواب مثل وضع راوى ثقة مكان راوى ثقة أو لاختلاف بالزيادة والنقصان أو بالوصل والرفع أو الرواية بالعنعنة من المدلس أو غيرها . ومن أمثلة ذلك ما رواه مسلم في صحيحه قال (حدثنا^(٩٠) محمد بن المثنى حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا هشام حدثنا قتادة عن سالم بن أبى الجعد عن معدان بن أبى طلحة أن عمر بن الخطاب خطب يوم الجمعة فذكر النبى ﷺ وذكر أبا بكر) الحديث ، قال الامام النووى : وهذا الحديث مما استدركه الدارقطنى على مسلم وقال خالف قتادة في هذا الحديث ثلاثة حفاظ وهم :

منصور بن المعتبر وحصين بن عبد الرحمن وعمر بن مرة فرووه عن سالم عن عمر منقطعا يعنى من ذكر معدان قال الدارقطنى : وقتادة وإن كان ثقة وزيادة الثقة مقبولة عندنا فانه مدلس ولم يذكر فيه سماعه من سالم فأشبهه أن يكون بلغه عن سالم فرواه عنه .

(٩٠) شرح النووى على صحيح مسلم ج ٥ ص ٥١ .

قال الامام النووي : هذا الاستدراك مردود لأن قتادة وان كان مدلسا الا أن مرواه البخارى ومسلم عن المدلسين وعنونه أى روهه بالعننة فهو محمول على أنه ثبت من طريق آخر بالسماع لذلك المدلس ممن عنعنه عنه وأكثر هذا وكثير منه يذكر مسلم وغيره سماعه من طريق آخر متصلا به ، وقد اتفقوا على أن المدلس لا يحتج بعننته ، ولا شك عندنا في أن مسلما رحمه الله يعلم هذه القاعدة ويسلم تدليس قتادة فلولا ثبوت سماعه عنده لم يحتج به ومع هذا كله فتدليسه لا يلزم منه أن يذكر معدانا من غير أن يكون له ذكر ، والذي يخاف من المدلس أن يحذف بعض الرواة أما زيادة من لم يكن فهذا لا يفعله المدلس وإنما هذا فعل الكاذب المجاهر بكذبه وإنما معدان زيادة ثقة فيجب قبولها ، والحجب من الدارقطنى رحمه الله في كونه جعل التدليس موجبا لاختراع رجل لا ذكر له ونسبه الى مثل قتادة الذى حمله من العدالة والحفظ والعلم بالغاية العالية (أ . هـ) .

وقد وردت بعض انتقادات قليلة كان في الجواب عنها بعض تكلف ولكنها هنات يسيرة لا أثر لها يذكر ، فكتاب الامام مسلم من الدرجة العالية من الصحة وهو من أمهات كتب السنة النبوية المعتمدة .

قال الشيخ ابو عمرو بن الصلاح رحمه الله : جميع ما حكم مسلم رحمه الله بصحته في هذا الكتاب فهو مقطوع بصحته والعلم النظرى حاصل بصحته في نفس الامر وهكذا ما حكم البخارى في صحته في كتابه وذلك لأن الأمة تلقت ذلك بالقبول (٩١) .

(٩١) مقدمة شرح النووي ص ١٤ .

شروع صحيح مسلم

حظى صحيح مسلم كصحيح البخارى بعناية علماء المسلمين به ، فقاموا بشرحه واختصاره ودراسة رجاله ، ولئن كانت العناية بصحيح مسلم لم تبلغ مبلغ العناية بصحيح البخارى الا أن ما لدينا من شروح صحيح مسلم يدل دلالة كبيرة على مدى ما قام به العلماء من اجتهاد وجد في سبيل شرحه واستنباط ما في أحاديثه من أحكام وأسرار ومن أشهر هذه الشروح .

١ - شرح الامام أبى زكريا محمى الدين بن شرف النووى ، ولد في المحرم سنة احدى وثلاثين وستمائة ، وتوفى في الرابع والعشرين من رجب سنة ست وسبعين وستمائة في قرية « نوى » بالشام واليها نسب فقيل « ابو زكريا النووى » . وسمى هذا الشرح : « المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج » نقل عن القاضى عياض والمارزى في هذا الشرح ، وقد راعى النووى التوسط حيث لا يكون مختصرا مغللا ولا طويلا عملا ، وقد وضع منهجه في المقدمة التى أبان فيها مقصده من شرح صحيح مسلم ، وهو أن يكون شرحا وسطا ، يوضح فيه الاحكام والعقائد والاخلاق والآداب ، ويقوم بضبط الاسماء وشرح اللغات ، ويوفق بين ما ظاهره التعارض من الاحاديث مع ذكر الادلة كما تضمنت مقدمته شرحا لكثير من علوم الحديث .

والقارىء لشرح النووى يرى أنه أطال في بعض المواضع وبسط القول بما فيه الاجادة والافادة واختصر في بعض المواضع مكتفيا بشرح مجمل للحديث قد لا يروى غلة الصادى وعلى كل فهو شرح جليل ومفيد ، أبرز فيه الامام النووى الموضوعات ، وما تضمنته من أحكام فقهية في نسق رائع ونظام يسر للباحثين نشدان ضالتهم ، وذلك بما قام به من تبويب حسن للاحاديث . وقد طبع هذا الشرح في الهند والقاهرة كثيرا .

٢ - « المعلم بقوائد كتاب مسلم » للامام أبى عبد الله المارزى المتوفى سنة ٥٣٦ هـ .

٣ - « إكمال المعلم في شرح صحيح مسلم » للامام القاضى عياض بن موسى اليحصبى المالكى المتوفى سنة ٥٤٤ هـ .

٤ - شرح أبى الفرج عيسى بن مسعود الزواوى ، المتوفى سنة ٧٤٤ هـ وهو شرح كبير استوفى مادته من الشروح السابقة كالمنهاج والمعلم وإكمال المعلم .

٥ - « إكمال إكمال المعلم » للإمام أبي عبد الله محمد بن خليفة الأبى الوشنان المتوفى سنة ٨٢٧ ، وقد ضمن هذا الشرح شروح المازرى وعياض والقرطبي والنوى ورمز بالحروف الى أصحاب هذه الشروح فرمز « بالميم » الى المازرى و « بالعين » الى القاضى عياض ، وبالطاء الى « القرطبي » وبالدال الى « محمى الدين النوى » وأبان فيه كثيرا من تفريعات الفقه خاصة مذهب المالكى ، واشتمل هذا الشرح على كثير من الفوائد وأورد فيه كثيرا من آراء شيخه ابن عرفة فيقول : « قال الشيخ » ومراده شيخه ابن عرفة .

٦ - شرح الامام ابى عبد الله محمد بن محمد بن يوسف السنوسى الحسنى ، توفى سنة ٨٩٥ ، اختصر شرح الابى وزاد عليه بعض الفوائد ، وأشار الى الكتب التى نقل عنها واستفاد منها فرمز بحرف الميم الى المازرى وبالعين الى القاضى عياض وبالطاء الى القرطبي وبالحاء الى محمى الدين النوى ، وبالباء الى الابى واسم هذا الشرح (مكمل اكمال الاكمال) وقد طبع هذا الشرح مع شرح الابى فى كتاب واحد سنة ١٣٢٨ . وهناك غير ذلك شروح كثيرة مثل الديقاج على شرح مسلم بن حجاج للحافظ جلال الدين السيوطى توفى بسنة ٩١١ ، وكتاب الابتهاج ، للعلامة احمد ابن محمد الخطيب القسطلانى المتوفى سنة ٩٢٣ وشرحه لم يتم ، وشرح القاضى زين الدين زكريا بن محمد الانصارى المتوفى سنة ٩٢٦ ، وشرح الشيخ على القارىء الهروى الحنفى المتوفى سنة ١٠١٤ فى أربعة مجلدات .

وهناك أيضا كثير من المختصرات التى تناولت اختصار صحيح مسلم وشرحه منها :

١ - مختصر الامام أحمد بن عمر بن ابراهيم القرطبي المتوفى سنة ٦٥٦ ، وبعد أن لخص صحيح مسلم ، ورتبه وبوبه قام بشرح غريبه وسمى شرحه : « المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم » .

٢ - مختصر الشيخ أبى عبد الله شرف الدين محمد بن عبد الله المرسى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ .

٣ - مختصر الحافظ زكى الدين عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى المتوفى سنة ٦٥٦ وقد قام عثمان بن عبد الملك المصرى المتوفى سنة ٧٣٨ ، بشرح هذا المختصر .

والى جوار هذه الشروح والمختصرات قام بعض العلماء ببيان زوائد صحيح مسلم على صحيح البخارى كما فعل سراج لدين عمر بن على بن الملتن الشافعى توفى سنة ٨٠٤ ، كما قام بعضهم بالتأليف فى أسماء رجال مسلم مثل أبى بكر أحمد على الاصبهانى توفى سنة ٢٧٧ .

وهكذا تطلعتنا هذه الشروح والمختصرات وغيرها من المستدرجات والمستخرجات على عناية الامة الاسلاميه بالسنة النبويه وما استهدفته جهودهم المخلصه من بيان ما تضمنته السنة من عقائد واحكام وتشريعات وآداب ، ولاسيما عنايتهم بصحيح البخاري ومسلم .

وفي هذا دلالة على اهمية الصحيحين وانهما يحتلان منزلة سامية في النفوس ، وكيف لا وهما الكتابان النفيسان والصحيحان الجامعان اللذان تلقتهما الامة بالقبول .

موازنة بين صحيحى البخارى ومسلم

اتفق العلماء على أن أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى الصحيحان للامامين الجليلين البخارى ومسلم ، وتلقتهما الأمة بالقبول ، وازدهرت بهما رياض السنة النبوية فى القرن الثالث الهجرى حتى أصبح هذا القرن أزهى القرون فى جمع السنة وتدوينها ، وقد التزم كل واحد من هذين الامامين أن يخرج فى كتابه الاحاديث الصحيحة فهما إذا مشتركان فى أصل الصحة .

وللموازنة بين كتابيهما ينبغى توضيح الآتى : -

أولا : ذكر أقوال بعض الأئمة والعلماء فى كل منهما وتوضيح آرائهم حتى تتبين لنا المكانة العلمية لكل واحد من الامامين ، وتبين درجة كل كتاب ومنزلته عنده .
ثانيا : بيان ما يميز به كل كتاب من الشروط والمقاييس .

أما بالنسبة الى كتاب صحيح البخارى :

١ - أقوال الأئمة وشهادات أهل الفن فيه : روى الحافظ ابن حجر بالاسناد الصحيح عن أبى عبد الرحمن النسائى أنه قال : (ما فى هذه الكتب كلها أجود من كتاب محمد بن اسماعيل) والنسائى لا يعنى بالجودة إلا جودة الأسانيد كما هو المتبادر الى الفهم من اصطلاح أهل الحديث . ومثل هذا القول من النسائى غاية فى الوصف مع شدة تحريه وتوقيه وتثبته فى نقد الرجال وتقدمه فى ذلك على أهل عصره أ . هـ . (٩٢) . وقال الحاكم أبو أحمد النيسابورى رحم الله محمد بن اسماعيل فإنه ألف الأصول يعنى أصول الأحكام من الاحاديث وقد وضع للناس ذلك ، وكل من عمل بعده فانما أخذه من كتابه كمسلم بن الحجاج ، وقال الدارقطنى لما ذكر عنده الصحيحان : لولا البخارى لما ذهب مسلم وما جاء وقال : وأى شئ صنع مسلم انما أخذ كتاب البخارى فعمل عليه مستخرجا وزاد فيه زيادات .

وهكذا نرى أقوالا كثيرة للعلماء غير هذه فى بيان منزلة صحيح البخارى وبعض هذه

(٩٢) مقدمة فتح البارى لابن حجر ص ٨ .

الآراء على ما فيها من المبالغة انما تدل على ما تميز به صحيح البخارى من منزلة بلغت في سموها درجة عالية .

٢ - وأما من حيث ما تميز به صحيح البخارى فذلك بفحص مقاييس الصحة فيه وما أشرطه في كتابه ويرجع ذلك الى ثلاثة أمور :

الأمر الأول : اتصال السند - الأمر الثاني : اتقان الرجال - الأمر الثالث : السلامة من الشذوذ والعلة .

١ - أما اتصال السند : فيرى البخارى أن الحديث المعنعن لا يكون متصلا إلا اذا ثبت اجتماع المعنعن ولقاؤه ولومرة بمن عنعن عنه وقد التزم الامام البخارى في كتابه بهذا الشرط بخلاف مسلم فان مذهبه أن الاسناد المعنعن يأخذ حكم الاتصال اذا تعاصر المعنعن ومن عنعن عنه وإلا لم يثبت اجتماعهما إلا أن كان المعنعن مدلسا وهذا الشرط هو الذى رجح به كتاب الامام البخارى على كتاب الامام مسلم لأن شرط اللقاء أوضح في الاتصال اذ أن فيه تقوية ثبوت السماع وتأكيديه ، وهذا الشرط انما التزمه البخارى في كتابه خاصة لا في الصحيح مطلقا .

٢ - وأما ما يتعلق باتقان الرجال فقد رجح كتاب البخارى من حيث اتقان الرجال بأمر هامة :

أولا : أن الذين انفرد البخارى بالاخراج لهم أربعمائة ويضع وثلاثون رجلا المتكلم فيهم بالضعف ثمانون رجلا ، والذين انفرد مسلم بالاخراج لهم دون البخارى ستمائة وعشرون رجلا والمتكلم فيه بالضعف منهم مائة وستون رجلا والتخريج عن من لم يتكلم فيه أصلا أولى من التخريج عن من تكلم فيه وإلا لم يكن الكلام قادحا .

ثانيا : أن الامام البخارى لم يكثر من التخريج عن من انفرد بهم عن حصل فيهم كلام بخلاف الامام مسلم فقد أخرج كثيرا ، كابى الزبير عن جابر وسهيل عن أبيه وعلاء بن عبد الرحمن عن أبيه وحاد بن سلمة عن ثابت وغيرهم .

ثالثا : أن أكثر من انفرد بهم البخارى عن تكلم فيهم أكثرهم من شيوخه الذين عرفهم وجالسهم وخبرهم وعرف كيف يميز بين جيد حديثهم وغيره بخلاف الامام مسلم فان أكثر من تكلم فيهم عن انفرد بالتخريج لهم كانوا متقدمين عن عصره من التابعين ومن بعدهم .

رابعاً : ما سبق بيانه من تقسيم الطبقات وأن الامام البخارى يخرج أعلاها في الحفظ وطول الملازمة وهى الطبقة الأولى ولا يخرج أحاديث الطبقة الثانية الا انتقاء بخلاف الامام مسلم فيخرج أحاديث الثانية استيعاباً في أصل موضوع كتابه .

٣ - ما تعلق بالسلامة من الشذوذ والعلة أن البخارى قد اختص بشمانية وسبعين حديثاً من الأحاديث المتقدمة . وأما مسلم فاخص بمائة ، وما كان قليل الانتقاد يكون أرجح من كثيره (٩٣) .

هذه هى أقوال لعلماء وآراؤهم في كتاب صحيح البخارى وهذه هى مميزات الكتاب ومقاييس صحته من حيث اتصال السند وإتقان الرواه والسلامة من الشذوذ والعلة ولنتجه الى « صحيح الامام مسلم » .

١ - أما من حيث أقوال الأئمة وشهادة العلماء :

فقد سبقت كلمات كثيرة من أهل الحديث ذكر فيها تقديم كتاب البخارى على كتاب مسلم إلا أنه ذهب أبو على النيسابورى الى ترجيح « صحيح مسلم » ، روى عنه أنه قال : ما تحت أديم السماء كتاب أصح من كتاب مسلم بن الحجاج ، وبهذا قال بعض العلماء المغاربة .

وأما من حيث مميزات صحيح مسلم فإنه تميز بتصنيفه في حياة كثير من شيوخه ، فكان يتحرز في الألفاظ ويتحرى في السياق ولا يتصدى لما تصدى له البخارى من استنباط الأحكام ليوب عليها ولزم من ذلك أنه قطع الحديث في أبواب متفرقة ، أما الامام مسلم فقد جمع الطرق كلها في مكان واحد كل حسب موقعه ، واقتصر على الأحاديث دون الموقوفات فلم يعرج عليها الا في بعض المواضيع ، كما تميز بحسن السياق وجودة الوضوح وروعة الترتيب وغير ذلك كما سبق بيانه عند الكلام على هذا الكتاب وتحقيق القول في ذلك أنه بالموازنة بين آراء العلماء في كل واحد من الكتائين ، وبالموازنة بين مقاييس كل واحد وشرطه في كتابه أرى أن كتاب الامام البخارى أصح الكتائين بمقاييسه أشد وثوقاً . وشرطه أقوى وأكد في ثبوت السماع حيث اشترط اللقاء ولم يكتف بالمعاصرة كما اکتفى الامام مسلم ، وأما ما رآه بعض القائلين بتفصيل صحيح مسلم ، فإن أرادوا الترجيح فيها يرجع الى حسن البيان والسياق وجودة الوضع والترتيب بجمع الطرق كلها في مكان واحد

(٩٣) هدى السارى ص ١٠ .

وعدم تقطيع الحديث وما الى ذلك فلا نزاع في هذا ، وأما ان أرادوا أن ترجيح مسلم يرجع الى الشروط التي قامت عليها الصحة فهذا القول مردود لما سبق توضيحه لمقاييس الصحة وما تميز به صحيح البخارى من كونه أشد اتصالا وأوثق رجالا وأبعد عن الشذوذ والعلة وقد اتفق العلماء على أن أصح الكتب بعد القرآن الصحيحان وتلقتهما الأمة بالقبول وكتاب البخارى أصحهما وأكثرهما فوائد ومعارف ظاهرة وغامضة ، وقد صح أن مسلما كان ممن يستفيد من البخارى ويعترف بأنه ليس له نظير في علم الحديث ، وترجيح كتاب البخارى هو المذهب المختار الذى قاله الجماهير .

هل تفيد أحاديث الصحيحين العلم أو الظن

لا خلاف بين العلماء في أن الأحاديث المتواترة لفظاً أو معنى قطعية الثبوت وأما غير المتواترة من الأحاديث الصحيحة فقد اختلفوا فيها :

ويرى ابن الصلاح : أن ما أخرجه الشيخان أو أحدهما بالاسناد الصحيح المتصل مقطوع بصحة نسبه إلى قائله والعلم اليقيني النظري حاصل بصحته في نفس الأمر وذلك لتلقى الأمة لكتابيهما بالقبول . واستثنى من هذا الحكم أحاديث يسيرة تكلم فيها بعض النقاد كالدارقطني وغيره .

ومما ينبغي الإشارة إليه أن أحاديث الكتابين كلها صحيحة ليس فيها ضعف وإنما كان نقد الناقدين موجهاً إلى بعض أحاديث لم تصل في صحتها الدرجة العليا التي التزمها كل واحد منهما في كتابه . قال الشيخ ابن الصلاح : (جميع ما حكم مسلم رحمه الله بصحته في هذا الكتاب فهو مقطوع بصحته والعلم النظري حاصل بصحته في نفس الأمر وهكذا ما حكم البخاري بصحته في كتابه ، وذلك لأن الأمة تلقت ذلك بالقبول سوى من لا يعتد بخلافه ووفاقه في الإجماع قال : والذي نختاره أن تلقى الأمة للخبر المنحط عن درجة التواتر بالقبول يوجب العلم النظري بصدقه) أ . هـ . (٩٤) .

ففى رأى ابن صلاح أن أحاديث لصحيحين تفيد اليقين والقطع ما عدا الأحاديث المنتقدة عليهما لعدم اجتماع الأمة على تلقيها بالقبول ، وهذا ما ذهب إليه ابن كثير قال : وأنا مع ابن الصلاح فيما عول عليه وأرشد إليه .

وقد وافق ابن الصلاح أيضاً الإمام ابن تيمية قال : نقل القطع بالحديث الذى تلقته الأمة بالقبول عند جماعات الأئمة : منهم القاضى عبد الوهاب المالكي والشيخ أبو حامد الاسفرائيني ، والقاضى أبو الطيب الطبرى والشيخ أبو اسحاق الشيرازى من الشافعية ، وابن حامد ، وأبو يعلى بن الفراء ، وأبو الخطاب وأمثالهم من الخنابلة . وشمس الدين

(٩٤) مقدمة شرح النووى ص ١٤ .

السرخسى من الحنفية وهو قول أكثر أهل الكلام من الأشعرية وغيرهم وهو مذهب أهل الحديث قاطبة ومذهب السلف عامة أ . هـ . (٩٥) وذهب داود الظاهري والحسين بن على الكرابيسى والحارث بن أسد المحاسبي الى أن الحديث الصحيح غير المتواتر يفيد العلم اليقيني سواء أكان في أحد الصحيحين أو في غيرهما وهذا المذهب هو الذى اختاره ابن حزم وذهب اليه قال : إن خير الواحد العدل عن مثله الى رسول الله ﷺ يوجب العلم والعمل معا . هـ . (٩٦) .

وذهب النووى إلى أن أحاديث الصحيحين التى لم تتواتر ثابتة بالظن لا بالعلم ، لأنها من قبيل الأحاد ، والأحاد طريقها ظنى ، وهذا ما ذهب إليه المحققون الأكثرون من العلماء من غير تفریق بين البخارى ومسلم وغيرهما فى ذلك ، وتلقى الأمة بالقبول انما أفادنا وجوب العمل بما فيها ، وهذا متفق عليه فإن اخبار الأحاد التى فى غيرهما يجب العمل بها اذا صحت أسانيدها ولا تفيد إلا الظن ، وكذا الصحيحان ، وانما يفترق الصحيحان وغيرهما من الكتب فى كون ما فيها صحيحا لا يحتاج الى النظر فيه بل يجب العمل به مطلقا ، وما كان فى غيرهما لا يعمل به حتى ينظر وتوجد فيه شروط الصحيح ولا يلزم من اجماع الأمة على العمل بما فيها اجماعهم على أنه مقطوع بأنه كلام النبى ﷺ (٩٧) .

وقد رد العلماء هذا الكلام باتفاقهم على وجوب العمل بكل ما صح ولو لم يخرجه الشيخان فلم يبق للصحيحين فى هذا مزية والاجماع حاصل على أن لها مزية فيما يرجع الى نفس الصحة وليس ذلك الا افادة أحاديثها العلم والقطع كما قال ابن صلاح .

وقال ابن حجر فى شرح النخبة : الخبر المحتف بالقرائن يفيد العلم خلافا لمن أبى ذلك قال : وهو أنواع منها ما أخرجه الشيخان فى صحيحيهما مما لم يبلغ التواتر فانه احتفت به قرائن منها جلالتهما فى هذا الشأن وتقديهما فى تمييز الصحيح على غيرهما وتلقى العلماء لكتابيهما بالقبول وهذا التلقى وحده أقوى فى افادة العلم أ . هـ .

ومما سبق يتضح أن آراء العلماء فى افادة الأحاديث الصحيحة غير المتواترة العلم ثلاثة أقسام :

-
- (٩٥) الباعث الحثيث ص ٣٥ ، ٣٦ .
(٩٦) الأحكام لابن حزم ج ١ ص ١١٩ .
(٩٧) مقدمة شرح النووى ص ١٥ .

١ - إفادة أحاديث الصحيحين العلم اليقيني وهذا ما ذهب إليه ابن الصلاح ومن تبعه .

٢ - عدم افادة الصحيحين العلم اليقيني وهذا ما ذهب إليه النووي وغيره .

٣ - افادة الأحاديث الصحيحة العلم القطعي سواء أكانت في أحد الصحيحين أم في غيرهما وهذا ما ذهب إليه ابن حزم ومن وافقه ، وهذا العلم اليقيني علم نظري قائم على البرهان يحصل للعالم المتبحر في الحديث الخبير بأحوال الرواة والعلل .

وأرجح ما ذهب إليه ابن الصلاح ، أن أحاديث الصحيحين غير التي انتقدت عليهما تفيد العلم النظري ويدل على ذلك تلقى الأمة لكتابيهما بالقبول والأمة بعيدة عن الخطأ في اجماعها ، وهذا العلم لا يحصل إلا للعالم بالحديث المتضلع في فنونه .

تفريغ صاحبى الصحيحين أحاديث أهل البدع

شبهة : وقد يعترض على صاحبى الصحيحين بأنها أخرجوا أحاديث بعض أهل البدعة وهذا يعتبر اخلافا منها بشروطهما في الرجال الذين يرويان عنهم .

الاجابة : وللاجابة على ذلك ، لابد أن يبين حكم الرواية عن أهل البدع ، فالبدعة على ضربين : الأول : أن تكون بمكفر ، كأن يعتقد صاحبها ما يستلزم الكفر ، وقد اختلف العلماء في حكمها :

- ١ - يرى الجمهور : أن رواية صاحب البدعة بمكفر غير مقبولة .
- ٢ - وقيل إذا اعتقد حرمة الكذب تقبل روايته لأن اعتقاد حرمة الكذب تمنعه منه
- ٣ - وقيل تقبل مطلقا . قال الحافظ بن حجر : (٩٨) التحقيق أنه لا يرد كل مكفر يبدعه لأن كل طائفة تدعى أن مخالفتها مبتدعة وقد تبالغ فتكفر مخالفتها فلو أخذ ذلك على الاطلاق يستلزم تكفير جميع الطوائف . والمعتمد أن الذى ترد بدعته روايته من أنكر أمرا متواترا من الشرع معلوما من الدين بالضرورة أو اعتقد عكسه ، وأما من لم يكن كذلك وأنضم الى ذلك ضبطه لما يرويه مع ورعه وتقواه فلا مانع من قبوله ، أ . هـ .

الثانى : أن تكون البدعة بمفسق لم يكفر في بدعته وقد اختلف فيها كذلك : -

- ١ - قيل ترد روايته مطلقا لأنه فاسق يبدعه وهذا رأى يروى عن مالك والعللة في ذلك أن في الرواية عن المبتدع بما لا يكفر ترويجا لأمره وتنويفا بذكره وهذا رأى بعيد مخالف للشائع عن أئمة الحديث الذين امتلأت كتبهم بالرواية عن المبتدعة غير الدعاة كما سنوضح ذلك .

- ٢ - وقيل يقبل اذا لم يكن ممن يستحل الكذب في نصرة مذهبه أو لأهل مذهبه سواء ادعا الى بدعته أم لا ، وان كان ممن يستحل الكذب لم تقبل روايته وقد عزى هذا القول

(٩٨) نزعة النظر بتوضيح نخبة الفكر لابن حجر ص ٢٤

للشافعي قال : أقبل شهادة أهل الأهواء الا الخطابية من الرافضة لأنهم يرون الشهادة بالزور لموافقهم .

٣ - وقيل يقبل من لم يكن داعية الى بدعته ، لأن تزيين بدعته قد يحمله على تحريف الروايات وتسويتها على ما يقتضيه مذهبه وهذا الرأي هو ما ذهب اليه الامام أحمد (٩٩) والأكثر على قبول غير الداعية الا أن روى ما يقوى بدعته فيرد على المذهب المختار قال ابن الصلاح وهذا أعدل الأقوال وأولاها ، والقول بالمنع مطلقا بعيد مخالف لما رواه الأئمة في كتبهم عن المبتدعة غير الدعاة ففى الصحيحين من حديثهم في الشواهد وفي الأصول كثير (١٠٠) .

فاحتجاج صاحبى الصحيحين وغيرهما بكثير من المبتدعة غير الدعاة مما يضعف رأى القائلين بمنع القبول في بدعة غير المكفر .

ولا يعترض بأن الشيخين احتجا بالدعاة الى البدعة مثل عمران بن حطان الخارجي مادح عبد الرحمن بن ملجم قاتل على ومثل عبد الحميد بن عبد الرحمن الحماني رمى بالارجاء وكان داعية .

فالجواب على ذلك أن أبا داود قال : (ليس في أهل الأهواء أصح حديثا من الخوارج لأن الكذب عندهم من الكبائر ، ثم ذكر عمران بن حطان وأبا حسان الأعرج ، قال ولم يحتج مسلم بعبد الحميد بل أخرج له في المقدمة وقد وثقه ابن معين ، والمبتدعة الذين أخرج لهم الشيخان أنواع :

١ - منهم من رمى بالارجاء : وهو تأخير القول في الحكم على مرتكب الكبائر بالنار مثل ابراهيم بن طهمان وعبد الحميد بن عبد الرحمن أبو يحيى الحماني .

٢ - ومنهم من رمى بالنصب : وهو بغض على رضى الله عنه وتقديم غيره عليه مثل بهز بن أسد وحصين بن غمير وقيس بن أبي حازم .

٣ - ومنهم من رمى بالتشيع : وهو تقديم على الصحابة مثل عبد الرزاق بن همام والفضل بن دكين وعبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن ابن أبي ليلى .

(٩٩) فتح المغيث للحافظ العراقي ص ٢٦ .

(١٠٠) الباعث الحثيث لابن كثير ص ١٩٩ .

٤ - ومنهم من رمى بالقدر : وهو زعم أن الشر من خلق العبد ، مثل صالح بن كيسان وهارون بن موسى الأعور النحوى ووهب بن منبه .

٥ - ومنهم من رمى برأى أبي جهنم : وهو نفى صفات الله تعالى والقول بخلق القرآن مثل بشر بن السرى .

٦ - ومنهم من رمى برأى الحرورية : وهم الخوارج الذين أنكروا على التحكيم وتبرأوا منه ومن عثمان وذويه وقتلوه مثل عكرمة مولى ابن عباس والوليد بن كثير .

٧ - ومنهم من رمى بالوقف : وهو ألا يقول القرآن مخلوق أو غير مخلوق مثل على بن هشام .

٨ - ومنهم من يرون الخروج على الأئمة ولا يباشرون ذلك ويسمون بالقاعدية مثل عمران بن حطان (١٠١) .

ورأى أن البخارى ومسلما إذ يخرجان للمبتدعة انما يخرجان لهم بشروط يمكن الوقوف عليها بسبر الرجال الذين أخرجوا لهم واستقراء الأحوال في ذلك ، ويمكن أن أحصر هذه الشروط فيما يأتى :

- ١ - ألا تكون البدعة بمكفر .
- ٢ - ألا يكون المبتدع ممن يستحل الكذب .
- ٣ - ألا يكون داعيا لبدعته .
- ٤ - ألا يكون راويا لما يقوى بدعته .
- ٥ - أن يكون الراوى معروفا بالصدق والضبط .
- ٦ - أن يكون معروفا بالأمانة والثقة في الدين والمخلق .

إذ أن الملاحظ لأحوال الرواة والمستقرىء لصفاتهم يجد أن الكثير منهم يكون ثقة كما قال الذهبي في ترجمة أبان بن تغلب الكوفى (شيعى جلد لكنه صدوق فلنا صدقه وعليه بدعته) (١٠٢) . كما أن المتبع لأهل البدع الصغرى كالشيع بلا غلو يرى كثيرا منهم فى التابعين وتابعى التابعين موصوفا بالصدق ومعروفا بالتقوى فلو لم نقبل أحاديثهم لترتب على ذلك إهمال مجموعة كبيرة من الأحاديث النبوية .

(١٠١) تدريب الراوى ص ٢١٧ .

(١٠٢) الميزان للذهبي ج ١ ص ٤ .

وبالإضافة إلى ما سبق ينبغي أن نتعرف على من رمى بالبدعة ، وذلك بالرجوع إلى مصنفات رجالها حتى يظهر الأصيل في بدعته من غيره ، فلا نحكم على أحد ببدعة ما بمجرد ما قيل فيه ، بأنه مثلا خارجي أو شيعي ، فقد يكون ذلك تقولا واقتراء ، وعلى هذا الطريق عد علماء الجرح والتعديل في مصنفاتهم كثيرا ممن رمى بالبدعة بناء على ما قيل فيهم ، وإن كثيرا من رواة الصحيحين قد رمى بالبدعة وهو منها براء ، يقول القاسمي « وقد راجعت من كتب الشيعة . . . كما رأيت ممن رماهم السيوطي نقلا عن سلفه بالتشيع في كتابه التقريب من خرج لهم الشيخان وعددهم خمسة وعشرين إلا راويين وهما : أبان بن تغلب وعبد الملك بن أعين ، ولم أر للبقية في ذينك الكتابين ذكرا » أ . هـ . (١٠٣) .

البحث الثاني

السنن

الامام أبو داود السجستاني

سبق الحديث في البحث الأول عن صحيحى البخارى ومسلم اللذين تلقتهما الأمة بالقبول وكانا أعلى كتب الحديث درجة من الصحة والثقة ، وقد ظهر في القرن الثالث الهجرى أربعة من كتب الحديث النبوى لم تصل الى ما وصل اليه الصحيحان في دقة الانتقاء ولم يسم مؤلفوها في شروط الرجال بالدرجة التى سماها البخارى ومسلم ولكن هذه الكتب رغم ذلك احتلت درجة عالية من الصحة وحازت مكانة مرموقة جعلتها تضارع الصحيحين أو تقاربهما حتى أصبحت تضم إليهما في اصطلاح بعض المحدثين وسميت جميعها كتب الصحاح الستة ومن هذه الكتب كتاب السنن للامام أبى داود السجستاني .

نسبه ونشأته :

هو الامام أبو داود سليمان بن الأشعث بن اسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو بن عمران الأزدي السجستاني^(١) والأزدي نسبة الى الأزدي قبيلة باليمن والسجستاني نسبة الى سجستان وينسب اليها سجزي أيضا على غير قياس ، وهى مدينة بخراسان^(٢)

وقد ولد الامام أبو داود سنة اثنتين ومائتين^(٣) ، ونشأ مفظورا على عجة العلم وملازمة أهله ، فنهض يتعلم منهم وينهل من مواردهم كما أخذ نفسه بالورع والعبادة حتى كان في الدرجة العالية من النسك والصلاح^(٤) وحظى تاريخ هذا الامام بالثناء العاطر من العلماء

(١) تهذيب الاسماء واللغات للنووى جـ ٢ ص ٢٢٤ ، وفيات الاعيان جـ ١ ص ٢٦٨ .

(٢) الرسالة المستطرفة للكتانى ص ١١ .

(٣) تاريخ بغداد جـ ٢ ص ٥٦ .

(٤) وفيات الاعيان جـ ١ ص ٢٦٨

والتقدير الكامل لما كان عليه من الورع والتقوى والحفظ التام والفهم الثاقب في الحديث وغيره ، يقول الحافظ أحمد بن محمد بن ياسين الهروي : كان أبود ود أحد حفاظ الاسلام لحديث رسول الله ﷺ وعلمه وعقله . وقال موسى بن هارون خلق أبو داود في الدنيا للحديث وفي الآخرة للجنة (٥) وذلك لجمعه بين العلم والعمل وبين الانفاق والورع ، وبهذه النشأة الطاهرة المبرورة كان أبو داود موضع حب العلماء وتقديرهم ، يرحلون اليه ويتيمنون به ، جاء سهل بن عبد الله التستري فقيل له : يا أبا داود هذا سهل بن عبد الله قد جاءك زائرا ، فرحّب به وأجلسه فقال له : يا أبا داود لي اليك حاجة ، قال وما هي ؟ قال : حتى تقول قضيتها مع الامكان ، قال : قضيتها مع الامكان ، قال : أخرج لسانك الذي حدثت به عن رسول الله ﷺ حتى أقبله .

قال : فأخرج لسانه فقبله (٦) وإنما لمحة متلهفة وشوق متواصل وعاطفة جياشة واكبار من معاصريه لما قام به من خدمة للسنة النبوية ، فلقد كان هذا الامام بحق قمة من قمم الحديث والفقه ، ذا جلالة وحرمة ، وصلاح وورع (٧) ، وقال علان بن عبد الصمد : كان أبو داود من فرسان هذا الشأن ، وقال أبو حاتم بن حبان : أبو داود أحد أئمة الدنيا فقها وعلميا وحفظا ونسكا واثقانا جمع وصف وذبح عن السنن . وهكذا تطلعتنا شهادات العلماء على ما كان عليه هذا الامام من علم وعمل ، كما تلقى أضواء كاشفة على جوانب العظمة في نشأته من حفظ واثقان وورع ونسك .

حياته العلمية

عاش أبو داود حياة خصبة ، لازم فيها مجالس العلم في بلده ، وشمر عن ساعد الجد في تدوين الكثير ، ولكن نفسه التواقفة للعلم المحبة للمعرفة تجعبه يشد رحاله في سبيل العلم ، فطوف بكثير من البلاد ، وأخذ عن علماء الحجاز والشام ومصر والعراق والجزيرة وخراسان ، وقد مكنته رحلاته العلمية من لقاء كثير من شيوخ الامصار التي كانت تموج بالعلم والعلماء ، قال الحاكم أبو عبد الله كان أبو داود إمام أهل الحديث في عصره بلا مدافعة سمعه بمصر والحجاز والشام وخراسان والعراق وكتب بخراسان قبل خروجه الى العراق ، وكتب ببغداد عن قتيبة وبالري عن ابراهيم بن موسى إلا أن أعلى أسناده

(٥) تهذيب الاسماء واللغات للنووي ج ٢ ص ٢٢٦ .

(٦) تهذيب التهذيب ج ٤ ص ١٧٢ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٦٨

(٧) مرآة الجنان للباغعي ج ٢ ص ١٩٠ .

موسى بن اسماعيل والقعنبي ومسلم بن ابراهيم^(٨) . وبهذه الرحلات تمكن أبو داود من تدوين كثير من الأحاديث التي أودع خلاصتها في كتابه العظيم « السنن » . وقدم بغداد غير مرة وكانت آخر زيارته لها سنة اثنتين وسبعين ومائتين ثم دعاه بعد ذلك الخليفة الموفق أن ينزل بالبصرة ويتخذها له مقاما عسى أن يبعث فيها هو وتلاميذه الحياة والنشاط بعد أن ضعفت وركدت ريحها من أثر فتنة الزنج فنزل بها وتوفى فيها يوم ١٦ شوال سنة ٢٧٥ هـ^(٩) وقيل مات بالبصرة سنة خمس وسبعين ومائتين لأربع عشرة بقيت من شوال .

شيوخه وتلاميذه :

أما شيوخ أبي داود الذين روى عنهم ونهل من منبعهم فهم كثيرون منهم من شارك البخارى ومسلما فيهما كأحمد بن حنبل وعثمان بن أبي شيبة وقتيبة بن سعيد ، ومنهم كذلك عبد الله بن مسلمة القعنبي وموسى بن اسماعيل ومسلم بن ابراهيم وأبو الوليد الطيالسي وأحمد بن يونس وقتيبة بن سعيد وعثمان بن أبي شيبة واسحاق بن راهويه واحمد بن أبي شعيب وي زيد بن عبد ربه وغيرهم^(١٠) وقد عدّه الشيخ ابو اسحاق الشيرازى فى طبقات الفقهاء من جملة أصحاب الامام أحمد ، وكذلك ذكره فى طبقات الحنابلة القاضى أبو الحسين محمد بن القاضى أبى يعلى المتوفى سنة ٥٢٦ هـ ولعل ذلك راجع الى أن الامام أحمد كان من شيوخ أبى داود وقيل أنه كان شافعيًا .

وأرى أنه كان من المحدثين المجتهدين . وما يشهد باجتهاده عمله الجليل فى كتابه السنن . واما تلاميذه : فكثيرون منهم الترمذى والنسائى وأبو عوانة وابنه ابو بكر بن أبى داود وأبو على اللؤلؤى وأبو بكر بن داسه وهما اللذان يرويان عنهم كتاب السنن^(١٢) وبحسبه فضلا أن روى عنه شيخه الامام احمد بن حنبل حديثا وهو ما رواه أبو داود من حديث حماد ابن سلمه عن أبى معشر الدارمى عن أبيه أن رسول الله ﷺ سئل عن العتيرة فحسنها^(١٣) وقال عنه محمد بن محمد بن مخلد كان أبو داود يفتى بمذاكرة مائة ألف حديث ولما صنف السنن وقرأه على الناس صار كتابه لأهل الحديث كالمصحف يتبعونه ، وأقر له أهل زمانه

(٨) تهذيب الأسماء واللغات للنووى ج ٢ ص ٢٢٦ .

(٩) تاريخ الأدب العربى : كارل بروكلمان ترجمة الدكتور عبد الحلیم النجار ج ٣ ص ١٨٦ .

(١٠) تاريخ بغداد ج ٢ ص ٥٩ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٦٨ .

(١١) طبقات الشافعية الكبرى ج ٢ ص ٢٩٤ .

(١٢) تهذيب الأسماء واللغات ج ٢ ص ٢٢٤ .

(١٣) طبقات الشافعية الكبرى ج ٢ ص ٢٩٤ .

بالحفظ أ . هـ . (١٤) وفي هذا ما يدل على قوة حفظه واتقانه وثقة معاصريه فيما يرويه ، وما يشهد له بالقدرة العلمية الفائقة .

مؤلفاته :

ولأبي داود مؤلفات كثيرة تدل على غزارة علمه وعلى دقة بحثه ألفها في مجالات مختلفة منها كتاب السنن ، وكتاب المراسيل ، وكتاب القدر ، وكتاب دلائل النبوة ، وكتاب ابتداء الوحي ، وكتاب فضائل الاعمال ، وكتاب الزهد ، وكتاب الدعاء ، وكتاب المسائل ، وأعظم هذه المصنفات هو كتاب السنن الذي قال فيه الخطابي أن كتاب السنن لأبي داود كتاب شريف لم يصنف في حكم الدين كتاب مثله ، وقد رزق القبول من الناس كافة فصار حكما بين فرق العلماء وطبقات الفقهاء على اختلاف مذاهبهم وعليه معول أهل العراق ومصر والمغرب وكثير من أقطار الأرض (١٥) .

وقد اتسمت حياة أبي داود العلمية بالعزلة ، والنظرة الى مساواة الناس أمام العلم لا تمييز بينهم ولا طبقية فيهم قال أبو سليمان حدثني عبد الله بن محمد السبكي قال : حدثني أبو بكر بن جابر خادم أبي داود قال : (كنت معه في بغداد فصلينا المغرب اذ قرع الباب ففتحته فاذا خادم يقول هذا الامير أبو احمد الموفق يستأذن فدخلت الى أبي داود فأخبرته بمكانه فأذن له فدخل وقعد ، ثم أقبل عليه أبو داود وقل : ما جاء بالأمير في مثل هذا الوقت ؟ قال : خلال ثلاث قال : وما هي ؟ قال : الأرض قال هذه واحدة ، هات الثانية قال : تروى لأولادى كتاب السنن قال : نعم ، هات الثالثة . فقال : تفرد لهم للرواية . فان أولاد الخلفاء لا يقعدون مع العامة فقال : أما هذه فلا سبيل إليها فان الناس شريفهم ووضعهم في العلم سواء . قال ابن جابر : فكانوا يحضرون بعد ذلك ويقعدون ويضرب بينهم وبين الناس ستر فيسمعون مع العامة) « أ . هـ » (١٦) وفي هذا ما يدل على اعتزازه بكرامة العلم والعلماء التي لا يفرق فيها بين الناس في طلب العلم وبعد هذه الجولة الطيبة في حياة أبي داود الناضرة الحصبة نلتقى مع أهم مصنفاته في الحديث ألا وهو كتاب (السنن) .

(١٤) تهذيب التهذيب ج ٤ ص ١٧٢ .

(١٥) تهذيب الاسماء واللغات ج ٢ ص ٢٢٦ .

(١٦) مقدمة تحفة لاحونى ج ١ ص ١٢٩ .

سنن أبي داود

التعريف بالكتاب :

كانت الكتب المصنفة في الحديث قبل سنن أبي داود يدون فيها أصحابها الاحاديث في شتى الموضوعات من أحكام وآداب وفضائل ومواعظ وقصص الى أن جاء أبو داود فصنف كتابه السنن وسار فيه على طريق التخصص فحدد جانباً من جوانب السنة المطهرة وهو الجانب الفقهي . فجمع فيه السنن والاحكام وانتقاه من خمسمائة ألف حديث وبلغت أحاديثه أربعة آلاف وثمانمائة حديث كلها في الاحكام حتى جاء الكتاب حافلاً بأبواب الفقه وبالاحاديث التي يحتاج اليها الفقهاء في استدلالهم حتى قيل : « أنها تكفي المجتهد بعد كتاب الله تعالى » .

وسمى مصنفه : (السنن) ، لأنه جمع أحاديثه من وجهة نظر فقهية فلم يضمه غير أحاديث الفقه والتشريع مما ورد في الاخلاق والكلام والزهد ونحو ذلك (١٧) ولما انتهى أبو داود من تصنيف كتابه عرضه على الامام احمد بن حنبل رضى الله عنه فاستجازه واستحسنه ، وقال ابراهيم الحربي : لما صنف أبو داود كتاب السنن ألين لابي داود الحديث كما ألين لداود الحديد ، وقال أبو داود : كتبت عن رسول الله ﷺ خمسمائة ألف حديث انتخبت منها ماضمنته هذا الكتاب يعني السنن ، جمعت فيه أربعة آلاف وثمانمائة حديث ذكرت الصحيح وما يشبهه وما يقاربه (١٨) .

ويقول الامام أبو سليمان الخطابي : (اعلموا رحمكم الله تعالى أن كتاب السنن لابي دادو كتاب شريف لم يصنف في علم الدين كتاب مثله وقد رزق القبول من كافة الناس فصار حكماً بين فرق العلماء وطبقات الفقهاء على اختلاف مذاهبهم فلكل منه ورد ومنه شرب وعليه معول أهل العراق وأهل مصر وبلاد المغرب وكثير من الأقطار فأما أهل خراسان فقد أولع أكثرهم بكتاب محمد بن اسماعيل ومسلم بن الحجاج ومن نحا نحوهما في جمع الصحيح على شرطهما في السبك والانتقاء إلا أن كتاب أبي داود أحسن وضعاً وأكثر فقها وكتاب أبي عيسى كتاب حسن والله يغفر لجماعتهم ويحسن على جميل النية . ومن أقوال العلماء السابقة يتضح فضل الامام أبي داود ومنزلة مصنفه النفيس الذي بلغ درجة عظيمة في صنعة الحديث ذلل بها الصعب ويسر العسير وقرب البعيد .

(١٧) تاريخ الادب العربي ترجمة الدكتور عبد الحلیم النجار ص ١٨٦ .

(١٨) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٢٦٨ ، طبقات الشافعية ج ٢ ص ١٩٥ .

وقد سبق بيان عدد ما في كتاب السنن من الاحاديث وأنها أربعة آلاف وثمانمائة حديث وقد قسم أبو داود كتابه الى كتب والكتب الى أبواب وقد عد بعض العلماء أحاديث السنن فبلغت خمسة آلاف ومائتين وأربعة وسبعين حديثا . وهذا الاختلاف راجع لأمرين الأول : أن بعض النسخ المحققة اختلفت بالزيادة والنقصان والتقديم والتأخير في بعض الاحاديث . الثاني : أن النسخة التي زاد تعداد الاحاديث فيها اعتبر محققها الاحاديث المكررة أحاديث مستقلة وعد جمع المتون حتى ولو كانت بلفظ واحد أو متقارب مادامت الاسانيد مختلفة وعلى ذلك فيمكن التوفيق بين رأى الامام أبي داود في عدد الاحاديث وبين رأى بعض المحققين وذلك بأن أبا داود أراد بما ذكره الاحاديث الاصلية دون المكرر .
ومن أشهر رواة كتاب السنن لأبي داود :

١ - أبو بكر محمد بن بكر بن محمد عبد الرزاق الثمارى المصرى المعروف بابن داسه المتوفى سنة ٣٤٦ هـ وروايته هي أكمل الروايات وهي الرائجة بالمغرب .
٢ - أبو عيسى اسحاق بن موسى بن سعيد الرملى وراق أبى داود وروايته تقارب رواية ابن داسة .

٣ - أبو على محمد بن أحمد بن عمرو اللؤلؤى البصرى وهي من أصح الروايات لأنها من آخر ما أملى أبو داود عليها مات كان ذلك في المحرم سنة ٢٧٥ هـ وهي مشهورة في المشرق .

٤ - أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد بن بشر المعروف بابن الاعرابى المتوفى سنة ٣٤٠ هـ وفيها بعض أبواب ساقطة ونقص كبير . وقد عنى العلماء بكتاب السنن فقام كثير منهم بشرحها واتجهت عناية البعض الى اختصارها وتهذيبها وهذه العناية وان لم تبلغ درجة الصحيحين إلا أنها تدل على جهود مشكورة لعلماء السنة تجاه هذا المصنف الجليل ومن أهم هذه الشروح :

١ - معالم السنن لابي سليمان أحمد - وقيل حمد - بن محمد بن ابراهيم الخطبى المتوفى في سنة ٣٨٨ هـ اهتم فيه بتحقيق الروايات واللغات وتفسير المعانى الغامضة واستنباط الاحكام الفقهية وهو مطبوع بمصر وغيرها .

٢ - شرح الشيخ سراج الدين عمر بن على بن الملقن الشافعى المتوفى سنة ٨٠٤ هـ شرح زوائده على الصحيحين في مجلدين .

- ٣ - شرح الشيخ قطب الدين أبي بكر اليميني السافعي المتوفى سنة ٦٥٢ هـ في أربعة مجلدات كبار .
- ٤ - شرح الشيخ ولي الدين أحمد بن عبد الرحيم العراقي المتوفى سنة ٨٢٦ هـ ولكنه لم يكمله وتوسع في الشرح والتحليل من أوله إلى سجود السهو .
- ٥ - شرح العلامة بدر الدين محمود بن أحمد العيني الخنفي المتوفى سنة ٨٥٥ هـ ولم يكمل .
- ٦ - مرقاة الصعود الى سنن أبي داود شرح الحافظ جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ .
- ٧ - فتح الودود شرح سنن أبي داود لأبي الحسن محمد بن عبد الحميد السندی المتوفى سنة ١١٣٨ هـ .
- ٨ - عون المعبود على سنن أبي داود للشيخ عبد الرحمن شرف الحق ابن محمد أشرف بن أمير بن علي حيدر المتوفى في القرن الرابع عشر الهجري وطبع شرحه في الهند في أربعة أجزاء .
- ٩ - عناية المقصود في حل سنن أبي داود لابن الطيب محمد شمس الحق العظيم أبابى ولد سنة ١٢٧٣ هـ وشرحه شرح جامع وافي .
- ١٠ - المنهل العذب المورد شرح سنن الامام أبي داود للشيخ محمود بن محمد خطاب السبكي عنى فيه بتراجم رجال الحديث وشرح الألفاظ وتوضيح المعاني واستنباط الاحكام الفقهية وذكر من اخرج الحديث وبيان درجة الحديث من الصحة وقد وافاه الاجل في الرابع عشر من ربيع الأول ١٣٥٢ هـ قبل اتمام هذا الشرح . وغير ذلك كثير من الشروح ، ومن قام باختصاره الحافظ عبد العظيم بن عبد القوي المنذرى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ في كتاب سماه المجتبى من سنن أبي داود وكان المنذرى دقيقا في مختصره اذ كان يذكر عقب كل حديث من اتفق مع أبي داود على تخريج الحديث من الائمة الخمسة كما وضع علل بعض الأحاديث وألف السيوطي على هذا المختصر كتابا سماه (زهر الربا على المجتبى) وله عليه حاشية أيضا وهذبه محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الحنبلي المتوفى سنة ٧٥١ هـ وزاد في الكلام عن بعض العلل التي سكت عنها المنذرى أولم يكملها وتصحيح بعض الاحاديث التي لم يضمها وبسط العديد في كثير من الجوانب الهامة^(١٩)
- (١٩) كشف الظنون جـ ٢ ص ١٠٠٥ ، تاريخ الأدب العربي . اعلام المحدثين للدكتور محمد أبو شهبه . الحديث والمحدثون .

رسالة أبي داود في وصف سننه

وأذكر هنا رسالة لامام أبي داود في وصف سننه وهي الرسالة التي كتبها الى أهل مكة وغيرها جواباً لهم ، وقد تضمنت هذه الرسالة منهجه في السنن وشرطه وهذا نصها :

« سلام عليكم فاني احمد اليكم الله الذي لا إله إلا هو وأسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله ﷺ كلما ذكر .

أما بعد ، عافانا الله وإياكم عافية لا مكروه معها ولا عقاب بعدها فانكم سألتم أن أذكر الاحاديث التي في كتاب السنن أهي أصح ما عرفت في الباب ووقفت على جميع ما ذكرتم فاعلموا أنه كذلك كله ، إلا أن يكون قد روى من وجهين صحيحين فأحدهما أقدم اسناداً ، والأخر صاحبه قدم في الحفظ فرمما كتبت ذلك (أى الأقوم في الاسناد لعلو سنده) ولا أرى في كتابي من هذا عشرة أحاديث ولم أكتب في الباب إلا حديثاً أو حديثين وإن كان في الباب أحاديث صحاح لأنه يكثر وإنما أردت قرب منفعتي ، وإذا أعدت الحديث في الباب من وجهين وثلاثة فانما هو من زيادة كلام فيه ، وربما فيه كلمة زيادة على الاحاديث وربما اختصرت الحديث الطويل لأنى لو كتبت بطوله لم يعلم بعض من سمعه ولا يفهم موضع الفقه منه فاختصرته لذلك .

وأما المرسل فقد كان يحتاج به العلماء فيما مضى مثل سفيان الثوري ، ومالك بن أنيس والاوزاعي ، حتى جاء الشافعي فتكلم فيه وتابعه على ذلك أحمد بن حنبل وغيره رضوان الله عليهم ، فاذا لم يكن مسند ضد المرسل ولم يوجد مسند فالمرسل يحتاج به وليس هو مثل المتصل في القوة .

وليس في كتاب السنن الذي صنفته عن رجل متروك الحديث شيء ، وإذا كان فيه حديث منكر بينت أنه منكر ، وليس على نحوه في الباب غيره .

وهذه الأحاديث ليس منها في كتاب بن المبارك ولا كتاب وكيع إلا الشيء اليسير ، وعامته في كتاب هؤلاء مراسيل ، وفي كتاب السنن من موطأ مالك بن أنس شيء صالح ، وكذلك من مصنفات حماد بن سلمة وعبد الرزاق ، وليس ثلث هذه الكتب فيما أحسبه في

كتب جميعهم أعنى مصنفات مالك بن أنس وحماد بن سلمة وعبد الرزاق وقد ألفته نسقا على ما وقع عندي ، فان ذكر لك عن النبي ﷺ سنة ليس مما خرجته فاعلم أنه حديث واه إلا أن يكون في كتابي من طريق آخر فاني لم أخرج الطرق لأنه يكثر على المتعلم .

ولا أعرف أحدا جمع على الاستقصاء غيري ، وكان الحسن بن علي الخلال قد جمع منه قدر تسعمائة حديث ، وذكر أن ابن المبارك قال : السنن عن النبي ﷺ نحو تسعمائة حديث فقيل له : أن أبا يوسف قال : هي ألف ومائة قال ابن المبارك : أبو يوسف يأخذ بتلك الهنات من هنا وهنا نحو الاحاديث الضعيفة وما كان في كتابي من حديث فيه وهن شديد فقد بينته ، وفيه ما لا يصح سنده ، وما لم أذكر فيه شيئا فهو صالح ، وبعضها أصح من بعض . وهذا لو وضعه غيري لقلت أنا فيه أكثر ، وهو كتاب لا يرد عليك سنة عن النبي ﷺ باسناد صالح إلا وهي فيه الا أن يكون كلاما استخرج من الحديث ولا يكاد يكون هذا ، ولا أعلم شيئا بعد القرآن الزم للناس أن يتعلموا من هذا الكتاب . ولا يضر رجلا أن لا يكتب شيئا من العلم بعد ما يكتب هذه الكتب . واذا نظر فيه وتدبره وتفهمه حينئذ يعلم مقداره .

وأما هذه المسائل مسائل الثوري ومالك والشافعي فهذه الاحاديث أصولها ويعجبني أن يكتب الرجل مع هذه الكتب من رأى أصحاب النبي ﷺ ويكتب أيضا مثل جامع سفيان الثوري فانه أحسن ما وضع الناس في الجوامع .

والاحاديث التي وضعتها في كتاب السنن أكثرها مشاهير ، وهي عند كل من كتب شيئا من الحديث إلا أن تميزها لا يقدر عليه كل الناس والفخر بها أنها مشاهير فانه لا يحتج بحديث غريب ولو كان من رواية مالك ويحيى ابن سعيد والثقات من أئمة العلم ، ولو احتج رجل بحديث غريب وجدت من يطعن فيه ولا يحتج بالحديث الذي قد احتج به اذ كان الحديث غريبا شاذا ، فأما الحديث المشهور المتصل الصحيح فليس يقدر أن يرد عليك أحد ، وقال ابراهيم النخعي : كانوا يكرهون الغريب من الحديث . وقال يزيد بن أبي حبيب : اذا سمعت الحديث فانشده كما تنشُد الضالة فان عرف والا فدعه .

وان من الاحاديث في كتابي السنن ما ليس بمتصل وهو مرسل ومدلس وهو إذا لم توجد الصحاح عند عامة أهل الحديث على معنى أنه متصل وهو مثل الحسن عن جابر ، والحسن عن أبي هريرة والحكم عن مقسم عن ابن عباس وليس بمتصل ، وسماع الحكم من مقسم عن ابن عباس وليس بمتصل ، وسماع الحكم من مقسم أربعة أحاديث .

وأما أبو اسحاق عن الحارث عن علي فلم يسمع أبو اسحاق عن الحارث الا أربعة احاديث ليس فيها سند واحد . واما ما كان في كتاب السنن من هذا النحو فقليل ولعله ليس للحارث الا عور في كتاب السنن الا حديث واحد فانما كتبه بأخره وربما كان في الحديث ما ثبت صحة الحديث منه اذا كان يخفى ذلك على فرجا تركت الحديث اذ لم أفقهه ، وربما كتبه وبيته ، وربما لم أقف عليه ، وربما أتوقف عن مثل هذه لأنه ضرر على العامة أن يكشف لهم كل ما كان من هذا لباب فيما مضى من عيوب الحديث لأن علم العامة يقصر عن مثل هذا .

وعدد كتب هذه السنن ثمانية عشر جزءا مع المراسيل منها جزء واحد مراسيل وما روى عن النبي ﷺ من المراسيل منها ما لا يصح ومنها ما هو مسند عن غيره وهو متصل صحيح ولعل عدد الذي في كتبي من الاحاديث قدر أربعة آلاف وثمانمائة ، ونحو ستمائة حديث من المراسيل فمن أحب أن يميز هذه الاحاديث مع الالفاظ فرجا يجيء حديث من طريق وهو عند العامة من طريق الاثمة الذين هم مشهورون غير انه ربما قلب اللفظة التي يكون لها معان كثيرة ومن عرفت نقل في جميع هذه الكتب فرجا يجيء الاسناد فيعلم من حديث غيره أنه غير متصل ، ولا يتبينه السامع الا بان يعلم الاحاديث ويكون له فيه معرفة فيقف عليه مثل ما يروى عن ابن جريج ، قال اخبرت عن الزهري ويرويه البرساني عن ابن جريج عن الزهري فالذي يسمع يظن انه متصل ولا يصح عنه فانما تركناه لذلك ، لان أصل الحديث غير متصل ولا يصح ولم أصنف في كتاب السنن الا الاحكام ولم اصنف كتب الزهد وفضائل الاعمال وغيرها فهذه الارعة آلاف والثمانمائة كلها في الاحكام والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وسلم تسليما وحسبنا الله ونعم الوكيل . أ . هـ . (٢٠) .

(٢٠) رسالة الامام ابي داود السجستاني في وصف تأليفه لكتاب السنن روية ابن الحسين بن ابي عمير عن محمد بن عبد العزيز الهاشمي عنه بتقديم وتعليق الاستاذ محمد زاهد الكوثري طبع مطبعة الانوار بالقاهرة سنة ١٣٦٩ هـ .

منهج أبي داود في كتب السنن

كان منهج أبي داود في كتابه متجها الى تدوين الحديث في جانب من جوانب السنة النبوية وهو الجانب الفقهي فجعل كتابه خاصا بالاحكام والسنن وأبرز فيه هذه الشروة الفقهية العظيمة التي امتاز بها على من عداه فقسم مصنفه الى كتب وقسم الكتب الى أبواب كما سبق بيان ذلك وجمع في هذه الأبواب الاحاديث التي يستدل بها الفقهاء وبينون عليها الاحكام كما سجل التراجم على الاحاديث مما يشهد له بالمعرفة الدقيقة لمذاهب العلماء والاحاطة الكاملة بطرقهم في الاستدلال .

ولم يلتزم أبو داود بتخريج الصحيح فحسب بل خرج الصحيح والحسن لذاته ولغيره وما لم يجمع الاثمة على تركه وأما ما فيه وهن شديد فقد بينه ونبه عليه قال أبو داود « وجمعت فيه الصحيح وما يشبهه ويقاربه وما ذكرت في كتابي حديثا أجمع الناس على تركه . وما كان من حديث فيه وهن شديد فقد بيته وما لم اذكر فيه شيئا فهو صالح » (أ . هـ) .

وما سبق يتبين أنواع ما جمعه من الاحاديث في سنته :

أولا : (الصحيح) ويجوز أن يريد به الصحيح لذاته .

ثانيا : (ما يشبهه) ويمكن أن يريد به الصحيح لغيره فهو الذي يشبه الصحيح لذاته ومرتبته بعده .

ثالثا : (ما يقاربه) ويحتمل أن يريد به الحسن لذاته .

رابعا : (ما كان فيه وهن شديد) .

خامسا : ما لم يذكر فيه شيئا . وهذا النوع يحتمل ان يكون حسنا لغيره إن اعتضد ويحتمل ان يكون فيه وهن غير شديد فهو صالح للاعتبار فقط .

ويقول الامام أحمد المعروف بشاه ولي الله الدهلوي عن كتاب السنن ومنهج أبي داود فيه (وكانت همته جمع الاحاديث التي استدل بها الفقهاء ودارت فيهم وبنى عليها الاحكام علماء الأمصار فصنف سنته وجمع فيها الصحيح والحسن واللين والنصالح للعمل . قال أبو داود : ما ذكرت في كتابي حديثا أجمع الناس على تركه ، وما كان منها ضعيفا صرح بضعفه وما كان فيه علة بينها بوجه يعرفه الخائض في هذا الشأن وترجم على كل حديث بما قد

استنبط منه عالم وذهب اليه ذاهب ولذلك صرح الغزالي وغيره بأن كتابه كاف للمجتهد» (٢١)

وقال أبو عمرو بن الصلاح معلق على طريقة أبي داود في سننه : « فعلى هذا ما وجدناه في كتابه مذكورا مطلقا وليس في واحد من الصحيحين ولا نص على صحته أحد ممن يميز بين الصحيح والحسن عرفنا بانه من الحسن عند أبي داود وحكى أبو عبد الله بن منده الحافظ أنه سمع محمد بن سعد البارودي بمصري يقول : كان من مذهب أبي عبد الرحمن النسائي ان يخرج عن كل من يجمع على تركه أى في سننه الكبرى . قال ابن منده : وكذلك أبو داود السجستاني يأخذ مأخذه ويخرج الاسناد الضعيف اذا لم يجد في الباب غيره ، لأنه أقوى عنده من أى الرجال (٢٢) .

وقال السيوطى : فعلى ما نقل عن أبي داود يحتمل أن يريد بقوله : « صالح » الصالح للاعتبار دون الاحتجاج فيشمل الضعيف أيضا وروى ابن كثير عن أبي داود قال : « وما سكت عنه فهو حسن » (٢٣) فإن صح ذلك فلا اشكال .

وقال الحافظ ابن حجر : « ان قول أبي داود : وما فيه وهن شديد بينته يفهم منه ان ما يكون فيه وهن غير شديد لم بينته ومن هنا يتبين لك ان جميع ما سكت عنه أبو داود لا يكون من الحسن الاصطلاحى بل هو على أقسام :

منها ما هو صحيح أو على شرط الصحة ، ومنها ما هو حسن لذاته ومنها ما هو حسن لغيره وهذان القسمان كثيران في كتابه جدا ، وفيه ما هو ضعيف ولكنه من رواية من لم يجمع على تركه غالبا ، وكل من هذه الأقسام تصلح عنده للاحتجاج بها كما نقل ابن منده عنه (٢٤) .

ونستطيع ان نخلص من هذه الآراء العلمية في منهج أبي داود بالآتى :

أولا : انه يخرج في الباب أصح ما عرفه فيه .

ثانيا : اذا خرج حديثا فيه ضعف شديد فقد اشترط ان ينه على ضعفه أو علته .

(٢١) حجة الله البالغة للدهلوى ج ١ ص ١٢١ .

(٢٢) مقدمة ابن الصلاح ص ١٥ .

(٢٣) تدريب الراوى ص ٩٧ .

(٢٤) المنهل العذب المورود ج ١ ص ١٨ .

ثالثا : أن ما ذكره باطلاق من غير أن ينه عليه او يبينه فهو- في رأيه - صالح ، وقد حمل بعض العلماء كلمة « صالح » على أنه حسن أخذًا من قوله : « وما سكت عنه فهو حسن » ، وحملها البعض على الصلاحية للاعتبار لا للاحتجاج فيشمل الضعيف .

وأرى أن ما أطلقه أبو داود ، ولم يبين درجته ينبغي أن نبحت عن درجته وان نحققه ثم بعد ذلك يتضح الحكم عليه بما يليق به صحة أو حسنا أو ضعفا ، فان مقاييس العلماء تختلف باختلاف وجهة نظرهم في الشروط وفهمهم لها ، فيما يكون من الاحاديث صالحا عند بعضهم للاحتجاج قد يكون في نظر غيرهم ليس صالحا .

وهكذا اتضح لنا أن منهج ابي داود في تدوين الحديث ينم عن معرفة دقيقة لمذاهب العلماء وطرقهم وعن رسوخ قدمه في الصناعة الحديثية ومعرفة العلل واستنباط ما في الحديث من دقائق وأحكام ولئن دون في كتابه بعضا من الاحاديث التي فيها ضعف أو علة فانه إنما دونها لأنها كانت تدور بين العلماء ونبه على ما فيها من ضعف كما إنه وضح ما فيه علة بالوجه الذي يعرفه أهل الشأن في ذلك وأما ما لم يوضحه فهو صالح كما قال وتركه لمعرفة أهل الشأن به والتمييز بينه وبين غيره .

شرطه فى السنن

اشترط الامام أبو داود أن يذكر فى كل باب أصح ما عرفه فى ذلك الباب وقد سبق ما قاله أبو عبد الله بن منده عنه أنه يخرج الضعيف اذا لم يجد فى الباب غيره لأنه أقوى عنده من رأى الرجال . وكما سبق فى رسالة أبي داود أنه اشترط أن يخرج أصح ما عرف فى الباب ثم قال : « الا أن يكون قد روى من وجهين صحيحين فأحدهما أقدم اسنادا والآخر صاحبه قدم فى الحفظ فربما كتبت ذلك ولا أرى فى كتابى من هذا عشرة أحاديث » والاشارة تعود على الاقدم فى الاسناد لعلو سنده وأما قوله « وليس فى كتاب السنن الذى صنفته عن رجل متروك الحديث شىء » واذا كان فيه حديث منكر بينت أنه منكر « فمراده أنه لم يخرج لمتروك الحديث عنده على ما ظهر له أو متروك متفق على تركه فانه قد أخرج لمن هم فى عداد المتروكين عند بعضهم كعمرو بن واقد الدمشقى ومحمد بن عبد الرحمن البيلىمانى واسحاق ابن عبد الله بن أبي فروة وقد رأى ابن ظاهر أن كتاب أبي داود والنسائى ينقسم على ثلاثة أقسام :

القسم الاول : الصحيح المخرج فى الصحيحين : القسم الثانى : صحيح على شرطهما حكى أبو عبد الله بن منده ان شرط أبي داود والنسائى اخراج أحاديث أقوام لم يجمع على تركهم اذا صح الحديث باتصال الاسناد من غير قطع ولا ارسال فيكون هذا القسم من الصحيح الا أنه طريق دون طريق ما أخرج البخارى ومسلم فى صحيحهما .
القسم الثالث : أحاديث اخرجوها من غير قطع منها بصحتها وربما أبانا علتها بما يفهمه أهل المعرفة وانما أودعا هذا القسم فى كتابيهما لأنه رواية قوم لها واحتجاجهم بها فأورداها وبيننا سقمها لتزول الشبهة وذلك اذا لم يجدا اليها طريقا غيره لأنه أقوى عندهما من رأى الرجال (٢٥) .

وقد ضرب الحازمى مثلا لمعرفة طبقت الرواة لاصحاب الزهرى وانهم على خمس طبقات وجعل الطبقة الثالثة جماعة لزموا الزهرى مثل أهل الطبقة الأولى غير أنهم لم يسلموا من غوائل الجرح فهم بين الرد والقبول وهم شرط أبي داود والنسائى نحو سفيان بن حسين السلمى وجعفر بن برقان .

(٢٥) شروط الأئمة الستة ص ١٢ .

مثال للاحاديث التي بها وهن وبينه أبو داود

في الجزء الأول من سنن أبي داود ، وفي كتاب الطهارة ، تحت عنوان (٢٦) : « باب الخاتم يكون فيه ذكر الله يدخل به الخلاء » قال : حدثنا نصر بن علي ، عن أبي علي الخنفي ، عن همام عن ابن جريح عن الزهري عن أنس قال : « كان النبي ﷺ إذا دخل الخلاء وضع خاتمه » قال أبو داود هذا حديث منكر ، وإنما يعرف عن ابن جريح عن زيادة ابن سعد عن الزهري عن أنس أن النبي ﷺ « اتخذ خاتما من ورق ثم ألقاه » والوهم فيه من همام ، ولم يروه الا همام .

فهذا الحديث بينه أبو داود وأصدر فيه حكمه وفاء بشرطه الذي التزمه أن ما كان فيه وهن بينه وقد خرج النسائي هذا الحديث ، وقال عنه : « غير محفوظ » ومام بن يحيى هذا ثقة واحتج به أهل الصحيح ، ولكنه خالف الناس فروى عن ابن جريح هذا المتن بهذا السند ، وإنما روى الناس عن ابن جريح الذي أشار اليه أبو داود ، ولهذا حكم عليه أبو داود بالنكارة .

وأما الترمذي فقال فيه : حديث حسن صحيح غريب وذلك لأن الترمذي أجرى حكمه على ظاهر الاسناد ، وقول أبي داود والنسائي أولى بالصواب .

وقد ورد الحديث من غير رواية همام ، فقد رواه الحاكم في المستدرک والبيهقي في سننه من رواية يحيى بن المتوكل عن ابن جريح ، وصححه الحاكم على شرط الشيخين وضعفه البيهقي ، فقال : هذا شاهد ضعيف ، وكان البيهقي ظن أن يحيى بن المتوكل هو أبو عقيل وهو ضعيف عندهم وليس هو به ، وإنما هو باهل يكنى أبا بكر ذكره ابن حبان في الثقات ، ولا يقدح فيه قول ابن معين ، لا أعرفه ، فقد عرفه غيره وروى عنه نحو من عشرين نفسا الا أنه اشتهر تفرد همام به عن ابن جريح (٢٧) .

(٢٦) سنن أبي داود ج ١ ص ٥ ط مطبعة مصطفى محمد .

(٢٧) فتح المغيب للعراقي ج ١ ص ٩٣ تعليق الأستاذ محمود ربيع .

مثال لما سكت عنه أبو داود

في الجزء الثاني من سنن أبي داود من كتاب الزكاة تحت عنوان (٢٨) : « باب حق السائل » قال : حدثنا محمد بن كثير ، أخبرنا سفيان ، ثنا مصعب بن محمد بن شرحبيل حدثني يعلى بن أبي يحيى ، عن فاطمة بنت حسين ، عن حسين بن علي قال : قال رسول الله ﷺ : « للسائل حق وإن جاء على فرس » وقد أخرج الامام أحمد في مسنده هذا الحديث : عن وكيع وعبد الرحمن بن مهدي كلاهما عن سفيان عن مصعب بن محمد بن يعلى بن أبي يحيى عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها حسين بن علي عن النبي ﷺ ، وهو اسناد جيد ، ويعلى وإن جهله أبو حاتم فقد وثقه أبو حاتم ابن حبان ، وأما مصعب فوثقه يحيى بن معين وغيره . وهذا الحديث سكت عنه أبو داود ، وما سكت عنه فهو صالح ، وقد أخرجه أبو داود أيضا من حديث علي قال : حدثنا محمد بن رافع ثنا يحيى بن آدم ثنا زهير عن شيخ قال : رأيت سفيان عنده عن فاطمة بنت حسين عن أبيها عن علي عن النبي ﷺ ، مثله ، وفي هذا الاسناد ما لم يسمه أبو داود .

درجة أحاديث السنن

بين ولى الله الدهلوى فى كتابه (حجة الله البالغة) درجة احاديث كتاب أبى داود ، فجعل سننه من كتب الطبقة الثانية وهى الكتب التى عرف مصنفوها بالثقة والضبط والعدالة والتبحر فى فنون الحديث ، ولم يتساهلوا فيما اشترطوه على انفسهم فى تدوين أحاديث هذه الكتب فتلقاها المحدثون والفقهاء بالقبول ، وعنوا بها طبقة بعد طبقة ، وعدها من هذه الطبقة الثانية التالية للصحيحين وفى رأيه أنها لم تبلغ مبلغ الصحيحين ولكنها تتلوها^(٢٩) وصرح الدهلوى فى موضع آخر بدرجات الأحاديث المدونة فى سنن أبى داود ، فقال : « جمع فيها الصحيح والحسن واللين والصالح للعمل »^(٣٠) . أ . هـ .

وقد أبرز أبو داود أهمية كتابه ، ودرجته فى السنة : ولا أعلم بعد القرآن شيئاً ألزم للناس أن يتعلموه من هذا الكتاب ، ويكفى الانسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث أحدها : (انما الأعمال بالنيات) الثانى : (من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه) الثالث : (لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يرضى لأخيه ما يرضاه لنفسه) الرابع : (الحلال بين والحرام بين وبين ذلك مشتبهات) . أ . هـ . وقول أبى داود هذا يوضح منزلة الكتاب ، لأنه اذا كان هذا حال أربعة أحاديث فقط فما ظن القارئ بباقى الكتاب ؟ وعلى ما فى قوله من المبالغة ، فان فى هذه الأحاديث الأربعة الكفاية اجمالاً لطلب النجاة والفوز كما وجهها بعض العلماء فالحديث الأول يوضح أن الأعمال ، شرعية لا يعتد بها الا بالنية الخالصة ، والثانى : يوجه المسلم الى ما يتفعله فى الدين وأسببه وتركه . لا مع فيه والثالث : يوضح علاقة المسلم بأخيه والرابع : أصل فى معرفة الحلال والحرام . وقال ابن السبكى فى طبقاته : (وهى - أى سنن أبى داود - من دواوين الاسلام . والفقهاء لا يتحاشون من اطلاق لفظ الصحاح عليها وعلى سنن الترمذى لأسبباً سنن أبى داود)^(٣١) . أ . هـ .

(٢٩) حجة الله البالغة للدهلوى ج ١ ص ١٠٧ .

(٣٠) المرجع السابق ص ١٢١ .

(٣١) كشف الظنون ج ٢ ص ١٠٠٥ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٦٨ .

(٣٢) اعلام المحدثين للدكتور محمد ابو شهبه ص ٢٢٢ .

وقد انتقد الحافظ ابن الجوزى بعض احاديث من سنن أبى داود وعدها من الموضوعات وهى تبلغ^(٣٣) تسعة احاديث وقد أجاب عنها الامام السيوطى ، وحتى لو سلم لابن الجوزى الحكم عليها ، فهى قليلة بالنسبة الى مجموع أحاديث السنن ومن دافع عن كتاب أبى داود ونفى وجود الموضوع فيه الامام الخطابى قال : « كتاب أبى داود جامع لنوعى الصحيح والحسن وأما السقيم فعلى طبقات شرها الموضوع ثم المقلوب ثم المجهول ، وكتاب أبى داود خلا منها برىء من جملة وجهها أ . هـ . وقد ذكر الذهبى أن اعلى ما فى كتاب أبى داود من الثابت ما أخرجه الشيخان وذلك نحو شطر الكتاب ، ثم يليه ما أخرجه الشيخان ورغب عنه الآخر ثم يليه ما رغب عنه وكان اسناده جيدا سالما من علة وشذوذ ثم يليه ما كان صالحا ، وقبله العلماء لمجيئه من وجهين لينين فصاعدا ، ثم يليه ما ضعف اسناده لنقص حفظ راويه فمثل هذا يسكت عنه أبو داود غالبا وقد يسكت عنه بحسب شهرته ونكارته^(٣٤) .

(٣٣) التعقبات على الموضوعات للسيوطى ص ٦٠ .

(٣٤) قواعد التحديث ٢٤٦ القاسمى .

الامام الترمذى

نسبه ونشأته :

هو أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمى الضرير البغوى الترمذى الحافظ ، أحد الأئمة المقتدى بهم فى علم الحديث والسلمى نسبة الى بنى سليم قبيلة من عيلان والبغوى نسبة الى بوغ قرية من قرى ترمذ على فراسخ منها ، وقد ولد مبصرا على أصح الآراء ثم كف بصره فى آخر عمره بعد أن رحل وحفظ وأنقن وصنف (٤٥) وكان جد أبى عيسى مروزيا وانتقل إلى ترمذ فأقام بها وولد بها حفيده أبو عيسى ولم يحدد المؤرخون تاريخ مولده وإنما حصروا سنة ميلاده فى العقد الأول من القرن الثالث .

والذى أرجحه أنه ولد سنة تسع ومائتين ، وذلك لأن معظم المؤرخين متفقون على أنه توفى لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب ليلة الاثنين سنة تسع وسبعين ومائتين بترمذ ، ويرى الذهبى انه كان من ابناء السبعين (٣٦) فدل هذا على أن مولده سنة تسع ومائتين .

وما أن شب الترمذى عن الطوق وبلغ مبلغ الرجال إلا وأخذ يستقى العلم من منابعه فتتلمذ على شيوخ بلده وغيرها وأخذ عن أئمة الحديث وكبار الشيوخ وجمع بين العلم والعمل فكان حافظا ثقة وتقيا ورعا مشهودا له بالامانة والضبط . ونشأ الترمذى محبا للسنة منذ صغره ، وساعده على الوصول الى الدرجة العلمية السامية ورعه وتقواه وقوة حافظته وسيلان ذهنه ، وما يشهد له بذلك ما رواه الحافظ ابن حجر : (عن أحمد بن عبد الله بن ابى داود قال : سمعت ابا عيسى الترمذى يقول : كنت فى طريق مكة وكنت كتبت جزءين من أحاديث شيخ فمر بنا ذلك الشيخ فسألته عنه فقالوا : فلان فرحلت اليه وأنا أظن أن الجزئين معى وإنما حملت معى فى محملى جزءين غيرهما شبههما فلما ظفرت به سألته فأجاب واخذ يقرأ من حفظه ثم لمح فرأى البياض فى يدي فقال : أما يستحى منى ؟ فقصصت عليه القصة وقلت له : انى احفظه كله : فقال : اقرأ فقرأته عليه على الولاة

(٣٥) وفيات الاعيان ج ١ ص ٦١٢ ، تذكرة الحفاظ ، تهذيب التهذيب .

(٣٦) ميزان الاعتدال ج ٢ ص ١١٧ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٦١٢ .

قال : هل استظهرت قبل أن تحيىء الى ؟ قلت : لا . ثم قلت له حدثني بغيره فقرأ على أربعين حديثاً من غرائب حديثه ثم قال : هات فقرأت عليه من أوله الى آخره فقال : ما رأيت مثلك (٣٧) . وفي هذا ما يدل على قوة حفظه وحدة ذكائه حتى كان يضرب به المثل في الحفظ ويقال فيه أنه من أوعية العلم .

حياته العلمية :

حبب الى الامام الترمذى العلم منذ صغره فشغل حياته بطلبه وكان شغوفا به فتعلم على شيوخ بلده ثم أراد أن يجمع العلم من البلاد الأخرى ليضمه الى ما اخذه عن شيوخ بلده فطوف في كثير من البلاد كما هو شأن غيره من الائمة والعلماء رحل في طلب الحديث الى الامصار بعد أن جاوز العشرين من عمره ، فذهب الى خراسان وتعلم على الشيوخ اسحاق بن راهويه ومحمد بن عمر والسواق ، وما لبث أن رحل الى العراق فسمع الحفاظ من شيوخ الحديث ثم رحل الى الحجاز وغير ذلك من البلاد وفي خلال هذه الرحلات العلمية التي قام بها الترمذى كان لا يدع فرصة يمكنه أن يحصل فيها على العلم الا اغتنمها فكان يتلقى عن العلماء ويدون الحديث وينظر كبار الائمة ويناقشهم وخصوصا الامام البخارى الذى كان له أكبر الأثر في حياة الترمذى العلمية ولا سيما في فقه الحديث فقد لازمه مدة طويلة وأخذ منه وتخرج عليه . قال ابن خلكان : (وهو تلميذ ابى عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى وشاركه في بعض شيوخه مثل قتيبة بن سعيد وعلى بن حجر وابنه بشار وغيرهم أ . هـ (٣٨))

وهكذا كان البخارى الشيخ والموجه للترمذى فحصل على يديه من الحديث والفقه ومذاهب العلماء الكثير وكتابه الجامع أكبر شاهد على تمكنه من الحديث والفقه في كل باب وعلى سعة باعه في هذا المجال .

شيوخه وتلاميذه :

أخذ الترمذى عن كثير من الشيوخ وكان لشيخه البخارى اليد الطولى في التأثير ، وقد تفوق وبرزت ملكاته العلمية ومواهبه الفطرية وهو مازال في تلقى العلم والاخذ عن الشيوخ . وما يدل على مكانته العلمية ان الامام البخارى اخذ عنه بعض الاحاديث

(٣٧) تهذيب التهذيب ج ١ ص ٢٨٧ .

(٣٨) وفيات الأعيان ج ١ ص ٦١٢ .

وللترمذى شيوخ كثيرون منهم البخارى ومسلم وأبو داود وقد شاركهم فى بعض شيوخهم وقتيبة بن اسحاق بن موسى ومحمد بن غيلان وسعيد بن عبد الرحمن ومحمد بن بشار وعلى ابن حجر وأحمد بن منيع ومحمد بن المثنى وسليمان بن وكيع وغيرهم .

ومن روى عنهم أبو حامد أحمد بن عبد الله بن داود المروزى ومكحول بن الفضل ومحمد بن محمود بن عنبر وحماد بن ساكر وعبد بن محمد انسقيون والهيثم بن كليب الشاش راوية السمائل وأحمد بن على بن حسناويه ومحمد بن المنذر بن سعيد الهروى وأحمد بن يوسف النسفى وأبو العباس محمد بن محبوب المحبوى راوية كتابه الجامع وغيره .

مؤلفاته : ومن مؤلفاته :

- ١- كتاب الجامع .
- ٢- كتاب العلل فى آخر جامعه .
- ٣- كتاب التاريخ .
- ٤- كتاب السمائل النبوية .
- ٥- كتاب الزهد .
- ٦- كتاب الاسماء والكنى .

وقد ادعى ابن حزم أن الترمذى مجهول ولم يعرفه ولكن هذا قول متسرع ورأى لا أساس له من الصحة وقد سجل ابن حزم بهذا على نفسه عدم الاطلاع ولا يعتذر له بأنه لم يدر بوجود الجامع والعلل التى للترمذى لأنها لم تدخل الأندلس حين ذاك . فان عدم علمه بالجامع والعلل لا يعنى عدم معرفته بالترمذى . وقد ذكره صاحب كتاب المؤلف والمختلف ونبه على قدره فكيف فات ابن حزم الوقوف عليه ولكن الامر كما قال ابن حجر « ان هذا الرجل قد اطلق هذه العبارة فى خلق من المشهورين من الثقات الحفاظ كأبى قاسم البغوى واسماعيل بن محمد الصغار وأبى العباس الاصم وقال ابن كثير (وجهالة ابن حزم لابى عيسى لا تضره حيث قال فى المحلى : (ومن محمد بن عيسى بن سورة) فان جهالته لا تضع من قدره عند أهل العلم بل وضعت منزلة ابن حزم عند الحفاظ .

وكيف يصح فى الاذهان شىء اذا احتاج النهار الى دليل

والآن لنضع ايدينا على أهم ثمرات قلبه وفكره وهو كتابه النفيس (الجامع)

جامع الترمذی

التعريف بالكتاب :

هو أحد الكتب الستة وأشهر المصنفات للامام الترمذی الذي أصبح به اماما في الحديث وقد رتبته على أبواب الفقه وغيرها ، ودون فيه الأحاديث الصحيحة وغيرها مبينا درجة كل حديث في موضوعه كما بين مذاهب الصحابة والتابعين وفقهاء الامصار ، واختصر طرق الحديث ، وألحق به كتابا للعلل سجل فيه كثيرا من الفوائد الهامة ولما ألفه عرضه على علماء الحجاز والعراق وخراسان فوضع موضع القبول ، روى عنه انه قال صنفت هذا الكتاب فعرضته على علماء الحجاز والعراق وخراسان فرضوا به ومن كان في بيته فكأنما في بيته نبي يتكلم^(٣٩) . أ . هـ . وقد جاء هذا الكتاب حافلا بالأحاديث النبوية المشتملة على الاحكام والمواعظ والآداب والتفسير والمناقب وغير ذلك .

وقد عني الترمذی بالتراجم فأورد تراجم عامة تشتمل على احاديث تتضمن مسائل متعددة وأبوابا كثيرة ، لذا نراه يعنون بمثل هذه الترجمة العامة يقول : (ابواب) مثل ابواب الصلاة على رسول الله ﷺ كما أورد تراجم خاصة وهي التراجم الجزئية التي يضعها لمسألة معينة ويعنون لها بقوله (باب) مثل : باب ما جاء ان مفتاح الصلاة الطهور وبعد أن يذكر الترمذی الاحاديث في الترجمة يتبع ذلك بذكر آراء الفقهاء في المسألة وبيان درجة الحديث ، ويتكلم على الرجال والاسانيد وما يتعلق بكل ذلك ، كما يذكر ما للحديث من طرق ، وان كانت هناك احاديث أخرى تناسب الترجمة اشار اليها ولا يكتفى بذلك فحسب وانما يوازن بين ما يورده في الترجمة من الاحاديث ويوضح رأيه في أقوال العلماء .

وقد أطلق الحاكم على كتاب الترمذی (الجامع الصحيح) وأطلق الخطيب عليه وعلى كتاب النسائي اسم (الصحيح) بل ان الحافظ أبا طاهر احمد بن محمد بن إلسفي المتوفى سنة ٤٥٦ هـ كان يطلق على كتب السنن اسم الصحيح ولاشك ان في هذه التسمية تجاوزا وتساهلا لان في السنن الصحيح والحسن والضعيف ، قال السيوطي ومن اطلق عليها أى على السنن الصحيح كقول السلفي في الكتب الخمسة اتفق على صحتها علماء المشرق والمغرب وكإطلاق الحاكم على الترمذی الجامع الصحيح وإطلاق الخطيب عليه وعلى النسائي اسم الصحيح فقد تساهل^(٤٠) . أ . هـ . ويسمى كتاب الترمذی ايضا

(٣٩) كشف الظنون ج ١ ص ٥٥٩ .

(٤٠) تدريب الراوى ص ٩٥ .

(بالجامع الكبير) وهذه التسمية قليلة الاستعمال وسمى (بالسنن) نظرا لاشتماله على احاديث الاحكام مرتبة ترتيبا فقهيا ولكن الكتاب لم يتضمن احاديث الاحكام فقط وانما يشتمل عليها وعلى غيرها ففي هذه التسمية ايضا تساهل وتجاوز . وسمى الكتاب (بالجامع) واشتهر (بجامع الترمذى)^(٤١) وهذا هو الاكثر نظرا لاستيعابه كثيرا من ابواب السنة وفنون الحديث ونظرا لعمل تقييده بقيد الصحة ، لذا كان هذا الاسم اولى بالإطلاق على هذا الكتاب وقد وضع الامام الترمذى موضوع كتابه والباعث له على تأليفه على هذا الوضع فقال وانما حملنا على ما بينا في هذا الكتاب من قول الفقهاء وعلل الحديث لانا سئلنا عن هذا فلم يغفله زمانا ثم فعلناه لما رجونا فيه من منفعة الناس لانا قد وجدنا غير واحد من الائمة تكلفوا من التصنيف ما لم يسبقوا اليه ، منهم : هاشم بن حسان وعبد الله بن عبد العزيز بن جريج وسعيد بن ابي عرويه ومالك بن انس وحماد بن سلمة وعبد الله بن مبارك ويحيى بن زكريا بن ابي زائدة ووكيع بن الجراح وعبد الرحمن بن مهدي وغيرهم من أهل العلم والفضل صنفوا فجعل الله في ذلك منفعة كثيرة فترجولهم بذلك الثواب الجزيل عند الله لما نفع الله المسلمين فيهم القدوة فيما صنفوا « أ . هـ » وقول الترمذى هذا يدل على أمرين : الامر الأول : موضوع كتابه وهو تدوين الاحاديث النبوية واستنباط الاحكام منها وتوضيح اراء الفقهاء واقوالهم وبيان علل الحديث . والامر الثاني : وهو الباعث له على تأليف كتابه على هذا الوضع وهو رغبته في انتفاع المسلمين وحيث انه سئل عن هذا فلم يفعل ثم حفز همته وقوى عزمه لهذا الصنيع ما رغب فيه من نفع الناس وما رآه من سابقه من الائمة الذين صنفوا ما لم يسبقوا اليه وفيهم القدوة له .

ومعلوم ان الامام البخارى والامام مسلما قد تقدما الامام الترمذى وسبقاه في تدوين الحديث فلما جاء بعدهما وضع كتابه وجمع فيه فوائد الصحيحين وازضاف من مجهوده الشخصى ما جعله يتميز عن غيره . وقد أبرز شخصيته العلمية بصورة واضحة فيما قدمه من الصناعة الحديثة وقد نحا منحى الامام مسلم في كتابته مقدمة لصحيحه بين فيها منهجه في الكتاب وتوضيح بعض المسائل الهامة المناسبة له فوضع كتاب (العلل) الا أنه أتى به آخر الكتاب . ويعتبر كتاب العلل ضمن كتاب الجامع كجزء منه وبيان لمنهجه فيه وقد أورد فيه بعض مسائل طرقها مسلم واخرى تفرد بها هو ولهذا البحوث أهمية كبيرة في علم الحديث وقد بين فيها احوال احاديث الكتاب اجمالا وعلوم الرجال والتحمل والاداء ونبه على اختلاف العلماء في جرح بعض الرجال وتعديلهم وتفسير كثير من الاصطلاحات وقد عني كثير من العلماء بكتاب الترمذى فتناولوه بالشرح والاختصار ومن هذه الشروح :

(٤١) الرسالة المستطرفة ص ١١ كشف الظنون ج ١ ص ٥٥٩

١ - شرح الحافظ أبي بكر محمد بن عبد الله الاشبيلي المعروف بابن العربي المالكي المتوفى سنة ٥٤٣ هـ وسماه عارضة الاحوذى في شرح سنن الترمذى تكلم فيه على الرجال والاسانيد وفنون النحو والعقائد والاحكام وتوجيه الاقوال ولاسيما مذهب امامه مالك وهو مطبوع بمصر والهند .

٢ - شرح الحافظ ابي الفتح محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمرى الشافعى المتوفى سنة ٧٣٤ هـ بلغ فيه نحو ثلثى الجامع ثم كمله زين الدين عبد الرحيم بن حسين العراقى المتوفى سنة ٨٠٦ هـ .

٣ - شرح سراج الدين عمر بن رسلان البلقينى المتوفى سنة ٨٠٥ هـ وسماه (العرف الشدى على جامع الترمذى) شرح منه البعض ولم يكمله .

٤ - شرح زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن النقيب الحنبلى وقد احرق شرحه فى الفتنة .

٥ - شرح الحافظ جلال الدين لسيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ وسماه (قوت المغتذى على جامع الترمذى) وضع فى اوله مقدمة لبيان منزلة الجامع واصطلاحاته وهو مطبوع بالهند .

٦ - شرح الحافظ زين الدين عبد الرحمن بن رجب الحنبلى المتوفى سنة ٧٩٥ هـ .

٧ - شرح الشيخ ابي الحسن عبد الهادى السندى المتوفى سنة ١١٣٨ هـ وهو مختصر .

٨ - تحفة الاحوذى بشرح جامع الترمذى لعبد الرحمن المباركفورى ، كما اختصر جامع سليمان بن عبد القوى الطوفى الحنبلى المتوفى سنة ٧١٠ هـ (٤٢) .

ومن روى عن الامام الترمذى كتبه الجامع ستة من العلماء :

- ١ - ابو العباس محمد بن احمد بن محبوب وروايته هى الرواية المعروفة الشهيرة .
- ٢ - أبو سعيد الهيثم بن كليب الشاش ، وروايته روى أبو بكر محمد بن خير بعض أحاديث من الجامع وكتاب العلل وذكر اسناده بذلك الى الترمذى من طريقه .

(٤٢) كشف الظنون ج ١ ص ٢٢٨ ، ٢ - الحديث والمحدثون د . محمد أبو زهوس ٤١٧ ، اعلام المحدثين د . محمد ابو شهبة ص ٢٥١ .

- ٣ - ابو ذر محمد بن ابراهيم .
 ٤ - أبو محمد الحسن بن ابراهيم القطان .
 ٥ - أبو حامد أحمد بن عبد الله التاجر .
 ٦ - أبو الحسن الوازرى . ولم تتصل هذه الروايات كلها الى عصرنا هذا بل اتصلت منها برواية المحبوى للكتاب (٤٣) .

منهج الترمذى فى جامعه

دون الامام الترمذى فى جامعه الحديث الصحيح والحسن والضعيف والعلل ووضع علمه ولم يلتزم تخريج الصحيح وحده وإنما التزم أن يخرج الاحاديث التى عمل بها الفقهاء ، وقد روى عنه قال : جميع ما فى هذا الكتاب هو معمول به وبه اخذ بعض أهل العلم ما خلا حديثين احدهما حديث (انه ﷺ جمع بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء من غير خوف ولا سفر) وثانيهما حديث (فان عاد - أى شارب الخمر - فى الرابعة فأقتلوه) وقد نهج ابو عيسى الترمذى فى تدوين احاديث كتابه منهج المحدثين فى الرواية من الاسناد فوفاه حقه وذكر طرق الحديث وبين اختلاف الرواة واتفاقهم بل وزاد الترمذى من سبقه الاشارة الى أسانيد الحديث وتلخص منهج الترمذى فى أربع طرق :

- ١ - طريقة جمع أسانيد الحديث فى سياق واحد وذلك بأن يذكر الطرق التى روى بها الحديث كلها فى سياق واحد وهذه الطريقة يستعملها عندما تستوى مراتب رواة الحديث وتتفق رواياتهم لفظا ومعنى . وحينما ينتقل من اسناد الى آخر يذكر الحرف (ح) على نحو ما كان يصنع الامام مسلم واذا كان بين الرواة اختلاف ولو يسيرا فى اللفظ فانه يحذف الفاظه ويوضح اختلافاتهم كأن يقول (حدثنا فلان وفلان المعنى واحد) ويقصد بهذه الجملة أنه ذكر لفظ احد الرواة ولكنه لم يعين صاحبه وتارة يعين صاحب اللفظ فيقول (حدثنا فلان وفلان واللفظ لفلان) وتارة أخرى يذكر لفظ كل من الرواة كما كان ينهه أيضا على اختلاف ألفاظ الاداء لدى الرواة فيميز بين قول بعضهم حدثنا وقول غيرهم اخبرنا .
- ٢ - طريقة تعداد الاسانيد وذكر المتن بعد أول اسناد وذلك بأن يروى الترمذى الحديث بسنده ومتمه ثم يذكر بعد ذلك الاسانيد الاخرى ولا يعيد ذكر المتن اختصارا وإنما يكتفى بالاشارة اليه كأن يقول مثله أو نحوه وقد قيل ان هاتين الكلمتين معناهما واحد ولكن الحاكم فرق بينهما فخص (مثله) اذا اتفق الحديثان فى اللفظ (ونحوه) اذا كان بمعناه (٤٤) .

(٤٣) مقدمة تحفة الاحوذى ص ١٧٨ الامام الترمذى للدكتور نور الدين عتر .

(٤٤) تدريب الراوى ص ٢٢٨ .

٣ - أن يفرد كل اسناد مع متنه في الرواية وهذه الطريقة يذكر الترمذى فيها الحديث بالاسانيد المتعددة ثم يذكر بعد كل اسناد المتن الذى روى به وفي هذه الطريقة تقوية لدرجة الحديث بتكرار السند وبما يزيد في أحد المتين عن الآخر حتى تتضح درجة الحديث بزيادة أو اختلاف بين رواته أو بيان لعله فيه .

٤ - اشارة الترمذى الى اسانيد الحديث . وفي هذه الطريقة يخرج الترمذى الحديث بسنده ثم يكتفى بالاشارة الى الاسانيد الاخرى لشهرتها ، بأن يعلق هذه الطرق فيذكر موضع الاستشهاد منها من متابعة أو غير ذلك ، مثل قوله : (حدثنا أحمد بن منيع والحسن ابن الصباح البزار وأحمد بن محمد بن موسى - المعنى واحد قالوا حدثنا اسحاق بن يوسف الأزرق عن سفيان الثورى عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال أتى النبي ﷺ رجل فسأله عن مواقيت الصلاة فذكر الحديث ثم قال (وقد رواه شعبه عن علقمة ابن مرثد أيضا) فذكر متابعة شعبة لسفيان الثورى معلقة وهكذا ولم يذكر الاسناد كله .

وقد يخرج الحديث باسناده ويشير الى وروده من طرق اخرى بقوله (وقد روى من غير وجه نحوه) (٤٥) .

وهذه الطريقة الرابعة تفرد بها الامام الترمذى أما الطرق الثلاثة السابقة فقد شاركه فيها الامام مسلم كما سلك الترمذى في تدوين الاحاديث الدالة على الباب برواية بعضها باسانيدها والاشارة الى بعض احاديث في معنى ماخرجه في الباب فيذكر روايتها عن الصحابة فيقول (وفي الباب عن فلان وفلان) .

شرط الترمذى في جامعه

سبق بيان رأى الحازمى في شروط الأئمة وتوضيح كل طبقة من الطبقات التى قسمها وأن الطبقة الرابعة قوم شاركوا الثالثة في الجرح والتعديل وتفردوا بقله ممارستهم لحديث الزهري لانهم لم يلزموه كثيرا وهم شرط الترمذى (٤٦) ومن المعروف أن أهل هذه الطبقة لم يسلموا من غائلة الجرح لهذا جاءت احاديث جامع الترمذى منها الصحيح والحسن والضعيف والغريب والمعلل الذى يوضح علته فالترمذى إذا خرج احاديث الطبقة الأولى والثانية والثالثة والرابعة ولكنه لم ينزل الى ما دون ذلك فلم يدون في كتابه الواهى

(٤٥) الترمذى والموازاة بين جامعه وبين الصحيحين د. نور الدين عتر ص ٨٧ .

(٤٦) تدريب الراوى ص ٦٨ - شروط الأئمة الخمسة .

ولا الموضوع لانه التزم في كتابه الا يخرج الا الاحاديث التي عمل بها الفقهاء أو احتج بها المحتجون والأئمة لم يحتجوا بالواهي ولا بالموضوع ولئن كان في هذا الشرط متسع لتخريج الصحيح وغيره الا أنه تكلم على كل حديث بما يقتضيه قال أبو عيسى في علل الجامع : جميع ما في الكتاب من الحديث فهو معمول به وقد اخذ به بعض أهل العلم ما خلا حديثين «أ . هـ .» . وفي قول الترمذى السابق لا يفهم أنه لا يخرج كل حديث احتج به محتج صحيحا كان أو غير صحيح انما يفهم هذا لو أنه قال بأنه يحتج بكل حديث احتج به الفقهاء وبين التعبيرين فرق لأنه من الجائز أن يقوم الترمذى فينتقى مما يحتج به الفقهاء بعض الاحاديث التي توافرت فيها الشروط الخاصة عنده . ويقول الحافظ بن رجب في شرح علل الترمذى (اعلم ان الترمذى خرج في كتابه الحديث الصحيح والحديث الحسن وهو ما نزل عن درجة الصحيح وكان فيه بعض ضعف والحديث الغريب والغرائب التي خرجها فيها بعض المناكير ولا سيما في كتاب الفضائل ، ولكنه يبين ذلك غالبا ولا يسكت ولا أعلم أنه خرج عن متهم بالكذب متفق على اتهامه حديثا باسناد منفرد الا أنه يخرج حديثا مرويا من طرق أو مختلفا في اسناده وفي بعض طرقه متهم وعلى هذا الوجه خرج حديث محمد بن سعيد المصلوب ، ومحمد بن السائب الكلبي ، نعم قد يخرج عن هو سىء الحفظ وعمره غلب على حديثه الوهم ويبين ذلك غالبا ولا يسكت عنه وقد شاركه أبو داود في التخريج عن كثير من هذه الطبقة مع السكوت على حديثهم كإسحاق ابن أبي فروه وغيره) (٤٧) .

(٤٧) شروط الأئمة الخمسة ص ٥٤ .

درجة أحاديثه

جعل ولي الله الدهلوى جامع الترمذى فى درجة سنن أبى داود ومجتمى النسائى وعده معها فى الطبقة الثانية وهى كتب لم تبلغ مبلغ الموطأ والصحيحين ولكنها تتلوها^(٤٨) ثم ذكر فى موضع آخر ان الترمذى استحسّن طريقة الشيخين وطريقة أبى داود فنسج فى كتابه على منوال هؤلاء . وزاد بيان مذاهب الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار فجمع كتابا جامعا واختصر طريق الحديث اختصارا لطيفا فذكر واحدا وأوما الى ما عداه . وبين أمر كل حديث من أنه صحيح أو حسن أو ضعيف أو منكر وبين وجه الضعف ليكون الطالب على بصيرة من أمره فيعرف ما يصلح للاعتبار عما دونه وذكر أنه مستفيض أو غريب وذكر مذاهب الصحابة وفقهاء الأمصار وسمى من يحتاج الى تسمية وكفى من يحتاج الى الكنية ولم يدع خفاء لمن هو من رجال العلم^(٤٩) فرأى الدهلوى يتلخص فى وضع كتب السنن الثلاثة للترمذى وأبى داود والنسائى فى رتبة واحدة بعد الصحيحين والموطأ .

وهناك رأى آخر يرى فيه بعض العلماء ان كتاب جامع الترمذى على أربعة أقسام :

- ١ - قسم مقطوع بصحته وهو ما وافق فيه البخارى ومسلم .
 - ٢ - قسم على شرط أبى داود والنسائى .
 - ٣ - قسم أبان علته .
 - ٤ - قسم أبان عنه فقال ما اخرجت فى كتابى هذا الا حديثا عمل به بعض الفقهاء سوى حديث (فان شرب فاقتلوه فى الرابعة)^(٥٠) وحديث (جمع بين الظهر والعصر بالمدينة من غير خوف ولا سفر)^(٥١) .
- ففى هذا القسم الرابع اخرج ما اخذ به بعض الفقهاء وليس فى الموضوع غيره^(٥٢) .

(٤٨) حجة الله البالغة ج ١ ص ١٠٧ .

(٤٩) المرجع السابق ص ١٢١ .

(٥٠) اخرجه الجماعة من حديث أبى هريرة وغيره .

(٥١) اخرجه الشيخان واصحاب السنن من حديث ابن عباس بالفاظ مختلفة .

(٥٢) تذكرة الحفاظ ص ٦٣٤ ، شروط الائمة الستة للمقدسى ص ١٣ ، قواعد التحديث

والرأى الثاني هو الذى أميل اليه وأرجحه وذلك لأن فيه تحديدا لدرجة احاديث جامع الترمذى ببيان كل قسم على حدة ، فولى الله الدهلوى وإن أشار الى هذه الاقسام (بقوله عن الترمذى انه بين أمر كل حديث من أنه صحيح أو حسن أو ضعيف أو منكر) الا أنه وضعه فى درجة واحدة مع كتابى ابى داود والنسائى وهى الطبقة الثانية ، أما الرأى الثاني ففيه بيان درجة كل نوع من هذه الانواع ، فليس كتاب الترمذى كله على شرط أبى داود والنسائى وليست احاديث كلها فى درجتها بل فيه أمثال القسم الأول وهو المقطوع بصحته وعلى أية حال فان شرط الترمذى وهو تدوين كل حديث عمل به الفقهاء شرط واسع وهو الذى حمله أن يخرج هذه الانواع الكثيرة من الاحاديث ولكنه أبرز مجهوده العلمى العظيم بتمييزه الدقيق لكل حديث فبين نوعه ودرجته من الصحة وكشف عما يقدر فى بعض الاحاديث وتكلم عن الاسانيد والرواة وهذه المهمة العالية خصيصة للترمذى .

وللترمذى حديث ثلاثى واحد علا الترمذى فيه حتى صار بينه وبين الرسول عليه الصلاة والسلام ثلاثة رواة قال الترمذى فيه : حدثنا اسماعيل بن موسى قال : حدثنا عمر ابن شاكِر عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يأتى على الناس زمان الصابرون منهم على دينه كالقابض على الجمرة) وكتاب الترمذى أصل فى معرفة الحسن وهو الذى نوه باسمه وأكثر من ذكره فى جامعه (٥٣) .

وكان أكثر المتقدمين يقسم الحديث الى قسمين : صحيح ، وضعيف واما الحسن فمنهم (٥٤) من يدرجه فى الصحيح لاشتراكهما فى الاحتجاج مع بيان أنه دونه فى الاحتجاج به وذكر ابن تيمية انهم كانوا يدرجونه فى الضعيف قال فى منهاج السنة : كان الحديث فى اصطلاح من قبل الترمذى اما الصحيح واما ضعيف والضعيف اما متروك واما ضعيف ليس بمتروك وبين أن الضعيف غير المتروك وهو الحسن وأرى أن الحديث الحسن عرف قبل الترمذى الا انه لم يكن مشهورا بين العلماء ، ووجد فى كلام بعض شيوخ الترمذى والطبقة التى قبله كالامام على بن المدينى والامام البخارى (٥٥) قال الكشميرى ان البخارى وعلى بن المدينى ممن يفرقان بينهما - أى الصحيح والحسن - حتى جاء الترمذى ، وتبع فى ذلك شيخه البخارى فشهروه ونوه بذكره (٥٦) . واذا كان البخارى لم يرد منه ذكر للحديث الحسن فى

(٥٣) مقدمة ابن الصلاح ص ٣٨ .

(٥٤) قواعد التحديث للقاسمى ص ١٠٦ .

(٥٥) تدريب الراوى ص ٩٦ قواعد التحديث ص ١٠٣ .

(٥٦) فيض البارى ج ١ ص ٥٧ .

كاتبه فذلك راجع الى انه التزم ان يخرج الحديث الصحيح لذاته في أصل موضوع الكتاب ، لا أنه لم يفرق بينهما . فالترمذى إذا هو الذى شهر هذا القسم وهو (الحسن) وأكثر منه ، وأظهر هذا التقسيم الثلاثى للحديث (صحيح وحسن وضعيف) ولم يؤلف قبل الترمذى كتاب قسّم أحاديثه هذه القسمة ، حتى ان بعض العلماء نسب هذا التقسيم الى الترمذى كابن تيمية .

بعض اصطلاحات الترمذی :

دارت في كتاب جامع الترمذی بعض اصطلاحات لانواع الحديث يمزج بينها ويجمع بين اثنين منها أو أكثر في الحكم على الحديث فيقول مثلاً : (صحيح غريب) ، (حسن صحيح) ، (حسن غريب) ، (حسن صحيح غريب) .

أما قوله : « حديث صحيح غريب » فهذا يدل على انه ليس فيه اشكال بل هو سهل ، وذلك لأن الحديث الغريب ينقسم الى صحيح وغيره^(٥٧) . والحديث الصحيح لا يشترط فيه تعدد لاسناده فالصحة والغرابه قد يجتمعان وهذا ما يقصده الترمذی بهذا الاصطلاح .

وأما قوله : « حديث حسن غريب » لا نعرفه الا من هذا الوجه فقد استشكله البعض لأن الترمذی فسر الحسن بتعدد الاسناد ، والغرابه فيها تفرد الاسناد فينبغي تناقض ، والجواب ما قاله بعض العلماء . وهو ان الترمذی استعمل الحسن لذاته في المواضع التي يقول فيها (حسن غريب) ونحو ذلك فاشترط التعدد حين يطلق « الحسن » دون تقييد بوصف أما حين يقيد بالغرابه فيعلم أن التعدد غير ملاحظ فيه .

وأما ما يقول فيه : (حسن) فقط فقد اقتصر على تعريفه لغموضه ، أو لأنه اصطلاح جديد ، ولذا قيده بقوله : (عندنا) ولم ينسبه الى اهل الحديث ، قال : وما قلنا في كتابنا : حديث حسن فانما أردنا حسن اسناده عندنا ، اذ كل حديث يروى لا يكون راويه متبهاً بكذب ويروى من غير وجه نحو ذلك ، ولا يكون شاذاً ، فهو عندنا : (حديث حسن)^(٥٨) و أ . ه . .

وأما قوله : (حسن صحيح) فهذا مما استشكل ، لأن الحسن قاصر عن الصحيح فكيف يجتمع اثبات القصور ونفيه في حديث ؟ فمعناه كما يرى ابن الصلاح - أنه روى بإسنادين : أحدهما يقتضى الصحة والآخر يقتضى الحسن ان يقال فيه ذلك أى

(٥٧) تدريب الراوى ص ٣٧٦ .

(٥٨) قواعد التحديث للقياسى .

حسين باعتبار اسناد صحيح باعتبار اخر ولكن هذه الاجابة لا تطرد في جميع الاحاديث إذ أن بعض الاحاديث يقول فيها بعد ذلك لا نعرفه الا من هذا الوجه .

وهناك جواب ثان وهو أن المراد بالحسن اللغوي دون الاصطلاحى فهو حسن باعتبار المتن صحيح باعتبار الاسناد ، ولكن يعترض على هذا الجواب ، بما قاله الترمذى : وما قلنا في كتابنا حديث حسن فانما أردنا به حسن اسناده عندنا . فهذا القول ينفى أن المراد بالحسن الحسن اللغوي ، كما يرد هذا الجواب أيضا : ما يلزم عليه من جواز اطلاقه على الحديث الموضوع اذا كان حسن اللفظ ، وهذا مردود من الجميع لم يقل به أحد .

والجواب الثالث : ما قاله ابن دقيق العيد وهو أن الحسن لا يشترط فيه القصور عن الصحة الا حيث انفرد الحسن اما اذا ارتفع الى درجة الصحة فالحسن حاصل لا محالة تبعا للصحة لأن وجود الدرجة العليا وهى : الحفظ والاتقان لا ينافى وجود الدرجة الدنيا كالصدق ، فيصح ان يقال حسن باعتبار الصفة الدنيا صحيح باعتبار العليا ، ويلزم على هذا أن كل صحيح حسن^(٥٩) .

وقد أورد ابن سيد الناس اعتراضا على هذا الجواب فى قوله : (قد بقى عليه انه شترط فى الحسن أن يروى نحوه من وجه آخر ، ولم يشترط ذلك فى الصحيح فانضى أن يكون كل صحيح حسنا)

وقد أجاب « العراقى » على اعتراض ابن سيد الناس بأن الترمذى انما يشترط فى الحسن مجيئه من وجه آخر اذا لم يبلغ رتبة الصحيح فان بلغها لم يشترط ذلك بدليل قوله فى مواضع هذا حديث حسن غريب ، فلما ارتفع الى درجة الصحة أثبت له الغرابة باعتبار فرديته^(٦٠) . هـ .

وأرى أن الاعتراض على جواب ابن دقيق العيد مازال قائما لأن الصحيح والحسن مختلفان ، والمتبع لكلام الترمذى وعباراته يرى أنه فرق بينهما فأحيانا يجمع الوصفين فى عبارة واحدة (حسن صحيح) وأحيانا أخرى يفرد كل واحدة على حدة فعلم من ذلك أنها مختلفان وليس الحسن عاما .

(٥٩) تدريب الراوى ص ٩٤ .

(٦٠) فتح المغيث لشرح ألفية الحديث للعراقى ج ١ ص ٥٣ .

والجواب الرابع : أن الجمع بين الصحة والحسن درجة متوسطة بين الصحيح والحسن ، قال ابن كثير (فما نقول فيه حسن صحيح أعلى رتبة من الحسن ودون الصحيح) وقد رد على هذا بأنه تحكم لا دليل عليه وهو بعيد .

الجواب الخامس : أن الحديث ان كان له سندان فمعنى ذلك انه روى بسند صحيح وآخر حسن ، والمعنى (حسن وصحيح) فيكون أقوى مما قيل فيه صحيح فقط لأنه ليس له الا سند واحد وان كان له سند واحد فمعنى هذا أن العلماء اختلف رأيهم في الرواة أو ترددا في الحكم بين الصحة والحسن . ويكون المعنى حسن أو صحيح وعلى ذلك فما قيل فيه حسن صحيح دون ما قيل فيه صحيح لأن الجزم أقوى من التردد^(٦١) وهذا ما ذهب اليه الحافظ ابن حجر .

وهذا الرأي هو ما أرجحه ، لأنه يتمشى مع تفسير الترمذى للحسن بتعدد الاسناد فكلمة (صحيح) بعد كلمة (حسن) افادت ارتفاع الحديث الى الصحة ، اما اذا لم يكن له الا سند واحد ففيه احتياط في الحكم عليه أهو حسن أم صحيح . ولهذا كانت رتبته دون رتبة المتعدد الاسناد .

هذا وقد انتقد بعض الحفاظ على الترمذى بعض احاديث موجودة في جامعه ، وحكموا عليها بالوضع كابن الجوزى ، وابن تيمية ، والذهبي ، فابن الجوزى انتقد على الترمذى بعض الاحاديث ونازعه فيها السيوطى في كتابه (التعقبات على الموضوعات) والحق أن اغلبها في الفضائل ومعظمها لا يسلم الحكم عليه بالوضع وعلى اية حال فإنها قليلة لا تنقص من درجة هذا الكتاب العظيم .

(٦١) تدريب الراوى ص ٩٤ .

نقد حديث الكمأة من المن .. والرد على ذلك :

وقد ورد نقد من الكتاب المحدثين يطعن في هذا الحديث الذي رواه الامام (الترمذى) في جامعه يقول أحد أمين عن رجال الحديث : « لم يتوسعوا كثيرا في النقد الداخلى فلم يعرضوا لمتن الحديث هل ينطبق على الواقع أم لا ؟ مثال ذلك ما رواه الترمذى عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (الكمأة من المن ، وماؤها شفاء للعين والعجوة من الجنة وهى شفاء من السم) ، فهل أتجهوا في نقد الحديث الى امتحان الكمأة ؟ وهل فيها مادة تشفى العين ؟ أو العجوة وهل فيها ترياق ؟ نعم انهم رَوَوْا أن ابا هريرة قال : (اخذت ثلاث اكمؤ أو خمسا أو سبعا فعصرتن في قارورة وكحلت به جارية لى عمشاء ببرأت) ولكن هذا لا يكفى لصحة الحكم فتجربة جزئية نفع فيها شيء مرة لا تكفى لاثبات الشيء في ثبت الأدوية انما الطريقة ان تجرب مرارا (٦٢) أهـ .

الاجابة على ذلك :

ان هذا الحديث رواه الترمذى عن ابي هريرة ، ورواه احمد في مسنده عن سعيد بن يزيد ، وهو حديث ثابت في الصحيحين ، وليس في سنده جرح ولا ضعف وانما سنده صحيح قوى هذا من ناحية « السند » اما ما يتعلق (بالمتن) فان ابا هريرة قام بتجربة هذه الخاصية نقي في الكمأة فوجدها سليمة ، كما جربها غيره من بعده والامام النووي روى ان بعض علماء زمانه قد أصيب بذهاب بصره لما اكتمل بماء الكمأة شفى ، بل ان الله كما اعترف بصحة الحديث كثير من اطباء المسلمين الذين قاموا ببحثه وتجربته ، وأثبتت بدعوتهم اثر الكمأة في تقوية البصر وزيادة البصر ، ومع ذلك كما فقد تصدى الماسخ في هذا الحديث بعض أهل الزيغ وطلبوا التبرير ، اذ ارا وقد جردت مرارا ، ومع هذا لم يقتنعوا أو لم يصدقوا وذلك لأنهم طلبوا أمور الدين بالشاهدة وارادوا أن يأخذوها بالطريقة المألوفة طريقة الحس والمشاهدة الخاضعة للخطأ والسراب ، ومع أنها قد أصابت بالنسبة للحديث وأثبتت صحته الا أنهم في ضلالهم يعمهون ولو أنهم طلبوا صحة الحديث من يقين

(٦٢) ضحى الاسلام : احمد أمين ج ٢ ص ١٣٠ ، ١٣١ .

القلب ، والتصديق بصاحب السنة أولا فلاشك أنهم كانوا يحسون بالايمان قد وقر في القلب ، وبالتصديق بصحيح سنته التي جاء بها وحيا يوحى .

وقد جاء في سبب ورود هذا الحديث : ان جابر بن عبد الله رضى الله قال : كثرت الكمأة على عهد رسول الله فقال بعض الصحابة « ان الكمأة من جذرى الأرض » فامتنعوا من أكلها فبلغ ذلك النبي ﷺ فخرج فصعد المنبر فقال : الا ما بال أقوام يزعمون ان الكمأة من جذرى الأرض الا انها ليست من جذرى الأرض الا أن الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين الا وأن العجوة من الجنة وهو شفاء من السم (٦٣) .

« والكمأة » نبات لا ورق لها ولا ساق ، توجد في الأرض من غير أن تزرع ، قيل سميت بذلك لاستئثارها ، يقال كما الشهادة إذا كتبتها ، ومادة الكمأة من جوهر أرضى بخارى يحتقن نحو سطح الأرض ببرد الشتاء وينميه مطر الربيع فيتولد ويندفع (٦٤) .

وقد ورد في المراد « بالمن » ثلاثة آراء :

الأول : انها من المن الذى انزل على بنى اسرائيل وهو الطل الذى يسقط على الشجر فيجمع ويؤكل ومنه الترنجيين ، فكانه شبه به الكمأة بجامع ما بينهما من وجود كل منها عفوا بغير علاج .

الثانى : انها من المن الذى من الله به على عباده عفوا بغير علاج ، وقال هذا الراى أبو عبيد وجماعة .

الثالث : قال الخطايب : ليس المراد انها نوع من المن الذى انزل على بنى اسرائيل فان الذى انزل على بنى اسرائيل كان كالترنجيين الذى يسقط على الشجر ، وانما المعنى ان الكمأة شىء ينبت من غير تكلف يبذر ولا سقى فهو من قبيل المن الذى كان ينزل على بنى اسرائيل فيقع على الشجر فيتناولونه ، ثم اشار الى أنه يحتمل أن يكون الذى أنزل على بنى اسرائيل كان أنواعا منها ما يسقط على الشجر ومنها ما يخرج من الأرض فتكون الكمأة منه .

(٦٣) أسباب ورود الحديث جـ ١ ص ٣١٢ لابن حمزة الحسينى وأخرج الحديث الطحاوى فى مشكل الآثار عن جابر بن عبد الله ورواه البخارى جـ ١ ص ١٢٦ من فتح البارى باب المن شفاء للعين .

(٦٤) فتح البارى جـ ١ ص ١٢٦ .

والتوفيق بين الآراء السابقة : أرى أن الكمأة مما امتن الله تعالى به على العباد عفوا دون معالجة وإذا نظرنا الى الرأى الأول نرى أن المراد تشبيه الكمأة بالمن وإذا نظرنا الى الرأى الثانى نرى انها مما امتن الله به على العباد وإذا نظرنا الى الرأى الثالث وجدنا ان المراد انها من قبيل (المن) وليس المراد انها نوع منه ، فكأن الآراء الثلاثة تتفق فى أن « الكمأة » ليست هى عين « المن » .

فمن لاحظ فى معنى المن أنه الذى انزل على بنى اسرائيل كالرأى الاول والثالث اراد : ان الكمأة تشبهه أو تكون من قبيله فيتفقان مع الرأى الثانى فى أنها غيره والرأى الثانى الذى لاحظ فى معنى المن أنه الذى امتن الله به يتفق مع الرأيين فى خروج الكمأة عفوا بغير علاج .

وذكر ابن القيم ان فضلاء الأطباء اعترفوا بأن ماء الكمأة يجلو العين كابن سينا وغيره وقال ابن حجر : « واستعمال كل ما وردت به السنة بصدق يتفجع به من يستعمله ويدفع الله عنه الضرر بنيتة » (٦٥) .

(٦٥) المرجع السابق ص ١٢٨ .

الامام النسائي

نسبه ونشأته :

هو^(٦٦) أبو عبد الرحمن أحمد بن علي بن شعيب بن علي بن بحر النسائي الحافظ ، صاحب السنن الصغرى والكبرى .

ولد بنساء - من بلاد خرسان - سنة خمس عشرة ومائتين ، وقيل اربع عشرة ومائتين ونشأ محبا للعلم ، فطوف بكثير من الاقطار الاسلامية . ورحل الى قتيبة وهو ابن خمس عشرة سنة ، وقال : أقمت عنده سنة وشهرين ، واستطاع بجهوده المخلصة للعلم وبما منحه الله تعالى من مواهب فطرية أن يحتل مكانة سامية في الحفظ والاتقان والدقة العالية ، والتحرى الشديد حتى قال فيه ابو علي الحافظ النيسابورى : للنسائي شرط في الرجال أشد من شرط مسلم .

وجمع النسائي بين العلم والعمل ، فكان يجتهد في العبادة ليلا ونهارا ويكثر من العبادة حتى قيل : انه كان يصوم يوما ويفطر يوما ، كما كان مواظبا على الحج والجهاد شجاعا متمرسا على اساليب الحرب ، خرج مع أمير مصر غازيا ، فوصفوا من شهامته وشجاعته وإقامته السنن المأثورة في فداء المسلمين واحترازه من مجالس الامير الذي معه الشيء الكثير الذي يشهد بمكانته وعظمته .

حياته العلميہ :

كان النسائي محبا للعلم والعلماء شغوفًا بالمعرفة والتحصيل ، وما ان بلغ الخامسة عشرة الا ورحل الى العلماء في بلاد كثيرة ، فرحل^(٦٧) الى قتيبة بن سعيد البلخي ، ومكث عنده سنة وشهرين ، وأخذ عنه الحديث وشارك في السماع منه أئمة الحديث البخارى

(٦٦) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٥ كشف الظنون جـ ٢ ص ١٠٦ .

(٦٧) الحديث والمحدثون ص ٣٥٨

ومسلم وأبي داود ورحل الى الحجاز والعراق والشام ومصر والجزيرة ، وضم ما سمعه من علماء بلده الى ما سمعه من علماء هذه الامصار ، فجمع ثروة علمية هائلة وبرع في الحديث حتى قيل أنه أحفظ من مسلم بن الحجاج . وقدم مصر ، وطاب له المقام بها فأقام طويلا ، وظل يمارس نشاطه العلمى بها ، وأخذ عنه الناس ثم خرج من مصر قبيل وفاته سنة ٣٠٢ ، وتوجه الى دمشق .

شيوخه وتلاميذه :

ومن شيوخه الذين تلقى عنهم ونهل من مواردهم : قتيبة بن سعيد واسحق بن ابراهيم بن راهويه ، وهيد بن مسعدة ، وعلى بن خشرم ، ومحمد بن عبد الاعلى والحارث ابن مسكين ، وهناد بن السرى ، ومحمد بن بشار ، ومحمود بن غيلان ، وأبو داود السجستانى والترمذى صاحب الجامع ، وهشام بن عمار ، ومحمد بن النظر المروزى وأبو كريب ، وسويد بن نصر .

ومن تلاميذه :

الذين أخذوا عنه الحديث ، وتلقوا عنه : ابو بشر الدولابى وأبو القاسم الطبرانى صاحب المعاجم الثلاثة ، وأبو جعفر الطحاوى ، ومحمد بن هارون ابن شعيب وأبو ايمنون بن راشد ، وابراهيم بن محمد صالح بن سنان وأبو على الحسين بن محمد النيسابورى وحزه الكنانى ، وأبو بكر أحمد ابن اسحاق السنى الحافظ ، وهو رواية السنن وغيرهم (٦٨) .

وكان الامام النسائى الى جانب مكانته لعلمية في السنة وعلومها فقيها ، ظاهر الاجتهاد . ومما يدل على خبرته وعمقه في هذا الجانب انتقاؤه للتراجم ومختاراته من الاحاديث حتى قال فيه الدارقطنى : (كان أفقه مشايخ عصره في مصر . واعلمهم بالحديث والرجال) وقال الحاكم ابو عبد الله : « أما كلام أبي عبد الرحمن على فقه الحديث فأكثر من أن نذكر ، ومن نظر في كتابه (السنن) تحمير في حسن كلامه »

(٦٨) تذكرة الحفاظ ج٢ ص ٢٤١ .

- ١ - السنن الكبرى .
- ٢ - السنن الصغرى المسماة « المجتبى » .
- ٣ - الخصائص .
- ٤ - فضائل الصحابة .
- ٥ - المناسك .

واهتم النسائي بالتشيع ، وربما كان أساس هذا الاتهام انه ألف كتاب الخصائص في فضل على وآل البيت .

وأرى أن النسائي براء من هذه التهمة أما الباعث له على تأليف كتاب الخصائص فهو ما ذكره في اجابته على بعض السائلين ، فقد قيل له : كيف تركت تصنيف فضائل الشيخين ؟ فقال : « دخلت الى دمشق . والمنحرف عن على رضى الله عنه كثير فصنفت كتاب الخصائص رجاء أن يهديهم الله تعالى » ثم صنف بعد ذلك فضائل الصحابة رضى الله عنهم (٦٩) .

وقال محمد بن اسحاق الاصبهاني : سمعت مشايخنا بمصر يقولون : ان ابا عبد الرحمن فاروق مصر في آخر عصره ، وخرج الى دمشق ، فسئل عن معاوية وما روى من فضائله فقال : اما يرضى معاوية أن يخرج رأسا برأس حتى يفضل ؟ وفي رواية اخرى : ما أعرف له فضيلة ، ولعلمهم كانوا يرغبون ان يؤلف في فضائل معاوية ، فلما كان جوابه هكذا كان ذلك سببا فيما لاقاه من محنة ، وقال الحافظ ابو الحسن الدارقطنى : لما امتحن النسائي بدمشق قال : احملوني الى مكة ، فحمل اليها ، فتوفى بها .

وقد شهد للنسائي كثير من العلماء بالثقة والحفظ وعرفوا له مكانته العلمية قال الدارقطنى : « كان أبو بكر بن الحداد الفقيه كثير الحديث ، ولم يحدث عن أحد غير ابي عبد الرحمن النسائي فقط ، قال : رضيت به حجة بيني وبين الله تعالى (٧٠) .

وقال ابن خلكان : توفى يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من صفر سنة ثلاث وثلاثمائة بمكة حرسها الله تعالى .

(٦٩) طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي ج ٣ ص ١٥ .

(٧٠) تهذيب التهذيب لابن حجر ج ١ ص ٣٨ .

وقيل : توفي بالرملة من أرض فلسطين .

- والراجح انه توفي بالرملة - بلدة بفلسطين ، وصوب الذهبي هذا الرأي ، وجزم به

ابن يونس وعمن قال بوفاته بفلسطين : أبو جعفر الطحاوي وأبو بكر بن نقطة رحمهم
الله (٧١) .

وبعد هذه الجولة الطيبة في حياة هذا الامام الجليل نرى أنها قد ألفت أضواء مشرقة

على أهم مناحي العظمة في حياته العلمية ، والآن نتناول جانبا من جوانب تراثه الخالد الا
وهو كتابه « المجتبى » .

(٧١) وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٥ ، البداية والنهاية ج ١١ ص ١٢٤ .

المجتبى للنسائي

التعريف بالكتاب :

صنف النسائي رحمه الله في السنن كتابين : احدهما السنن الكبرى والثاني : السنن الصغرى ، وكتاب السنن الكبرى يشتمل على الصحيح والمعلول ثم اختصره في كتاب السنن الصغرى ، وسماه « المجتبى » وهذا هو الاسم المشهور به وقيل : المجتبى ، والمعنى قريب ، وهو صحيح عند النسائي ، وروى محمد بن معاوية الاحمر عن النسائي انه قال : كتاب السنن كله صحيح وبعضه معلول الا انه لم يبين علته والمنتخب المسمى « بالمجتبى » صحيح كله ولعله أراد بكلمة « كله صحيح » صحته من ناحية المتن ، ولكن بعض اسانيده معلول ، لانه لا يلزم من صحة المتن صحة السند . أو لعله اراد ان معظمها أو أكثرها صحيح ، ويكون في كلامه نوع من التساهل في العبارة وهذا قول على حسب اجتهاده وغالب ظنه وقد جاء في سبب تصنيفه لكتابه المجتبى انه لما صنف السنن الكبرى اهداها الى أمير الرملة فقال له : أكل ما فيها صحيح ؟ فقال لا قال : فجرد الصحيح منه ، فصنف له المجتبى ، وترك كل حديث أورده في الكبير مما تكلم في اسناده بالتعليل . واذا اطلق أهل الحديث على النسائي انه روى حديثا فانما يريدون روايته في السنن الصغرى المسماة بالمجتبى^(٧٢) الا ما كان من صنيع بعض المؤلفين في الحديث كما نبه على ذلك صاحب عون المعبود في شرح سنن أبي داود حيث قال في آخر كتابه : « واعلم ان قول المنذرى في مختصره وقول المزى في الاطراف : (الحديث اخرجه النسائي ، فالمراد به السنن الكبرى للنسائي وليس المراد به السنن الصغرى الذى هو مروج الان في اقطار الأرض) ثم قال : فالحديث الذى قال فيه المنذرى والمزى : اخرجه النسائي وما وجدته في السنن الصغرى فاعلم انه في الكبرى ، ولا تتحير لعدم وجدانه ، فان كل حديث في الصغرى موجود في الكبرى ولا عكس . ويقول المزى في كثير من المواضع اخرجه النسائي في التفسير وليس في السنن الصغرى تفسير والسنن الكبرى من رواية ابن حيويه ، وابن الاحمر وابن

(٧٢) تدريب الراوى ص ٤٩ كشف الظنون جـ ٢ ص ١٠٠٦ الحديث والمحدثون ص ٤١٠ .

القاسم والسنن الصغرى مشهورة من رواية ابن السنن ، وهو رواية السنن المتوفى سنة ٣٦٤ هـ .

وأهم شروح كتاب السنن هي :

١ - شرح الحافظ جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ ، وهو شرح موجز سماه (زهر الربا على المجتبى) وعنى فيه بضبط أسماء الرواة وشرح الألفاظ وذكر كثير من الاحكام والآداب ، وكان كثيرا ما ينقل عن سبقه من العلماء كابن حجر .

٢ - شرح العلامة أبى الحسن محمد بن عبد الهادى الحنفى المشهور بالسندى نزيل المدينة المنورة المتوفى سنة ١١٣٨ هـ ، اهتم فيه بضبط اللغة وشرح الغريب والإعراب وهذا أوفى من شرح السيوطى ، وقد طبع هذا الشرح فى الهند ومصر .

٣ - شرح الشيخ العلامة سراج الدين عمر بن على بن الملتن الشافعى المتوفى سنة ٨٠٤ هـ وهو شرح على زوائده على الصحيحين وأبى داود والترمذى ويقع فى مجلد .

منهج النسائي في كتابه

نهج الامام النسائي في كتابه السنن نهجا دقيقا ، فرتبه على الأبواب الفقهية والتزم الدقة والتحري في ندد الرجال والتشدد في قبول الرويات حتى قيل : انه كان أحفظ من مسلم بن الحجاج بل قال حافظ خراسان أبو على النيسابوري : حدثنا الامام في الحديث بلا مدافعة أبو عبد الرحمن النسائي وكان يقول : للنسائي شرط في الرجال أشد من شرط مسلم بن الحجاج وقال ابن طاهر : سألت سعد بن علي الترنجاني عن رجل فوثقه ، فقلت : قد ضعفه النسائي ، فقال : يابني أن لابي عبد الرحمن شرطا في الرجال أشد من شرط البخاري ومسلم . وأرى أن في هذا الكلام مبالغة ومغالاة حيث أن لكل من صحيح البخاري وصحيح مسلم شروطا أعلى من شروط غيرهما وبالتحقيق لا يسلم مثل هذا القول ، ولكنه على ما فيه من المبالغة يدل على شدة تحري النسائي ودقته وعلمه بعلم الحديث ، وقد كان هذا المنهج الذي التزم فيه التحري الشديد ، والدقة البالغة داعيا له ان يترك أحاديث ابن لهيعة ، قال أحمد بن نصر الحافظ : « من يصبر على ما يصبر عليه النسائي ؟ كان عنده حديث ابن لهيعة ترجمة فما حدث عنه بشيء » وقال ابن حجر : وكان عنده عاليا عن قتيبة عنه - يعني ابن لهيعة - ولم يحدث به لا في السنن ولا في غيرها ولم يحدث النسائي بحديث ابن لهيعة وكان من كبار الحفاظ الا أنه اختلط في آخر عمره .

كما كان أيضا شديد التحري في الالفاظ فلا يتساهل في وضع كلمة مكان أخرى فلا يضع « حدثنا » مكان « أخبرنا » ولا العكس ، وفي طريقة روايته عن الحارث بن مسكين ما يدل على شدة حيطته وررعه فقد كان بينه وبين الحارث هذا شيء لم يمكنه من حضور مجلسه ، وكان الحارث يتولى القضاء بمصر ، فكان يستتر في موضوع ويسمع حيث لا يراه ولم يقل في روايته عنه « حدثنا » و« أخبرنا » وإنما قال الحارث بن مسكين قراءة عليه وأنا أسمع (٧٣) وقد جمع النسائي في سنته كل ما يتعلق بالحياة الدينية من أحاديث على وجه التفصيل والاستقصاء حتى لقد ذكر جميع الأدعية التي تقال في الركعات والسجودات وما بين ذلك ، كما روى أحاديث كثيرة لما يقال في الاستعاذات ونحوها وأورد في أبواب التشريع صيغا ونصوصا مما يجري في جميع أنواع المعاملات وما شاكل ذلك (٧٤) .

(٧٣) اعلام المحدثين ص ٢٦٤ .

(٧٤) تاريخ الادب العربي : بركلمان ترجمة الدكتور عبد الحلیم النجار ج ٣ ص ١٩٦ ط دار المعارف .

شرط الامام النسائي في كتابه

تشدد الامام النسائي في نقد الرجال ، وعرف بشدة التحرى والدقة حتى قيل كما سبق : أن له شرطا في الرجال أشد من شرط مسلم والبخارى .

وذكر ابن الصلاح في مقدمته عن ابن منده أنه سمع محمد بن سعد البارودي يقول : كان من مذهب ابن عبد الرحمن النسائي أن يخرج عن كل من لم يجمع على تركه ، ثم قال : فمراده والله أعلم - صنيعة في السنن الكبرى .

ويرجع اختلاف العلماء في بيان الشروط الى اختلاف انظارهم في الجرح والتعديل ، والاختلاف في شروط التضعيف قوة ولينا .

والقائلون بأن له شرطا في الرجال أشد من شروط صاحبي الصحيحين ، انما مرجع قولهم هذا الى المبالغة في تحرى النسائي فقط ، وليس قولاً مسلماً به ، بل وليس بالصحيح الذى يثبت امام النقد والتحقيق فاننا اذا نظرنا الى بعض رجاله ، وجدنا أن فيه رجالاً مجهولين إما عينا أو حالا وفيهم المجروح وفيه أحاديث ضعيفة ، قال العلامة ابن كثير « وقول الحافظ ابى على بن السكن وكذا الخطيب البغدادي في كتاب السنن للنسائي انه صحيح ، فيه نظر وأن له شرطا في الرجال أشد من شرط مسلم غير مسلم فان فيه رجالاً مجهولين إما عينا أو حالا وفيهم المجروح وفيه أحاديث ضعيفة ومعللة ومنكرة (٧٥) فشرطه اذا ليس أعلى من شرط البخارى ومسلم ، وانما كان شديد التحرى والدقة . وقال أحمد بن محبوب الرملى : سمعت أبا عبد الرحمن بن شعيب النسائي يقول : لما عزمت على جمع كتاب السنن استخرت الله تعالى في الرواية عن شيوخ كان في القلب منهم بعض الشيء فوقعت الخيرة على تركهم فنزلت في جملة من الحديث كنت أعلو فيه عنهم .

هذا وقد سبق الكلام في شرط البخارى عن الحافظ أبى بكر الحازمى : أن الطبقة الأولى هم شرط البخارى وأن مسلماً يخرج أحاديث الطبقتين الأولى والثانية والثالثة ما يعتمد منه من غير استيعاب .

وأن أبا داود والنسائي يخرجان من احاديث الطبقة الأولى والثانية والثالثة ولا يتجاوزانها الى الرابعة في الاصول بخلاف التابعات والشواهد (٧٦) .

(٧٥) الباعث الحديث لابن كثير ص ٣١ .

(٧٦) الحديث والمحدثون ص ٤١٠ الدكتور محمد ابوزهو .

ومعلوم أن الطبقة الثالثة التي يخرج النسائي أحاديثها لم يسلم أصحابها من غوائل الجرح فهم بين الرد والقبول كعماوية بن يحيى الصدفي ، واسحاق بن يحيى الكلبي ، والمنثني ابن الصباح . وإذا تبين ذلك كله فلا يمكن أن يسلم ما ادعاه القائلون بأن شرطه أشد من شرط البخاري ومسلم . وأما الحافظ أبو الفضل بن طاهر فقال (٧٧) : كتاب أبي داود والنسائي ينقسم على ثلاثة أقسام :

١ - القسم الأول : الصحيح المخرج في الصحيحين .

٢ - القسم الثاني : صحيح على شرطها ، حكى أبو عبد الله بن منده أن شرط أبي داود والنسائي اخراج أحاديث أقوام لم يجمع على تركهم إذا صح الحديث باتصال الاسناد ومن غير قطع ولا إرسال فيكون هذا القسم من الصحيح الا أنه طريق دون طريق ما أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما .

٣ - القسم الثالث : أحاديث أخرجها من غير قطع منها بصحتها ، وربما ابانها علتها بما يفهمه أهل المعرفة ، وانما أودعا هذا القسم في كتابيهما ، لأنه رواية قوم لها واحتجاجهم بها ، فأورداها وبيننا سقمها لتزول الشبهة ، وذلك اذا لم يجدوا له طريقا غيره ، لانه أقوى عندهما من رأى الرجال .

ويرى العراقي أن مذهب النسائي بهذه الصورة فيه متسع ، ولكن المتبادر الى الذهن غير الواقع ، لأن النسائي تجنب اخراج حديث أقوام أخرج لهم أبو داود والترمذي بل وتجنب اخراج حديث جماعة من رجال الصحيحين (٧٨) .

ونخلص مما سبق بأن تحرى الامام النسائي ودقته في الشروط انما كان خاصا بالسنن الصغرى وهى المعتمدة عند المحدثين وأما السنن الكبرى فكان من شرطه فيها أن يخرج عن كل من لم يجمع على تركه .

(٧٧) شروط الائمة الستة ص ١٢ .

(٧٨) زهر الربا على المجتبى ج ١ ص ٢ .

مثال لما رواه النسائي وطعن فيه والدفاع عنه

قال الرسول ﷺ « من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة الا أن يموت » حكم ابن الجوزي على هذا الحديث بالوضع لتفرد محمد بن حمير به وهو في نظره ليس بالقوى .

وقال السيوطي : كلا (٧٩) بل قوى ثقة من رجال البخارى ، والحديث صحيح على شرطه ، واخرجه ابن حبان في صحيحه ، وابن السنن في عمل يوم وليلة وصححه الضياء المقدسي في المختارة .

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث المشكاة : غفل ابن الجوزي فأورد هذا الحديث في الموضوعات وهو أصح ما وقع له . وقال الحافظ شرف الدين الدمياطي في جزء جمعه في تقوية هذا الحديث : محمد بن حميد القضاعي السامعي الحمصي كنيته أبو عبد الحميد احتج به البخارى في صحيحه . وكذلك محمد بن زيد الالهاني أبو سفيان الحمصي احتج به البخارى أيضا وقد تابع ابا امامة على بن أبي طالب وعبد الله بن عمرو ابن العاص والمغيرة بن شعبة وجابر وأنس فردوه عن النبي ﷺ وأورد حديث على من الطريقين السابقين وحديث ابن عمر والمغيرة وجابر وأنس من الطريق التي ما نريدها ثم قال : واذا ضمت هذه الاحاديث بعضها الى بعض أخذت قوة . وقال الذهبي في تاريخه نقلت من خط السيف احمد بن أبي المجد الحافظ قال : صنف ابن الجوزي كتاب الموضوعات فاصاب في ذكره أحاديث مخالفة للنقل والعقل ، وما لم يصب فيه اطلاقه الوضع على أحاديث بكلام بعض الناس في أحد رواها كقوله : فلان ضعيف أو ليس بالقوى وليس ذلك الحديث مما يشهد القلب ببطلانه ، ولا فيه مخالفة ولا معارضة كتاب ولا سنة ولا اجماع ولا حجة بأنه موضوع سوى كلام ذاك الرجل في راويه . فتبين أن السبب في ايراد ابن الجوزي هذا الحديث في الموضوعات هو قول يعقوب بن سفيان في راويه محمد بن حميد : ليس بالقوى ومحمد هذا روى له البخارى في صحيحه ووثقه احمد وابن

(٧٩) اللآلئ المصنوعة جـ ١ ص ١١٩ .

معين أ . هـ . ولم يخرج له في الاحتجاج وقد ضعفه كثير من الائمة فقال يحيى بن معين
عنه : ضعيف وقال أبو حاتم بن حبان : لا يحتج به ، وقال العقيلي لا يتابع على حديثه .
وأورد له عدى أربعة أحاديث مناكير ، وأما قول ابن الصلاح عنه : وهو شيخ صالح (٨٠) ،
فإنما أخذه من كلام أبي يعلى الخليلي ، ثم إنه لا يلزم من صلاحه الاحتجاج بما يرويه .

درجة أهاديث السنن

صنف الامام النسائي السنن الصغرى بعد السنن الكبرى ولخصه منه ، وتحرى فيه الدقة البالغة ولا يكاد يوجد في هذا الكتاب حديث موضوع فقد سار في تأليفه بمتهى الحيطه ، وتجنب الرواية عن كل من تكلم فيه ، حتى قيل عنه : أن درجة السنن الصغرى بعد الصحيحين ، لأنه أقل السنن بعدهما ضعفا ، وإن قال أبو الفرج ابن الجوزى : ان فيها عشر أحاديث موضوعة فقد نازعه في ذلك السيوطى في كتابه التعقبات على الموضوعات « ولو سلمنا برأى ابن الجوزى فهذا عدد يسير بالنسبة الى مثل هذا الكتاب العظيم الذى يعد من دواوين السنة المعتمدة ولا ينقص من عظمته ما ذكر فيه : وهناك رأيان في صحة ما في الكتاب :

الأول : ما يراه الدار قطنى وابن منده وابن السكن وابو على النيسابورى وابو احمد ابن عدى أن كل ما في السنن صحيح ، ووافقوا في ذلك النسائي .

الثانى : ما يراه بعض العلماء كابن كثير أن فيه رجالا مجهولين إما عينا أو حالا وفيهم المجرور ، وفيه أحاديث ضعيفة ومعللة ومنكرة .

وأرى أن ابن الجوزى يقصد السنن الصغرى ، وعلى فرض ما قيل فيه ، فهو لا ينقص من قيمة هذا الكتاب النفيس ، ولا يفض من درجته العلمية ، وخاصة أن النسائي كان يذكر حكمه على درجة الحديث اذا كان منكرا وهكذا .

مثال من سنن النسائي ، مما حكم عليه بأنه منكر

اخرج النسائي من رواية أبي بكير يحيى بن محمد بن قيس عن هشام ابن عمرو عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « كلوا البلح بالتمر ، فان ابن آدم اذا أكله غضب شيطان » .

الحديث ، قال النسائي هذا حديث منكر ، قال ابن الصلاح^(٨١) تفرد به أبو زكير وهو شيخ صالح أخرج عنه مسلم في كتابه غير أنه لم يبلغ مبلغ من يحتمل تفردده . هـ . وإنما اخرج له مسلم في المتابعات .

(٨١) مقدمة ابن الصلاح (٣٠) .

الإمام ابن ماجه

نسبه ونشأته :

هو الامام ابو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه الرعي القزويني و« ماجه » يس جده ، وانما هو لقب أبيه يزيد « لأن أغلب المترجمين له قالوا : محمد بن يزيد ابن ماجه ، واشتهر بذلك « القزويني » نسبة الى إقليم قزوين ، لأن به مولده ونشأته . ولد سنة تسع ومائتين من الهجرة ، ونشأ محبا للعلم ، فتوجه بهمة عالية الى مجالس العلماء وحلقاتهم يأخذ عنهم ، ويتعلم منهم ، فسار على الدرب الذي سار عليه من سبقه من ائمة الحديث إقبالا على العلم ، وتدوينا للسنن النبوية ونمى ثروته العلمية ، بتتبع مدارس الحديث المختلفة في بلاد كثيرة طوف بها فاخذ عن علمائها واستفاد من مناهجها ، وكانت نشأة البخاري قائمة على أساس من العلم والعمل والأخذ والعطاء ، فتعلم وحصل وعمل بما علم فكان تقيا ورعا مخلصا في رسالته ، ودرس وحفظ وألف ودون ، ولم يقتصر نشاطه العلمي على التأليف بل تعداه الى التدريس والتعليم وكان له تلاميذ رووا عنه .

وقد حصل الكثير حتى أصبح إماما في الحديث عارفا بعلومه ، وجميع ما يتعلق به .

حياته العلمية

قام ابن ماجه برحلات علمية يستهدف تزويد ثقافته ، وتدوين الكثير من الاحاديث الى جانب ما جمعه من بلدته فظوف بكثير من الاقطار والبلاد فرحل الى العراق والحجاز والشام ومصر وغيرها من البلاد ، ولقى كثيرا من ائمة الحديث ، وسمع من أصحاب مالك والليث حتى أصبح أماما من الائمة الاعلام . وقد شهد له بالثقة والحفظ كثير من الائمة قال أبو يعلى الخليل بن عبد الله القزويني : ابن ماجه ثقة كبير متفق عليه محتج به له معرفة وحفظ ، ووصفه الذهبي بأنه الحافظ الكبير المفسر (٨٢) .

شيوخه وتلاميذه :

أتاحت لابن ماجه رحلاته العلمية التي اتسمت بالهمة العالية في تدوين الحديث أن يلتقى بكثير من شيوخ البلاد الذين أخذ عنهم فسمع من أبي بكر بن أبي شيبة ومحمد بن

(٨٢) كشف الغنون جـ ٢ ص ١٠٠٤ ، مرآة الجنان للياقبي جـ ٢ ص ١٨٨ ، تهذيب التهذيب جـ ٩ ص ٥٣١ .

عبد الله بن نمير ، وجبارة بن المغلس وهشام بن عمر ، ومحمد بن بشار وعمر بن عثمان ابن سعيد وغيرهم من أئمة الحديث .

وروى عنه : علي بن سعيد بن عبد الله ، وإبراهيم بن دينار الجرشي ، الهمداني واحمد بن ابراهيم القزويني وسليمان بن يزيد القزويني ، ومحمد بن عيسى الصفاء وابو عمرو احمد بن محمد بن حكيم المدني الاصبهاني وغيرهم .

مؤلفاته :

ولابن ماجه مؤلفات كثيرة منها :

- ١ - كتاب السنن المتداول الآن ، وهو أحد الكتب الستة .
- ٢ - تفسير القرآن وهو تفسير حافل كما قال ابن كثير .
- ٣ - كتاب التاريخ : أرخ فيه من عصر الصحابة الى وقته .

ويعد حياة حافلة بالعلم والعمل ممتلئة بالبحث والتأليف ، توفي ابن ماجه في ٢٢ رمضان سنة ٢٧٣ هـ وصلى عليه اخوه أبوبكر ، وتولى دفنه اخواه أبوبكر وعبد الله وابنه عبد الله (٨٣) .

ومن أعظم مؤلفاته كتابه القيم « السنن » الذي ستناول دراسته الآن .

(٨٣) تهذيب التهذيب ج ٩ ص ٥٣١ ، مرآة الجنان ج ٢ ص ١٨٨ .

سنن ابن ماجه

تعريف بالكتاب :

صنف ابن ماجه كتاب السنن على الأبواب ورتبه ترتيبيا فقهيًا كشأن الكتب السابقة ، وقد قسم « السنن » الى كتب وأبواب فبلغت سبعة ألف باب ، وكان مجموع أحاديثه أربعة آلاف حديث في الصحيح والحسن ، وثلاثين كتابًا عدا المقدمة وعدد الأبواب ١٥١٥ خمسة عشر وخمسمائة والضعيف ، بل والمنكر ، والموضوع على قلة .

وقد ابتداء ابن ماجه كتابه بباب اتباع سنة رسول الله ﷺ وساق فيه الاحاديث الدالة على حجية السنة ووجوب اتباعها والعمل بها . وقد عُدَّ أحاديث السنن الاستاذ محمد فؤاد عبد الباقي الذي حققه فكان جملة أحاديثه ٤٣٤١ أربعة آلاف وثلاثمائة وواحدًا وأربعين حديثًا منها ٣٠٠٢ اثنان وثلاثة آلاف حديث أخرجها أصحاب الكتب الخمسة أما باقى الاحاديث وعددها ١٣٣٩ ألف وثلاثمائة وتسعة وثلاثون حديثًا فهي الزوائد على ما جاء بالكتب الخمسة ، ومن هذه الاحاديث الزوائد ٤٢٨ أربعمائة وثمان وعشرون حديثًا رجالها ثقات ، صحيحة الاسناد ، ومنها ١٩٩ تسعة وتسعون ومائة حديث حسنة الاسناد ومنها ٦١٣ ثلاثة عشر وستمائة حديث ضعيفة الاسناد أو منكورة أو مكذوبة .

وقد علا ابن ماجه في بعض الاحاديث حتى صار بينه وبين النبي ﷺ ثلاثة رجال وهي ما تعرف بالثلاثيات .

وقد روى كتاب السنن عن ابن ماجه : أبو الحسن القطان وسليمان ابن يزيد وأبو جعفر ومحمد بن عيسى وأبو بكر حامد الابهرى ولكتاب السنن شروح أهمها :

- ١ - شرح الشيخ كمال الدين محمد بن موسى العميرى الشافعى المتوفى سنة ثمان وثمانمائة ٨٠٨ هـ في خمس مجلدات واسم هذا الشرح : الديباجة .
- ٢ - شرح الشيخ ابراهيم بن محمد الحلبي المتوفى سنة واحد وأربعين وثمانمائة .
- ٣ - شرح الحافظ السيوطى واسم هذا الشرح « مصباح الزجاجة على سنن ابن ماجه »

واختصر شرح السيوطى على بن سليمان الدمنائى الياجمعاوى فى « نور الصباح » وطبع فى القاهرة سنة ١٢٩٦ هـ .

٤ - شرح الشيخ السندي المدني المتوفى سنة ١١٣٨ وهو شرح وجيز .

٥ - شرح العلامة سراج الدين عمر بن الملقن الشافعى المتوفى سنة ٨٠٤ أربع وثمانمائة واسم هذا الشرح : « ماتمس إليه الحاجة على سنن ابن ماجه » واقتصر فيه على شرح زوائد سنن ابن ماجه على الكتب الخمسة^(٨٤) .

(٨٤) تاريخ الأدب العربى ج-٣ ص ١٩٩ ، أعلام المحدثين ص ٢٨٥ .

منهجه ودرجة أحاديثه

نهج ابن ماجه في تصنيف كتابه نهجا سلك فيه سبيل من قبله بتبويه تبويبا فقهيا : وترتيبه ترتيبا حسنا ، فامتاز كتابه بحسن التنسيق وسعة الجمع ، وجمال الترتيب ، ولم يشترط في كتابه الصحة ، وإنما أخرج فيه الصحيح والضعيف بل والمنكر والموضوع على قلة كما أخرج أحاديث عن رجال متهمين بالكذب وسرقة الأحاديث وبعض تلك الأحاديث لا تعرف الا من جهتهم وقد عد كثير من العلماء المتقدمين ، وبعض المحققين من بعدهم أصول كتب الحديث الخمسة :

صحيح البخارى ، وصحيح مسلم ، وسنن أبى داود ، وسنن النسائى ، وسنن الترمذى ، ولم يضم إليها سنن ابن ماجه لتأخر رتبة السنن عن هذه الكتب .

ولكن بعض العلماء اللاحقين أضاف إليها كتاب السنن لابن ماجه وجعلها سادسا ، لما فيها من جمال الترتيب وحسن الانتقاء ، وكثرة ما فيها من النفع في أبواب الفقه وكثرة زوائدها على الكتب الخمسة بخلاف الموطأ فان احاديثه موجودة في الكتب الخمسة الا القليل .

وأول من ضم سنن ابن ماجه الى الكتب الخمسة ابن طاهر المقدسى ، وتابعه أصحاب الأطراف وغيرهم^(٨٥) وقد خالف في ذلك بعض العلماء كالعلائى وابن حجر ورأى أن يجعل سادس الكتب كتاب الدارمى لأن ابن ماجه اخرج أحاديث رجال المتهمين بالكذب وسرقة الاحاديث أما سند الدارمى فأكثر صحة منه ، وأحاديثه مسندة ، ولذا سمي مسندا ، وأيضا في كتاب الدارمى قليل من الرجال الضعفاء ونادر من الاحاديث المنكرة والشاذة ، وان كان فيه كثير من الاحاديث المرسله والمنقطعة والمعضلة والمقطوعة^(٨٦) .

(٨٥) تدريب الراوى ص ٤٩ .

(٨٦) مقدمة ابن الصلاح ص ٤٢ تدريب الراوى ص ١٠٠ .

وذهب بعض العلماء منهم رزين السرقسطى ، والمجد بن الاثير أن سادس الكتب الستة « الموطأ » للإمام مالك لصحة الموطأ وعظم شأنه .

والحق ان كتاب « الموطأ » أولى بذلك من سنن ابن ماجه ، فان في أحاديث السنن ما حكم عليه بالبطلان والنعارة ، أما الموطأ فهو أعلى درجة من سنن ابن ماجه .

وروى عن ابن ماجه انه قال : « عرضت هذه السنن على أبي زرعة الرازى ، فنظر فيها وقال : لعله لا يكون فيه تمام ثلاثين حديثا في أسناده ضعف » وذكر المقدسى أنها بضعة عشر حديثا ونحوها (٨٧) . ولكن الامام أبا عبد الله بن رشيد تكلم عن سنن ابن ماجه اثناء حديثه عن كتاب النسائى - وبين ان ابن ماجه تفرد باخراج أحاديث عن رجال متهمين بالكذب ورد على قول ابى زرعة السابق بقوله : « واما ما حكاه ابن طاهر عن أبى زرعة الرازى أنه نظر فيه فقال : لعله لا يكون فيه تمام ثلاثين حديثا مما فيه ضعف فهى حكاية لا تصح لانقطاع سندها ، وان كانت محفوظة فلعله أراد ما فيه من الاحاديث الساقطة الى الغاية ، أو كان ما رأى من الكتاب الا جزءا منه فيه هذا القدر (٨٨) » . أ . ه .

وانتقد الحافظ ابن الجوزى أيضا بعض أحاديث دونها ابن ماجه في كتابه وعددها ثلاثون حكى عليها ابن الجوزى بالوضع وقد دافع عنها السيوطى في كتابه « التعقبات » وأرى أن في سنن ابن ماجه بعض الموضوع الا أن بعض هذه الاحاديث الموضوع وضع غلطا مثل ما روى : « من كثرت صلواته بالليل حسن وجهه بالنهار » فهذا موضوع عن غير تعمد فقد رواه ابن ماجه عن اسماعيل بن محمد الطلحى عن ثابت بن موسى الزاهد عن شريك عن الاعمش ، عن أبى سفيان ، عن جابر مرفوعا ، فقد غلط ثابت بن موسى فظنه حديثا وليس بحديث والسبب في هذا الغلط : ما ذكره الحاكم قال : دخل ثابت بن موسى على شريك بن عبد الله القاضى والمستمل بين يديه ، وشريك يقول : حدثنا الاعمش عن أبى سفيان عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ ولم يذكر المتن ، فلما نظر شريك الى ثابت ابن موسى قال : « من كثرت صلواته بالليل حسن وجهه بالنهار » وانما أراد شريك مدح ثابت لزهده وورعه ، فظن ثابت أنه روى هذا الحديث مرفوعا بهذا الاسناد ، فكان ثابت يحدث به عن شريك بهذا الاسناد غلطا ، وقد سرقه منه جماعة ضعفاء وحدثوا به عنه وهذه القصة

(٨٧) تذكرة الحفاظ ج ٢ ص ١٨٩ ، شروط الائمة الستة ص ١٦ .

(٨٨) زهر الربا على المجتبى ج ١ ص ٣ .

انما تدل على بعد نظر نقاد الحديث ودقتهم في معرفة علل الحديث ، حيث أنهم كانوا على إحاطة ويقظة ليعرفوا ويميزوا الاحاديث الصحيحة من غيرها وعلى كل فإن الاحاديث الموضوعية التي في هذا الكتاب قليلة بالنسبة الى ما دونه في كتابه القيم العظيم فهي لا تنقص من مكانته العلمية ونفعه المثمر ، وانه من دواوين السنة النبوية ولكن الواجب على كل باحث ودارس في هذا الكتاب العظيم ألا يأخذ من الاحاديث التي انفرد بها الامام ابن ماجه في هذا الكتاب إلا بعد التمحيص والنظر الدقيق والتحرى عن الرواة ليتأكد من صحة الحديث للاحتجاج به .

وسأقدم هنا نموذجاً من الاحاديث التي انتقدها المتأخرون من سنن ابن ماجه وهي صحيحة مما طعن فيها (أبورية) وغيره حديث « خمروا الأنية وأوكثوا الاسقية واجيفوا الأبواب » ، واكتفوا صبيانكم عن النساء » هكذا نقله والصواب : عند العشاء » فإن للجن انتشاراً وخطفه وأطفئوا المصابيح عند الرقاد فان الفويسقة أى الفأرة ربما اجترت الفتيلة فأحرقت البيت » فقد تحامل « أبورية » على رواية الاسلام « أبى هريرة » الذى روى هذا الحديث فطعن في صحته ، في كتابه « أضواء على السنة المحمدية ووصل به تحامله على هذا الصحابي الجليل الى حد أراد فيه أن يشوه الحقائق ويبدل هذه المحاسن والفضائل الى رذائل .

الاجابة على ذلك :

وهذا الحديث الذى رواه أبو هريرة وهو من الاحاديث الصحيحة التي أخرجها ابن ماجه في كتابه السنن لم يتفرد به ابن ماجه وانما رواه البخارى في بدء الخلق في باب « خمس من الدواب فواسق . . . » من رواية جابر بن عبد الله كما رواه مسلم في صحيحه أيضاً عن جابر فإسناد الحديث صحيح ، فهو مروى من طرق عدة ولم يتفرد ابن ماجه بتخرجه وانما أخرج البخارى ومسلم .

وأما من ناحية نقد المتن :

فان الحديث دعا الى جملة من المبادئ تعد من محاسن الاسلام وفضائله التي تعود ثمرتها بالمحافظة على النفس والمال والولد من كل ضرر وعيب وفساد وقوله : (خمروا الأنية) أى غطوها ، وفي تغطية الأنية صيانة للطعام والشراب مما يترتب عليه المحافظة على

صحة . وقوله « وأوكثوا الاسقية » أى شدوا القرب بالنوكاء واربطوها ، وهى محافظة على الماء الذى نشربه وصيانة لدوام نقائه .

وقوله : « وأجيفوا الأبواب » أى أغلقوها وهذه دعوة للمحافظة على النفس والمال والولد من كل فساد وأضرار .

وقوله : « وأكتفوا صبيانكم عند العشاء » بمعنى أن تضموهم وتحافظوا عليهم . . . وتمنعوهم من الخروج فى مثل هذا الوقت لأن للجن انتشارا وخطفة . وقوله (واطفئوا المصابيح عند الرقاد) وذلك حتى لا يترتب على تركها ضرر يلحق الانسان فى أهله وماله ، إنها اذا مبادىء سامية وفضائل عظيمة المغزى كلها محافظة وصيانة للنفس والولد والمال ولها من الثمرات ما يترتب عليه الامان بين الناس والطمأنينة فى حياتهم . . . فهل فى هذا المتن ما يدعوا الى الغرابة ؟؟ هذا هو النقد الداخلى لمتن هذا الحديث وهذه هى الفضائل التى يدلنا عليها فهل فيها ما يتناقض مع العقل السليم أو المنطق ؟ ولو كان عند أولئك الطاعنين شىء من علم أو رغبة فى البحث فليضعوا هذه المثل الرشيدة السديدة أمام الباحثين الاجتماعيين وليسطوها على بساط البحث وتحت مجهر النقد الحديث ليروا ماذا تكون النتيجة وليعلموا أن تعاليم الرسول صلوات الله وسلامه عليه بلغت القمة فى سموها وأثرها على حياة الناس ونفوسهم وأن هؤلاء الطاعنين انما يتصدون لبعض روايات لحديث ما يحاولون بافترائهم تشويهه باخلادهم الى الأرض واتباعهم أهواءهم .

منزلة المسانيد من السنن

وبما سبق من بيان درجة أحاديث كل كتاب من كتب السنن ، بقى أن يعرف درجة المسانيد ومنزلتها من السنن :

ومن المعلوم أن المسند : هو ما أفرد فيه حديث كل صحابي على حدة من غير نظر للأبواب كمسند أبي دواد الطيالسي ، ومسند أحمد بن حنبل ، وأبي بكر بن أبي شيبة وأبي بكر البزار ، وأبي القاسم البغوي وغيرهم . وواضح أن من يجمع مسندا من المسانيد لصحابي ، إنما يقوم بجمع ما يقع له من حديث سواء كان صالحا للاحتجاج أم لا لهذا كانت منزلة المسانيد تلي كتب السنن في الرتبة لأن أصحابها لم يتقيدوا بكون الحديث محتجا به أم لا ، فلا تلتحق بالاصول الخمسة وما أشبهها^(٨٩) .

(٨٩) فتح المغيـث جـ ١ ص ٥٠ ، تدريب الراوي ص ١٩ .

الموازنة بين الكتب الستة

يقوم منهجنا في الموازنة بين هذه الكتب على أساسين :

الأول : طريقة كل إمام من الائمة في تدوين الحديث النبوى في مصنفه .

الثاني : شرط كل واحد منهم في كتابه من حيث الصحة وغيرها .

١ - نرى أن البخارى في صحيحه انتهج طريقة التدوين على المصنفات كالتى اتبعها الامام مالك في « الموطأ » الا أن البخارى تميز عنه بتجريد صحيحه من أقوال الصحابة وفتاوى التابعين وهذه الميزة « وهى تجريد الحديث وتخليصه من أقوال الصحابة وفتاوى التابعين » شاركه فيها أصحاب المسانيد كالامام أحمد بن حنبل في مسنده ولكن البخارى جمع بجانب ذلك ميزة أخرى هى : أنه أفرد بالجمع الاحاديث الصحيحة فقط دون غيرها ، وهذه الميزة لا توجد في المسانيد قبله ، ثم استهدف في كتابه المقصد الفقهي فرتب كتابه ترتيبا موضوعيا ، ويوبه تبويبا فقهيا ، ولهذا قلما يتعرض البخارى لتعداد الاسانيد وطرق الحديث في الباب الواحد الا في حال تقوية الحديث فجاء في كتابه : بالتعليق والاختصار والتفريق على الأبواب ، وما ذكره من التعليقات فانما ذكره في التراجم فقط ، لأنها ليست على شرطه فلم يجعلها من أصول الكتاب ، فامتاز بالناحية الفقهية ودقة التراجم الى جانب تدوين الصحيح فقط .

٢ - واما بالنسبة الى الإمام مسلم : فقد جمع في المكان الواحد طرق الحديث وأسانيد ، ولم يقطع الحديث أو يكرره في الأبواب ، وعنى بتحرير ألفاظ الرواة مما جعل الرجوع إليه سهلا .

٣ - وأما جمع الترمذى ، فقد أخذ من طريقه كل من الكتابين السابقين فجمع الطرق والاسانيد في موضع واحد منبها على اختلاف الالفاظ ، كما جاء بالفوائد الفقهية دون أن يكرر الحديث أو يقطعه على الأبواب إلا في القليل ، إلا أن تراجمه لم تبلغ مبلغ تراجم البخارى في الدقة والتفنن ، وبعد الغوص ، فقد كانت تراجم الترمذى واضحة الدلالة قليلة الاستنباط ولكنه تميز بفنون الصناعة الحديثية ، كما سبق بيان ذلك في الحديث على جامعته . . .

٤ - وأما أبو داود : فقد عني بالاحاديث التي تدور عليها أحكام الشريعة ، واستوفى منها ما لم يستوفه غيره ، وتميز في تدوينها بحسن الترتيب ، ولعناية أبي داود بالناحية الفقهية واشتمال الحديث على عدة أحكام كرر أحاديث كثيرة باسناد واحد في موضعين أو أكثر من أبواب الكتاب .

٥ - وأما النسائي : فقد بوب كتابه أيضا على الابواب الفقهية ، ورتبه ترتيبا موضوعيا وسلك المسالك العميقة .

٦ - وأما ابن ماجه : فقد رتب كتابه كذلك ترتيبا فقهيا ، وامتاز بحسن التنسيق والترتيب وسعة الجمع .

وقال أبو جعفر بن الزبير : (لأبي داود في حصر أحاديث الاحكام واستيفائها ما ليس لغيره وللتبريزي في فنون الصناعة الحديثية ما لم يشاركه غيره ، وقد سلك النسائي أعمق تلك المسالك وأجلها) (٩٠) ، و أ . ه . .

وهكذا نرى ان الاساس الأول من الموازنة أبرز لنا ما تميز به كل كتاب عن غيره وما اشترك فيه كل كتاب مع نظيره .

وأما الثاني ، وهو شرط كل واحد في كتابه : فقبل بيان الموازنة بين تلك الشروط ، أقدم تقسيم الجمهور للحديث الصحيح ، وآراء بعض الأئمة في هذه الكتب وطبقاتها لأستأنس بها في الحديث عن الموازنة :

قسم الجمهور الحديث الصحيح بالنظر الى تفاوت الأوصاف المقتضية للصحة الى سبعة أقسام كل قسم منها أعلى مما بعده .

فالأول : ما أخرجه البخارى ومسلم ، وهذا القسم هو أعلى الاقسام ويسمى بالمتفق عليه .

والثاني : ما انفرد به البخارى ، ووجه تأخره عما اتفقا عليه اختلاف العلماء أيهما أرجح ، ولئن كان الأكثر والأصح وما عليه الجمهور أن كتاب البخارى أرجح ، ولكن ما اتفقنا عليه يكون أكثر قوة مما انفرد به البخارى لأن كثرة الطرق تقوى الحديث .

(٩٠) تدریب الراوی ص ٩٩ .

والثالث : ما أنفرد به مسلم .

والرابع : ما كان على شرطهما ، مما لم يخرج به واحد منهما ، ووجه تأخره عما أخرجه أحدهما تلقى الأمة بالقبول له .

والخامس : ما كان على شرط البخارى .

والسادس : ما كان على شرط مسلم .

والسابع : ما صححه أحد الأئمة المعتمدين غير البخارى ومسلم .

وترجيح كل قسم من هذه الأقسام السبعة على ما بعده إنما هو من قبيل ترجيح الجملة على الجملة لا ترجيح كل واحد من أفرادها على كل واحد من أفراد الآخر ، فيسوغ أن يرجح حديث في مسلم على آخر في البخارى إذا وجد موجب الترجيح .

قال الزركشى : ومن هنا يعلم أن ترجيح كتاب البخارى على مسلم إنما المراد به ترجيح الجملة لا كل فرد من أحاديثه على كل فرد من أحاديث الآخر^(٩١) .

ونلاحظ على هذا التقسيم أنه لم يرد تصريح من العلماء فيه بترتيب كتب الحديث من حيث الصحة إلا بكتاب البخارى أولاً ، ثم كتاب مسلم ثانياً ثم ما كان على شرطهما ، وما صححه أحد الأئمة المعتمدين غير البخارى ومسلم .

وقد قام بترتيب طبقات كتب الحديث الشيخ المحدث أحمد المعروف بشاه ولى الله الدهلوى فقسم الكتب الى طبقات :

١ - الطبقة الأولى : وتنحصر بالاستقراء فى ثلاثة كتب : الموطأ وصحيح البخارى وصحيح مسلم .

٢ - الطبقة الثانية : كتب لم تبلغ مبلغ الموطأ والصحيحين ، ولكنها تتلوها ، كان مصنفوها معروفين بالوثوق والعدالة والحفظ والتبحر فى فنون الحديث ، ولم يرضوا فى كتبهم هذه بالتساهل فيما اشترطوا على أنفسهم فتلقاها من بعدهم بالقبول ، واعتنى بها المحدثون والفقهاء طبقة بعد طبقة واشتهرت فيما بين الناس ، وتعلق بها القوم شرحاً لغريبها وفحصاً عن رجالها ، واستنباطاً لفقهاها ، وعلى تلك الأحاديث بناء عامة العلوم كسنى أبى داود وجامع الترمذى ومجتبى النسائى .

(٩١) بنتاح السنة ص ٣٥ ، تدريب الراوى ص ٦٤ .

وقال : (أما الطبقة الأولى والثانية فعليها اعتماد المحدثين وحول حماها مرتعهم ومسرحهم)^(٩٢) . وأرى أن تقسيم الدهلوى لم يرد فيه ترتيب للكتب حسب صحتها كتابا وكتابا وإنما قسمها من حيث الطبقات ، فوضع الموطأ والصحيحين في الطبقة الأولى ، ووضع سنن أبي داود وجامع الترمذى ومجتبى النسائى في الطبقة الثانية ، وليس في تقديمه كتاب الموطأ في الذكر تقديمه من حيث الصحة عليها كما قال الشافعى : (ما على ظهر الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك) فهذا القول من الشافعى إنما هو قبل وجود الكتابين . وقال الذهبى ردا على ابن حزم الذى أخر الموطأ عن الصحيحين وكتب السنن والمسائيد فى الرتبة قال ما أنصف ابن حزم رتبة الموطأ أن يذكر تلو الصحيحين مع سنن أبي داود والنسائى^(٩٣) .

والآن قد اتضح الأمر ، وأن كتب السنن فى الطبقة الثانية ، وأنها بعد الصحيحين أما ترتيبها : فإذا نظرنا الى عدد الاحاديث التى انتقدها ابن الجوزى على كتب السنن هى : تسعة أحاديث انتقدها على كتاب أبي داود ، وعشرة أحاديث انتقدها على كتاب النسائى ، وثلاثون حديثا انتقدها على كتاب الترمذى ، وثلاثون حديثا انتقدها على كتاب ابن ماجه ، اذا نظرنا من حيث الاحاديث المنتقدة فالأكثر وهكذا فيأتى :

- أولا : سنن أبي داود .
- ثانيا : سنن النسائى .
- ثالثا : جامع الترمذى .
- رابعا : سنن ابن ماجه .

وقد تأخر ابن ماجه عن كتاب الترمذى ، مع أن الاحاديث المنتقدة عليها عددها واحد ، لأن ابن ماجه تفرد باخراج أحاديث عن رجال متهمين بالكذب وسرقة الاحاديث ، وبعض تلك الاحاديث لا تعرف إلا من جهتهم^(٩٤) ، لذا جاء ترتيبه آخر كتب السنن .

وأما اذا نظرنا الى الكتب الستة من ناحية شروط أصحابها ، فان كتاب البخارى يأتى أولا ثم يأتى بعده كتاب مسلم ، وهذا هو الترتيب المعتمد ، لما سبق من بيان شرط كل منهما

(٩٢) حجة الله البالغة ج١ ص ١٠٦ وما بعدها .

(٩٣) فتح المغيب للعراقى ج١ ص ١٦ ، تلريب الراوى ص ٥٤ ، مقدمة الموطأ ص ١٥ .

(٩٤) قواعد التحديث ص ٢٤٧ .

والموازنة بينهما ، وما اتضح أن شرط البخارى أعلى من شرط مسلم لاشتراطه اللقاء مع المعاصرة ، وتخرجه رجال الطبقة الأولى امتحابا كما سبق بيانه .

وأما ثالث هذه الكتب : فبتحقيق أقوال العلماء وآراء الأئمة ، والموازنة بين شرط كل منها تتضح الحقيقة :

يرى الامام الدهلوى أن سنن أبى داود ، ومجتبى النسائى ، وجامع الترمذى فى الطبقة الثانية .

وأما الحازمى : فذكر أن أبى داود والنسائى يخرجان من أحاديث الطبقة الأولى والثانية والثالثة ولا يتجاوزانها الى الرابعة ، وأما الترمذى فيخرج أحاديث الطبقة الرابعة^(٩٥) . فقد رأى الحازمى تقديم كتاب أبى داود على جامع الترمذى . وهذا الرأى هو ما أميل إليه وأرجحه ، لأن الترمذى نزل درجة عن كل من أبى داود والنسائى حيث خرج حديث الطبقة الرابعة ، أما أبو داود والنسائى فيخرجان أحاديث الطبقة الأولى والثانية والثالثة ، ولا يتجاوزانها الى الرابعة ، والحازمى وإن صرح بقوة شرط الترمذى لبيانه لدرجة الحديث - إلا أنه أخره فى الرتبة لما سبق . يقول الحازمى : (... وفى الحقيقة شرط الترمذى أبلغ من شرط أبى داود لأن الحديث اذا كان ضعيفا أو مطلعاه من حديث أهل الطبقة الرابعة ، فانه يبين ضعفه ، وبنه عليه ، فيصير الحديث عنده من باب الشواهد والمتابعات ، ويكون اعتماده على ما صح عند الجماعة ، وعلى الجملة ، فكتابه مشتمل على هذا الفن ، فلهذا جعلنا شرطه دون شرط أبى داود^(٩٦) و أ . هـ « فبين السبب فى تأخيره جامع الترمذى بأنه اشتمل على حديث الطبقة الرابعة وأما تأخيره عن كتاب أبى داود فلأنه وإن اشترك معه فى التخرىج عن الطبقة الثانية والثالثة إلا أن أبى داود تميز ببيان ما فيه وهن ، أما النسائى فيخرج كل من لم يجمع على تركه ، والضعيف دون تنبيه عليه^(٩٧) . وأما تقديمه على الترمذى فلما سبق من تخرىج الترمذى حديث أهل الطبقة الرابعة بخلاف النسائى الذى لا يتجاوز الثالثة فهو أعلى منه وعلى ذلك فيكون ترتيب الكتب الستة كالآتى :

١ - الجامع الصحيح للامام البخارى .

(٩٥) تدريب الراوى ص ٦٩ .

(٩٦) شروط الأئمة الخمسة ص ٤٤ .

(٩٧) فتح المغيث ج ١ ص ٥٩ .

٢ - المسند الصحيح للامام مسلم .

٣ - سنن أبي داود .

٤ - سنن النسائي .

٥ - جامع الترمذى .

٦ - سنن ابن ماجه .

ويعد بيان كل ما سبق أحب أن أبرز هنا نتيجتين هامتين :

الأولى : أن هذه الشروط التي اشترطها العلماء لهؤلاء الأئمة قد تبين من سير كتبهم استقراء طرقهم في تدوين الحديث وترتيبهم لمصنفاتهم أن كل ذلك اجتهاد منهم في دراسة هذه الاعمال الجليلة والمؤلفات النفيسة التي اضطلع بها هؤلاء الاعلام . وأن هذا انما يدل على تقدير اللاحقين لجهود المتقدمين ، ولا يعنى تأخير واحد منهم عن ركب هؤلاء الأئمة ، ولا إهمال مصنف من هذه المصنفات .

الثانية : أن ترجيح كل كتاب من هذه الكتب وتقديمه على ما بعده في الرتبة ، انما المراد به ترجيح الجملة ، لا ترجيح كل فرد من أحاديثه على كل فرد من أحاديث الآخر ، فقد يسوغ ترجيح حديث في مسلم على آخر في البخارى وهكذا . . . فجزاهم الله جميعا خير الجزاء ، على ما قدموا من خدمات جليلة للسنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

الرد على مطاعن المستشرقين وأتباعهم

وأورد بعد ذلك ردودا على بعض الطعون التي وجهها المستشرقون وأتباعهم الى الكتب الستة وإلى ما دون فيها من الحديث النبوي ، وقبل أن اتصدى للرد على هذه الطعون أعطى فكرة سريعة عن مراحل الاستشراق وأهدافه ، حتى نتبين دخيلة هؤلاء الطاعنين :

مراحل الاستشراق وأهدافه :

١ - المرحلة الأولى :

بدأت المرحلة الأولى من مراحل الاستشراق عندما تبوأَت الحضارة الاسلامية في الاندلس مكانتها المرموقة بفضل ما لها من خصائص ومقومات لا تضاهيها حضارة أخرى فأعجب الغرب بحضارة العرب ، وأخذوا الكثير من ثقافتهم واغترفوا من مناهلهم الصافية ، إلا أنهم رأوا أن هذه الثقافة وذلك التقدم الحضارى يهدد سلطانهم ويقضى على تأثيرهم فقام بعض الرهبان بدراسة الحضارة الاسلامية لحاجة في أنفسهم ، يبتغون تتبع العورات وتلمس الهنات ، وتضاعف هذا النشاط ، ومثل هؤلاء الرهبان النواة الأولى للاستشراق ، حيث أخذوا يشيعون الاباطيل المقتراة ويؤلفون كتباً تطفح بالمثالب ، ورغم ذلك كله ، فقد استمرت الحضارة الاسلامية مشرقة بثقافتها ، متدفقة بمعارفها حتى عجزت حيل الرهبان ، وضل سعيهم وفترو نشاطهم ، وهنا بدأت المرحلة الثانية :

٢ - المرحلة الثانية :

حاولت الكنيسة أن تضرب هذه الثقافة الاصلية الضاربة القاضية وتجتشها من جذورها ، فكانت « الحملات الصليبية » ، وقامت هذه الحروب بدافع العصبية العمياء من رجال الكنيسة لتخليص مهد المسيح من أيدي المسلمين مستغلين اسم الدين في سبيل الاطماع التوسعية ، ومستهدفين استغلال ثروات المسلمين ، وتقويض حضارة الاسلام

ولكن هذه الحملات باءت الفشل الذريع وهزمت الجيوش الصليبية وهنا بدأت المرحلة الثالثة من مراحل الاستشراق .

٣ - المرحلة الثالثة :

وهي التي لا تزال مستمرة حتى الآن ، فهم يستخدمون السلاح حين يمكنهم استخدامه فإذا لم يمكنهم استخدموا غيره من الأسلحة ، فاتجهوا الى دراسة تراث المسلمين وعقيدتهم ، « وهدف الاستشراق افساد ما يمكن افساده من الدين وبالتالي من الخلق^(٩٨) » وساعدهم على ذلك أن أوروبا قد نهضت وتحلف المسلمون عن مكانتهم ، فألفت الجمعيات المسيحية واليهودية واهتموا بدراسة أصول الاسلام وكان من هؤلاء المستشرقين من تظاهر بالاشادة بالاسلام ليطمئن القارىء لافكاره ، ثم يدس جزئية في ثنايا بحثه تحمل السم الخطير بالنسبة للاسلام ، وكان المستشرقون من اليهود قد اقبلوا على الاسلام لاسباب دينية « وهي محاولة اضعاف الاسلام والتشكيك في قيمه لاثبات فضل اليهودية على الاسلام بادعاء أن اليهودية في نظرهم هي مصدر الاسلام الأول ، ولاسباب سياسية تتصل بخدمة الصهيونية فكرة أولا ثم دولة ثانيا^(٩٩) . ومن هؤلاء المستشرقين المستشرق اليهودي الهجرى « جولد نسيهر ، وقد افترى هذا المستشرق كثيرا على الاسلام فحاول التشكيك في الكتب الستة مرة وهدم السنة بأسرها مرة أخرى وهكذا في كل آرائه المسمومة .

الطمعن في الكتب الستة والرد على ذلك

قال جولد نسيهر : « ومن السهل أن يفهم أن وجهات نظرهم - يعني المسلمين - ليست كوجهات النظر عندنا تلك التي تجد لها مجالا كبيرا في النظر في تلك الاحاديث التي اعتبرها النقد الاسلامي صحيحة غير مشكوك فيها ووقف حياها لا بحرك ساكنا ولقد كان من نتائج هذه الأعمال النقدية الاعتراف بالكتب الستة أصولا ، وكان ذلك في القرن السابع الهجرى فقد جمع فيها علماء من رجال القرن الثالث الهجرى أنواعا من الاحاديث كانت مبعثرة ، وأوها أحاديث صحيحة^(١٠٠) .

(٩٨) القرآن والنبي للدكتور عبد الحلیم محمود ص ٣٧٠ .

(٩٩) المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الاسلام ص ١٢ الدكتور محمد البهي ط مطبعة الأزهر .

(١٠٠) العقيدة والشريعة في الاسلام ص ٥٠ : جولد نسيهر ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى وزملائه .

الرد على ذلك : أن في هذا الكلام محاولة للتشكيك في قيمة الكتب الستة وقد بنى ذلك على ادعائه ضعف موازين النقد عند المسلمين ، وأن وجهة نظر نقادهم تختلف عن وجهة نظر النقاد الاجانب الذين لا يسلمون بصحة كثير من الاحاديث ، ثم رتب بعد ذلك نتيجته الخبيثة وهي : أنه كان من نتائج هذه الأعمال النقدية الاعتراف بالكتب الستة ... الخ .

اما بالنسبة لاختلاف وجهة نظر النقد المسلمين عن وجهة نظر النقاد الاجانب فهذا أمر طبيعي .

أولا : لأن نقاد الاسلام يؤمنون بالله ورسوله ويصدقون بكل ما جاء به الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه ، فسلموا - بعد التحقيق العلمي - بصحة كثير من أحاديث الغيبات والعقائد بخلاف الاجانب الذين لا يؤمنون برسالة الرسول .

ثانيا : ان النقد الاسلامي قام على قواعد دقيقة وأصول ثابتة لها قيمتها ووزنها العلمي ولا تعرف الدنيا أدق من موازين النقد التي وضعها المسلمون لقبول السنن أوردوها وقد شهد بذلك الكثير من الاجانب ، وما دام الأمر كذلك ، فماذا يضيرنا اختلاف وجهة نظرهم؟؟

اما ما أورده هذا المستشرق من أمر الكتب الستة ، وان أحاديثها كانت مبشرة فضمها مؤلفوها في القرن الثالث ورأوا أنه صحيحة - فهي شبهة واهية لا أساس لها لأنها تؤدي الى انكار الجهود المخلصة التي بذلها علماء الاسلام في القرنين : الأول والثاني من أجل حفظ السنة وحماتها .

فالسنة ما كانت مبشرة ، وانما معظمها كان عمليا يطبقه المسلمون ، ويهتدون به ويحفظونه في قلوبهم الواعية ، وكتبهم الصادقة الأمانة . وهكذا انتشرت السنة من عهد الصحابة والتابعين ، وفي القرن الأول والقرون التالية وظلت السنة محفوظة في القلوب وفي الصحف حتى دونت في الكتب المصنفة في منتصف القرن الثاني الهجري .

وبما أن الكتب الستة قد سبقها في القرن الثاني كتب مصنفة ، ومسانيد دونت بعد هذه الكتب وقبل الكتب الستة ، وبما سبق بيانه في دراسة الكتب الستة ومناهج تدوينها والشروط التي التزمها مصنفوها ، ونقدهم للمتون وللرجال الذين يروون عنهم ، كل ذلك يفيدنا يقينا صادقا أن الأئمة الستة اختاروا هذه الاحاديث التي دونوها في كتبهم من الالف التي كانت عند الائمة الحفاظ متوخين جمع الصحيح منها .

دعوى أن التدوين كان بعد منتصف القرن الثالث

وعن تبع المستشرقين في جرأتهم وفريتهم «أبورية» حيث قال في ذكر اطوار التدوين : وبهذا يخلص لك أن التدوين الصحيح لم يكن إلا بعد منتصف القرن الثالث إلى القرن الرابع^(١٠١) .

الرد على هذه الشبهة :

وهذه الدعوى السابقة ان كان يريد بها كاتبها ان التدوين العام لم يكن الا بعد منتصف القرن الثالث الى القرن الرابع ، فهو غير صحيح ، لأن التدوين انما بدأ في اوائل القرن الثاني واتسع في آخر هذا القرن ثم ازدهر بعد ذلك في القرن الثالث من اوله لا من منتصفه ، ولدينا من الكتب المدونة ما يشهد تاريخ وفاة أصحابها بما يرد هذه الدعوى من أساسها ، مثل كتاب الموطأ «للامام مالك المتوفى سنة ١٧٩ هـ» ألفه في القرن الثاني ، والمسند للامام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ هـ ألفه قبل منتصف القرن الثالث ، واما ان كان صاحب هذه الدعوى يريد ان تدوين الحديث الصحيح لم يكن الا بعد منتصف القرن الثالث : فكلامه غير صحيح أيضا لأن تدوين الحديث الصحيح على حدة انما كان على يد الامام البخارى ومسلم ، وهما في النصف الأول من القرن الثالث الهجرى وكونه يذكر امتداد التدوين الى القرن الرابع ، فهذا غير مسلم ، لأن القرن الرابع لم يكن عصر التدوين ، وانما عصر التهذيب والتنسيق والاستخراج والاستلراك وما الى ذلك .

(١٠١) أضواء على السنة ص ٢٣٣ أبورية .

اعتراف بعض المستشرقين بصحة بعض السنة

اعترف « دوزى » المستشرق بصحة قسم كبير من السنة النبوية التي حفظت في الصدور ودونت في الكتب بدقة بالغة وعناية لا نظير لها . وما كان يعجب لكثير من الموضوعات والمكتوبات تتخلل كتب الحديث فتلك كما يقول طبيعة الأشياء نفسها - بل للكثير من الروايات الصحيحة الموثوقة التي لا يرقى اليها الشك . « ونصف صحيح البخارى على الاقل جدير بهذا الوصف عند أشد المحدثين غلوا في النقد مع انها أى الروايات الصحيحة - تشتمل على أمور كثيرة يود المؤمن الصادق لو لم ترد فيها » (١٠٢)

هذا هو ملخص الدعوى كما أوردها الدكتور صبحى الصالحى مشيرا الى أن عبارة دوزى في الاصل أشد وقاحة من أن يوردها وأشار الى مرجعها بالفرنسية .

الاجابة : نرى هنا أن هذا المستشرق حاول أن ينصب الشرك حول بحوثه ، حيث مال الى الاعتراف بصحة قسم كبير من السنة النبوية ، بقصد غير شريف ، وفرض غير خالص للعلم ، وانما لمحاولة التجريح والنقد ، وهذا هو دأب المستشرقين يجهلون الامور ويصطنعون الانصاف المزيف للاسلام ليطمئن الباحث الى أفكارهم ثم يعمد الواحد منهم فيدس السموم للاسلام وأصوله . .

ولكن لم يعد خافيا عنا اعتراف المستشرقين بصحة بعض السنة النبوية أو اشادتهم ببعض محاسن الاسلام فاننا لا نتظر منهم اعترافا بشيء من ذلك ولا إطراء لبغض مبادئ الاسلام ومحاملة .

فإننا أعلم بترائنا ، وأدرى بحقائق ديننا ، وخصائص أصوله .

ولقد وضح لنا من البحوث السابقة ، درجة كل كتاب من الكتب الستة وفي مقدمتها صحيح البخارى وأصبح الامر من الواضح بمكان بحيث لم يبق لدينا مجال لشيء آخر ، من تمويه المستشرقين وتلييسهم الأمور .

(١٠٢) ع : ٤ / ٤ الحديث ومصطلحه د / صبحى الصالحى (٣٥) .

الباب الثالث

الجهود المتممة لأعمال علماء القرن الثالث

وفيه فصلان :

الفصل الأول : نهضة بعض الاعلام من العلماء بتدوين السنة وبالصناعة الحديثية في القرن الثالث الهجرى .

الفصل الثانى : علوم ومصنفات صاحبت تدوين السنة في هذا القرن .

الفصل الأول

نهضة بعض الاعلام من العلماء بتدوين السنة والصناعة الحديثية فى القرن الثالث الهجرى

قامت فى القرن الثالث الهجرى نهضة علمية شاملة عمت شتى الاقطار الاسلامية فى مكة والمدينة ، والعراق والاندلس والكوفة والبصرة وأصبهان ، والرى والشام ومصر ، واليمن وخراسان والجزيرة وغيرها وبرز فى هذا القرن اعلام كانت لهم جهودهم العلمية الهائلة التى يرجع لها الفضل فى التوجيه العلمى وإثراء الثقافة الاسلامية بدواوين السنة المعتمدة - وبالصناعة الحديثية الناهضة ، ومن بين هؤلاء الاعلام شيوخ لائمة السنة اخذوا منهم ورووا عنهم كالأئمة : على بن المدينى ، ومحمى بن معين ، وابى بكر بن أبى شيبة وأبى زرعة ، الرازى ، واسحاق بن راهويه ، وابن خزيمة ، والدارمى .

ومنهم من ليسوا شيوخا لهم ، كالأئمة : بقى بن غلذ وابن سعد والطبرى .

وكان من حق الشيخ ان يقدم على التلميذ ، وسيرا مع الترتيب التاريخى كذلك أن يقدم هؤلاء الاعلام على الأئمة الستة ، لانهم شيوخهم ولان بعضهم اسبق زمنا وأكبر سنا . ولكن منهجنا هنا ليس معنيا بالترتيب الزمنى اكثر ما هو معنى بالاعمال الحديثية وتدوين السنة النبوية .

ولما كان الأئمة قد اضطلعوا بمهام علمية مجيدة فى جوانب السنة النبوية . اشرفت بكتبهم الصحاح التى كادت لا تدع من صحيح الحديث النبوى الا التزر اليسير هذا رأيت أن أقدم الدراسة لهم عن هؤلاء الاعلام ، لان الدراسة لمصنفاتهم تعتبر دراسة عن تدوين

السنة في هذا القرن جملة ، فقد اعتمد العلماء على كتبهم في الاستنباط واستخرجوا منها أدلة الاحكام والاداب والمواعظ ، وتلقت الامة كتبهم بالقبول .

وكان من تمة البحث أن أضرم الى جهودهم جهود هؤلاء الشيوخ الاعلام الذين كانت لهم قدم راسخة في تدوين السنة ، وفي الصناعة الحديثية سندا وامتنا وكانت لهم مصنفاتهم النفيسة ، فهم بحق يعتبرون مشيدين ومقيمين لسلسلة المحدثين الذين ازدهر بهم هذا القرن . . .

وبالاضافة الى ما سبق فان دراسة جهود الأئمة الستة اعطتنا فكرة عن هؤلاء الشيوخ اذ ان التعرف على الاستاذ من خلال تلميذه النابه يكون اوثق في المعرفة وواقع في النفس . وفي حديثنا عن هؤلاء الاعلام سنعرض مواقف مجيدة ترينا كيف قام هؤلاء الأئمة بجهود ماضية وشاقة وتحملوا في سبيلها ما تحملوا ، وعمرسوا على خشونة العيش وشظف الحياة ، وركبوا في سبيل غايتهم المركب الصعب ، حتى صانوا هذا التراث النبوي الخالد حفظا في الصدور ، وتدوينا في الكتب ، ونقدا للرجال ومن هؤلاء الامام يحيى بن معين .

الامام يحيى بن معين

نسبه ونشأته :

هو أبو زكريا يحيى بن معين بن عون - وقيل غياث بدل عون - بن زياد بن بسطام بن عبد الرحمن المري - نسبة إلى مرة غطفان قبيلة كبيرة مشهورة - البغدادي الحافظ ، قيل انه من قرية نحو الانبار تسمى : « نقياي » وولد في سنة ثمان وخمسين ومائة ١٥٨ هـ . بهذه القرية ، وكان ابوه كاتباً لعبد الله بن مالك وقيل أنه كان على خراج الري فمات فخلف لابنه يحيى ألف ألف درهم وخمسين ألف درهم ، فانفق جميع المال على الحديث . ونشأ محبا للعلم والعمل فكان مثالا عظيما في التقوى والورع ، يقول الحق ولا يخشى في الله لومة لائم ، يقول ابن الرومي : (ما سمعت احداً قط يقول الحق في المشايخ غير يحيى بن معين وغيره كان يتحامل بالقول) وقال يحيى : ما رأيت على رجل قط خطأ إلا سترته وأجبت أن أزين أمره وما استقبلت رجلا في وجهه بأمر يكرهه ولين أبين له خطاه فيما بيني وبينه فان قبل ذلك والا تركته ، وكان يقول كتبنا عن الكذابين وسجرنا به التنور وكثيرا ما كان ينشد :

| | |
|-------------------------|---------------------------|
| المال يذهب حله وحرامه | طرا ويبقى في غد آثامه |
| ليس التقى بمتق لإلهه | حتى يطيب شرابه وطعامه |
| يطيب ما يحوى وتكسب كفه | ويكون في حسن الحديث كلامه |
| نطق النبي لنا به عن ربه | فعل النبي صلاته وسلامه |

كل ذلك يدل على ما كان عليه من ورع وتقوى ، وشدة التحرى والفحص للرجال . . . وكان بينه وبين الامام أحمد رضى الله عنه من الصحبة والألفة والاشترك في الاشتغال بعلوم الحديث ما هو مشهور ، ولا شك ان هذه الالفة نتيجة توافق الشخصيتين علما وعملا وورعا بالغا .

ومات الامام يحيى بن معين لسبع ليال بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وثلاثين ومائتين ، وعاش خمسا وسبعين سنة على الاصح ، وقيل سبعا وسبعين سنة الا بعض ايام وورثاه بعض المحدثين بقوله :

| | |
|--------------------------|-----------------------|
| ذهب العليم بعيب كل محدث | ويكل مختلف من الاسناد |
| ويكل وهم في الحديث ومشكل | يعيابه علماء كل بلاد |

وكانت وفاته بمدينة النبي ﷺ ، وغسل على الاعواد التي غسل عليها النبي ﷺ ، وقيل . إنه لما خرج من المدينة سمع في النوم هاتفا يقول : يا أبا زكريا اترغب عن جوارى ؟ فرجع وأقام بها ثم توفي وإذا صح هذا الخبر ، فانه يوضح مدى العلاقة الروحية التي تربط الامام يحيى بن معين بصاحب السنة المطهرة عليه افضل الصلاة والسلام بالاضافة الى خدماته الجليلة للسنة النبوية قال أبو حاتم : يحيى بن معين امام وقال النسائي : هو أبو زكريا الثقة المأمون احد الائمة في الحديث^(١) .

حياته العلمية :

كان ابن معين احد الائمة الاربعة الذين انتهت اليهم الزعامة في الحديث وهم : احمد بن حنبل ويحيى بن معين وعلي بن المديني وأبو بكر بن أبي شيبة وقال إنه أول من صف كتابا - بعد طبقات ابن سعد في تراجم المحدثين وتاريخ حياتهم .

وكان إماما حافضا متقنا لا يشق له غبار ، كتب كثيرا من الحديث وخلف من الكتب مائة قطر ، وقال علي بن المديني : انتهى العلم بالبصرة الى يحيى بن أبي كثير وقتادة ، وعلي الكوفي الى اسحق والاعمش ، وانتهى علم الحجاز الى ابن شهاب وعمرو بن دينار وصار علم هؤلاء الستة بالبصرة الى سعيد بن أبي عروبة وشعبة ومعمر وحماد بن سلمة وأبي عوانة ، ومن أهل الكوفة : سفيان بن عيينه ومالك وسفيان الثوري ، ومن أهل الشام الى الازاعي ، وانتهى علم هؤلاء الى محمد بن اسحاق وهشام ويحيى بن سعيد بن أبي زائدة ووكيع وابن المبارك وهو اوسع هؤلاء علما ، وابن مهدي ويحيى بن آدم وصار علم هؤلاء جميعا الى يحيى بن معين ، وقال احمد بن حنبل كل حديث لا يعرفه يحيى بن معين فليس هو بحديث وكان يقول : ها هنا رجل خلقه الله لهذا الشأن يظهر كذب الكذابين يعني يحيى ابن معين . وبذلك يتضح لنا أن يحيى بن معين كان إماما في الحديث عالما بكل جوانب السنة ، فقد استوعب الكثير وحصله فكانت له مكانته في نفوس العلماء ، وكان له التقدير العظيم منهم ، وظل مرجعا لكبار الائمة اذا اختلفوا في شيء رجعوا اليه .
ومن مؤلفاته :

١ - كتاب التاريخ والعلل وهو مرتب على حروف المعجم

٢ - كتاب معرفة الرجال وقد بلغ يحيى بن معين درجة سامية في معرفة الرجال ونقدمه ، وقال عبد المؤمن بن خلف النسفي سألت ابا علي صالح بن محمد : من أعلم

(١) وفيات الاعيان ج ٢ ص ٢٨٤ ، النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٧٢ . مرآة الخائف ج ٢ ص ١٠٠

بالحديث ؟ يحيى بن معين أم أحمد بن حنبل ؟ فقال : أما أحمد فأعلم بالفقه والاختلاف ، وأما يحيى فأعلم بالرجال والكنى . ويؤخذ من ذلك ان كل واحد من هذين الامامين قد تخصص في ناحية فحذقتها وأتقنها ، فالامام أحمد برع في مسائل الفقه ، الاحكام الشرعية وما يستتبعها من الاختلاف ، وأما الامام يحيى بن معين ، فإنه كان أعلم بالرجال والكنى ، يسبر أغوار الرجال ويحلل شخصياتهم ، ويعرف الثقات منهم ويقف على أحوال الرجال والحكم عليهم .

ومع هذا فلم يطلق ابن معين العنان لنفسه فيروى ما شاء من الاحاديث مطمئنا الى حفظه ومستندا الى معرفته بالرجال وانما كان يتحرى الدقة في روايته ، والحيلة فيها مخافة الخطأ قال يحيى إن لأحدث بالحديث فأسهر له مخافة ان أكون قد اخطأت فيه (٢) .

وكان يحيى بن معين مرجع الأئمة في معرفة الرجال ، قال العباسي ابن محمد الدوي « رأيت أحمد بن حنبل يسأل يحيى بن معين عند روح بن عباد من فلان ؟ وما اسم فلان ؟ »

فابن حنبل اذن كان يسأل ابن معين ، ويستفسر منه عن الرجال الذين لا يعرفهم ، وما ذلك الا لاحاطة ابن معين الكاملة بمعرفة الرجال ومكانتهم وأحوالهم ، ولذا شهد له ابن حنبل فقال : « يحيى بن معين اعلمنا بالرجال » كما شهد له النسائي بالامامة في الحديث والثقة والامانة .

وكيف لا ، وقد وقف على معرفة الرجال فألم بكل ما يتعلق بهم جرحا وتعديلا ، ودون من الاحاديث عددا هائلا يدل على أمانته واحاطته ، وتضلعه في السنة ورجالها ، يقول يحيى بن معين « كتبت بيدي الف الف حديث » (٣)

شيوخه وتلاميذه :

كان من شيوخ ابن معين الذين روى عنهم : عبد الله بن المبارك وسفيان بن عيينة وعبد الرحمن بن مولى وهيثم ووكيع ، ويحيى القطان وغيرهم .

(٢) تاريخ بغداد جـ ١٤ ، ص ١٨٤ وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٢٨٤ ، مرآة الجنان جـ ٢ ص ١٠٨ ، تاريخ الادب العربي جـ ٣ ص ١٦١ ، الحديث والمحدثون ص ٣٤٤ .

(٣) تذكرة الحفاظ للنهemy جـ ٢ ص ٤٢٩ ، الجرح والتعديل لأبن ابى حاتم ، القسم الثانى من المجلد الرابع .

ومن تلاميذه الذين روي عنه ، وسمعوا منه ، كبار أئمة الحديث أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري وأبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري ، وأبو داود السجستاني ، وأبو زرعة الرازي ، وأبو حاتم الرازي ، واحمد بن حنبل ومحمد بن سعد كاتب الواقدي ويعقوب بن شيبة .

وقد أجمع العلماء على إمامته وجلالته في هذا الشأن لاسيما فيما يتعلق بالجرح والتعديل وكشف حال الكذابين مع الثبوت والتمكن ، وقد دفعه صدقه وشدة تحريه في سماعه وروايته وتمكنه من نفسه أنه استقبل القبلة ورفع يديه يقول : « اللهم ان كنت تكلمت في رجل ليس هو عندي كذابا فلا تغفر لي » وهذا يدل على ثقته واحاطته بالحديث وعلمه بالجرح والتعديل وثبته في التمييز بين صحيح الحديث وسقيمه ونبوغه في هذا الفن مما جعل الامام أحمد بن حنبل يقول فيه « سماع من يحكى بن معين شفاء لما في الصدور » وروى عنه هو وأبو خيثمة وكانا من اقرانه ، وقد عدّه الحاكم في كتابه : (علوم الحديث) من فقهاء المحدثين ، وبهذا نرى مدى منزلته العلمية في نفوس الأئمة الكبار من معاصريه (٤)

(٤) وفيات الاعيان ج ٢ ص ٢٨٤ .

منهج ابن معين فى نقد الرجال

كان يحيى بن معين ممن يتقيه الرجال ويخافونه ، فلا يستقبلونه الا بالاحاديث المستقيمة ومن أجل هذا وثق ابن معين رجالا لسماعه منهم جملة من الاحاديث المستقيمة ، وفى الواقع انهم لا يبعد الخلط عنهم . ولما كان كذلك ، فان ائمة النقد نظروا فيمن وثقه يحيى بن معين للتأكد من صحة هذا التوثيق . فقد يقرونه ، الا انهم لم يردوا توثيقه كما ردوا توثيق ابن حبان والحاكم لانه لم يبلغ فى التساهل ما بلغاه .

ويمكننا تحديد منهجه فى النقد باستقراء آراء بعض الائمة المحققين ، ونقدمهم للرجال ، وبيان موقفهم من توثيق يحيى بن معين لكثير من المجرحين .

مثال ذلك : محمد بن قيس الهمداني ، عن ابن عمرو عن ابراهيم النخعي ، وعنه سفيان بن سعيد وأبو عوانة ، وضعفه احمد بن حنبل ، اما يحيى بن معين فوثقه .

ومثل : محمد بن كثير بن قرشى الكوفي ابى اسحاق عن ليث والحرث بن حصيرة ، قال احمد بن حنبل مزقنا حديثه ، وقال البخارى : كوفى منكر الحديث ، وقال بن المدينى كتبنا عنه عجائب ، وخططت على حديثه ، يقول الذهبي : ومن مناكيره عن عطية عن ابى سعيد مرفوعا « اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله »^(٥) فرواه ابن وهب عن الثورى عن عمرو بن قيس قال : كان يقال : اتقوا . . . الخ ، فذكره . اما يحيى بن معين فيقول فيه شيعى ولم يك به بأس .

ومثل محمد بن مسلم ، ويقال محمد بن مهران بن مسلم بن المثنى عن جده ابى المثنى قال الفلاس روى عنه داود الطيالسى مناكير ، وقال ابن مهدي لين الحديث ، قال الذهبي قد وثقه ابن معين فيما حكاه ابن القطان .

مثل النضر ابن عروى ابى روح العامرى الجزرى : قال عثمان بن سعيد الدارمى ليس بذاك وقال ابن سعيد لم يكن بذاك وقال النسائى : ليس بالقوى ، وقال ابن معين ثقة

(٥) ميزان الاعتدال حرف « الميم » .

وقد قرر الشيخ المحدث عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني : (أن عادة بن معين في الرواة الذين أدركهم انه اذا اعجبته هيئة الشيخ يسمع منه جملة من احاديثه فلماذا رأى احاديث مستقيمة ظن أن ذلك شأنه فوثقه ، وقد كانوا يتقون يحيى بن معين ويخافونه ، فقد يكون احدهم ممن يخلط عمدا ولكنه حين يعلم ان في مجلسه يحيى بن معين يستقبله باحاديث مستقيمة ، ولما يبعد الخلط عنه فإذا وجدنا ممن ادركه ابن معين من الرواة من وثقه ابن معين وكذبه الاكثرون أو طعنوا فيه طعنا شديدا فالظاهر انه من هذا الضرب ، فانما يزيده توثيق ابن معين وهنا لدلالته على أنه كان يتعمد ، ويفيد هذا في ان من لينه يحيى بن معين أو ضعفه فانما يكون ذلك بعد استفاد كل وسائل الاعذار ويكون من هذا شأنه انما حكم عليه يحيى بعد تدبر وتقص ومن ثم يكون حكمه بجرحه لا يثلم بحال)^(٦) .

شبهة على منهج ابن معين في التوثيق :

من المعلوم ان التعديل مراتب ولكل مرتبة ألفاظ ، واصطلاحات خاصة بها فمثال المرتبة الاولى قولهم (ثقة ثقة) بتكرار اللفظ ومثال الثانية (ثقة) بدون تكرار ومثال الثالثة (لا بأس به) وهكذا . . . وقد اشبهه على البعض أن يحيى بن معين لا يفرق بين المرتبة الثانية والثالثة من مراتب التعديل وإنما يسوى بينهما ، وينوا الحكم على قول ابن خيثمة : قلت ليحيى بن معين : انك تقول « فلان ليس به بأس » وفلان « ضعيف » ؟ قال اذا قلت لك ليس به بأس فهو ثقة ، واذا قلت لك : هو ضعيف فليس هو بثقة لا تكتب حديثه . ففهم البعض من ذلك أن درجة من يقول فيه (ليس به بأس) هي درجة من يقول فيه (ثقة) .

الجواب على ذلك : هو أنه لا يؤخذ من قول ابن معين السابق ، ان من يقول فيه ليس به بأس مثل من يقول فيه (ثقة) ، وان مقالته السابقة لا تفيد المساواة بين العبارتين ، وليس هذا مراد ابن معين ، وإنما مراده - والله اعلم - ان من قال فيه (ليس به بأس) فهو داخل في مضمون الثقة وهي مراتب كما سبق بيانها وان مرتبة ثقة اعلى من مرتبة (ليس به بأس) فهما مختلفان وان اشتركا في مطلق الثقة^(٧) .

(٦) مجلة الأزهر عدد صفر سنة ١٣٩٢ هـ من بحث للاستاذ محمد نجيب الطبعي .

(٧) فتح المغيث ج ٢ ص ٣٩ .

علي بن المديني

نسبه ونشأته :

هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن جعفر ابن يحيى بن بكر بن سعيد ، وقيل : جعفر بن نجيج بن بكر المديني ثم البصرى الحافظ الثقة . ولد سنة احدى وستين ومائة من الهجرة ونشأ على العلم والعمل . وكانت له مناقبه الجمة ، لولا انه كدر ذلك بتعلقه بشيء من مسألة خلق القرآن ، ولكنه تخلى بعد ذلك عن هذا القول ، وندم على ما كان منه في هذا الموقف .

وكان الامام احمد بن حنبل يقدره ويحمله ، قال أبو حاتم : كان ابن المديني عالما في الناس في معرفة الحديث والعلل وما سمعت أحمد بن حنبل سماه قط ، وانما كان يكنيه تبجيلا له وقد شهد له بالفضل شيوخه الذين أخذ عنهم ، ومن هؤلاء شيخه سفيان بن عيينة الذي كان بينه وبين ابن المديني من المحبة والاكبار الشيء الكثير حتى قال ابن عيينة : (يلوموني على حب علي بن المديني والله لقد كنت اتعلم منه أكثر مما يتعلم مني) وقد رأى ابن المديني فيما يرى النائم ما يبشر له المكانة العالية كما فسر ذلك بعض العلماء ، قال أبو قدامة السرخسي : سمعت علي بن المديني يقول رأيت فيما يرى النائم كأن الشيا نزلت حتى تناولتها ، قال أبو قدامة فصلق الله رؤياه ، فبلغ في الحديث مبلغا لم يبلغه أحد (٨) .

ونشأ علي بن المديني نشأة علمية يرجع فيها الى كبار العلماء ويذاكر الأئمة العظماء حتى بلغ مبلغا عظيما في العلم فقدره العلماء أيما تقدير وشهدوا له بالفضل والامامة ، ومن ذلك التقدير ما شهد به البخارى لشيخه علي اذ يقول : ما استصغرت نفسي الا عند علي ابن المديني .

وقد عرف ابن المديني بالعلم والفضل ، واما ما قيل فيه من أنه اجاب الى القول بخلق القرآن كما سبقت الاشارة اليه فذلك راجع الى أنه انما اجاب خشية السيف . قال

(٨) تهذيب التهذيب جـ ٧ ص ٣٥٢ ، ص ٣٥٧ ، تاريخ الادب العربي جـ ٣ ص ٢٢٠ . طبقات الشافعية الكبرى جـ ٢ ص ٢٤٦ ، تاريخ بغداد جـ ١٤ ص ١٨٢ .

ابن خندي سمعت بن ابن يوسف القلوصي ، سمعت ابن يقول (قلت لابن المديني : مثلك في علمك يجيب الى ما أجبته اليه ؟ فقال : يا أبا يوسف ما أهون عليك السيف . وقال : خفت أن أقتل ولو ضربت سوطا واحدا لمت ، هذا مع ملاحظة انه رجع عما قال واطهر توبته من ذلك .

حياته العلمية :

عاش ابن المديني حياة علمية خصبة كثريها انتاجه ، وزادت مؤلفاته ، وأصبح من ائمة الحديث الكبار وخاصة ما يرجع الى الرجال والعلل ، ولهذا عرف العلماء له فضله ، وشهدوا له بالمعرفة والتقدم ولا غرابة في هذا فهو من بيت علم وفضل .

شيوخه وتلاميذه :

ومن شيوخه الذين اخذ عنهم ، أبوه ، وحامد بن زيد ، وسفيان بن عيينة وهيثم وابن وهب ، وعبد الوارث ، والوليد بن مسلم ، ويحيى القطان ، وعبد الرحمن المهدي ، وابن علية وعبد الرزاق وغيرهم .

ومن تلاميذه : محمد بن يحيى الذهلي ، والبخاري ، وابو داود ، والنسائي والترمذي وابن ماجه وأبو يعلى الموصلي ، واحمد بن حنبل ، وعبد الله البغوي وآخرهم موتا عبد الله بن محمد بن أيوب الكاتب .

ولابن المديني تصانيف كثيرة نحو مائتين ، قال العلامة محيى ندين النوري . لابن المديني نحو مائتي مصنف ، منها « كتاب معرفة من نزل من الصحابة سائر البلدان » في خمسة أجزاء لطيفة . وذكر الحاكم في معرفة علوم الحديث جملة وافرة من مؤلفاته تدل على رسوخ قدمه واتساع أفقه في علوم السنة ، فمن ذلك « كتاب الاسامي والكنى » ثمانية اجزاء (وكتاب الضعفاء) عشرة اجزاء (وكتاب المدلسين) خمسة أجزاء (وكتاب الطبقات) عشرة أجزاء (وكتاب علل المسند) ثلاثون جزءا (وكتاب علل حديث ابن عيينة) ثلاثة عشر جزءا و (كتاب من لا يحتج بحديثه ولا يسقط) جزءان (وكتاب العلل المتفرقة) ثلاثون جزءا ، (وكتاب مذاهب المحدثين)^(٩) وغير ذلك .

وهذه المؤلفات النفيسة الكثيرة تدل على تبحره في هذا العلم وتمكنه وسعة أفقه وقد

(٩) الرسالة المستطرفة ص ١٢٧ .

كان متقنا لدرجة عالية . روى ابن ابي حاتم الرازي عن محمد بن مسلم بن وارة ، وسئل عن علي بن المديني ويحيى بن معين : أيهما احفظ ؟ قال : كان علي أسرد وأتقن ، وكان يحيى بن معين أفهم بصحيح الحديث وسقيمه . وكان ابن المديني المرجع للعلماء اذا حنلقوا في شيء تكلم فيه ، قال صاعقة : كان ابن المديني اذا قدم بغداد تصدر الحلقة ، وجاء يحيى واحمد بن حنبل والناس يتناظرون ، فاذا اختلفوا في شيء تكلم فيه ابن المديني بما هذا الا لمعرفة قدره ، ولأنه بلغ في العلم مبلغا عظيما يرجع اليه فيه . وتوفى ابن مديني سنة أربع وثلاثين ومائتين ليومين بقيا من ذى القعدة (١٠) .

(١٠) الكمال في اسماء الرجال ج٢ ص ٢٣٩ . مخطوط بدار الكتب المصرية ، تذكرة الحفاظ ج٢ ص ٤٢٨ ، طبقات الشافعية الكبرى ج٢ ص ١٤٦

الإمام أبو بكر بن أبي شيبة

نسبه ونشأته :

هو الامام الحافظ عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن عثمان ، أبو بكر العبسي المعروف بابن أبي شيبة من أهل الكوفة . ولد سنة ١٥٩ هـ تسع وخمسين ومائة .

ونشأ نشأة علمية ، شهد له العلماء بالعلم والفضل ، قال ابن حبان : كان متقنا حافظا ديننا عن كتب وجمع وصنف وذاكر ، وكان أحفظ أهل زمانه ، وقال أبو زرعة : ما رأيت أحفظ منه ، وقال نبطويه لما قدم أبو بكر بن أبي شيبة بغداد في أيام المتوكل حرزوا مجلسه بثلاثين الفا . أ . هـ .

وهذا يدل على انه كان على قدم راسخة في العلم ، كما يدل على محبة الناس له ، وأقباهم على مجالسه العلمية ، ولا غرابة في ذلك فهو أحد الائمة الاعلام ، وصاحب التصانيف الكبار^(١١) .

حياته العلمية :

قال ابو عبيد القاسم : انتهى العلم الى أربعة : فأبو بكر أسردهم له ، واحمد أفقههم فيه ، ويحيى أجمعهم له ، وعلى أعلمهم به . وقال أبو زرعة الرازي : ما رأيت أحفظ من أبي بكر بن أبي شيبة . وبهذا يتبين لنا من شهادات الائمة له انه كان على قدم راسخة في العلم والحفظ والاتقان .

شيوخه وتلاميذه :

روى عن ابي الاحوص وابن المبارك وشريك وهيثم وجريير بن عبد الحميد ووكيع وابن عطية ، وابن مهدي والقطان ، وابن عيينه ، وأبي خالد الاحمر ، وعبد الاعلى بن عبد الاعلى ومحمد بن فضيل ويزيد بن هارون وغيرهم .

(١١) تهذيب التهذيب ج ٦ ص ٢ ، مرآة الجنان ج ٢ ص ١٩٦ .

وروى عنه : البخارى ومسلم وأبو داود وابن ماجه . وروى له النسائى بواسطة احمد ابن على القاضى وابن ابى شيبه ابراهيم واحمد بن حنبل ومحمد بن سعد وأبوزرعة وأبو حاكم وعبد الله بن أحمد بن حنبل وإبراهيم الحرى وكثيرا (١٢) .

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : ريانو الحديث أربعة : فأعلمهم بالحلال والحرام حمد بن حنبل ، وأحسنهم سياقة وأداء له على بن المدينى وأحسنهم وضعا لكتاب ابن ابى شيبه . وأعلمهم بصحيح الحديث وسقيمه يحيى بن معين .

وقال صالح بن محمد : أعلم من أدركت بالحديث وعلمه على بن المدينى ، وأعلمهم بتصحيح المشايخ يحيى بن معين ، واحفظهم عند المذاكرة أبو بكر بن ابى شيبه .

وهكذا تطالعنا أقوال الائمة والحفاظ وشهادات أهل الخبرة والتوثيق على أن أبابكر ابن ابى شيبه كان أحد هؤلاء الائمة الذين انتهى الحديث اليهم حفظا وتدوينا وبلغوا فى فهمه مبلغا عظيما ، ولما كان هؤلاء الائمة مكانتهم العظيمة فى النفوس فان العلماء قد درسوا معارفهم وبيّنوا تخصصاتهم ، وما يتميز به كل واحد منهم فى الحفظ وفى معرفة الرجال ، أوفى علل الحديث وهكذا . . .

ولقد كان أبو بكر بن أبى شيبه موضع ثقة العلماء ، قال أبو عبد الله محمد بن عمر بن العلاء الجرجانى سمعت يحيى بن معين - وسألته عن سماع أبى بكر بن أبى شيبه من شريك فقال : أبو بكر عندنا صدوق ولو ادعى السماع من أجل من شريك لكان مصدقا فيه .

وتوفى رضى الله عنه سنة ٢٣٥ هـ ، قال محمد بن عبد الله الحضرمى ، مات عبد الله بن محمد بن ابى شيبه وقت العشاء الآخرة ليلة الخميس لثمان مضت من المحرم سنة خمس وثلاثين ومائتين (١٣) .

وقال عمر بن على : ما رأيت أحفظ للحديث من أبى شيبه ، قدم البصرة فاجتمع مع ابن المبارك وابن الشاذكونى فعجى ذكر الشيبانى فسرده أبو بكر أربعمئة حديث حفظا للشيبانى .

إنها إذاً حياة حافلة بجهود مذكورة مشكورة فى خدمة السنة النبوية تشهد لهذا الامام الجليل بالتبحر والتضلع وبالامامة والفضل .

(١٢) تهذيب التهذيب ج ٦ ص ٢ ، الرسالة المستطرفة ص ٤٠ ، مقدمة تحفة الأحوذى ج ١ ص ٣٣٤ .

(١٣) الكمال فى اسماء الرجال ج ٢ ص ١١٧ مخطوط بدار الكتب المصرية ، تاريخ بغداد ج ١٠ ص ٦٩ .

مصنف الامام أبى بكر بن أبى شيبة

يعتبر مصنف ابن أبى شيبة من أعظم الكتب المصنفة فى احاديث الاحكام دون فيه الاحاديث النبوية بأسانيدھا ، وهو من الآثار الهامة ، ويقع فى ثمانية مجلدات وهى موجودة فى مكتبة محمد مراد البخارى المعروف بمراد ملا فى جهاز شنية فى حى الفاتح فى استانبول تحت رقم ٥٩٤ - ٦٠١ ، وتوجد نسخة من مصنف ابن أبى شيبة محفوظة فى مكتبة السلطان احمد الثالث تحت رقم ٢٦٠ فى استانبول ايضا الا أنها ينقصها المجلد الثامن ، وفى الهند نسخ أخرى كما فى نوادر المخطوطات وتوجد بعض أجزاء منه مخطوطة فى دار الكتب المصرية تحت رقم ٨٠٢ . ويعتبره كثير من الباحثين أنه أجمع كتاب الف فى احاديث الاحكام .

منهج أبى بكر بن أبى شيبة فى مصنفه :

منهج الامام ابو بكر بن أبى شيبة فى تأليف مصنفه منهج التأليف على الابواب فرتبه على الابواب الفقهية ، ودون فى كل باب من أبوابه ما ورد فيه من الاحاديث ، سواء كانت مرفوعة أو مرسلة أو موقوفة ، مع ضم أقوال الصحابة وفتاوى التابعين ، ويذكر فى المسألة أقوال أهل العلم فيها مما يسهل على الباحث معرفة الحكم فى مسألة ما إن كانت اجماعية أو خلافية .

وقد سار على منهج ابن أبى شيبة تلميذه بقى بن مخلد الاندلسى فى مصنفه ، وعندما ادخل المصنف لابن أبى شيبة فى الاندلس ثار المالكية من أهل الاندلس لأنهم تعودوا الا يصغوا لغير حديث « الموطأ » واحاديث أهل المدينة .

اشتمل كتاب ابن أبى شيبة على باب خاص عقده للرد على الامام أبى حنيفة فى خمس وعشرين ومائة مسألة بآثار يسردها فى كل باب ثم يذكر عقب كل باب العبارة الآتية : « وذكر ان ابا حنيفة قال كذا » وقد انتقد بعض العلماء ردود ابن أبى شيبة فى عدم ذكر المسند الى أبى حنيفة عندما يعزوه اليه بعض الآراء ، قال الاستاذ محمد زاهد الكوثرى رحمه الله فى ابن أبى شيبة انه « لا يسند الرأى الذى يعوزه الى أبى حنيفة بسند يسوقه ، ولو فعل هذا لكان أبرأ لذمته وأتم فائدة » (١٤) .

(١٤) النكت الطريفة للتحدث عن ردود ابن أبى شيبة على أبى حنيفة للاستاذ محمد زاهد الكوثرى ط مطبعة الانوار الطبعة الاولى سنة ١٣٦٥ هـ .

لم يرد عن الامام أبي بكر بن أبي شيبة تصريح بشرطه في مصنفه ، ولكنه من الممكن
استنتاج شرطه من سير بعض احاديث الكتاب ، وما قيل فيه من آراء علمية منصفة .

فان الامام ابا بكر بن أبي شيبة لم يشترط في كتابه تخريج الصحيح فقط ، وانما اخرج
لصحيح وغيره ، فأخرج المرفوع ، والمرسل ، والمقطوع ، والموقوف ، وأقوال الصحابة
والتابعين وقد وضعه « ولي الله الدهلوي » في الطبقة الثالثة من طبقات كتب الحديث :
حيث جعل الطبقة الاولى في الموطأ والصحيحين .

وجعل الطبقة الثانية : منحصرة في سنن أبي داود وجامع الترمذي ومجتبى النسائي
وكاد مسند أحمد يكون من جملة هذه الطبقة .

وجعل الطبقة الثالثة : « مسانيد وجوامع ومصنفات صنف قبل البخاري ومسلم
في زمانها وبعدهما جمعت بين الصحيح والحسن والضعيف والمعروف والغريب والشاذ
المنكر والخطأ والصواب والثابت والمقلوب ولم تشتهر في العلماء ذلك الاشتهار وإن زال عنها
سم النكارة المطلقة^(١٥) وذكر أمثلة لذلك مثل مسند أبي يعلى ومصنف عبد الرزاق ،
مصنف أبي بكر بن أبي شيبة .

ويتضح مما سبق أن الإمام ابا بكر بن أبي شيبة قد شارك في طريقة تأليف مصنفه
الامام مالكا في « الموطأ » حيث رتبته ترتيبا فقهيا ، ويوبه تبويا موضوعيا ومزجه بأقوال
الصحابة والتابعين الا أنه اختلف عن الموطأ في درجة الاحاديث ، لان الموطأ أعلى منه في
درجة أحاديثه ، كما أنه شارك أيضا الامام ابا داود في « سننه » حيث رتبته نفس الترتيب
تفقهى وجمع أحاديث الاحكام الا أن درجة سنن أبي داود أعلى من درجة مصنف ابن أبي
شيبه ، وقد جعله « الدهلوي » كما سبق ضمن الطبقة الثالثة .

(١٥) حجة له البالغة ج ١ ص ١٠٧ .

أمثلة من المصنف

وقد عقد ابن أبي شيبة كما سبق بابا بعنوان : (هذا ما خالف به أبو حنيفة الأثر الذي جاء عن رسول الله ﷺ) ومن أمثلة ما أورده :

١ - قال : « حدثنا ابن عيينة عن الزهري عن حميد بن عبد الرحمن عن محمد بن النعمان عن أبيه أن أباه نحله غلاما ، وأنه أتى النبي ﷺ ليشهده ، فقال : « أكل ولدك نحلته مثل هذا ؟ » قال : لا . قال : فاردده .

حدثنا عباد عن حصين عن الشعبي قال سمعت النعمان بن بشير يقول : أعطاني أبي عطية فقالت أمي - عمرة بنت رواحة - لا أرضى حتى تشهد النبي ﷺ ، قال : فاتى النبي ﷺ فقال : انى أعطيت ابني من عمرة عطية فأمرتنى ان أشهدك . قال : « أعطيت كل ولدك مثل هذا ؟ » قال : لا . قال : فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم .

حدثنا ابن مسهر عن أبي حبان عن الشعبي عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ انه قال : « لا أشهد على جور . »^(١٦) وذكر أن أبا حنيفة قال : لا بأس به ، فالامام أبو بكر بن أبي شيبة في هذا الموضوع أورد الحديث ، وذكر قول أبي حنيفة في المسألة وهو : « لا بأس به » .

وإذا نظرنا إلى رأى الجمهور في المسألة نرى أنهم يحملون الامر بالتسوية على الندب ، منهم مالك والليث والثوري والشافعي وأبو حنيفة وأصحابه ، وأجازوا أن يخص بعض بنيه دون بعض بالنحلة والعطية ، والتسوية أحب الى الجميع . ويرى البعض وجوب التسوية بينهم في العطية ومن هؤلاء ابن المبارك وأحمد والظاهرية وبعض المالكية ، لظاهر بعض الالفاظ ولأن التسوية مقدمة الواجب لأن قطع الرحم والعقوق محرمان فما يؤدي اليهما يكون محرما ، والتفضيل مما يؤدي اليهما .

وسبب اختلاف الفقهاء في حمل تلك الاحاديث على الرجوب أو على التندب هو اختلاف الفاظها فنقوله : في هذا (فارجه) وقوله في الآخر : (أشهد على هذا غيرى)

(١٦) أخرج الحديث ابن أبي شيبة ، والطبراني بلفظ « اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم » .

وفي احمر (يسرك أن يكونوا في البر سواء ؟) تدل على الندب ، وهناك الفاظ تؤدّن بالوجوب مثل : (لا أشهد على جور) الا اذا حمل الجور على مجرد الميل لقرائن قائمة ، قال القاضي عياض : والجمع بين أحاديث الباب أولى من طرح بعضها ، ومن توهين الحديث بالاضطراب في ألفاظه ، ووجه الجمع : أن تحمل كلها على الندب ^(١٧) .

وأرى أنه يجوز أن يخص بعض ابنائه بشيء ، بشرط أن يكون سائر الاولاد راضين وأن التسوية أفضل ، والامر بها في الحديث محمول على الندب ، وليس على الوجوب لجواز هبة المرء بعض ماله للغريب ، وما يؤيد ذلك عمل الخليفتين أبي بكر وعمر بعد النبي ﷺ ، ويعدم التسوية ، أما أبو بكر فرواه الموطأ باسناد صحيح عن عائشة أن أبا بكر قال لها في مرض موته : إني كنت نحلتك نحلا فلو كنت اخترتني لكان لك ، وإنما هو اليوم للوارث ، وأما عمر فذكره الطحاوي وغيره أنه نحل ابنه عاصما دون سائر ولده ، وقد أجاب عروة عن قصة عائشة بأن إختوتها كانوا راضين بذلك ويحباب بمثل ذلك عن قصة عمر ^(١٨) .

٢ - وقال في مصنفه : « حدثنا ^(١٩) ابن عينية الزهري عن عبيد الله عن أم قيس بنت محصن قالت : دخلت بابن علي النبي ﷺ لم يأكل الطعام فبال عليه ، فدعا بماء فرشه .

حدثنا أبو الأحوص عن سماك عن قابوس بن المخارق عن لبابة بنت الحارث قالت : بال الحسين بن علي على النبي ﷺ ، فقلت : أعطني ثوبك والبس غيره فقال : « إنما ينضح من بول الذكر ، ويغسل من بول الانثى » .

حدثنا وكيع عن هشام عن أبيه عن عائشة أن النبي ﷺ أتى بصبي فبال عليه ، فأتبعه الماء ولم يغسله .

(١٧) النكت الطريفة ص ٢٢ للاستاذ محمد زاهد الكوثري .

(١٨) فتح الباري ج ٥ ص ١٣٢ .

(١٩) ومن أخرجه غير ابن أبي شيبة « البخاري » بنحوه ، من حديث أم قيس بنت محصن فتح الباري ج ١ ص ٢٨١ وأخرجه مالك في الموطأ ص ٤١ ، والترمذي ج ١ ص ١٠٥ تحقيق أحمد شاکر ، والامام احمد في المسند ج ٦ ص ٣٥٥ ، وابن سعد في الطبقات ج ٨ ص ١٧٦ من طريق صالح بن كيسان عن الزهري « وفيه فنضح عليه ولم يغسله » ورواه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه والطيالسي . ورواه الحاكم وصححه عن أم الفضل بنت الحارث والبيهقي في الشعب بنحوه وأقره المنذرى والذهبي وقال ابن حجر حديث حسن .

حدثنا وكيع عن ابن أبي ليلى عن جده أبي ليلى قال : كنا عند النبي ﷺ جلوسا فجاء الحسين بن علي يمجو جلس على صدره ، فبال فابتدرنا لتأخذه ، فقال النبي ﷺ : « ابني ابني ثم دعا بماء فصبه عليه . وذكر ان أبا حنيفة قال بغسله » .

فترى ان الامام ابا بكر بن أبي شيبة هنا قد اشار الى رأى أبي حنيفة في المسألة وهو الغسل بعد أن أورد من الاحاديث ما يدل على الفرق بين بول الأنثى حيث لا يكتفى بالنضح بل لابد من الغسل ، وبين بول الذكر حيث يكتفى بالنضح .

وقد اختلف العلماء في هذه المسألة على ثلاثة مذاهب ، هي اوجه للشافعية :

الأول : وهو أصح المذاهب الاكتفاء بالنضح في بول الصبي لا الجارية ، وهو قول على وعطاء والحسن والزهرى وأحمد واسحاق وابن وهب وغيرهم .

الثاني : ان يكتفى بالنضح في بول كل من الصبي والجارية ، وهو مذهب الاوزاعي ، وحكى عن مالك والشافعي .

الثالث : ان بول كل من الصبي والجارية سواء في وجوب الغسل وبهذا الرأى قال الحنفية والمالكية وقد ذكر العلامة ابن القيم وجه التفرقة بين بول الصبي والصبية فقال : « والفرق بين الصبي والصبية من ثلاثة اوجه : احدها : كثرة حمل الرجال والنساء للذكر فتحتم البلوى ببوله فيشق غسله . والثاني : ان بوله لا ينزل في مكان واحد بل ينزل متفرقا ههنا وههنا فيشق غسل ما أصابه كله بخلاف بول الانثى والثالث ان بول الانثى اخبث وانتن من بول الذكر وسببه حرارة الذكر ورطوبة الانثى فالحرارة تخفف من نتن البول وتذيب منها ما لا يحصل مع الرطوبة (١) » (أ . هـ) .

واذا نظرنا الى ما ذكره ابن القيم من التفرقة بين بول الصبي والصبية ، نجد أنه ذكر الامور السابقة كأسباب من أجلها اكتفى بالنضح من بول الذكر ، والغسل من بول الأنثى وقبل مناقشة كلام ابن القيم في ذلك ، والادلاء برأينا في المسألة ، لابد من ذكر شرط هام في ذلك وهو ألا يطعم الطبي الطعام . ففي الحديث ان أم قيس بنت محصن أتت باين لها صغير لم يأكل الطعام كما رواه البخارى ، وكما روى ابن أبي شيبة أنها قالت : « دخلت باين لي على النبي ﷺ لم يأكل الطعام » والمراد بالطعام هو ما عدا اللبن الذى يرتضعه ، والتمر الذى يحنك به ، وما يتعاطاه للمداواة بحيث لم يحصل له الغذاء بغير اللبن .

(٢٠) اعلام الموقعين ج٢ ص ٣١ .

ولنعد الى مناقشة كلام ابن القيم : أما ما ذكره أولا من كثرة حمل الرجال والنساء للذكر فليس حملهم للذكر عاما عند الجميع ، فالنفوس تختلف الطبائع ، متباينة الأمزجة ، وميول الناس ليست متفقة في ذلك وقد يجب البعض حمل الانثى اكثر من الذكر ، ولو كانت هذه العلة لاقتضى الامر الا يجب غسل ثياب النساء من بول الصبية لكون الابتلاء بذلك اشد في حقهن لاختصاصهن بالحمل للاولاد . وأما ما ذكره من أن بول الانثى اخبث من بول الذكر فقد صدق هذا الطب نظرا لاشتمال بول الانثى على بعض الافرازات (٢١) وأما ذره من ان بول الصبي لا ينزل في مكان واحد بل ينزل متفرقا ههنا وههنا فيشتق غسل ما اصابه كله بخلاف بول الانثى ، فهذا السبب لا يختلف فيه ظروف الصبي في كل مرة لتكوينه الخلقى ، وأيضا فقد اخرج الطحاوي عن ابن المسيب : « الرش من الرش والصب من الصب » يريد أن مخرج البول من الصبي ضيق فيكون بوله رشا فيكتفى فيه بالرش على موضع الاصابة ، ومن الصبية واسع فيكون بولها صبا فيصب فيه الماء على موضع الاصابة (٢٢) ، وعلى ذلك أرى ترجيح هذين السببين الاخيرين وهما خبث بول الانثى ونزول بول الصبي رشا متفرقا ، والله تعالى يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر .

وأما بالنسبة لمذاهب العلماء التي ذكرت وملخصها :

٢ - الغسل منها .

١ - النضح في بول الذكر والانثى

٣ - نضح بول الذكر وغسل بول الانثى .

فاننا نرجح المذهب القائل بالنضح في بول الصبي والغسل من بول الصبية لورود الاحاديث الصريحة الصحيحة في ذلك : ففي حديث البخارى : « فنضحه ولم يغسله » وفي حديث مالك : « فنضح عليه ولم يغسله » وهذا يرد قول من ذهب الى وجوب الغسل فيهما وفي الموطأ قال محمد : قد جاءت رخصة في بول الغلام اذا كان لم يأكل الطعام وأمر بغسل بول الجارية وغسلها جميعا أحب الينا وهو قول أبي حنيفة وحديث لبابة بنت الحرث عند أحمد وابي داود وابن ماجه مرفوعا : « انما ينضح من بول الذكر ويغسل من بول الانثى » وحديث ابى السمع عند أبى داود والنسائي وابن ماجه مرفوعا يغسل من بول الجارية ويرش من بول الغلام وهذا يرد فيقول من ذهب الى الاكتفاء بالنضح فيهما ، ولا مجال بعد هذا الى حمل البعض النضح والرش على الغسل ، أو حملهم « لم يغسله » على الغسل المبالغ فيه ، خاصة بعد وضوح الاحاديث السابقة .

(٢١) لأن بول الانثى عند خروجه يكون مختلطا ببعض افرازات المهبل الملاصق لقناة مجرى البول . من

٤ . أبو حاتم الرازي

نسبه ونشأته :

هو محمد بن ادريس بن المنذر بن داود بن مهران أبو حاتم الحنظلي الرازي أحد الأئمة الحفاظ الاثبات العارفين بعلم الحديث والجرح والتعديل وهو قرين أبي زرعة .

ولد سنة خمس وتسعين ومائة ونشأ على نور العلم والمعرفة فسمع الكثير وطاف الاقطار وروى عن كثير من الأئمة الكبار . جاء عنه أنه قال لابنه عبد الرحمن : يا بني مشيت على قدمي في طلب الحديث أكثر من ألف فرسخ^(٢٣) .

وأبو حاتم من قرية جزء بأصبهان وكان محبا للعلم من صغره فأنفق جميع ما يملك في سبيله وتحمل كثيرا من المشاق حتى حصل على طلبته قال عبد الله بن محمد بن يعقوب : سمعت أبا حاتم يقول : نحن من أهل أصبهان من قرية جزء وكان هُلنا يقدمون علينا في حياة أبي ثم انقطعوا عنا وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم : (سمعت أبي يقول : أول سنة خرجت في طلب الحديث أقممت سنين أحصيت ما مشيت على قدمي زيادة على ألف فرسخ ثم تركت العدد بعد ذلك)^(٢٤) .

وقال : سمعت أبي يقول : بقيت بالبصرة في سنة أربع عشرة ومائتين ثمانية أشهر وكان في نفسي أن أقيم سنة فانقطعت نفقتي فجعلت أبيع ثيابي شيئا بعد شيء حتى بقيت بلا نفقة ومضيت أطوف مع صديق لي الى المشيخة وسمع منهم الى المساء فانصرف رفيقي ورجعت الى بيت خال فجعلت أشرب الماء من الجوع ثم أصبحت من الغد وغدا لي رفيقي فجعلت أطوف معه في سماع الحديث على جوع شديد فانصرف عني وانصرفت جائعا فلما كان الغدا على فقال : مر بنا على المشائخ فقلت أنا ضعيف لا يمكنني قال : وما ضعيفك ؟ قلت : لا أكتمك امرئ قد مضى يومان ما طعمت فيهما فقال لي رفيقي : معر دينار فلما

(٢٣) طبقات الشافعية الكبرى ج ٢ ص ٢٠٧ تاريخ ابن كثير ج ١ ص ٤٤ معرفة علماء الحديث ج ١ ص ٧٦ .

(٢٤) طبقات الشافعية الكبرى ج ٧ ص ٢٠٨ .

اواسيك بنصفه وتجعل النصف الآخر في الكراء نخرجنا من البصرة فأخذت منه ألف دينار . كما عرف أبو حاتم بالعلم والورع وعرف الجميع فضله وتقواه وزهده في الدنيا .

فلم يكن لها من سلطان عليه ، ولا سبيل الى نفسه ، يقول محمد بن هارون الرازي : انشدنا ابو حاتم الرازي :

تفكرت في الدنيا فأبصرت رشدها وذلك بالتقوى من الله خدها
أسأت بها ظنا فاخلفت وعدها واصبحت مولاهم وقد كنت عبدها (٢٥)

(٢٥) تاريخ بغداد ج ٢ ص ٧٤ ، طبقات الشافعية الكبرى ج ٢ ص ٢١٠ .

حياته العلمية

وقد أجمع العلماء على علو شأنه في الحديث وعلوه ، وعده الحاكم من فقهاء الحديث ، وكان بارع الحفظ واسع الرحلة من اوعية العلم ، جاريا في مضمار البخارى وأبي زرعة رحمة الله عليهم .

وكان عارفا بعلم الحديث والجرح والتعديل ، ومن الأئمة الرحالين ، رحل الى خراسان والعراق والحجاز واليمن والشام ومصر^(٢٦) .

شيوخه وتلاميذه :

ومن شيوخ أبي حاتم الذين روى عنهم محمد بن عبد الله الانصارى ، وابوزيد النحوى وعثمان بن الهيثم المؤذن وهوذة بن خليفة وعبد الله موسى وعقاب بن زياد وأبو مسهر الدمشقى وأبو الجماهير محمد بن عثمان التنوخى وسعيد بن أبي مريم المصرى وأبو اليمان الحمصى ، وأمثالهم ، وكان أول كتبه الحديث سنة تسع ومائتين .

وروى عنه : يونس بن عبد الاعلى والربيع بن سليمان المصريان وهما اكبر منه سنا وأقدم سماعا ، وابوزرعة الرازى والدمشقى ، ومحمد بن عوف الحمصى ، وقدم بغداد وحدث بها وروى عنه من اهلها احمد منصور الرمادى ، وابراهيم بن اسحاق الحربى ، وقاسم بن زكريا المطرز ، وعبد الله بن محمد بن ناجية ، وأحمد بن اسحاق بن صالح ، وأبو بكر بن أبي الدنيا ، والقاضى المحاملى ومحمد بن مخلد الدرورى والحسين بن يحيى بن عياش القطان وغيرهم .

وكانت حياة أبي حاتم العملية مكتملة التحصيل ممتلئة ، وحصل كل ما كان موجودا لديه يمكن الحصول عليه حتى بلغت ثقته بكثرة ما جمعه أن قال يوما : من أغرب على حديثنا غربيا مسندا صحيحا لم أسمع به فله على درهم يتصدق به . . . ثم يفسر مقصد مقالته فيقول : ومرادى ان يلقى على ما لم اسمع به ليقولوا هو عند فلان فأذهب فأسمع ، وكان

(٢٦) مرآة الجنان ج٢ ص ١٩٢ ، النجوم الزاهرة ج٣ ص ٧٧ .

مرادى كذبت أن استخراج منهم ما ليس عددي فيما تهباً لأحد منهم ان يغرب على حديثاً ،
ويمكن أن نستنتج من هذا الخبر ان ابا حاتم قد حصل وحفظ كل حديث مسند صحيح في
زمنه وانه لم يكن موجوداً بينهم من احاط بشيء أكثر منه ، وقال احمد بن سلمة : ما رأيت
بعد اسحاق بن راهويه ومحمد بن يحيى احفظ للحديث ، ولا أعلم بمعانيه من أبي حاتم
محمد بن ادريس وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم : سمعت يونس بن عبد الاعلى يقول : أبو
زرعة وأبو حاتم اماما خراسان ودعا لهما ، وقال : بقاؤهما صلاح للمسلمين ، وقال
عبد الرحمن بن أبي حاتم : سمعت موسى بن اسحاق يقول : ما رأيت أحفظ من أبيك ،
وقال عبد الرحمن بن شعيب النسائي : محمد بن ادريس ابو حاتم الرازي ثقة : وقال هبة
الله بن الحسن الطبري : كان ابو حاتم الرازي اماماً عالماً بالحديث حافظاً له متقناً مثبناً .

وهذه الشهادات والآراء تنبئ عن مكانته العلمية ، ومدى فضله ومنزله التي كان
عليها في الثقة والحفظ والاتقان ، وسعة احاطته بمعرفة الحديث وتمكنه ورسوخ قدمه .

وقد رسم أبو حاتم منهجه في الاشتغال بالعلم تدويناً وحفظاً ومذاكرة ، قال ابن أبي
حاتم الرازي : سمعت أبي يقول : « اكتب احسن ما تسمع ، واحفظ احسن ما تكتب ،
وذاكر بأحسن ما تحفظ » وفي هذه العبارة الموجزة وضع ابو حاتم كيفية تدوين العلم وهي
ان يتحرى كتابة اصح ما يسمع ، وحفظ احسن ما يكتب وأن يذاكر ويدرس للناس
بأحسن ما يحفظ وذلك ليكون أكد في الشبث وأجدى في المعرفة وقد ذكر كتاب التراجم أن
لابي حاتم كتاب « طبقات التابعين » .

وأبو حاتم من اقران البخارى ومسلم ، وتوفى بالرى سنة خمس أو سبع وسبعين
ومائتين قال ابو نعيم : سمعت ابا محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حبان يقول :
سمعت احمد بن محمود بن صبيح يقول : سنة سبع وسبعين ومائتين فيها مات ابو حاتم
الرازي بالرى ، وقيل في شهر شعبان من السنة السابقة (٢٧) .

(٢٧) : تاريخ بغداد ج ٢ ص ٧٦ ، مرآة الجنان ج ٢ ص ١٩٢ .

مهارة أبي حاتم في معرفة صحيح الحديث وسقيمه

كان الامام ابو حاتم الرازي ماهرا في معرفة الصحيح والسقيم من الحديث ، وقد رزقه الله تعالى موهبة نادرة ، وعلمها وافرا . فكان شديد الملاحظة ، قوى الذاكرة سريع المعرفة والتمييز لصحيح الاخبار من سقيمها .

جاءه أحد اصحاب الرأي ومعه بعض الاحاديث التي دونها في دفتره ، فلما عرضها على أبي حاتم قال في بعضها : هذا حديث خطأ قد دخل لصاحبه حديث في حديث وقال في غيره : هذا حديث باطل وقال في آخر : هذا حديث منكر وقال في بعض آخر : هذا حديث كذب وسائر ذلك أحاديث صحاح ، فقال له الرجال من اين علمت ان هذا خطأ وان هذا باطل وأن هذا كذب ؟ اخبرك راوى هذا الكتاب بأني غطت وأني كذبت في حديث كذا ؟ فقال : لا ، ما ادري هذا الجزء من رواية من هو ؟ غير أني أعلم ان هذا الحديث خطأ ، وأن هذا الحديث باطل وأن هذا الحديث كذب فقال : تدعى الغيب ؟ فأجابه ابو حاتم قائلا : ما هذا ادعاء الغيب . ثم وجهه أبو حاتم الى من يحسن معرفة هذا الفن ، وهو الامام ابو زرعة ، ليثبت الرجل من حكم أبي حاتم ، ويضم الى علم علم أبي زرعة كذلك ، فأخذ الرجل الاحاديث وتوجه الى الامام أبي زرعة ولما عاد الى أبي حاتم - وقد كتب ما تكلم به أبو زرعة في تلك الاحاديث رأى ان ما قال فيه أبو حاتم : انه باطل قال فيه أبو زرعة : هو كذب ، وما قال فيه أبو حاتم : انه كذب قال فيه ابو زرعة : هو باطل ، قال ابو حاتم : « الكذب والباطل واحد » . حووجد ما قال فيه ابو حاتم منكر قال : هو منكر ، وما قال أنه صحاح قال ابو زرعة صحاح .

فقال الرجل : ما اعجب هذا ! تتفقان من غير مواطاة فيما بينكما . فقال ابو حاتم : انا لم نجازف وانما قلناه بعلم ومعرفة قد اوتيناه ، والدليل على صحة ما نقوله بأن ديناراً بهرجا يحمل الى الناقد فيقول هذا دينار بهرج ، ويقول لدينار : هو جيد ، فان قيل له : من أين قلت أن هذا بهرج هل كنت حاضرا حين بهرج هذا الدينار ؟ قال : لا ، فان قيل له : فاخبرك الرجل الذي بهرجه اني بهرجت هذا الدينار ؟ قال : لا قيل : فمن أين قلت ان هذا بهرج ؟ قال : علما رزقت ، وكذلك نحن رزقنا معرفة ذلك . ثم قال ابو حاتم : فتحمل فص ياقوت الى واحد من البصرياء من الجوهرين فيقول : هذا زجاج ، ويقول

لمثله : هذا يا قوت ، فان قيل له من أين علمت ان هذا زجاج وان هذا ياقوت . هن حضرت الموضوع الذى صنع فيه هذا الزجاج ، قال لا ، قيل له : فهل اعلمك الذى صاغه بأنه صاغ هذا زجاجا؟ قال : لا ، قال : فمن اين علمت؟ قال : هذا علم رزقت وكذلك نحن رزقنا علما لا يتهيا لنا ان نخبرك كيف علمنا بأن هذا الحديث كذب وهذا حديث منكر الا بما نعرفه (٢٨) .

وهكذا ترى ان الامام ابا حاتم الرازى كان على جانب عظيم من العلم الذى ألهمه الله تعالى إياه ، وتضلع فيه ، بحيث أصبح تمييز الصحيح من السقيم لديه أمرا يدركه لأول وهلة ، فهو يرى للحديث الصحيح ضوءا كضوء النهار ، يعرفه به ، ويرى للحديث السقيم ظلمة كظلمة الليل ينكره بها ، وينفر قلبه منه .

وكما قال البلقيني : « وشاهد هذا أن انسانا لو خدم انسانا سنين وعرف ما يجب وما يكره فادعى انسان أنه كان يكره شيئا يعلم ذلك انه يجبه ، فبمجرد سماعه يبادر الى تكذيبه » (٢٩) .

فمعرفة ابي حاتم الصحيح من السقيم معرفة الناقد الخبير ، له في ذلك علم واسع وملكة قوية ، ومقاييس سليمة دقيقة ، وكما تعرف جودة الدينار بالقياس الى غيره فإن تخلف عنه في الحمرة والصفاء ، وباقى الصفات علم أنه مغشوش ، كذلك يقاس صحة الحديث بعدالة ناقله وان يكون كلاما يصلح ان يكون من كلام النبوة ، ويعلم سقمه وانكاره بتفرد من لم تصح عدالته بروايته (٣٠) كما قال بعض العلماء .

(٢٨) نقله الجرح والتعديل ص ٣٥٠ ، ٣٥١ .

(٢٩) الباعث الحديث لابن كثير تعليق الشيخ أحمد شاکر ص ٨٣ .

الجزء - والتأويل ص ٢٠٩ .

على ذلك ما رواه ابن عدى قال: ركب اسحاق بن راهويه دين ، فخرج من مرو ، وجاء نيسابور ، فكلم أصحاب الحديث يحيى بن يحيى في امر اسحاق ، فقال : ما تريدون ؟ قالوا : تكتب الى عبد الله بن طاهر رقعة ، وكان عبد الله امير خراسان ، وكان بنيسابور ، فقال يحيى : ما كتبت اليه قط ، فألحوا عليه فكتب في رقعة الى عبد الله بن طاهر : أبو يعقوب اسحاق بن ابراهيم رجل من أهل العلم والصلاح . فحمل اسحاق الرقعة الى عبد الله بن طاهر ، فلما جاء الى الباب ، قال للحاجب : معى رقعة يحيى بن يحيى الى الأمير ، فقال : يحيى بن يحيى ؟ قال : نعم ، قال : أدخله فدخل اسحاق وناوله الرقعة فاخذها عبد الله وقبلها ، واقعد اسحاق بجانبه ، وقضى دينه ثلاثين الف درهم ، وصيره من ندمائه .

ويقول ابن السبكي معلقا على ذلك : « انظر ما كان أعظم أهل العلم عند الامراء ، وانظر ما أذن هذه الكلمة واقصر هذه الرقعة ، وما ترتب عليها من الخير ، وما ذلك الا لحسن اعتقاد ذلك الامير وصيانة أهل العلم » .

وقال محمد بن عبد الوهاب : « كنت مع يحيى بن يحيى واسحاق نعود مريضا ، فلما جاذبنا الباب تأخر اسحاق ، وقال ليحيى : تقدم ، فقال يحيى لاسحاق : بل انت تقدم ، فقال يا أبا زكريا أنت اكبر منى قال : نعم ، انا اكبر منك ، ولكنك أعلم منى ، قال : فتقدم اسحاق » (٣٢) .

وفي هذه الرواية ما يدل على ما كان عليه اسحاق من منزلة عظيمة في نفس يحيى بن يحيى وغيره كما يدل على التقدير والاجلال للعلماء ، وان مقياس التقدم والافضلية انما هو العلم لاسيما العلم المصحوب بالعمل .

(٣٢) طبقات الشافعية الكبرى ج ٢ ص ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ .

حياته العلمية

وقد عاش ابن راهويه حياته العلمية جامعا بين الفقه والحديث والورع والتقوى ، وكان يسمع قبل رحلته في طلب العلم - من ابن المبارك ومن الفضل الشيباني ، والنضر بن شميل ، وأبي ثميلة يحيى بن واضح وعمر بن هارون . وابتدأ رحلته العلمية سنة أربع وثمانين ومائة وهو ابن ثلاث وعشرين سنة فرحل الى العراق والحجاز والشام واليمن^(٣٣) وقد ورد بغداد غير مرة وجالس حفاظ أهلها ، وذاكرهم وعاد الى خراسان فاستوطن نيسابور إلى أن توفي بها وانتشر علمه عند الخراسانيين .

شيوخه وتلاميذه :

وقد سمع من جرير بن عبد الحميد ، وسفيان بن عيينه ، وعبد العزيز الدراوردي وفضيل بن عياض ومعتز بن سليمان وإسماعيل بن علي ، وبقية بن الوليد وحفص بن غياث وعبد الرحمن بن مهدي ، وعبد الوهاب الثقفي ، والوليد بن مسلم ، وعبد العزيز ابن عبد الصمد ، وأسباط بن محمد وحاتم بن إسماعيل ، وعتاب بن بشير الجزري وعبد الرزاق بن همام ، وأبي بكر بن عياش وغيرهم .

وروى عنه : البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي ويحيى بن نصر المروزي ، واحمد بن سلمة ، وابنه محمد بن اسحاق بن راهويه وخلق سواهم ، آخرهم أبو العباس السراج ، وروى عنه من قدماء شيوخه يحيى بن آدم وبقية بن الوليد^(٣٤) وهذا يدل على تضلعه في العلم ورسومه قدمه ويشهد له بمكانته العلمية في نفوس شيوخه وتلاميذه .

حفظه واتقانه :

وكان ابن راهويه يحفظ سبعين الف حديث ، ويذاكر الف حديث ، وقال : ما سمعت شيئا قط الا حفظته ، ولا حفظت شيئا فنسيته .

(٣٣) تاريخ بغداد ج ٦ ص ٣٤٥ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٨٠ ، طبقات الشافعية ج ٢ ص ٨٤ .

(٣٤) طبقات الشافعية ج ٢ ص ٨٤ ، تاريخ بغداد ج ٦ ص ٣٤٥ .

وهذا يدل على عقلية لماحة ، وذاكرة حافظة واعية .

وقد بلغ ابن راهويه في الحفظ والاتقان درجة عالية ، وكان مجموع الاحاديث التي استوعبها في الكتب يعرف مكانها كأنه ينظر اليها ، وما يحفظه منها يحفظه عن ظهر قلبه ، بل إنه حفظ أربعة الاف حديث مزورة ، ليستطيع التمييز بينها وبين الصحيح ، وقد وردت اقوال وآراء للعلماء توضح مدى حفظه واتقانه ، وتشهد له بالثقة والصدق والعلم والامامة .

قال الدارمي : « ساد اسحاق أهل المشرق والمغرب بصدقه » فهذه شهادة من الدرامي بصدق اسحاق ، وسيادته اهل المشرق والمغرب بسبب صدقه . وقال مرة وقد سئل عن اسحاق : مثل اسحاق تسأل عنه ؟ اسحاق عندنا امام^(٣٥) .

وهذه شهادة اخرى بامامته ، وأنه بلغ درجة لا يسأل عنه فيها : وقال أبو يزيد محمد ابن يحيى بن خالد : سمعت اسحاق بن ابراهيم الحنظلي يقول : « اعرف مكان مائة الف حديث كأتى انظر اليها ، واحفظ سبعين الف حديث عن ظهر قلبي ، واحفظ أربعة الاف حديث مزورة ، فليل له : ما معنى حفظ المزورة ؟ قال : اذا مر بي حديث في الأحاديث الصحيحة فليته منها فلياً »^(٣٦) . وقال أحمد بن سلمة : سمعت أبا حاتم محمد بن ادريس الرازي يقول : « ذكرت لابي زرعة اسحاق بن ابراهيم الحنظلي وحفظه للأسانيد والمتون ، فقال أبو زرعة : ما رؤى احفظ من اسحاق قال ابو حاتم : « والعجب من اتقانه وسلامته من الغلط مع ما رزق من الحفظ » وقال أبو داود الخفاف : « أملى علينا اسحاق بن راهويه أحد عشر الف حديث من حفظه ثم قرأها علينا فما زاد حرفاً ولا نقص حرفاً »^(٣٧) .

فأية مكانة تلك التي كان عليها اسحاق بن راهويه ؟ هذا الامام الحافظ الثقة الصدوق الذي عرف فضله القاصي والداني ، وشهد له كبار الأئمة ، وروى عنه بعض شيوخه .

إنها اذا مكانة جلييلة ، وهبة من الله تعالى عظيمة ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

(٣٥) مرآة الجنان ج ٢ ص ١٢٢ ، طبقات الشافعية الكبرى ج ٢ ص ٦٨ .

(٣٦) تاريخ بغداد ج ٦ ص ٣٥٢ .

(٣٧) تذكرة الحفاظ للذهبي ج ٢ ص ٤٣٤ ، تاريخ بغداد ص ٣٥٣ ، ص ٣٥٤ .

بين الشافعى واسحاق :

ذكر الدار قطنى اسحاق فيمن روى عن الشافعى رضى الله عنه ، وعده البيهقى فى أصحاب الشافعى ، وكان اسحاق بن راهويه قد ناظر الشافعى فى مسألة كراء بيوت أهل مكة كما ناظره فى جلود الميتة اذا دبغت ، وقد رجع اسحاق الى حكم الشافعى بعد نهاية المناظرة وأفتى به وهو أن دباغها طهورها^(٣٨) .

وقد لازم ابن راهويه الشافعى وأعجب به واتبع مذهبه . وهذا الموقف يرينا أريحية نفسه وجهه للعلم ورجوعه الى الحق . وهذا شأن المخلصين والباحثين عن الحقيقة .

ابن قتيبة واسحاق :

وقد تأثر ابن قتيبة بأستاذه اسحاق بن راهويه فى عنايته بالحديث واشتغاله به ، كما تأثر به فى تفسير القرآن الكريم . وكان ابن قتيبة يلتقى باسحاق فى نيسابور وبغداد واخذ عنه علوم الدين ، كما تأثر به فى الورع والسلوك الحميد ، فقد بث فيه من أخلاقه وسجاياه الطيبة الكثيرة ، ونلاحظ توافق ابن قتيبة واسحاق ، وتقارب الاتجاهين فى الدفاع عن الحديث حيث ان اسحاق قدم للحديث مجهودا ضخما فقام بتنقيته من الدخيل عليه ، وتجريده من مسائل الفقه والتفسير .

البخارى واسحاق :

ومن تأثر باسحاق تأثرا كبيرا الامام البخارى الذى استفاد من المجهودات الضخمة التى قام بها اسحاق من النظر فى الاحاديث ونقدها متنا واسنادا وتصحيحها ، وترتيب انواع الحديث فمهد بهذا العمل الطريق للبخارى الذى سار على نهجه فى لتأليف والنقد ، والف البخارى كتابه الجليل « الجامع الصحيح » بمشورة استاذه ابن راهويه قال ابو عبد الله محمد ابن اسماعيل البخارى : « كنا عند اسحاق بن راهويه فقال : لو جمعتم كتابا مختصرا لصحيح سنة رسول الله ﷺ ؟ قال : فوقع ذلك فى قلبى فأخذت فى جمع الجامع الصحيح^(٣٩) . وهذا يتضح ما كان للبخارى من منزلة عند استاذه الذى كان يعرف فيه مقدرته على هذا العمل العظيم ، ويأنس فيه الكفاءة المتأخرة .

(٣٨) طبقات الشافعية الكبرى ج ٢ ص ١٩ وما بعدها .

(٣٩) هدى السارى لابن حجر ص ٥ .

ويلاحظ أن البخارى واسحاق تشابها في المنهج العلمى الذى سار عليه كل منهما في الدفاع عن الحديث وتصفيته والقيام بنقد السند والمتن واستنباط الاحكام الفقهية دون اكثار من الرأى فيه .

اسحاق وأهل الرأى :

وكان اسحاق يذكر أصحاب الرأى ، ويظهر بغضه لهم لشذوذ أقاويلهم وبنبه على بعض منها ، وكان يقول : نبذوا كتاب الله تعالى ، وسنن رسوله ﷺ ، ولزموا القياس (٤٠) وكان يرى ان اهل الرأى يؤولون الاحاديث تأويلا لا يقره العقل . ويلقى التبعة في ذلك على أتباع مذهب ابى حنيفة ، ممن جاء بعده من اهل النظر والقياس بانهم الذين يحملون اوزار ما أوجدوه ، ولا شك ان رأى الامام أبى حنيفة برىء من ذلك ، وكان ابن قتيبة يطلق على هؤلاء الأتباع اسم العصابة (٤١) .

مصنفاته :

ومن مصنفات ابن راهويه :

١ - كتاب المسند « ويوجد الجزء الرابع منه في دار الكتب المصرية » « مخطوطا » تحت رقم (٤٥٤ حديث) وأصل الكتاب ستة مجلدات ، ومن رواته : أبو محمد عبد الله ابن محمد النيسابورى . وهو مرتب على أسماء الصحابة ، وقد ذكر ابوزرعة الرازى : انه يخرج فيه امثل ما ورد من احاديث الصحابة « والامثل ليس بلازم أن يكون صحيحا بل انما يكون افضل مما تركه ، ولهذا وقع فيه الضعيف كما وقع فى غيره » (٤٢) .

(٤٠) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٦٥ .

(٤١) البخارى محدثا وفتيها للدكتور الحسينى هاشم ص ٤٩ .

(٤٢) ألفية السيوطى بتعليقات الاستاذ محمد محمى الدين عبد الحميد .

٦ - ابن خزيمة

نسبه ونشأته :

هو محمد بن اسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر امام الائمة ابو بكر السلمى النيسابورى ولد في صفر سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، وعنى منذ حداثة بالحديث وسمعه في صغره بنيسابور ، ونشأ منذ طلبه العلم يستلهم الجانب الروحي . قيل لابن خزيمة يوما : من اين اوتيت العلم ؟ فقال : قال رسول الله ﷺ : « ماء زمزم لما شرب له » وان لما شربت ماء زمزم سألت الله علما نافعا^(٤٣) وكان يقوم بالسنة تطبيقا وعملا ، فعاش زاهدا ورعا ، استمد قدوته الحسنة من الرسول ﷺ فهو يحب التيامن في كل شيء تأسيا بالنبي ﷺ ، قال الحاكم : سمعت ابا عمرو بن اسماعيل يقول : كنت في مجلس ابن خزيمة فاستمد مدة فتاويله بيسارى اذ كانت يمينى قد اسودت من الكتابة ، فلم يأخذ الطلب وامسك ، فقال لى بعض اصحابه لو ناولت الشيخ بيمينك فأخذت القلم بيمينى ، فتاويلته فاخذ منى . فترى هنا أن ابن خزيمة قد امسك ان يأخذ القلم من يسار ابى عمرو بن اسماعيل لانه يحب التيامن في كل شيء ولئن كان هذا الامر هينا ، الا أنه بالنسبة لابن خزيمة عظيم لانه يقتدى في كل شيء بصاحب السنة عليه الصلاة والسلام ، ولقد تنبأ له معاصروه بالمكانة العلمية الجليلة وباحيائه لسنة النبي صلوات الله وسلامه عليه . قال ابو بشر القطان : رأى جار لابن خزيمة من اهل العلم كان لوحا عليه صورة نبينا محمد ﷺ وابن خزيمة يصقله فقال المعبر : هذا رجل يحى سنة رسول الله ﷺ^(٤٤) .

ومن صفات ابن خزيمة وعامده التى تحملت نشأته بها أنه كان جوادا ، بلغ في الكرم درجة عالية فلم يدخر شيئا وكان ينفق على أهل العلم والفقراء .

حياته العلمية

كانت حياة ابن خزيمة العلمية تتسم بطابع الجد والاجتهاد وكانت ثروته العلمية الهائلة موردا للقريب والبعيد وهو قبلة للعلماء والعلم الذى يأتى به الهداة المخلصون .

(٤٣) النجوم الزاهرة ج٣ ص ٣١١ .

(٤٤) طبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص ١١٠ ، ١١١ ، ١١٨ .

شيوخه وتلاميذه :

سمع من شيوخ كثيرين منهم : اسحاق بن راهويه ، ومحمد بن حميد الرازى . ولم يحدث عنها لكونه سمع منها في الصغر ، ولكن حدث عن محمود بن غيلان ، ومحمد بن أبان المستملى واسحاق بن موسى الخطمى وعتبة بن عبد الله المحمدي وعلى بن حجر وأبي قدامه السرفسى وأحمد بن منيع ويشربين معاذواى كريب وعبد الجبار بن العلاء ويونس بن عبد الاعلى ومحمد بن اسلم الزاهد والزعفرانى ، وهصر بن على الجهضمى ، وعلى ابن خشرم وغيرهم .

وفى سبيل تحصيل العلم وتدوين الحديث النبوى عن الشيوخ قام ابن خزيمة برحلات علمية الى الرى وبغداد والبصرة والكوفة والشام والجزيرة ومصر وواسط . وقد روى عنه من الأئمة الكبار للبخارى ومسلم خارج الصحيح ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم شيخه وابو عمرو وأحمد بن المبارك والمستملى وبراھيم بن أبى طالب . وهؤلاء أكبر منه ، ويحيى بن محمد بن صاعد وابو على النيسابورى واسحاق بن سعد النسوى وابو عمرو بن زدان ، وأبو حامد أحمد بن محمد بالويه وابوبكر احمد بن مهران المغرى ومحمد بن احمد بن على بن نصير العدل وحفيده محمد بن الفضل بن محمد بن اسحاق وخلائق (٤٥) .

ضبطه ونحريه :

وكان ابن خزيمة شديد التحرى والضبط للحديث حتى ليتوقف فى التصحيح لأدنى كلام يقال فى الاسناد ، روى الحاكم عن ابن العباس بن شريح أنه قال فيه انه يخرج النكت من حديث رسول الله ﷺ بالمناقش وهذا كناية عن دقته الفائقة فى الاستنباط ونحريه الشديد فى فقه الحديث . وكان متقنا فى هذه الناحية وهى حفظ الفقهيات من حديثه - غاية الاتقان ، قال ابو على الحافظ كان ابن خزيمة يحفظ الفقهيات من حديثه كما يحفظ القارىء السورة كما كان حافظا للسند والمتن حفظا جيدا ، قال ابن حبان لم ار مثل ابن خزيمة فى حفظ الاسناد والمتن (٤٦) فهو إذا قد جمع بين حفظ السند والمتن وحفظ الفقهيات من الاحاديث وانها لمقدرة فذة استحق بها ان يلقب بامام الأئمة . وقال ابو بكر بن بالويه

(٤٥) طبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص ١١٠ .

(٤٦) مرآة الجنان لليافعى ج٢ ص ٢٦٤ .

سمعت ابن خزيمة يقول : كنت عند الامير اسماعيل بن محمد فحدث عن أبيه بحديث وهم في اسناده فرددته عليه فلما خرجت من عنده قال أبو ذر القاسمي : قد كنا نعرف أن هذا الحديث خطأ منذ عشرين سنة فلم يقدر واحد منا ان يرده عليه ، فقلت له : لا يجمل ان اسمع حديثا لرسول الله ﷺ فيه خطأ او تحريف فلا ارد . وكانت معرفته فائقة بمختلف الحديث روى عنه أنه قال : لا اعرف انه روى عن النبي ﷺ حديثا باسنادين صحيحين متضادين فمن كان عنده فليأت لأؤلف بينهما^(٤٧) .

قال الحاكم في كتابه علوم الحديث ان مصنفاته تزيد على مائة واربعين كتابا سوى المسائل . والمسائل المصنفة مائة جزء وله فقه بريرة في ثلاثة اجزاء وكتابه الصحيح وهو اجل الكتب وانفعها ومن مؤلفاته كتاب التوحيد واثبات صفات الرب وكتاب الفقه . وهكذا كانت مؤلفاته وعلمه فقد بلغ رتبة الاجتهاد وان كان يذكره المؤلفون في طبقات الشافعية شافعيًا روى عنه انه قال :

ما قلدت احدا منذ بلغت ستة عشر . وكان يرى رأى السلف في الصفات والقرآن وإن كان لم يسلم من تقول المقترين عليه وقد كذبهم فيما يدعون عليه^(٤٨) .

وقد نسب إليه المشبهة والملاحدة امورا هو منها برىء وذلك واضح في كتبه وفي كلامه . قال ابو عاصم : قال ابن خزيمة في معنى قوله ﷺ : « ان الله خلق آدم على صورته » فيه سبب وهو ان النبي ﷺ رأى رجلا يضرب وجه رجل ، فقال : « لا تضرب على وجهه فان الله تعالى خلق آدم على صورته » وكون الضمير عائدا على رجل مضروب قاله غير ابن خزيمة ايضا ، ولكنه من ابن خزيمة شاهد صحيح على انه برىء عما ينسب اليه المشبهة وتفترية عليه الملاحدة^(٤٩) . ولقد كان في كل حياته لا يصدر الا عن عبادة سليمة ، وتقوى من الله يستلهم الجانب الروحي في كل شئونه ، قال ابو عثمان الحيري : حدثنا ابن خزيمة قال : كنت اذا اردت ان اصنف الشئ دخلت في الصلاة مستخيرا حتى يقع لي فيها ، فهو إذن كان عى جانب كبير من الصلاح والورع مما دفع ابا عثمان الزاهد الى القول فيه « ان الله يدفع البلاء عن اهل نيسابور بابن خزيمة » وبعد حياة حافلة ممتلئة توفيا م الامئة ابن خزيمة سنة احدى عشر وثلاثمائة^(٥٠) .

(٤٧) طبقات الشافعية ج ٣ ص ١١٠ ، مقدمة ابن الصلاح ص ١١٦ .

(٤٨) تذكرة الحفاظ ج ٢ ص ٢٦٤ ، اعلام المحدثين ص ٢٩٩ للدكتور محمد أبو شهبه .

(٤٩) طبقات الشافعية الكبرى ج ٣ ص ١١٩ .

(٥٠) مرآة الجنان ج ٢ ص ٢٦٤ ، مقدمة تحفة الأحوذى ج ١ ص ١٥٠ .

٢ = أبو زرعة الرازي

نسبه ونشأته :

هو الحافظ عبد الله بن عبد الكريم بن يزيد بن فروخ القرشي مولا هم الرازي ، منسوب الى الري بزيادة الزاي ، مدينة مشهورة من أمهات البلاد .

وولد أبو زرعة سنة مائتين بالري (٥١).

وقد نشأ أبو زرعة محبا للعلم ، معروفا بالحفظ والورع ، شهد له الكثيرون بالتفوق على أقرانه ، وكان في شبابه اذا اجتمع بأحمد بن حنبل اقتصر على الصلوات المكتوبات ، ولا يفعل المندوبات اكتفاء بمذاكرته ، وهذا من أكبر الشواهد على إتقانه وحفظه وضبطه .

وكان معروفا منذ صغره بعقلية علمية نادرة ، وذكاء منقطع النظير ، روى في معرفة علوم الحديث لما انصرف قتيبة بن سعيد الى الري سأله أن يحدثهم فامتنع وقال : احديثكم بعد أن أحضر مجلس أحمد بن حنبل ويحيى بن معين ، وعلى بن المديني وأبو بكر بن أبي شيبة وأبو خيثمة ، فقالوا له : ان عندنا غلاما يسرد كل ما حدثت به مجلسا مجلسا . قم يا أبا زرعة ، فسرد كل ما حدث به قتيبة فحدثهم به . وعده الحاكم من فقهاء الحديث ، وكان متوافقا ورعا شهد له العلماء بكثرة التواضع ، قال يونس بن عبد الأعلى : « ما رأيت أكثر تواضعا من أبي زرعة » كما كان مبرورا بزمته . قال في أبو حاتم « ما خلف أبو زرعة بعده من العلم ولا أسلم من كان يفهم هذا الشأن ، بل من رأيت في زمته » (٥٢) .

وكانوا يشهد له العلماء زلات من الأمانة المثالية الراشدة ، التي اتسم فيها بالدرجة الأولى في الحفظ والاتقان ، والزهد والواقعية .

(٥١) الرسالة المستطرفة ص ٦٤ ، النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٨ .

(٥٢) معرفة علوم الحديث ص ٥ ، تذكرة الحفاظ ج ٢ ص ٥٥٧ .

حياته العلمية :

كان أبو زرعة أحد الأئمة الاعلام ، شهد له العلماء بالصدق والحفظ والضبط ، قيل : كان يحفظ سبعمائة الف حديث ، وقد رحل أبو زرعة وسمع من أبي نعيم والقعنبي وطبقتها وقال اسحاق بن راهويه : « كل حديث لا يحفظه أبو زرعة ليس له أصل » وهذا القول على ما فيه من المبالغة يعطينا صورة عظيمة على ما كان عليه أبو زرعة من درجة عظيمة في الحفظ .

شيوخه وتلاميذه :

سمع أبو زرعة من شيوخ كثيرين ، منهم أبو نعيم وقبيصة بن عقبة وخلاد بن يحيى ، ومسلم بن ابراهيم ، والقعنبي وأبو ثابت المدني وغيرهم .

ورحل الى العراق والشام والجزيرة وخراسان ومصر ، وكان من الحفاظ المتقنين والمخلصين الزاهدين .

وروى عنه :

مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه واسحاق بن موسى الانصارى وحرملة بن يحيى والربيع بن سليمان ومحمد بن سعيد الرازى وعمرو بن على ويونس بن عبد الاعلى وهم من شيوخه . وأبو حاتم وأبو زرعة الدمشقى وابراهيم الحربى وهم من اقرانه وسعيد بن عمرو الاوزاعى وصالح بن محمد جزرة وعبد الله بن أحمد وعبد الرحمن بن أبي حاتم وابن أخيه أبو القاسم بن محمد بن عبد الكريم وأبو عوانة الاسفراينى وغيرهم^(٥٣) .

حفظه واتقانه :

ولمكأنة أبو زرعة الجليلة في العلم كان الامام احمد بن حنبل يحرص على مذاكرته أكثر من نوافله قال عبد الله بن أحمد بن حنبل نزل أبو زرعة عندنا ، فقال لى ابى يا بنى قد اعتضت عن نوافلى بمذاكرة هذا الشيخ^(٥٤) ومعنى ذلك أنه كان يغتنم مجالس أبو زرعة

(٥٣) تهذيب التهذيب ج ٧ ص ٣١ ، مرآة الحنان ج ٢ ص ١١٦

لكثرة علمه وثقته فيه ، وهو يعلم أن ثواب مجالس العلم أكثر من النوافل ، وليس معنى هذا تهاون ابن حنبل في شأن النوافل فان ذلك كان في بعض الاوقات الخاصة التي يحظى فيها بمجالسة الامام أبي زرعة أما حرص ابن حنبل على النوافل والسنن فكثير كما سبق الحديث عنه في ترجمته . وقد عرف أبو زرعة بحفظه الشديد وما سمع شيئا الا وعاه ، قال أبو جعفر التستري : سمعت أبا زرعة يقول : « ما سمعت أدنى شيء من العلم الا وعاه قلبي ، وان كنت لأمشي في سوق بغداد فأسمع من العزف صوت المغنيات فأضع أصبعي في أدنى مخافة أن يعيه قلبي » وحسبه دلالة على كثرة حفظه ما رواه صالح جزرة ، قال : سمعت أبا زرعة يقول : « أحفظ في القراءات عشرة آلاف حديث » وإذا كان حفظه لأحاديث القراءات فقط هو هذا العدد الكبير ، فما بالنا بجملة ما حفظه من الأحاديث ، قال محمد بن جعفر ابن محكويه قال أبو زرعة : « احفظ مائة ألف حديث كما يحفظ الانسان قل هو الله احد » . وعاش أبو زرعة حياته العلمية حافظا ثقة صدوقا وهو أحد الائمة المشهورين الرحالين لطلب الحديث قدم بغداد وحدث بها غير مرة ، وجالس الامام أحمد ابن حنبل وكان يحبه ويثني عليه وله من المؤلفات : (كتاب المسند) وتوفى سنة أربع وستين ومائتين^(٥٥) .

(٥٥) تهذيب التهذيب ج ٧ ص ٣٢ ، مقدمة تحفة الاحوفى ج ١ ص ٤٦٧ ، النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٦٤ ، الرسالة المستطرفة ص ٦٤ .

٨ . الامام الدارمي

نسبه ونشأته :

هو الامام عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام بن عبد الصمد التميمي ، أبو محمد السمرقندي لحافظ الدارمي . ولد سنة احدى وثمانين ومائة ، وعرف منذ نشأته بالثقة والصدق والورع والذكاء ، كما كان يضرب به المثل في الديانة والعلم والاجتهاد والعبادة ، قال فيه أبو حاتم :

« ثقة صدوق » وعرف بالزهد ، قال عنه الامام احمد بن حنبل ، عرضت عليه الدنيا فلم يقبل . وهكذا نرى آراء الائمة فيه تشهد بنشأته الطاهرة ، وعلمه الجم ، وزهده وورعه ، قال فيه ابو حاتم بن حيان « كان من الحفاظ المتقين وأهل الورع في الدين ، ممن حفظ وجمع وتفقه وصنف وحدث ، وأظهر السنة في بلده ودعا اليها » . وقال فيه الخطيب : كان احد الحفاظ الرحالين موصوفا بالثقة والورع والزهد استقضى على سمرقند فقضى قضية واحدة ثم استعفى فأعفى . الى أن قال : وكان غاية في العقل وفي نهاية الفضل ، وقال فيه ابن ابي حاتم عبد الله بن عبد الرحمن امم أهل زمانه (٥٦) وهذا يدل على مكانته الجليلة ، ونشأته العلمية التي اتسمت بعظائم الأمور ومكارم الاخلاق .

حياته العلمية :

ذكر الحافظ الذهبي الدارمي في تذكرة الحفاظ - من الطبقة التاسعة التي ذكر فيها الائمة وهم : الذهلي ومحمد بن مسلم ، وعبد الرحمن بن حميد واببخارى وابوزرعة وأبو حاتم وابن دارة ويعقوب بن شيبه ومسلم وابوداود وغيرهم . وقد برع الامام الدارمي في علم الحديث حتى بذ أقرانه ، والفت « التفسير » و« الجامع » و« المسند » وهو المسمى بالسنة .

وكان الدارمي أحد الحفاظ الرحالين الذين شهد لهم العلماء بالحفظ والاتقان والدفاع عن السنة النبوية . قال فيه محمد بن ابراهيم بن منصور الشيرازي « كان على غاية

(٥٦) تذكرة الحفاظ ج٢ ص ٥٣٥ مقدمة تحفة الاحوذى ج١ ص ٥٩ .

من العقل والديانة ، ممن يضرب به المثل في الحكم والدراية والحفظ والعبادة والزهد أظهر علم الحديث والآثار بسمرقند ، وذب عنها الكذب وكان مفسرا كاملا وفقها عالما^(٥٧) شيوخه وتلاميذه :

سمع الدارمي النضر بن شميل ، ويزيد بن هارون ، وسعيد بن عامر الضبي ، وجعفر بن عون ، ويحيى بن حسان ، وأبا نعيم ووهب بن جرير وطبقتهم بالحرمين وخراسان والشام والعراق ومصر .

ومن تلاميذه : الذين رووا عنه : مسلم وأبو داود والترمذى ، والبخارى فى غير الجامع ، ومطلين وجعفر القرابى وعبد الله بن أحمد بن حنبل - وعيسى بن عمر العباس السمرقندى وآخرون . وقال أبو حاتم الرازى ، (محمد بن اسماعيل اعلم من دخل العراق ، ومحمد بن يحيى اعلم من بخراسان اليوم ، ومحمد بن اسلم أورعهم وعبد الله بن عبد الرحمن اثبتهم) فهو إمام حافظ مثبت بشهادة كبار الأئمة . ومن اعمال الدارمي العلمية ومصنفاته النفيسة كتابه « السنن » .

سنن الدارمي :

وكتاب السنن للدارمي كتاب جليل القدر ، وله وزنه العلمى بين كتب الحديث المدونة فى القرن الثالث الهجرى . وقد عده ابن الصلاح فى المسانيد ، وانتقد فى ذلك لأنه مرتب على الأبواب لا على المسانيد ، وانما اطلق عليه بعض العلماء اسم المسند لكون احاديثه مسندة كما سمي الامام البخارى كتابه : (المسند الجامع) فسميتها بالمسند فيه تجوز ، ويرى ابن حجر أن سنن الدارمي ليس دون السنن فى المرتبة ، بل لو ضم الى الخمسة لكان أولى من سنن ابن ماجه ، فانه أمثل منه بكثير . بل ان بعض المحدثين سماه (الصحيح) وهى تسمية فيها تجوز ايضا

وفى سنن الدارمي كثير من الصحيح اتفق عليه الشيخان ، أو البخارى ، أو مسلم أو على شرطها أو شرط أحدهما .

وفيه كثير من الاحاديث الحسنة ، وتوجد فيه بعض الاحاديث المنكرة أو الشاذة وهى نادرة جدا وكذا الاحاديث المرسله والموقوفة ، ولكنها تقوى احيانا ايضا لمجيئها من طرق

(٥٧) مقدمة تحفة الاحوذى ص ٤٦٠ ، ج ١ ، مقدمة سنن الدارمي ص ٥

مثال لما رواه الدارمي وطعن فيه والدفاع عنه

حدثنا ابراهيم بن المنذر ثنا ابراهيم بن المهاجر بن المسمار ، عن عمر بن حفص ابن ذكوان عن مولى الحرقة عن ابي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ان الله تبارك وتعالى قرأ طه ويس قبل أن يخلق السماوات والأرض بألف عام ، فلما سمعت الملائكة القرآن قالت : طوبى لأمة يتزل هذا عليها وطوبى لأجواف تحمل هذا وطوبى لألسنة تتكلم بهذا^(٦٠) .

وهذا الحديث قال عنه ابن حبان : موضوع و ابراهيم بن المهاجر منكر الحديث متروك وقال السيوطي : وثقه ابن معين ، وقد اخرج هذا الحديث ابن ابي عاصم في السنة وابن خزيمة في التوجيه ، والبيهقي في شعب الايمان . وقال الحافظ بن حجر في أطراف العشرة : زعم ابن حبان ، وتبعه ابن الجوزي ان هذا المتن موضوع ، وليس كما قالوا ، فان مولى الحرقة هو عبد الرحمن بن يعقوب من رجال مسلم والراوى عنه وان كان متروكا عند الأكثر ضعيفا عند البعض فلم ينسب للوضع والراوى عنه لا بأس به ، و ابراهيم بن المنذر من شيوخ البخارى وقد اخرجه الطبراني في الأوسط ، وقال : لا يروى عن النبي ﷺ الا بهذا الاسناد تفرد به ابراهيم بن المنذر ، وله طريق آخر عن أنس اخرجه الديلمي^(٦١) .

(٦٠) - اخرجه الدارمي ج ٢ ص ٣٢٧ تحقيق السيد عبد الله يماني ورواه الطبراني في الاوسط وفيه ابراهيم بن مهاجر ضعفه البخارى بهذا الحديث . ووثقه ابن معين .

٦١١ . لئلا المصنوعة ج ١ ص ٦

الامام بقى بن مخلد

ومن أعلام القرن الثالث الهجرى علماء لم يكونوا شيوخا للأئمة الستة ولكنهم اضطلعوا بمهام علمية وجهود ضخمة في ميدان الحديث ومن أشهر هؤلاء :

الامام الحافظ^(٦٢) بقى بن مخلد بن يزيد أبو عبد الرحمن القرطبي الأندلسي ، صاحب المسند الكبير والتفسير العظيم ولد بقى في رمضان سنة احدى ومائتين .

نشأته :

نشأ هذا الامام الجليل ببلاد الاندلس ذات الطبيعة الساحرة والمناظر الخلابة ونشأ بها في عهدها الزاهرة التي ازدهرت فيها الثقافة والعلوم من تفسير وحديث وفقه وطب وفلسفة وغير ذلك .

وقد رפרت راية الاسلام على هذه البلاد وازدهرت حضارته بها زهاء ثمانية قرون ظلت الاندلس فيها كعبة القصاد ، وحظى الحديث النبوى بحظ وافر من هذه النهضة العلمية فبرز فيه من العلماء التابعين كثيرون من أشهرهم هذا الامام الجليل الذى نشأ محبا للعلم متواضعا عابدا ، زاهدا خيرا مجاهدا في سبيل الله ، خرج مع المجاهدين في غزوات كثيرة فضم الى العلم العمل وشارك في حياة الوطن الاسلامى والدود عن حياضه وعانى أول أمره في سبيل طلب العلم كثيرا فتحمل من عناء السفر وشظف العيش ما تحمل قال عنه الامام الذهبى : « كان إماما عابدا متهجدا أوها عديم النظرير في الزمان » .

حياته العلمية :

طوف الامام بقى بن مخلد في البلاد الاسلامية شرقا وغربا ، وقام بعدة رحلات علمية كان لها أكبر الاثر في خصوصية حياته العلمية ، فرحل الى مصر وسمع من يحيى بن بكير وزهير بن عباد وطائفة ، ورحل الى دمشق وسمع بها من ابراهيم بن هشام الغساني ،

(٦٢) نفع الطيب من غصن الاندلس المطب المجلد الثاني ص ٥١٢ .

وصفوان بن صالح وهشام بن عمار وجماعة ورحل الى بغداد وسمع الامام ابل وطبقته وإلى الكوفة وسمع يحيى بن عبد الحميد بن انس وأبا بكر بن أبي شيبة وطائفة ورحل الى البصرة وسمع اصحاب حماد بن زيد وسمع كثيرا من الشيوخ الذين بلغ عددهم مائتين وثلاثين شيخا .

وأما تلاميذه : فقد سمع منه وروى عنه كثيرون منهم شيخه يحيى بن بكير وهذا ما يشهد له بعلو المكانة في الحديث ، ورموخ القدم في ميدانه ، قال بقي لما رجعت من العراق أجلسني يحيى بن بكير وسمع مني سبعة احاديث ، ومن تلاميذه ابنه أحمد ، وأحمد ابن عبد الله بن عبد الله الاموى ، وعبد الله بن يونس ، واسلم بن عبد العزيز ، والحسن ابن سعيد . . . وغيرهم .

وكان الى جانب علمه بالحديث عالما بالفقه مجتهدا يستنبط الاحكام ، ولا يقلد احدا ، مما يشهد له بسعة افقه ، وشخصيته العلمية المستقلة .

مؤلفاته :

وللامام بقي بن مخلد مؤلفات من بينها : (كتاب التفسير) وقد أثنى ابن حزم على هذا الكتاب فقال : أقطع أنه لم يؤلف في الاسلام مثل تفسيره ، ولا تفسير محمد ولا غيره^(٦٣) . ومن مؤلفاته « كتاب المسند » وله مصنف في فتاوى الصحابة والتابعين أربى فيه على مصنف ابن ابي شيبة وعلى مصنف عبد الرزاق وعلى مصنف سعيد بن منصور .

(٦٣) نفع الطيب ج ٢ ص ١٥٩ ، مرآة الجنان ج ٢ ص ١٩٠ .

منهج بقى بن مخلد فى المسند

يقوم منهجه فى المسند على تدوين الاحاديث بطريقة المسانيد وطريقة الابواب فجمع بين الطريقتين وذلك أنه روى فيه عن ألف وثلاثمائة صاحب ونيف ورتب أحاديث كل صاحب على أبواب الفقه ومسائل الاحكام فهو مسند ومصنف .

وقد فضله ابن حزم على مسند الامام احمد بن حنبل ولكن ابن كثير عارض فى هذا التفضيل وقال : « الظاهر أن مسند احمد أجود منه واجمع » .

وأرى أن هذه الآراء هى آراء استظهارية لا تقوم على اساس من النقد العلمى الصحيح . . لعدم وجود كتاب الامام بقى بن مخلد .

وعدد احاديث مسند الامام احمد أربعون ألف حديث ، وأما مسند الامام بقى فعدد احاديثه التى نسبها ابن الجوزى للصحابة فيه ٣١٠٦٤ حديثا . قال الاستاذ أحمد شاکر لقد جمعت عدد الاحاديث التى نسبها ابن الجوزى للصحابة فى مسند بقى فكانت ٣١٠٦٤ حديثا وهذا يقل عن مسند أحمد أو يقاربه . وذكر ابن الجوزى ان عدد الأحاديث أبى هريرة ٥٣٧٤ ، وفى مسند أحمد ٣٨٤٨ حديثا وهذا العدد فى مسند احمد يكثر فيه المكرر ، وأما العدد الحقيقى بدون المكرر بالنسبة لاحاديث أبى هريرة فى مسند احمد فهو ١٥٧٩ حديثا فقط . فهل معنى هذا أن الامام أحمد فاته هذا العدد الكبير ؟

والذى ارجحه هو أن الامام بقى بن مخلد كان يجمع الحديث على طريقة المسند بالنسبة لكل صحابى وعلى طريقة التوبيع كذلك فلعله كان يقطع الحديث فى ابوابه على نحو ما فعل البخارى فى صحيحه ، وأنه أيضا كان يكرر الاحاديث^(١) .

(٦٤) البداية والنهاية ج ١١ ص ٥٦ ، الباعث الحديث ص ١٨٨ .

تعصب بعض حاسديه عليه

كان محمد بن عبد الرحمن الاموى صاحب الاندلس محبا للعلوم عارفا بها فلما دخل بقى بن مخلد الاندلس بمصنف ابن ابى شيبة وقرىء عليه انكر جماعة من بعض حاسديه ما فيه من الخلاف . واستبشعوه وقام جماعة من العامة ومنعوه من قراءته فاستحضره الامير محمد وتصفح الكتاب جزءا جزءا حتى اتى على آخره ثم قال لخازن كتبه هذا الكتاب لا تستغنى عنه خزانتنا فانظر فى نسخة لنا وقال لبقى انشر علمك واروما عندك ونهاهم ان يتعرضوا له . وتوفى فى جمادى الآخرة سنة ست وسبعين ومائتين (٦٥) .

(٦٥) نفع الطيب ج ٢ ص ٥١٩ ، تاريخ الادب العربى ج ٣ ، ص ٢٠١ .

محمد بن جرير الطبري

نسبه ونشأته :

هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري . ولد سنة اربع وعشرين ومائتين بطبرستان ، وقيل في آخر سنة أربع أو أول سنة خمس وعشرين ومائتين .

وقد تفانى ابن جرير الطبري في طب العلم والتأليف حتى مكث أربعين سنة يكتب كل يوم أربعين ورقة^(٦٦) . وكان زاهدا قانعا مترفعا عن الدنيا ، وأعدنه على ترفعه ما تركه له أبوه في طبرستان من ضيعة كان يتفق ما يستغله منها على نفسه واهله وطلابه . وقد روى عنه بعض ابيات انشدها ربما تمثل بعض سمات حياته .

| | |
|-------------------------|---------------------------|
| إذا أعسرت لم يعلم رفيقي | وأستغنى فيستغنى صديقي |
| حيائي حافظ لي ماء وجهي | ورفقي في مطالبتي رفيقي |
| ولو أني سمحت ببذل وجهي | لكنت إلى الغنى سهل الطريق |

وهذه الابيات تؤيد ما عرف عنه من زهد وقناعة وكرم وحياء وورع ، وعاش الطبري حياته عفيفا شغلا بطلب العلم وهو ابن اثنتي عشرة سنة وظهرت عليه مخايل الذكاء والنبوغ من صغره فعهد به والده الى علماء (أمل) عاصمة اقليم طبرستان .

ومما يدل على قوة حافظته ونبوغه المبكر أنه حفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين . . وكتب الحديث وهو في التاسعة^(٦٧) .

محتسه :

تعرض الامام الطبري في حياته الى محنة من عوام الحنابلة والجهلة المتسبين الى المذهب الحنبلي كذلك بسبب ما قاله الطبري في الامام احمد بن حنبل انه رجل حديث لا فقه ، وعندما ألف للطبري كتابه (اختلاف الفقهاء) ذكر فيه كثيرا من الفقهاء مثل ابي

(٦٦) وفيات الاعيان ج ١ ص ٥٧٧ تاريخ بغداد ج ٢ ص ١٦٢ .

(٦٧) تاريخ بغداد ج ٢ ص ١٦٣ ، لسان الميزان ج ٥ ص ١٠٢ ، معجم الادباء ج ١ ص ١١٠ .

حنيفة والشافعي ومالك والاوزاعي وغيرهم ولكنه أغفل ذكر الامام احمد بن حنبل ومن أجل هذا تحرش به بعض الحنابلة فبدأ بعضهم بالتعصب عليه ، كالخصاص والبياض وجعفر بن عرفة ثم قصده بعضهم عندما كان في المسجد في يوم الجمعة وسألوه سؤاليين :

الاول : عن إمامهم أحمد بن حنبل
والثاني : عن حديث الجلوس على العرش

فقال الطبري : أما احمد بن حنبل فلا يعد خلافة ، قالوا قد ذكره العلماء في الاختلاف . قال ما رأيته روى عنه ولا رأيته له اصحابا يعول عليهم ، وأما احاديث الجلوس على العرش فمحال وانشد :

سبحان من ليس له انيس ولا له في عرشه جليس

فلما سمعوا اجابته غضبوا واتهموه بأنه رافضي ، وأذوه ، وحالوا بين الناس وبين الانتفاع بعلمه . ولعل السبب فيما اثير حول الطبري بأنه رافضي راجع الى انه الف في فضائل سيدنا علي بن أبي طالب رضی الله عنه وقالوا عنه انه كان يقول بالمسح على القدمين وهو قول رافضي وقيل انه يقول بالمسح والغسل معا .

والحقيقة أن هذا ناشيء من عدم فهم مراده ، ذلك انه يوجب غسل القدمين ويوجب مع الغسل دلکهما ولكنه عبر عن ذلك بالمسح ، فلم يفهم بعض الناس مراده ومن فهم مراده نقل عنه انه يوجب الغسل والمسح « . . أى ذلك . . » .

وأما كونه قد الف في فضائل سيدنا علي فلا يعني انه رافضي فشتان بين ذلك وبين ذكره للفضائل ، وهذا الذى أثير حوله راجع الى حقد بعض العوام المقلدين ، وسوء فهم آرائه فلقد كان من أئمة الاسلام والعاملين بالكتاب والسنة .

حياته العلمية :

عاش الطبري حياة مثمرة ، فكان إماما في فنون كثيرة : منها التفسير والحديث والفقه والتاريخ وغير ذلك وله مصنفات عديدة تدل على سعة علمه ، فهو إمام مجتهد ثقة في نقله ذكره الشيخ ابو اسحاق الشيرازي في طبقات الفقهاء في جملة المجتهدين .

وقد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه احد من أهل عصره ، وكان حافظا لكتاب الله عارفا بالقراءات بصيرا بالمعاني ، فقيها في احكام القرآن عالما بالسنن وطرقها ، صحيحها

وسقيهما ، ناسخها ومنسوخها عارفا بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم في الاحكام وعارفا بأيام الناس واخبارهم (٦٨) .

شيوخه وتلاميذه :

قام الطبري برحلات علمية تلقى خلالها العلم والحديث من كبار الشيوخ فبدأ بالرى وما جاورها ليأخذ الحديث عن محمد بن حميدة الرازي والمثنى بن ابراهيم الأيلي كما درس التاريخ في هذه المنطقة على محمد بن احمد بن حماد الدولابي ، ويقال أنه كتب عن ابن حميد أكثر من مائة الف حديث كما درس عليه التفسير ايضاً واتجه الى البصرة وسمع من محمد بن موسى الخرشى ، وعماد بن موسى القزاز ثم اتجه الى وسط والكوفة والشام ومصر حيث درس فقه الشافعي على الربيع بن سليمان المرادي واسماعيل بن ابراهيم المزني ومحمد بن عبد الله بن الحكم ودرس فقه مالك على تلاميذ ابن وهب كما سمع الطبري ايضاً من محمد بن عبد الملك بن ابي الشوارب واحمد بن منيع البغوي .

ومن تلاميذه الذين رووا عنه : احمد بن كامل القاضي ومحمد بن عبد الله الشافعي وخالد بن جعفر . ومنهم شعيب الحرائي وعبد الغفار الخصبي وابو عمرو بن حمدان ومنهم ابن الحداد وابو مسلم الكجى وغيرهم ممن تتلمذوا عليهم في العراق وانتهجوا منهجه (٦٩) .

مؤلفاته :

وقد آتت حياته العلمية كلها فكانت له مؤلفات نفيسة كثيرة منها :

١ - كتاب التفسير الكبير : الذي قال فيه الامام ابو حامد الاسفراييني : لو سافر رجل الى الصين حتى يحصل تفسير محمد بن جرير لم يكن كثيراً . وهو كتاب جليل من أجل كتب التفسير بالمأثور واصحها ، ذكر فيه ما يثبت عن النبي ﷺ ، وما ورد عن الصحابة والتابعين ووجه الاقوال ورجح بعضها على بعض كما ذكر فيه الكثير من وجوه الاستنباط واللغات والاستشهاد بالشعر على بعض ما في الالفاظ .

(٦٨) وفيات الاعيان ج١ ص ٥٧٧ ، تاريخ بغداد ج٢ ص ١٦٢ .

(٦٩) طبقات الشافعية الكبرى ج٢ ص ١٣٦ ، تاريخ بغداد ج٢ ص ١٦٢ ، الطبري : للدكتور

الحوفي ص ٨٧

٢ - كتاب « تهذيب الآثار » وتفضيل الثابت عن رسول الله ﷺ قال فيه الخطيب لبغدادى : وله كتاب سماه تهذيب الآثار لم أر سواه فى معناه الا انه لم يتمه . . وقد ابتدأ بما رواه ابو بكر الصديق رضى الله عنه كما صح عنده بسنده وتكلم على كل حديث وعلته وطرقه وما فيه من الفقه والسنن واختلاف العلماء وحججهم فتم به مسند العشرة وأهل البيت والموالى ومن مسند ابن عباس قطعة كبيرة ومات قبل تمامه وهو موجود بمكتبة لأستانة .

٣ - تاريخ الامم والملوك .

٤ - كتاب القراءات .

٥ - تاريخ الرجال .

٦ - التبسيط فى الفقه .

٧ - التبصير فى اصول الدين .

٨ - كتاب اختلاف العلماء .

٩ - الفضائل .

١٠ - احكام شرائع الاسلام .

وغير ذلك من المصنفات النفيسة .

وفاته :

توفى الطبرى يوم السبت ، ودفن يوم الاحد بالغداة فى داره لأربع بقين من شوال سنة عشر وثلاثمائة ، وقال ابن خلكان : والصحيح انه دفن ببغداد ، وكذلك قال ابن رونس فى تاريخه وهذا هو الرأى الصحيح^(٧٠) .

(٧٠) تاريخ بغداد ج ٢ ص ١٦٢ مرآة الجنان ج ٢ ص ٢٦١ ، طبقات الشافعية الكبرى ج ٣ ص ١٢١ .

محمد بن سعد كاتب الواقدي

نسبه ونشأته (٧١) :

هو الامام المؤرخ الثقة ابو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهري الهاشمي ولاء لان احد اجداده كان مولى للحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباسي بن عبد المطلب الهاشمي .

ولد بالبصرة سنة ١٦٨ هـ ، ولهذا نسب اليها ف قيل ابن سعد البصري وكان ابن سعد محل رضا الرواة ، حيث لم يلبس الفتن الهوجاء في عهد المأمون وبعده ، فأمكنه نشر علمه ، وعلم استاذه ، وبقيت كتبه محفوظة مقبولة عندهم .

وعرف ابن سعد بكاتب الواقدي ، لأنه صحبه زمانا ، وكتب له فعرف به . وتردد المحدثين في قبول اخبار الواقدي ليس له اثر كبير فيما يتعلق بابن سعد ، فان أكثرهم قالوا : ثقة مع ان استاذه ضعيف واذا كان ابن سعد ألف كتبه من تصنيفات الواقدي ولم ينس ذكر اسم شيخه في سلسلة الاسناد ، الا انه كان يغربل الرواية التي يرويها له ، او يؤيدها برواية اخرى لغيره .

حياته العلمية :

كان ابن سعد ذا مكانة علمية ، فعرف له العلماء فضله ومنزلته جمع كثيرا من العلم وروى عن كثير من الشيوخ لاسيما الواقدي . يقول احمد بن كامل القاضي : قال لي محمد بن موسى : الذين اجتمعت عندهم كتب الواقدي اربعة انفس : محمد بن سعد كاتب الواقدي اولهم .

شيوخه وتلاميذه :

ومن شيوخه محمد بن عمر بن واقد الواقدي وهو الذي صحبه ولازمه كثيرا ، كما روى ايضا عن سفيان بن عيينة واسماعيل بن علي ، ويزيد بن هارون الواسطي ، وعبيد

(٧١) وفيات الاعيان ج١ ص ٦٤٢ ، الرسالة المستطرفة ص ١٣٨ ، مرآة الجنان ج٢ ص ١٠٠ .

الله بن موسى العيسى ، وهيثم والوليد بن مسلم وابى الوليد الطيالسى وغيرهم من شيوخ الرواية بالبصرة والكوفة وواسط وبغداد ومكة المكرمة والمدينة والشام واليمن ومصر وغيرها .

ومن تلاميذه الذين رووا عنه :

ابو بكر بن ابى الدنيا وابو محمد الحارث بن أبى اسامة التميمى ، والحسين بن فهم راوية الطبقات الكبرى عن ابن سعد ، وهو الذى قال عن شيخه كان كثير العلم ، كثير الكتب ، كتب الحديث والفقه والغريب .

منزله :

وقد جرح بعض العلماء ابن سعد ، وعدله الاكثرون ، قال الحسين بن فهم كنت عند مصعب الزبيرى فمر بنا يحيى بن معين ، فقال له مصعب : يا ابا زكريا حدثنا محمد بن سعد الكاتب بكذا وكذا ، وذكر حديثا ، فقال له يحيى : كذب وقال ابو بكر الخطيب معلقا على ذلك : ومحمد بن سعد عندنا من اهل العدالة وحديثه يدل على صدقه فانه يتحرى فى كثير من رواياته ، ولعل مصعبا الزبيرى ذكر ليحيى عنه حديثا من المناكير التى يروها الواقدي فنسبه الى الكذب^(٧٢) .

وقال ابن ابى حاتم الرازى سألت ابى عن محمد بن سعد ، فقال : « يصدق » جاء الى القواريرى وسأله عن احاديث فحدثه ، وقال ابراهيم الحرى : كان احمد بن حنبل يوجه فى كل جمعة بحنبل بن اسحاق الى ابن سعد يأخذ منه جزءين من حديث الواقدي ينظر فيهما الى الجمعة الاخرى ثم يردهما ويأخذ غيرهما قال ابراهيم ولو ذهب سمعها كان خيرا له . وقد سبق بيان انه كان يغربل الرواية التى يذكرها عن شيخه الواقدي وبعضها بغيرها .

وعما سبق يتضح لنا ان المعدلين لابن سعد عدد كثير ، وان له مكانته العلمية التى استحق بها كل اكبار وتعظيم .

وقد رحل ابن سعد رحلات علمية الى المدينة والكوفة وبغداد ، وفى بغداد لزم الواقدي ، ولم ينسب اليه فى كتب التراجم الا ثلاثة مؤلفات .

(٧٢) طبقات الشافعية الكبرى ج ٢ ص ٩ ، تاريخ بغداد ج ٥ ص ٣٢٢ .

١ - الطبقات الكبرى .

٢ - الطبقات الصغرى .

٣ - اخبار النبى ﷺ .

والواقع ان كتاب « الطبقات الكبرى » يحتوى على ما يحتوى عليه الكتابان
الآخران ، وحسبه فى التصنيف كتاب « الطبقات الكبرى » الذى يدل على تضلعه فى
العلم ، ورسوخ قدمه فى كثير من فنون المعرفة والتاريخ .

كتاب الطبقات الكبرى

وكتاب الطبقات الكبرى لابن سعد من اوائل ما الف في هذا الموضوع ولعله لم يسبقه في هذا المجال الا طبقات الواقدي ، وكان لكتاب ابن سعد اثره في التأليف التي جاءت بعده .

ومصادر كتابه نوعان : الأول : المشافهة والسماع . والثاني : الكتابة . ولم يقتصر ابن سعد على الافادة من طبقات الواقدي ، وانما استقى معلومات من كتبه الاخرى ، كما استجد بعض فصول لم يجد فيها لشيخه رواية مثل ذكر كنية رسول الله ﷺ ، وما كان رسول الله ﷺ يعوذ به ويعوذه به جبريل ، وإنساب الجاهليين ، وسير الأنبياء والأمم السابقة التي اتضح أن الواقدي لم يحتفل بها كثيرا .

وقد استهدف كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد خدمة السنة النبوية فتحدث فيه عن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين الى عصره وجعل الجزئين الاولين لسيرة الرسول ﷺ ، وبعد ان انتهى في أكثر الجزأين من السيرة النبوية العاطرة ، عقد فصلا للمفتين بالمدينة في العهد النبوي ، ثم ترجم للصحابة والتابعين فشغل سائر الاجزاء بذلك وخصص اخر جزء للنساء (٧٣) .

(٧٣) الطبقات الكبرى لابن سعد تقديم الاستاذ احسان عباس ص ١٢ ط بيروت ، علوم الحديث ، مصنفه الدكتور صبحي الصالحى ص ٣٤٣ ، الحديث والمحدثون ص ٣٥٠ .

منهج ابن سعد في كتاب الطبقات

لاحظ ابن سعد في تراجمه عنصرين :
الاول : عنصر الزمان والثاني : عنصر المكان .

اما عن الاول وهو عنصر الزمان ، فقد كان يراعيه في سائر الطبقات من أولها الى آخرها ، وجعل نقطة البدء فيما يتصل بالزمان هي : (السابقة الى الاسلام) ثم (موقعة بدر) ولذا بدأ بالمهاجرين البدرين ، ثم بالانصار البدرين ثم بمن اسلم قديما ولم يشهد « بدرا » وانما هاجر الى الحبشة أو شهد احدا ثم بمن اسلم قبل فتح مكة ، ثم من اسلم بعد فتح مكة .

واما الثاني : وهو عنصر المكان . فترجم للصحابة رضوان الله تعالى عليهم على حسب الامصار التي حلوا فيها ، فسمى من كانوا بالمدينة أو مكة ، أو الطائف أو اليمن أو اليمامة ، ومن نزلوا الكوفة ، ومن نزلوا البصرة ، ومن فضلوا المقام بالشام او مصر ، كما لاحظ هذا المنهج كذلك بالنسبة لتراجم التابعين رضى الله عنهم .

والطبقة في كتاب ابن سعد تساوى عشرين سنة تقريبا ، ولكن هذا التقسيم الذي اتبعه ابن سعد في منهجه كان له عيب واضح في الكتاب ، فقد يكون حد الرجال داخل في غير موضع واحد في هذا المنهج ، بمعنى ان يكون مثلا بدريا عن يفتى ايام الرسول ﷺ ، ثم هاجر الى مصر من الامصار ، وعلى هذا فلا بد له من ثلاث تراجم ، الا ان ابن سعد تنبه لهذا العيب الذي لا مناص منه ، فكان يطيل الترجمة في موضعها الأصلي في الطبقة الحقيقية بما فيه الكفاية ثم يمر في الموضع الاخر عليها بايجاز سريع .

وقد وجد من بين رواة ابن سعد رواة قلائل ضعفهم أهل الحديث وهم : هشام ابن محمد بن السائب الكلبي ، والواقدي ، وابومعشر ، والحقيقة : ان هشاما كان أوثق من ابيه ، والواقدي كان محل ثقة عند فريق كبير من المحدثين .

واكبر ما انتقده المحدثون على الواقدي ، واتبعه في ذلك تلميذه ابن سعد ، هو جمع

الاسانيد الكثيرة وايراد متن واحد لها ، وادخال حديث الرجال بعضهم في بعض مبتغيا بذلك الایجاز اذا كثرت الروایات وتشابهت .

وأرى ان الطبقات الكبرى لابن سعد فيها الاسانيد المرسله ، والمقطوعة بجوار الصحیحة الكثيرة ، فهي لم تكن كلها في درجة واحدة ، ولعل الذي دعاه الى ذلك هو انه كان يهدف الى استيفاء الموضوع الذي يكتب فيه فدون جميع ما ورد في ذلك صحیحا او مرسلا او مقطوعا ، وليس يصعب على اهل العلم استخلاص الصحیح في الكتاب من غيره فذلك امر سهل ، ولئن كانت طبقات ابن سعد خالية من التعقیبات الكثيرة التي تظهر شخصية المؤلف ، الا ان ما يوجد فيها من التوضیحات اليسيرة تطلعنا على نقده العلمی الطیب الذي تميز به ، فمثلا : یورد رواية خلاصتها : ان النبی ﷺ بكى عند قبر امه لما فتح مكة فقال ابن سعد (وهذا غلط ، وليس قبرها بمكة ، وقبرها بالأبواء) .

هاذ وكتاب الطبقات لا يستغنى عنه محدث ولا فقیه ولا مؤرخ ، ومن كتب بعده في الرجال فقد استفاد الكثير منه وللكتاب روايتان : الأولى ، رواية الحارث بن ابی اسامة لبعضه ، والحسين بن فهم لبعضه الآخر كلاهما يرويه عن ابن سعد .

ولهذا الكتاب منزلة جلیلة بين العلماء ، غير انه اكثر فيه من الرواية عن الضعفاء ، قال ابن الصلاح : وكتاب ابن سعد « كتاب الواقدي » كتاب كثير الفوائد ، وهو ثقة غير انه كثير الرواية فيه عن الضعفاء ، وقد تبين ذلك مما سبق .

وتوفى ابن سعد يوم الاحد لأربع خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاثين ومائتين ببغداد ، ودفن في مقبرة باب الشام ، وهو ابن اثنتين وستين سنة رحمه الله تعالى .

وهكذا وقفنا على جانب كبير من النهضة العلمیة ، التي فجر ينابيعها الدافقة هؤلاء الاعلام ، وجمع رحيقها الصافي الأئمة الستة الذين اشرفت كتبهم في سماء الهدى فأوجدت الجوالعلمی العاطر والمناخ الصحی للسنة النبویة الشریفة .

وواضح ان هؤلاء الاعلام ، قد حصلوا على ثناء كبير ، وتقدير اى تقدير من الحفاظ المتقنين في عصرهم فكان هذا الثناء ، وذلك التقدير بمثابة شهادات علمیة عظيمة ، فلئن كان في عصرنا هذا ترتفع مكانة الباحث بمقدار ما حاز من شهادات وما وصل اليه من تفوق في سلك دراساته حتى اهله كفاءته ، ورشحته شهاداته الى مكانة مرموقة وعمل عظیم فان

اولئك العلماء في عصرهم هذا كانت شهاداتهم بقدر كدهم وجددهم ورحلاتهم العلمية ،
التي يلتقون فيها مع العلماء اللامعين ، والأئمة المشتهين منتقلين من قطر الى قطر بهمة قعساء
لا تعرف الكلال ، ولا تعوقها مشقة السفر ولا عناء الطريق ، كما اتضح لنا من خلال
الحديث عن نشاطهم وحياتهم العلمية فكان ثناء أئمتهم عليهم وأقوال علمائهم فيهم تعتبر
اسمى الشهادات الصادقة ، لصدورها من أهل الصدق والتوثيق .

الفصل الثاني

علوم ومصنفات صاحبت تدوين السنة في القرن الثالث

وفيه بحثان

البحث الأول : العلوم التي صاحبت تدوين السنة في هذا القرن :

كان القرن الثالث الهجري ازهى واسعد عصور السنة النبوية ، قائمة المحدثين ومصنفاتهم النفيسة الخالدة ، وقد تمخضت بحوث الائمة وتدوينهم للسنة الى علوم كانت قمة ما وصل اليه الفكر البشرى السوى وأصبح ما عرف في التاريخ من القواعد العلمية السليمة للرواية والاختبار . ليس بعدها مجال للتثبت والتوثيق ، وقد نسج على منوال علماء الحديث كثيرون من علماء السلف في سائر مجالاتهم العلمية الاخرى كالتاريخ ، والفقه ، والتفسير والأدب وغير ذلك .

وهذه العلوم هي ما تسمى : « بعلم أصول الحديث » أو علم الحديث « دراية » ذلك ان علم الحديث ينقسم الى قسمين :

الأول : علم الحديث رواية ، وهو علم يعرف به ما أضيف الى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة ، ونقل ما أضيف من ذلك الى الصحابة والتابعين على الرأى المختار .

الثاني : علم الحديث دراية وهو علم بقوانين يعرف بها احوال السند والمتن ، كما قال الشيخ عز الدين بن جماعة : وقال شيخ الاسلام ابو الفضل ابن حجر ، اولى التعاريف له ان يقال : « معرفة القواعد المعرفة بحال الراوى والمروى » والتعريفان يتفقان في البحث عن الراوى والمروى من حيث القبول او الرد .

وقد نشأ أصول هذا العلم مع نشأة الحديث ، اذ كانوا يطلبون من الراوى التثبت وينقدون المرويات . وقد ازداد الحرص على هذا منذ وقوع الفتن ، فكانوا يقولون : سموا

(١) تدريب الراوى ص ٥ .

لنا رجالكم كما زاد الطلب ايضا عندما قام ابن شهاب الزهري بجمع الحديث من حامله في الدفاتر والصحف ، ثم بعد ذلك كتب الامام الشافعي بعض المسائل في كتابه ؛ « الرسالة » و « الأم » وكان اول من الف في بعض بحوث هذا العلم هو الامام علي بن المديني ، كما تكلم في مسائله البخارى ومسلم والترمذى من علماء القرن الثالث ، وقام الترمذى فاشاع مسائل هذا العلم وجمع بعضها في خاتمة جامعه .

فتدوين علوم الحديث إذاً ابتداءً في ابواب ، وفي بعض انواع منه اثناء المائة الثالثة وكانت مؤلفات علماء القرن الثالث في هذا العلم غير جامعة لكل انواعه في كتب خاصة ، ولا مستقلة قائمة بذاتها ، وانما تعرضوا لبحث هذه العلوم اثناء تأليفهم وجمعهم للمرويات ، فمنهم من جعلها مقدمة لمؤلفه كما فعل الامام مسلم ومنهم من جعلها خاتمة تبين مراده من المصطلحات كما صنع الترمذى في آخر جامعه ، وعنى الامام البخارى فألف كتبه في التواريخ الثلاثة . الكبير والاوسط والصغير ، كما الف ايضا في تواريخ الرواة الامام محمد بن سعد (كتاب الطبقات الكبرى) وألف البعض في الثقات كأبي حاتم بن حيان المتوفى سنة ٣٥٤ (كتاب الطبقات) وخصص البعض مؤلفات في الضعفاء والعلل ككتاب الضعفاء للبخارى ، وكتاب الضعفاء للنسائي ، ورأى بعض العلماء ان هذه الكتب قد تضمنت اصطلاحات خاصة بأهل الحديث وقواعد كثيرة لهم . يعرف بها المقبول والمردود ، ففكرو في تحليصها في هذه الكتب وجمعها في علم خاص وتدوينها في كتب مستقلة ، وكان ذلك في القرن الرابع . . . حيث نضجت العلوم واستقر الاصطلاح ، فألف القاضي ابو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي المتوفى سنة ٣٦٠ هـ كتاب (المحدث الفاضل بن لراوى والواعى) فجمع كثيرا من انواع هذا العلم ، وكان اول من وضع كتابا مستقلا في علوم الحديث ، ولكنه لم يستوعب جميع بحوثه ، ثم صنف الحاكم ابو عبد الله انيسابورى المتوفى سنة ٤٠٥ هـ كتابه : (معرفة علوم الحديث) ولكنه لم يهذب ولم يرتب ثم الف الحافظ الخطيب ابو بكر البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ كتابا في اصول الحديث سماه (الجامع لأداب الشيخ والسامع) ثم كثر التصنيف بعد ذلك وتتابع .

وقد تنوعت الدراسة في هذا الفن الى علوم كثيرة من أهمها :

١ - علم الجرح والتعديل : وقد أدى حرص العلماء على معرفة أحوال الرواة لتمييز الصحيح من غيره الى نشأة علم الجرح والتعديل ، أو علم ميزان الرجال ، وهو علم يبحث عن الرواة من حيث ما ورد في شأنهم من تعديل يزينهم ، أو تجريح يشينهم ، وتكلم في هذا العلم كثيرون من عهد الصحابة الى المتأخرين من العلماء ، فمن الصحابة : ابن

عباس ٦٨ هـ ، وعبادة بن الصامت ٣٤ هـ ومن التابعين سعيد بن المسيب ٦٣ هـ ،
والشعبي ١٠٤ هـ .

اما ابتداء التصنيف ووضع الكتب في الجرح والتعديل ، فلم يكن الا في القرن
الثالث ، وكان من اوائل الذين ألّفوا في هذا العلم : يحيى بن معين ٢٣٣ هـ ، وأحمد بن
حنبل ٢٤١ هـ ومحمد بن سعد كاتب الواقدي . والبخارى ومسلم وأبو داود السجستاني
والنسائي ثم تتابع التأليف بعد ذلك . . وألف كذلك أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن
عبد الرحيم بن سعد بن البرقي الزهري مولا هم المصري الحافظ المتوفى سنة تسع واربعين
ومائتين .

ومن كتب في الثقات والضعفاء : أبو اسحاق ابراهيم بن يعقوب بن اسحاق
السعدي الجوزجاني المتوفى سنة تسع وخمسين ومائتين . ومن نماذج التأليف في هذا النوع
كتاب الضعفاء للامام البخارى .

كتاب الضعفاء الصغير للامام البخارى

وقد نهج البخارى في كتابه على ترتيب الاسماء حسب حروف الهجاء مبتدئا بحرف الالف حتى اذا ما استوعب من اسمه ابراهيم ، جاء بباب من اسمه اسماعيل ثم بباب من اسمه اسحاق ، ثم ايوب ، حتى اذا ما انتهى من حرف الالف ، جاء بباب « الباء » وهكذا الى باء الياء مثال ذلك قوله .

« ابراهيم بن اسماعيل بن مجمع بن جارية الانصارى » يروى عنه وهو كثير الوهم يروى عن الزهرى وعمرو بن دينار يكتب حديثه .

ابراهيم بن اسماعيل بن ابي حبيبة المدنى الانصارى الاشهل عن داود بن الحصين - منكر الحديث . وهكذا الى أن انتهى من الاسماء جاء في آخر الكتاب بالكنى من الضعفاء مثال ذلك :

أبو الرجال : سمع النضر بن النضر عن أنس عن أبيه عن النبي ﷺ « منكر الحديث عنده عجائب » .

أبو ماجد الحنفى عن ابن مسعود ، ويقال العجلى ، قال الحميدى عن ابن عيينة عن يحيى هو منكر الحديث .

أبو بكر بن عبد الله بن أبي سبرة المدنى ، ضعيف . وكان في غالب الاحيان يراعى الترتيب في أسماء الآباء .

وقد جعل لكل حرف بابا ، وتحت كل باب أبواب فرعية كل منها خاص باسم ومعنون به لكنه لم يلتزم بترتيب ابواب الاسماء على حروف المعجم فقدم من اسمه اسماعيل على من اسمه اسحاق . وطبع الكتاب بالهند سنة ١٣٢٥ هـ .

كتاب الضعفاء والمتروكين للنسائي

رتب النسائي هذا الكتاب على حروف المعجم ، وقسمه الى ابواب جاعلا كل حرف من الحروف الهجائية بابا ، فبدأ بالالف فالباء . . . الخ .

مثل : باب « ابراهيم » وذكر قائلا :

« ابراهيم بن اسماعيل بن مجمع ضعيف مدني » ، « ابراهيم بن اسماعيل بن أبي حبيبة ضعيف مدني » ، « ابراهيم بن عطية متروك الحديث واسطي » ، « ابراهيم بن الفضل متروك الحديث مدني » ، فاذا ما انتهى عن اسمه ابراهيم انتقل الى باب من اسمه « أبان » . ثم الى باب من اسمه « أبي » فقال : « أبي بن العباس بن سهل بن سعد الساعدي ليس بالقوى » ثم باب من اسمه « أيوب » ثم باب اسماعيل ثم باب اسحاق ، ثم باب اسامة وغيره ، ثم تتبع الحروف « بابا » « بابا » حسب ترتيبها الهجائي وهكذا .

ويعد حرف الياء وهو الحرف الأخير أتى بباب الكنى فقال : « أبو مطيع الخراساني ضعيف » . وفي آخر الكتاب ذكر اسم أم الاسود يروى عنها احمد بن يونس غير ثقة . فالامام النسائي حين يقدم في هذا الكتاب الضعفاء والمتروكين لا يقدمهم اسما مجردة وإنما يردفها بالرواة الذين أخذوا عنهم حتى يقف الباحث على مصدر الأخذ ثقة هو أم لا امنكر هو؟ امترك؟ وهكذا فيبين من روى عنه ويذكر حكمه عليه بالنكارة أو عدم الثقة وهكذا . . . ويلاحظ أنه في ترتيب الاسماء رتبها حسب الحرف الاول منها فقط دون نظر الى بقية الحروف وجعل لكل اسم بابا كصنيع البخاري ، ولم يراع في الترتيب اسما الآباء الا قليلا ومع ذلك فان الباحث لا يلقى صعوبة في الكشف فيه ، لان اسم الراوى يذكر بخط كبير أول السطر ثم يتبعه بيان حاله كما في الطبعة الهندية سنة ١٣٢٥ هـ .

٢ - معرفة الصحابة : وهو من العلوم التي تناولها علماء القرن الثالث الهجري بالدراسة والتصنيف ، وتعتبر معرفة الصحابة « فنا هاما من أجل فنون علوم الحديث » .

وقد عني به العلماء ، في القديم والحديث ، ولهذا العلم ثمرته العظيمة وهي : معرفة الحديث المتصل والمرسل .

قال الحاكم^(٢) : ومن تبخر في معرفة الصحابة فهو حافظ كامل الحفظ فقد رأيت جماعة من مشايخنا يروون الحديث المرسل عن تابعي عن رسول الله ﷺ يتوهمونه صحابيا ، وربما رووا المسند عن صحابي يتوهمونه تابعيا .

وقد ألفت في معرفة الصحابة كتب ، مرتبة على الحروف أو على القبائل وغير ذلك منها :

- ١ - كتاب ابى بكر احمد بن عبد الله بن عبد الرحيم بن سعيد بن البرقى الحافظ الثقة المتوفى سنة سبعين ومائتين .
- ٢ - « كتاب المعرفة » لابي محمد عبد الله بن محمد بن عيسى المروزى الشافعى الحافظ المعروف بعبدان المتوفى سنة ثلاث وتسعين ومائتين .
- ٣ - معرفة الصحابة لابي بكر احمد بن عبد الله بن عبد الرحيم بن سعيد بن البرقى الحافظ المتوفى سنة سبعين ومائتين .
- ٤ - كما الف في معرفة الصحابة ابو منصور محمد بن سعيد البارودى المتوفى سنة احدى وثلاثمائة .

ومن اشهر الكتب في معرفة الصحابة (الاستيعاب في معرفة الأصحاب) لابن عبد البر و (أسد الغابة) لابن الاثير و (الاصابة) لابن حجر .

٣ - « علم الرواة » وهو علم يعرف به تاريخ رواة الحديث ورحلاتهم ومواطنهم ومواليدهم ووفياتهم وكثير من احوالهم مما له اثر في توهينهم أو تقويتهم ، وأول من عرف عنه الاشتغال بذلك الامام البخارى ، وابن سعد في طبقاته^(٣) ومن الف في هذا : أبو الوليد أحمد بن محمد بن الوليد بن عتبة بن الأزرق بن عمرو بن الحارث الأزرقى المتوفى سنة ثلاث وعشرين ومائتين وقيل سنة سبع عشرة ومائتين ونقدم هنا كتاب : « التاريخ الكبير » للامام البخارى كنموذج حتى ، ومثال صحيح للتصنيف في هذا القرن بالنسبة لعلم الرواة .

(٢) علوم الحديث (٢٥) .

(٣) تدريب الراوى ص ٤٥٠ ، علوم الحديث ومصطلحه ص ٦١٠ .

التاريخ الكبير

حاول الامام البخارى فى هذا الكتاب أن يقدم ما استطاع أن يستوعبه من رواة الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، ومن بعدهم الى طبقة شيوخه ، وقام بترتيب هذا الكتاب على حروف المعجم مبتدئا الكتاب بمن اسمه « محمد » تيمنا وتكريما للنبي عليه الصلاة والسلام ، وأعد البخارى فى هذا الكتاب لكل اسم بابا ، ورتب اسما كل باب على حروف المعجم ، كما لاحظ هذا الترتيب كذلك فى الحرف الأول من أسما الأباء ، ولكنه لم يراع ترتيب أبواب الاسماء على حسب حروف المعجم فنذكر باب ابراهيم ثم باب اسماعيل ، ثم باب اسحاق ، ثم باب ايوب ثم باب اشعث وهكذا .

وقد ألف البخارى هذا الكتاب فى فجر شبابه ومستهل حياته العلمية ، وكان ذلك قبل أن يؤلف الجامع الصحيح . يقول البخارى فلما طعنت فى ثمانى عشرة سنة صنفت قضايا الصحابة والتابعين ثم صنفت التاريخ الكبير فى المدينة عند قبر النبي ﷺ فى الليالى المقمرة ، وقل اسم فى التاريخ الا وله عندى قصة الا أنى كرهت أن يطول .

وكان تأليفه لهذا الكتاب حول مقام الرسول ﷺ ، مما يزيده يمنا ويمده بالروحانية ، ولهذا فان الكتاب قد حظى بثقة كاملة من شيوخه ويتقدير عظيم . ويدل تصنيفه هذا الكتاب على سعة علمة ونلاحظ على هذا الكتاب ان الامام البخارى كان يذكر اسم من يترجم له وبعض من روى عنهم وبعض الذين رووا عنه ، وقد يذكر حديثا لاحدهم إلا أنه قلما يذكر جرحا وتعديلا . وأرى أن هذا راجع الى انه استغنى عن ذلك بما ذكره فى كتابه الضعفاء .

وكان لهذا الكتاب أثره فيما ألف بعده من كتب ، فكان البخارى بحق باعث نهضة القرن الثالث فى تدوين السنة وفى تاريخ الرجال .

ورواة التاريخ الكبير هم :

- ١ - أبو الحسن محمد بن سهل بن كردى البصرى عنه .
- ٢ - أبو احمد عبد الوهاب بن محمد بن موسى الغندجاني عنه .
- ٣ - ورواية الشيخ الجليل أبى الحسين عبد الحميد بن عبد الخالق بن احمد بن عبد القادر ابن محمد بن يوسف عنه^(٤) .

(٤) التاريخ الكبير للبخارى ، طبع بمطبعة حيدرآباد الدكن بالهند سنة ١٣٦١ هـ .

كتاب التاريخ الصغير

وأما كتاب التاريخ الصغير للامام البخارى فقد اختصر فيه تاريخ النبى ﷺ والمهاجرين والانصار ، وطبقات التابعين ومن بعدهم ووفاتهم وبعض نسبهم ، وكناهم ومن رغب فى حديثه . والجزء الاول يتحدث فيه عن أخبار مهاجرى الحبشة وفى آخره يتحدث عن المهاجرين والانصار الذين حدثوا عن الرسول ﷺ ، وتوفوا فى عهده . كما يتحدث على من توفوا فى عهد أبى بكر الصديق رضوان الله تعالى عليه ، ومن بعده من الخلفاء .

وأما الجزء الثانى من هذا الكتاب فابتدأه بذكر من مات فى عهد عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ثم من بعده الى أن انتهى من الجزء السادس حيث ذكر الذين ماتوا فى سنة ست وخمسين ومائتين .

وقد جاء هذا الكتاب من رواية أبى ذر عبد بن احمد بن محمد بن عبد الله الهروى قال أخبرنا أبو على زاهر بن أحمد الفقيه السرخسى بها قراءة عليه سنة ٣٨٩ تسع وثمانين وثلاثمائة قال : أخبرنا أبو محمد بن محمد النيسابورى قال : حدثنا محمد بن اسماعيل البخارى .

٣ . علم معرفة الأسماء والكنى والألقاب

وهو علم يبحث في معرفة أسماء من اشتهر بكنيته ، وكنى من اشتهر باسمه ، أو يكون قد اشتهر بلقبه دون اسمه أو العكس ، ومعرفة ضرورية للمشتغل بالحديث ، حتى اذا ذكر الراوى مرة باسمه ، ومرة بكنيته ، لا يظنها من لا معرفة له أنها رجلان ، وربما ذكر بها معا فقد يتوهمها رجلين .

ومن كتب في ذلك ابن المدينى ومسلم والنسائى ، والامام أحمد بن حنبل كتاب الاسماء والكنى . وكتاب أبى بشر محمد بن أحمد بن حماد بن سعيد بن مسلم الانصارى المتوفى سنة عشر وثلاثمائة . وللامام البخارى كتاب الكنى .

كتاب الكنى

ذكر الامام البخارى في هذا الكتاب كنى من غلبت كنيته على اسمه ، ومن لم يعرف إلا بكنيته ، وابتدأ بحسب ترتيب حروف الهجاء بعد لفظ أب أو أم ، وقد ذكر الامام البخارى فيه أول ما ذكر باب أبو أميمة ابن الأخنس قال قبيصة عن أبى سلمة بن شقيق المخزومى عن أبى أميمة بن الأخنس عن عمر فى الموضحة ، قال : انا لا نتعاقل المضغ بيننا ، ثم ذكر بعد ذلك أباً أميمة المخزومى وهكذا اذا ما انتهى من ذكر حرف الألف انتقل الى حرف الباء الى آخر ما ذكر ، وقد يذكر اسم صاحب الكنية بعد كنيته كأن يقول : أبو ريجانه : اسمه عبد الله ، وذكر فى آخره الكنى من النساء واسم أم هانى بنت أبى طالب « هند » وقال البعض : اسمها فاخته « واسم أم حبيبة رملة » . ويلاحظ أنه فى آخر هذا الكتاب قال (هذا آخر كتاب التاريخ الكبير ، وعلى ذلك فهو جزء منه) .

٤ - علم تأويل مشكل الحديث

ويسمى مختلف احديث ، وهو التوفيق بين ما ظاهره التعارض من الاحاديث وأول من تكلم في هذا العلم هو الامام الشافعى المتوفى سنة ٢٠٤ هـ ، صنف فيه كتابه المعروف باختلاف الحديث ولم يقصد استيفاءه ، وانما ذكر جملة منه ينبه بها على طريقة الجمع بين ما ظاهره التناقض ، ثم صنف فيه من علماء القرن الثالث ابن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦ وسمى كتابه « تأويل مختلف الحديث » وقد سبق الحديث عنه في الباب الأول .

وصنف فيه أيضا ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ ، وابويحى زكريا بن يحيى الساجى المتوفى سنة ٣٠٧ هـ .

٥ - علم معرفة غريب الحديث

وهو علم يعنى بيان معاني بعض الكلمات الغامضة ، فقد كان صلوات الله وسلامه عليه أفصح الناس وكان يخاطب الوفود على مختلف ألسنتهم بما يفهمونه ، فلما كانت الفتوحات ، ودخل في الاسلام كثير من العجم ونشأ جيل تشوب العجمة لسانهم تحيف على الحديث النبوى أن يستغلق فهمه على بعض الناس فانبرى جماعة من اتباعه لتتابعين ، فتكلموا في غريب الحديث أمثال : مالك بن أنس وسفيان الثورى وأول من صنّف في غريب الحديث أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمى المتوفى سنة ٢١٠ هـ وألف فيه علماء القرن الثالث أيضا : أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ هـ كتابا كان عمدة في هذا الفن جمعه في أربعين سنة ، ثم جاء ابن قتيبة الدينورى ، فنهج منهج أبي عبيد ، وصنّف كتابه المشهور . وعن صنّف فيه أيضا الامام ابراهيم الحربى المتوفى سنة ٢٨٥ هـ ، ويقال أن أول من ألف فيه : أبو عبيد القاسم بن سلام البغدادي الحافظ كتابه « غريب الحديث والآثار » ولعل من ذهب الى ذلك يقصد أول من ألف في غريب الحديث مع الاستقصاء في الجملة ، والا فأول من ألف فيه على الصحيح النضر بن شميل لمازنى ، وكتاب أبي عبيد هذا هو القدوة في هذا الشأن وقد أفنى فيه عمره حتى لقد قال فيما يروى عنه : جمعت كتابى هذا في أربعين سنة . وألف في غريب الحديث كذلك أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى وأبو عمر شمر بن حمدويه ، قيل فيه أنه قدر كتاب أبي عبيد مرارا توفى سنة ست وخمسين ومائتين . وكتاب ذيل كتاب ابن قتيبة لابي محمد قاسم بن ثابت بن حزم العوفى السرقسطى الاندلسى واسم كتابه (الدلائل في شرح ما أغفله أبو عبيد وابن قتيبة من غريب الحديث) وفيه قال أبو على القالى : ما أعلم أنه وضع بالاندلس مثل كتاب الدلائل ، قال ابن القرضى : ولو قال : ما وضع مثله بالمشرق ما أبعدته ، مات ولم يكمله فأتمه أبوه أبو القاسم ، وتوفى أبو محمد سنة اثنتين وثلاثمائة .

كتاب غريب الحديث لابن قتيبة

وكتاب غريب الحديث لابن قتيبة ، هذا فيه حذو أبي عبيد ، ولم يدون فيه شيئا من الاحاديث المودعة في كتاب أبي عبيد الا ما دعت اليه حاجة من زيادة أو شرح بيان ، ولهذا كان كتاب ابن قتيبة مثل كتاب أبي عبيد أو أكبر منه .

ويعتبر هذا الكتاب من أوائل ما ألف ابن قتيبة ، وأنه قد ألفه قبل تأليف كتاب تأويل مختلف الحديث وقبل كتاب « الاشربة » والشعر والشعراء وقبل أدب الكاتب « وعيون الاخبار » وذلك لأننا نراه في هذه الكتب يشير الى كتاب « غريب الحديث » .

ويعتبر هذا الكتاب من الكتب النفيسة المفقودة التي لم تقع في أيدينا . وقد ذكر ابن الاثير أن ابن قتيبة قال في مقدمة كتابه : « وقد كنت زمانا أرى أن كتاب أبي عبيد قد جمع غريب الحديث ، وأن الناظر فيه مستغن به ، ثم تعقبت ذلك بالنظر والتفتيش والمذاكرة فوجدت ما ترك نحو ما ذكر فتبعت ما أغفل وفسرته على نحو ما فسر» (٥) أ . ه .

(٥) مقدمة النهاية لابن الاثير ص ٤ .

٦ . علم معرفة علل الحديث

والعلة عبارة عن سبب غامض قادح في الحديث مع أن الظاهر السلامة منه ،
ويتطرق ذلك الى الاسناد الجامع شروط الصحة ظاهرا .

وقد تطلق العلة على غير مقتضاها ككذب الراوى ، وغفلة ، وسوء حفظه ونحوها
من أسباب ضعف الحديث وقد يطلقها بعضهم على مخالفة لا تقدح كارسال ما وصله الثقة
الضابط حتى قال : « من الصحيح صحيح معلل كما قيل منه صحيح شاذ »^(٦) .

أما كيفية أدراك العلة ومعرفتها فهو : تفرد الراوى ومخالفة غيره له مع قرائن تضم الى
ذلك تنبه العارف بهذا الشأن على وهم وقع بارسال في الموصول أو وقف في المرفوع أو دخول
حديث في حديث أو غير ذلك بحيث يغلب على ظنه فيحكم بعدم الصحة أو يتردد فيتوقف
فيه ، والطريق الى معرفته : جمع طرق الحديث والنظر في اختلاف رواته وضبطهم
وإتقانهم . والتصنيف على العلل هو جمع الاحاديث المعللة وتدوينها مرتبة ترتيبا موضوعيا
مبينا فيها مع كل حديث علته ، وقد يلحق بعض المصنفين هذه الطريقة بطريقة المسانيد
فيصنف مسنده معللا وعن صنف في العلل « الامام على بن المدينى ، والامام احمد بن
حنبل ، والامام البخارى ، والامام مسلم ، وأبو يحيى بن زكريا بن يحيى الضبى المتوفى
سنة ٣٠٧ هـ ، والامام الترمذى ونقدم هنا نموذجا للتأليف على العلل .

(٦) تدريب الراوى ص ١٦١ .

العلل الكبير للامام الترمذى

سار الامام الترمذى فى تصنيف العلل على درب الامام البخارى واعتمد عليه وعلى علمه وكتابه ، وكان يروى فيه كثيرا عن البخارى مما يدل على تأثره به وانتفاعه بعلمه . وقد اتقن الامام الترمذى هذا الفن وحذقه كما هو الشأن فى كتابه « الجامع » وغيره حتى قال فيه الحافظ الادريسي : صنف الجامع ، والتواريخ والعلل ، تصنيف رجل عالم متقن كان يضرب به المثل فى الحفظ . وللترمذى كتابان فى العلل :

احدهما : العلل الصغير ، وهو الكتاب الذى لحقه بجامعه ، وجعله خاتمة له .

والثانى هو العلل الكبير ، وهذا هو الكتاب المقصود بقول المحدثين رواه الترمذى فى العلل ، ولكن مما يؤسف له ، ان هذا الكتاب غير موجود بأيدينا ، فهو من الكتب المفقودة ، ولعله يكون مخطوطا ضمن مخطوطات خزانات الكتب الأجنبية أو اندثر ضمن ما اندثر من تراثنا العزيز تحت غبار السنين والقرون .

وهذا هو ما دعا البعض أن يقول : انها كتاب واحد .

وأرى ان كتاب العلل الكبير ، غير كتاب العلل الصغير ، لما روى من الاحاديث عن (العلل الكبير) وهى غير موجودة فى العلل الصغير .

ومثال ذلك ما رواه أصحاب السنن من حديث عبد الله بن عمر عن اخته حفصة قالت : قال رسول الله ﷺ : (من لم يجمع الصيام قبل الفجر فلا صيام له) وقد أعل الترمذى وأحمد والنسائى هذا الحديث لمخالفة عبد الله بن أبى بكر بن عمر بن حزم الذى تفرد به من هم أكبر منه قدرا كابن عيينه ويونس الايلى وغيرهما ممن رووه موقوفا على حفصة ، ولما رواه نافع فى رواية مالك موقوفا على ابن عمر ، كما ظهرت بعض القرائن فى ذلك وهى كثرة الاختلاف فى سند الحديث حتى رجحوا رواية الوقف على رواية عبد الله بن أبى بكر قال الترمذى فى العلل : (وهو خطأ ، وهو حديث فيه اضطراب ، والصحيح عن ابن عمر موقوفا) .

٧ - المشيخات

ومن الأنواع التي صنفت في القرن الثالث كذلك « كتب المشيخات » وهي التي تشتمل على ذكر الشيوخ الذين لقيهم المؤلف وأخذ عنهم ، وإجازوه وإن لم يلقيهم .

كمشيخة الحافظ أبي يعلى الخليلي ، ومشيخة أبي يوسف يعقوب بن سفيان بن حيان ، المتوفى سنة سبع وسبعين ومائتين ومشيخته في ستة أجزاء مرتبة على البلاد .

٨ . الطبقات

ومن الأنواع التي صنف في هذا القرن أيضا « كتب الطبقات » وهي التي تشتمل على ذكر الشيوخ وأحوالهم ، ورواياتهم طبقة بعد طبقة ، وعصرا بعد عصر الى زمن المؤلف . وتقدم الحديث عن طبقات ابن سعد الكبرى . وعن ألف كذلك في هذا القرن الثالث أبو عمرو خليفة بن خياط ابن خليفة الشيباني العصفري البصرى الحافظ أحد شيوخ البخارى ألف « طبقات الرواة » وتوفي سنة ثلاثين وقيل : سنة أربعين أو ست وأربعين ومائتين .

(٧) رواه أبو داود ج ٢ ص ٣٢٩ ، والنسائي ج ١ ص ٣٢٠ ، والترمذى . ج ١ ص ١٤١ . وابن ماجه ج ١ ص ٥٢٠ .

٩ - رواية الأكابر عن الأصغر والآباء عن الأبناء

وهو من أهم الأنواع ، ومن فوائده ألا يتوهم أن المروى عنه أفضل وأكبر من الراوى لكونه الأغلب في ذلك ، ومنها ألا يظن أن في السند انقلابا . وهو أقسام :

١ - أن يكون الراوى أكبر سنا ، وأقدم طبقة من المروى عنه كالزهرى ويحيى بن سعيد الانصارى في روايتهما عن مالك بن أنس .

٢ - أن يكون الراوى أكبر قدرا لا سنا كمالك في روايته عن عبد الله بن دينار ، وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه في روايتهما عن عبيد الله بن موسى العيسى .

٣ - أن يكون الراوى أكبر من المروى عنه من الوجهين معا كعبد الغنى في روايته عن الخطيب ، وكالخطيب في روايته عن ابن ماكولا^(٨) .

ومن الكتب المصنفة في هذا النوع في القرن الثالث : كتاب (ما رواه الكبار عن الأصغار والآباء عن الأبناء) .

تأليف الحافظ أبى يعقوب بن ابراهيم بن يونس بن المنجنيقى البغدادى الوراق نزيل مصر المتوفى سنة أربع وثلاثمائة^(٩) .

والحق ان أنواع علوم الحديث كثيرة لا تعد . وكما قال الحازمى : علم الحديث شتمل على أنواع كثيرة تبلغ مائة كل نوع منها علم مستقل ، لو أنفق الطالب فيه عمره لما حرك نهايته .

(٨) تدريب الراوى ص ٤٢ .

(٩) الرسالة المستطرفة .

البحث الثاني

مصنفات موانمة لنهضة التدوين

في القرن الثالث الهجري

أقدم في هذا البحث المصنفات التي صنفت ، قبل الأئمة الستة ، وفي زمنهم ويعدهم ، تلك المصنفات التي وافقت نهضة التدوين في القرن الثالث الهجري وكانت لها مناهج بعضها يعتبر متفرعا من مناهج التدوين الأساسية ، التي سبق ذكرها في الباب الثاني . وقد أدلى بعض الأئمة الستة بدلوه في مجال هذه المصنفات .

وفي بحثنا هذا أريد أن أبرز هذه المناهج التي قامت تلك المصنفات على أساسها ، مشيرا الى ما كان موجودا منها في القرن الثالث وهي :

الأجزاء

يطلق الجزء عند علماء الحديث على تأليف الأحاديث المنروية عن رجل واحد من الصحابة أو من بعدهم ، وقد يختارون من المطالب المذكورة في صفة الجامع مطلبا جزئيا يصنفون فيه مبسوطا ، وفوائد حديثية ووجدانيات وثنائيات^(١) كما صنف أبو بكر بن أبي الدنيا في باب النية ودم الدنيا كتابين مبسطين .

معنى الجامع :

ومعنى « الجامع » الذي قد يختار مؤلفوا الأجزاء أحد مطالبه ، فهو في اصطلاح المحدثين^(٢) ما وجد فيه جميع أقسام الحديث مثل أحاديث العقائد ، وأحاديث الاحكام وأحاديث الرقاق واحاديث آداب الأكل والشرب واحاديث السفر والقيام والقعة

(١) الرسالة المستطرفة للكناني ص ٨٦ ط بيروت .

(٢) مقدمة تحفة الاحوذى ج ١ ص ٦٤ .

والاحاديث المتعلقة بالتفسير والتاريخ والسيرة واحاديث الفتن واحاديث المناقب والمثالب وقد صنف أهل العلم بالحديث في كل من هذه الفنون الثمانية تصانيف مفردة .

ومن ألف على طريقة الاجزاء في القرن الثالث الهجرى :

١ - أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن المثنى بن عبد الله بن أنس بن مالك الانصارى البصرى القاضى الثقة شيخ البخارى ، توفى سنة خمس عشرة ومائتين ، ويعتبر جزؤه من الاجزاء العالية الشهيرة .

٢ - أبو الحسن على بن الجعد بن عبيد الهاشمى مولا هم الجوهري المتوفى سنة اثنين وثلاثين ومائتين ، وله الاجزاء الجعديات وهى اثنا عشر جزءا .

٣ - جزء لؤين محمد بن سليمان بن حبيب المصيصى المتوفى سنة خمس أو ست وأربعين ومائتين .

٤ - جزء أبى بكر احمد بن عبد الله بن سويد بن منجوف السدوسى ، ويعرف بالمنجوفى نسبة الى جده المذكور ، وهو من مشايخ البخارى فى الصحيح توفى سنة اثنين وخمسين ومائتين .

٥ - جزء أبى الحسن بن عرفة بن يزيد العبدى البغدادى المعمر المتوفى سنة سبع وخمسين ومائتين وقد جاوز المائة .

٦ - وجزء أبى مسعود أحمد بن الفرات بن خالد الرازى نزيل أصبهان ومحدثها ، وصاحب التصانيف ، الحافظ الثقة ، توفى سنة ثمان وخمسين ومائتين ، قال الذهبى : وجزؤه من أعلى ما يسمى اليوم ، ونقل عنه أنه قال : كتبت عن ألف وسبعمائة شيخ ، وكتبت ألف حديث وخمسمائة فعملت من ذلك فى تأليفى خمسمائة ألف حديث .

٧ - وكتب فى الفوائد « مثل فوائد أبى بشر اسماعيل بن عبد الله ابن مسعود العبدى الاصبهانى الملقب بسمويه » وهى فى ثمانية أجزاء قال الذهبى : ومن تأمل فوائده المروية علم اعتناؤه بهذا الشأن ، توفى سنة سبع وستين ومائتين .

٨ - وجزء القناعة لآبى العباس احمد بن محمد بن مسروق المتوفى سنة تسع وتسعين ومائتين .

٩ - « فوائد » أبى محمد عبد الله بن احمد بن موسى بن زياد العسكرى نسبة الى عسكر الاهوازى الجواليقى المعروف بعبدان المتوفى سنة ست وثلاثمائة .

المستخرجات

ومنهج التصنيف على المستخرجات أن يأتي المصنف الى الكتاب فيخرج أحاديثه بأسانيد لنفسه من غير طريق صاحب الكتاب فيجتمع معه في شيخه أو من فوقه ، وربما أسقط صاحب المستخرج أحاديث من الكتاب الذي يستخرج احاديثه لأنه لم يجد له بها سندا يرتضيه ، وربما ذكرها من طريق الكتاب الأصلي .

ومن ألف على هذه الطريقة من علماء القرن الثالث :

١ - الحافظ ابوبكر محمد بن رجاء النيسابورى الاسفراينى المتوفى سنة ست وثمانين ومائتين .

٢ - الحافظ ابو الفضل احمد بن سلمة النيسابورى البزار ، قال الذهبي : له مستخرج كهيفة صحيح مسلم توفى سنة ست وثمانين ومائتين .

٣ - الحافظ ابو جعفر أحمد بن حمدان بن على بن عبد الله بن سنان الحيرى نسبة الى الحيرة محلة كبيرة مشهورة بنيسابور توفى سنة احدى عشرة وثلاثمائة .

٤ - مستخرج ابن بكر بن منجويه وابى على الحسن بن على بن نصر الخراسانى الطوسى شيخ أبى حاتم الرازى توفى سنة اثنتى عشرة وثلاثمائة ، كل منهما على الترمذى وقد شارك الثانى منها الترمذى فى كثير من شيوخه .

الشمائل

ومن طرق التصنيف في القرن الثالث طريقة تدوين الاحاديث النبوية الخاصة بالشمائل النبوية والسير المصطفوية ويقوم التأليف في هذه الطريقة على وصف رسول الله ﷺ وهو جانب هام وكريم من جوانب السنة النبوية ، ومعلوم أن الحديث هو ما أضيف الى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة وهذا الاخير هو صفة رسول الله ﷺ وهو المقصود بالتصنيف على هذه الطريقة . ولا شك أن هذا الجانب من السنة يتهدى به عشاق الحضرة ومحبو السنة النبوية ، الذين رأوا في صاحبها سعادة دنياهم واخراهم ، فساروا على مبادئه وفضائله ، وتعللوا بذكر الحبيب وشمائله ، قال الشيخ محمد بن محمد الجزرى .

اخلاى إن شط الحبيب وربعه وعز تلاقيه وناءت منازله
وفاتكم أن تبصروه بعينكم فما فاتكم بالعين هذى شمائله

ومن ألف في الشمائل من علماء القرن الثالث :

- ١ - أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى المعافرى المصرى الذى هذب السيرة لمحمد بن اسحاق ، فصارت تنسب إليه ، رواها عن زياد بن عبد الله البكائى عنه ، توفى سنة ثمان عشرة ومائتين .
 - ٢ - ابو عبد الله احمد بن محمد بن عائذ القرشى الدمشقى الحافظ الثقة توفى سنة ثلاث أو أربع وثلاثين ومائتين .
 - ٣ - المغازى لابي أيوب يحيى بن سعيد بن ابان بن سعيد بن العاص الاموى الكوفى تزييل بغداد الملقب بالجمل توفى سنة أربع وتسعين ومائتين .
- ومن أهم ما ألف في هذا النوع .

كتاب الشمائل للإمام الترمذى

وكتاب الشمائل للإمام الترمذى من الكتب العظيمة القدر فى هذا الجانب وقد تلقاه العلماء بثناء عاطر وقابنوه بتقدير عظيم ، قال الشيخ ابراهيم الباجورى^(٣) ان كتاب الشمائل للإمام الترمذى كتاب وحيد فى بابة فريد فى ترتيبه واستيعابه حتى عد ذلك من المواهب وسار فى المشارق والمغارب .

واشتمل كتاب الشمائل على ستة وخمسين بابا ، وضع لكل باب عنوانه المناسب وقام بترتيب الأبواب ، متدرجا من جانب الى آخر ، فابتدأه بما جاء فى خلق الرسول صلوات الله وسلامه عليه متناولا ببيان صفاته البدنية الشريفة ، ثم مظهره العام ، ثم الملبس . . . ثم ما يتعلق بحياته اليومية وعاداته الشخصية ثم ما كان عليه من الخلق العظيم ، وهكذا سارت طريقة الكتاب فى هذا التسلسل المنطقى السليم حتى جاء الى باب ما جاء فى وفاته ﷺ ثم ميراثه ، ثم رؤيته ﷺ فى المنام .

وكان يروى الاحاديث الخاصة بكل موضوع فى بابها المناسب الذى اعدده لها ولم يتكلم الامام الترمذى على الاحاديث من ناحية تصحيحها أو تضعيفها .

درجة احاديثه :

أما عن درجة احاديث الكتاب فقد حاول الامام أبو عيسى أن يروى أصح الاحاديث واحسنها فى هذا الموضوع ولكنه لم يشترط تخريج الحديث الصحيح فحسب ، ولا بيان درجة كل حديث .

(٣) الرسالة المستطرفة للكتانى ، الترمذى للدكتور نور الدين عتر .

مثال ما جاء في الكتاب :

(حدثنا أبو رجاء قتيبة بن سعيد عن مالك بن أنس عن ربيعة ابن أبي عبد الرحمن عن انس بن مالك رضى الله عنه أنه سمعه يقول (كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل البائن ولا بالقصير ولا بالأبيض الأمهق أى شديد البياض ولا بالأدم ولا بالجعد القلط ولا بالسبط (المسترسل) بعثه الله تعالى على رأس أربعين سنة ، فأقام بمكة عشر سنين ، وبالمدينة عشر سنين وتوفاه الله على رأس ستين سنة ، وليس فى رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء) ولعل المراد بالعشر سنوات فى مكة من ابتداء الجهر بالدعوة وهذا الحديث من أول الكتاب ورواته ثقات .

كتب مفردة فى أبواب مخصوصة

ومن علماء القرن الثالث من ألف فى كتب مفردة فى أبواب مخصوصة كالطهور والصلاة وهكذا . ومن ألف فى ذلك :

١ - أبو نعيم الفضل بن دكين الكوفى مولاهم الحافظ توفى سنة ثمان عشرة أو تسع عشرة ومائتين وهو من كبار شيوخ البخارى ألف كتاب « الصلاة » .

٢ - ومن ألف فى كتب مفردة فى أبواب مخصوصة أيضا : أبو عبيد القاسم بن سلام كان أبوه عبدا روميا لرجل من أهل هراة ، البغدادى اللغوى الشافعى الحافظ ألف « الطهور » توفى بمكة وقيل بالمدينة سنة ثنتين أو ثلاث أو أربع وعشرين ومائتين .

٣ - أبو عبد الله نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث الخزاعى نزيل مصر أول من جمع المسند . ألف « الفتن والملاحم » توفى سنة ثمان وعشرين ومائتين .

٤ - أبو خيشمة زهير بن حرب بن شداد الحربى النسائى البغدادى الحافظ ألف كتاب « العلم » روى عنه مسلم أكثر من ألف حديث ، توفى سنة أربع وثلاثين ومائتين .

٥ - أبو أحمد حميد بن مخلد بن قتيبة بن عبد الله النسائى الأزدي المعروف بابن زنجويه ، وهو لقب أبيه توفى سنة ثمان وأربعين ، وكتابه كالمستخرج على كتاب « الاموال » لابي عبيد ، وشاركه فى بعض شيوخه وزاد عليه زيادات .

٦ - ومن الكتب المؤلفة فى هذا النوع : « كتاب الايمان » لآحمد بن حنبل ولايى بكر ابن ابي شيبة ، ولايى الفرغ عبد الرحمن بن عمر بن يزيد بن كثير الزهدى الاصبهانى الحافظ الملقب برسته توفى سنة خمسين أو ست وأربعين ومائتين .

٧ - كتاب (الاخلاص) لايى بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس المعروف بابن أبى الدنيا الاموى مولاهم البغدادى توفى سنة احدى وثمانين ومائتين .

٨ - كتاب (سجديات القرآن) لأبي اسحاق ابراهيم بن اسحاق ابن بشير الحرابي
البغدادي الشافعي ، وله مصنفات كثيرة ، توفي ببغداد سنة خمس وثمانين ومائتين .

٩ - كتاب (الصلاة) لأبي عبد الله محمد بن نصر المروزي ، توفي بسمرقند سنة
أربع وتسعين ومائتين .

١٠ - كتاب (التهجد) لابن أبي الدنيا ، « وكتاب العيدين » له أيضا ولأبي بكر
جعفر بن محمد بن الحسن الفريابي نسبة الى بلد بالترك يقال لها « فرياب » توفي ببغداد سنة
احدى وثلاثمائة .

أحاديث بعض شيوخ مخصوصين من الكثيرين

ومن الكتب التي ألفت في هذا القرن أيضا ، كتب دون فيها مصنفوها أحاديث
شيوخ مخصوصين من الكثيرين ومن هذه الكتب :

١ - « أحاديث محمد بن مسلم بن شهاب الزهري » لأبي عبد الله محمد بن يحيى بن
عبد الله بن خالد بن فارس بن ذؤيب الذهلي . توفي سنة ثمان ، وقيل سنة سبع وخمسين
ومائتين وهي المسماة (بالزهريات) في مجلدين ، جمع فيها حديث ابن شهاب الزهري
وجوده وكان قد اعتنى به ، ونقب عليه ، وكان من أعلم الناس بحديثه .

٢ - ومن ألف في هذا النوع أيضا : أبو بكر محمد بن مهران النيسابوري المعروف
بالإسماعيلي جمع حديث الزهري وجوده ، كما جمع حديث مالك وجوده ، وحديث يحيى
ابن سعيد وحديث عبد الله بن دينار ، وحديث موسى بن عقبة ، توفي سنة خمس وتسعين
ومائتين .

كتب السنة

ومن أنواع المصنفات في القرن الثالث كذلك : كتب تعرف بكتب السنة ، وهي الكتب الحاضرة على اتباع السنة والعمل بها ، وترك ما حدث بعد الصدر الاول وما بعد ذلك من البدع والاهواء ، منها كتاب « السنة » للإمام احمد بن حنبل ، ولاي داود كتاب أيضا في هذا النوع ومنها كذلك :

١ - كتاب « الاستقامة في الرد على أهل البدع » لأبي عاصم خشيش بن أحرم النسائي الحافظ ، توفي سنة ثلاث وخمسين ومائتين .

٢ - كتاب « السنة » لأبي علي حنبل بن اسحاق بن حنبل بن هلال ابن أسد الشيباني الحافظ ابن عم الامام أحمد ، وتلميذه ، توفي سنة ثلاث وسبعين ومائتين .

٣ - كتاب أبي بكر أحمد بن عمرو بن النبيل (أبي عاصم) الضحاك بن مخلد الشيباني البصري قاضي اصبهان ، توفي سنة سبع وثمانين ومائتين .

٤ - ولاي بكر احمد بن هارون البغدادى الحنبلى المعروف بالخلخال مؤلف علم احمد ابن حنبل وجامعه ومرتبته ، توفي سنة احدى عشرة وثلاثمائة ، وهو في ثلاثة مجلدات وله أيضا كتاب (العلل) وهو في عدة مجلدات وغيره من التصانيف .

الكتب المفردة

في

الآداب والأخلاق والترغيب

والترهيب والفضائل ونحوها

ومن الكتب المؤلفة في هذا النوع :

- ١ - « كتاب الزهد » لابي السرى هناد بن السرى بن مصعب التميمي الدارمي الحافظ المتوفى سنة ثلاث وأربعين ومائتين .
- ٢ - « كتاب أخبار المدينة » لابي عبد الله الزبير بن بكار بن عبد الله بن مصعب ابن ثابت القرشي الاسدي المدني القاضي المتوفى سنة ست وخمسين ومائتين .
- ٣ - وكتاب أبي زيد عمر بن شبة ، واسمه زيد و (شبه) لقبه ، ابن زيد النميري ، نزيه مصر ، وصاحب تاريخ مصر المتوفى سنة اثنتين أو ثلاث وستين ومائتين .
- ٤ - كتاب « فضائل القرآن » لابي عبد الله محمد بن أيوب بن يحيى المعروف بابن (الضريس) المتوفى بالرى سنة أربع وتسعين ومائتين .
- ٥ - « نوادر الاصول في احاديث لرسول ﷺ » وهي ثلاثمائة حديث أصل الا تسعة لابي عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشر الملقب بالحكيم الترمذي الصوفي ، وله مختصر قدر ثلثه ، توفي ببلخ سنة خمس وتسعين ومائتين .
- ٦ - (المجالسة وجواهر العلم) لابي بكر احمد بن مروان بن محمد الدينوري نسبة الى « دينور » بلد بين الموصل واذربيجان ، جمع في كتابه علوما كثيرة من التفسير ، والاحاديث والآثار ، وغير ذلك ، توفي سنة ثمان وتسعين ومائتين .
- ٧ - « فضائل المدينة » و « فضائل مكة » كلاهما لابي سعيد المفضل بن محمد بن ابراهيم الجندي نسبة الى « الجند » بلدة باليمن ، توفي سنة ثلاثمائة (٤) .

(٤) الرسالة المستطرفة ص ٥٠ .

وهناك سوى هذه الكتب ، فقد أبان عن ذلك ولى الله الدهلوى بقوله : « والطبقة الثالثة مسانيد وجوامع ومصنفات صنفت قبل البخارى ومسلم ، وفى زمانها ، وبعدهما ، جمعت بين الصحيح والحسن والضعيف والمعروف والغريب والشاذ والمنكر والخطأ والصواب والثابت والمقلوب ، ولم تشتهر فى العلماء ذلك الأشتهار ، وإن زال عنها اسم النكارة المطلقة ، ولم يتداول ما تفردت به الفقهاء كثير تداول ، ولم يفحص عن صحتها وسقمها المحدثون كثير فحصى . . . ثم قال : فهى باقية على استسارها واختفائها^(٥) أ . هـ . فدرجة تلك الكتب اذا ، تأتى فى الرتبة بعد الكتب الستة ولتحدث عن واحد من هذه الكتب وهو كتاب « الادب المفرد » للإمام البخارى .

(٥) حجة الله البالغة ج ١ ص ٥٧ .

كتاب الأدب المفرد للإمام البخارى

دون الامام البخارى فى كتابه الادب المفرد مجموعة من السنة النبوية التى تدعو الى حسن الخلق وحسن المعاملة ، و « الادب » هو استعمال ما يحمد قولاً وفعلاً ، وعبر البعض عنه بأنه الأخذ بمكارم الاخلاق ، وقيل : هو الوقوف مع المستحسنات ، وقيل هو تعظيم من فوقك والرفق بمن دونك ، وقيل : أنه مأخوذ من المأدبة وهى الدعوة الى الطعام سمي بذلك لانه يدعى اليه « أ . هـ » . وكل الآراء ما عدا الاخير تتفق فى معنى انه الأخذ بمكارم الاخلاق ، وهو المراد بتسمية هذا الكتاب .

« والمفرد » يراد : المفرد عن الجامع الصحيح ، اذ أنه اشتمل على احاديث زائدة على ما فى الصحيح ومنه قليل من الاثار الموقوفة وهو كثير الفائدة كما قرر الحافظ ابن حجر .

وروى كتاب « الأدب المفرد » عن الامام البخارى : أبو الخير احمد بن محمد بن الجليل البزار^(٦) . وقد جاء كتاب الادب المفرد للبخارى جيد التصنيف وافية فى بابه فطابق اسمه مسماه .

وقد ابتدأ الامام البخارى هذا الكتاب بعد البسمة بباب قوله تعالى : « ووصينا الانسان بوالديه حسناً » أخبرنا أبو نصر أحمد بن محمد بن الحسن بن حامد بن هارون بن عبد الجبار البخارى المعروف بابن النيازكى قرأه عليه فأقر به ، قدم علينا حاجا فى صفر سنة سبعين وثلاثمائة قال : أخبرنا أبو الخير احمد بن محمد بن الجليل بن خالد حريث البخارى الكرماني البزار سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة قال : حدثنا أبو عبد الله محمد بن اسماعيل ابن ابراهيم بن المغيرة بن الاحنف الجعفى البخارى قال : حدثنا أبو الوليد قال : حدثنا شعبة قال الوليد أو اخبرنى قال سمعت أبا عمر الشيبانى يقول : حدثنا صاحب هذه الدار وأوما بيده الى دار عبد الله قال : سألت النبى ﷺ أى العمل احب الى الله عز وجل ؟ قال : الصلاة على وقتها ، قلت ثم أى قال : بر الوالدين ، قلت ثم أى ؟ قال : ثم الجهاد فى سبيل الله ، قال : حدثنى بهن ولو استزدته لزادنى .

(٦) هدى السارى ص ٤٩٣ .

كما ذكر (باب بر الأم) حدثنا أبو عاصم عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قلت :
يا رسول الله من أبر؟ قال : أمك قلت : ثم من أبر؟ قال أمك ، قلت : من أبر؟ قال
أمك ، قلت من أبر؟ قال : أباك ثم الأقرب فالأقرب .

وذكر (باب بر الاب) حدثنا سليمان بن حرب قال : حدثنا وهيب بن خالد بن
شريحة قال : سمعت أبا زرعة عن أبي هريرة قال : قيل يا رسول الله من أبر؟ قال :
أمك ، قال ثم من قال : أمك قال : ثم من؟ قال : أمك قال : ثم من؟ قال أباك .

وذكر « باب بر الوالدين وإن ظلما » « وباب لين الكلام لوالديه » « وباب حب
الوالدين » « وباب عقوق الوالدين » « وباب لعن الله من لعن والديه » « وباب بر والديه
ما لم يكن معصية » وهكذا ، وآخر الكتاب باب « أحب حبيبك هونا ما » « وباب لا يكن
بغضك تلقا » .

وبهذا نكون قد كشفنا القناع عن حقائق هامة في تاريخ تدوين السنة ، وعن كنوز
ثمينة من تراثنا الاسلامي العظيم ، بعضها استطعت الحصول عليه فقدمت عنه من
الدراسة ما وفقني الله اليه ، وما تحتمله طاقة هذا الكتاب وبعضها الآخر غير موجود بأيدينا
منه المخطوط في خزانات المكتبات الاجنبية ومنه المفقود ، ولعلني بهذا أكون قد قدمت دراسة
مخلصة وأمينة عن جهود ائمة القرن الثالث ، ومهدت طريق البحث لمحيى السنة النبوية ،
وعشاق المعرفة ، حتى ننفذ عن تراثنا الخالد غبار عهود طويلة .

الرد على مطاعن بعض المستشرقين واتباعهم

١ - يقول المستشرق المجرى جولد تسيهر : « ان القسم الاكبر من الحديث ليس الا نتيجة للتطور الدينى والسياسى والاجتماعى للاسلام فى القرنين : الاول ، والثانى ، وأنه ليس صحيحا ما يقال من أنه وثيقة للاسلام فى عهده الاول عهد الطفولة ، ولكنه أثر من آثار جهود الاسلام فى عصر النضوج » (٧) .

الرد على ذلك : وهذه الدعوى الزئفة تنهار أمام أدلة النقل من الكتاب والسنة وأمام المنطق العقلى السليم فان رسول الله ﷺ لم يلحق بالرفيق الاعلى الا بعد كمال الدين وتمام نعمة الاسلام ومن أواخر ما نزل عليه : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً » (٨) .

وقال ﷺ « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتى » .

وقد تضاربت المقاييس الثابتة والمناهج الدقيقة التى لم تتوفر لأى ثقافة أخرى ولم تعرف الدنيا أدق من هذه الموازين العلمية التى وضعت لقبول الرواية وُردها . على هذا الاساس تلقى الخلف عن السلف سنة نبيهم عليه الصلاة والسلام حتى وصلت إلينا صحيحة ثابتة .

وأما زعم هذا المستشرق أن أغلب الاحاديث من وضع المسلمين نتيجة للتطور - فهو كذب وافتراء يدحضه ويرده ما ثبت بالواقع والتاريخ من الاحاديث الصحيحة الوافرة التى نقلت عن النبى ﷺ وحفظها الصحابة وأخذها عنهم ثقات الرواة طبقة بعد طبقة وعصرا بعد عصر حتى وصلت إلينا نقية سليمة وتلقاها الأئمة على مر العصور بجهد مشكور فنقروا كل كذب وبالقوا فى الثبوت والحيطه وسطروها على صفحات قلوبهم الواعية وصدورهم الامينة ، ودونوها فى صحفهم وكتبهم الصحيحة التى التزموا فيها بنقد السند والمتن

(٧) نظرة عامة فى تاريخ الفقه الاسلامى ص ١٢٧ عن كتاب : دراسات اسلامية لجولد تسيهر .

(٨) سورة المائدة آية ٣ .

مستجيبين لتبئهم عليه الصلاة والسلام الذى أمرهم بالصدق والمحافظة على حديثه الشريف .

وكما سبق فى بيان حجية السنة يتضح ثبوت الحديث الشريف ، وفساد هذه الدعاوى الزائفة ، وهكذا تنهار هذه الدعوى الباطلة التى لا أساس لها من الصحة .

٢ - وهناك دعوى أخرى تحمل قاعدة خطيرة خلاصتها : أن الاعتراف بصحة الحديث أمر شكلى ، يقول جولد تسيهر ، قد شعر المسلمون فى القرن الثانى بأن الاعتراف بصحة الاحاديث يجب أن يرجع الى الشكل فقط ، وانه يوجد بين الاحاديث الجيدة الاسناد كثير من الاحاديث الموضوعية ، وساعدهم على هذا ما ورد من الحديث : « سيكثر الحديث عنى فمن حدثكم بحديث فطبقوه على كتاب الله فما وافقه فهو منى قلت أو لم أقله » هذا هو المبدأ الذى حدث بعد قليل عند انتشار الوضع « أ . هـ » .

والرد على هذه القرية : انه لم ينقل عن احد من المسلمين أن الاعتراف بصحة الحديث أمر شكلى أو أن من بين الاحاديث الجيدة الاسناد الكثير من الاحاديث الموضوعية وانما كل ما نقل عنهم هو ما رآه البعض بالنسبة لاحاديث الاحاد من أنها تفيد الظن كما سبق بيان ذلك ، وهذا مبالغة فى الحيلة والتبث .

وأما ما ادعاه هذا المستشرق فى تدعيم دعواه من حديث : « سيكثر الحديث بعدى . . . الخ » فقد نقد الائمة هذا الحديث ، وبينوا أنه موضوع فكيف ينهض دليلاً على القاعدة الخطيرة التى وضعها هذا المغرور ؟ وقد قام المحدثون بمناهجهم وشروطهم التى ميزوا بها بين الصحيح وغيره وبين الصالحين للرواية وغير الصالحين كما ردوا بعض الاحاديث التى لم تنطبق على روايتها شروطهم ، وردوا بعض احاديث الصالحين « ولم يكتفوا فى الرواية بالصالح وحسن السيرة حتى يجمعوا الى ذلك الحفظ والضبط واليقظة التامة » (٩)

وقال الامام مالك : « لا يؤخذ العلم من أربعة ، ويؤخذ من سواهم لا يؤخذ من سفیه ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو الى بدعته ولا من كذاب يكذب فى احاديث الناس وان كان لا يتهم على حديث رسول الله ﷺ ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة اذا كان لا يعرف ما يحمل وما يحدث به » (١٠) .

(٩) الحديث والمحدثون الدكتور محمد أبو زهوس ٣١٢ .

(١٠) مالك حياته وعصره : الاستاذ محمد أبو زهرة .

فهم يشترطون فيمن يأخذون عنهم ألا يكون الواحد منهم سفيها به حق ، وعدم
اتزان ، أو يكون عابدا ولكنه لا يزن الامور بدقة ، ولا صاحب بدعة يدعو إليها ، هذا مع
الضبط والفهم .

٣ - وهناك طعن آخر ، وهو ما زعمه هذا المستشرق من أن السنة منقولة عن الأمم
الأخرى ، قال جولد تسيهر : « هناك جمل اخذت من العهد القديم والعهد الجديد وأقوال
الربانيين أو مأخوذة من الاناجيل الموضوعة ، وتعاليم من الفلسفة اليونانية وأقوال من حكم
الفرس والهنود - كل ذلك أخذ مكانه في الاسلام عن طريق الحديث » (١١) « أ . ه . » .

الرد على ذلك :

في هذه الشبهة يورد المستشرق أن الاسلام أخذ من اليهودية والنصرانية والفلسفات
الأخرى ، وكيف يتأتى هذا والمسافة الزمنية بعيدة جدا بين الاسلام وغيره من الاديان
السابقة ؟ والرسول أمي لم يتل كتابا من قبل ولا خط بيمينه قال تعالى « وما كنت تتلو من
قبله من كتاب ولا تحطه يمينك اذا لارتاب المبطلون * بل هو آيات بينات في صدور الذين
أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا الا الظالمون » (١٢) .

نعم توجد أشياء من أخبار الرسل السابقين في الكتاب والسنة ، وهناك تشابه بين
الاسلام وغيره في بعض الامور ، ولكن ليس معنى هذا أن الاسلام أخذ عن السابقين أو
قلد سواه ، وانما ذكرت اخبار الرسل لأنهم إخوة اتحدوا في الهدف وهو التبليغ عن الله
الواحد وبعضهم يصدق بعضا .

وقد وجدت محاولات عديدة لتسلل الاسرائيليات وغيرها الى الاسلام ولكن العلماء
المجاهدين ، الذين سهروا للدفاع عنه ، ورابطوا حول أصوله حالوا دون هوى
المفرضين . وكيف يتصور ان الاسلام نقل عن غيره وهو الدين الشامل الكامل الذي
اشتمل على ما لم يشتمل عليه ما سبقه ؟

وأن الناظر الى صحف اليهود الآن لا يرى فيها شيئا عن الجنة والنار ولا الدار الآخرة
فكيف يأخذ منها ؟

وواضح مما سبق بيانه من جهود المسلمين سلفا وخلفا أن السنة النبوية حفظت من
كل دخيل وموضوع وكيف لا وهى الميئة للقرآن الكريم الذى تكفل الله تعالى بحفظه .

(١١) العقيدة والشريعة في الاسلام ص ٥١ .

(١٢) سورة العنكبوت آية ٤٨ ، ٤٩ .

نتائج هذا الباب

وأستطيع أن اخلص من هذا الباب ببعض النتائج الهامة عن دراسة السنة النبوية رواية ودراية في القرن الثالث الهجري الذي اتسم بانه العصر الذهبي لتدوين الحديث من اجلها .

أولا : من ناحية رواية الحديث :

١ - بلغت الرواية الشفاهية في هذا القرن منتهاها حتى كان الامام الحافظ من أئمة هذا القرن يحفظ الآلاف من الحديث الصحيح والبعض كان يجمع في حفظه بين الصحيح وغير الصحيح وهذا منتهى الحيلة والتميز ، وكان من أئمة هذا الشأن أمير المؤمنين في الحديث أبو عبد الله البخارى الذى قال : « احفظ مائة ألف حديث صحيح ، ومائتى حديث غير صحيح ، وكان حفظهم للاحاديث حفظ المتقن المثبت كما يقول أبوزرعة : « احفظ مائة ألف حديث كما يحفظ الانسان قل هو الله أحد » (١٣) بل انه بلغت درجة الاتقان في الحفظ بحيث يلى الامام منهم الاحاديث ثم يقرؤها على من معه فلا يزيد حرفا ولا ينقص حرفا يقول أبوداود الخفاف : « أملى علينا اسحاق بن راهويه أحد عشر ألف حديث ثم قرأها علينا فما زاد حرفا ولا نقص حرفا » (١٤) .

٢ - وصل ائمة الحديث في التصنيف الى اسمى درجات الضبط والاتقان في مناهجهم المختلفة فمنهم من تخصص لتدوين أكبر عدد من أحاديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه فجمعها على طريقة المسانيد ومنهم من خدم الفقه الاسلامى فقام بتبويب الاحاديث وتصنيفها حسب الابواب الفقهية كما كان من بين مصنفات هذا القرن كتب خصصها أصحابها في نوع خاص من السنة كالأجزاء والعلل والشمائل والكتب المفردة في أبواب مخصوصة وما التزم أصحابها فيها الصحة وأحاديث بعض الشيوخ الكثيرين والكتب الحاضرة على اتباع السنة والكتب المفردة في الآداب والأخلاق .

(١٣) مقدمة تحفة الاحوذى ج١ ص ٤٧٦ .

(١٤) تذكرة الحفاظ للذهبي ج٢ ص ٤٣٤ .

ثانيا : من ناحية علم دراية :

١ - ابتداء تدوين مسائل هذا العلم في أبواب ، وفي بعض أنواع منه أثناء هذا القرن وأول من ألف فيه هو الامام على بن المديني ، ثم كانت مسائل هذا العلم ماثورة فيما كتبه البخارى ومسلم ، نعم نشأت أصول هذا العلم قبل ذلك مع نشأة الحديث ، اذ كانوا يشبتون وينقدون وازداد هذا الحرص منذ وقوع الفتن ، وقالوا سموا لنا رجالكم ، وكتب الامام الشافعى بعد ذلك بعض المسائل في كتابيه : « الرسالة والام » وكانت كلها بوادى لهذا العلم أو نواة لأصوله ، أما في القرن الثالث فقد جمعت بعض هذه المسائل وكان أول من اشاعها وجمعها الامام الترمذى في خاتمة جامعته فلما كان القرن الرابع ونضجت العلوم ألف القاضى الرامهرمزي ، وتتابع التصنيف بعد ذلك .

٢ - وقد اضطلع علماء هذا القرن في هذا الفن بمصنفات نفيسة في معرفة الاسماء والكنى والالقب وتواريخ الرجال وأحوالهم والمشايخ والطبقات . وعلل الحديث ورواية الاكابر عن الاصاغر والآباء عن الأبناء وكتب في الضعفاء والمجروحين من الرواة وفي الثقات منهم وكتب في بيان غريب الحديث ، وفي معرفة الصحابة وهكذا .

ثالثا : من ناحية أئمة الحديث :

وأما عن أئمة الحديث فقد اتسموا بسمات عظيمة ورائعة جعلتهم درة في جبين الدهر وشموسا خالدة الاشعاع بمصنفاتهم الحديثية العظيمة وكانت هذه السمات بعضها فطرى وبعضها مكتسب .

١ - أما السمات الفطرية فقد منحهم الله حواظف قوية ، وصدورا أمينة فسطروا على صفحات قلوبهم انشركة بالإيمان سنة رسولهم صلوات الله وسلامه عليه ، فما نسوا ولا جهلوا بل سلموا السنة إلى من بعدهم من أهل القرن الرابع نقيه بيضاء .

٢ - وأما السمات المكتسبة :

(أ) فمنها أنهم أخذوا أنفسهم بالجهاد والورع ورياضة النفس حتى جمعوا بين العلم والعمل .

(ب) وكانت همهم في تدوين الحديث النبوى وحبهم لرسولهم صلوات الله وسلامه عليه ناشئا معهم منذ صغرهم فترعرعت نفوسهم على حب السنة وعاشروا حياتهم من اجلها رواية وكتابة ومذاكرة .

(ج) وكانت لهم رحلاتهم العلمية التي استبدنوا منها جمع ما في الاقطار الاسلامية الاخرى من الاحاديث فلم يكتفوا بأخذ العلم من علماء قطرهم فحسب بل كانت الرحلة أهم مطالبهم ، وكان منهم من يشد رحاله الى البلاد النائية سيرا على قدميه ومنهم من ابتداء رحلته وهو ابن خمس عشرة سنة أو ابن عشرين كأبي يعلى الموصلى الحافظ المتوفى سنة ٣٠٧ هـ (١٥) ومنهم من استمر في رحلته سنين طويلة .

وهكذا كان القرن الثالث الهجرى أزهى العصور في تدوين السنة النبوية بأئمتها ومصنفاته التي جمعت كل مصنفات ومرويات الأئمة السابقين ، فكان بحق أعظم العصور في التحصيل والتدوين بأنواعه المختلفة وأغراضه المتنوعة .

(١٥) تذكرة الحفاظ ج ٢ ص ٧٠٨ .

الباب الرابع

أثر علماء القرن الثالث في العصور المتأخرة

اثر علماء القرن الثالث في العصور التالية

كان القرن الثالث الهجري أزهى عصور السنة ، ظهر فيه الأئمة الأفاضل من حفاظ الحديث النبوي وظهرت الكتب الستة التي استوعبت معظم الحديث الصحيح وعنى فيه العلماء بدراسة الاسناد وتاريخ الرجال والتمييز بين الصحيح وغيره ، وكان تدوينهم للحديث يعتمد على الرواية الشفاهية اعتمادا كبيرا ، ولذا قاموا برحلاتهم الطويلة للقاء الشيوخ والأخذ عنهم ، ولم يعولوا على الكتب الا اذا نقلوا أحاديث تلك الكتب بطريق السماع من مؤلفيها ، وتميز هذا القرن الثالث بأنه الحد الفاصل بين المتقدمين والمتأخرين من رواة السنة النبوية وحفاظها .

وبمقابلة مناهج التصنيف في القرن الثالث ومقارنتها بما بعدها نستطيع أن نستبين أثرها في مناهج التصنيف بعد ذلك .

وقد أطل القرن الرابع الهجري ، والدولة في تفهقر سياسي خطير ، الا أنه لم يمس الحالة العلمية ، بل استمرت على ازدهارها ونموها ، ولا سيما في عهد السلجوقيين بالمشرق ، وعهد الدولة الفاطمية بمصر ، ونبغ فيها كبار العلماء وأساطين المفكرين^(١) .

واستمرت النهضة الفكرية قائمة على قدم وساق ولم يزل العلماء يجوبون البلاد الاسلامية برحلاتهم العلمية من قطر الى قطر ، ويروي بعضهم عن بعض ، ويقومون بعرض الكتب والمرويات على شيوخهم حتى سنة ٣٩٥ هـ^(٢) حيث توفي أبو عبد الله محمد ابن اسحاق بن محمد بن يحيى بن منده الذي يعتبر خاتمة الرحالين الذين رحلوا لسماع الحديث ، وبرع علماء هذا القرن في نقد الرجال وتمحيص المرويات ، وكانت لهم مصنفات نفيسة في علل الحديث ، وتاريخ الرواة ، وعلوم الحديث عامة ، الا أنهم رغم ذلك كله لم يصلوا الى ما وصل اليه المتقدمون ، بل كانوا ينسجون على منوالهم .

(١) تاريخ التشريع الاسلامي للشيخ محمد الخضري ص ٢٧٨ .

(٢) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري : آدم متز ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده ج ١ ص

٣٣٥ ، الرالة المستطرفة ص ٣٨ .

منهج التدوين فى القرن الرابع

معلوم كما سبق أن مصنفات القرنين : الثانى والثالث تميزت بدقة التدوين والجمع ولم تدع الكتب الستة من الصحيح سوى القليل حتى جاء القرن الرابع الهجرى فوجد علماء هذا القرن من كتب الحديث التى جمعت فى القرن الثالث الهجرى موضوعا لبحثهم ، بما كان فى هذه الكتب من التويب الفقهى والترتيب الموضوعى والتدوين السليم للسنة النبوية مما جعل دراسة هذه المصنفات - فى بعض الأحيان - تحل محل الأستفار والرحلات العلمية التى كان يقوم بها الأئمة من قبل ، فقد وجد من بين علماء هذا القرن من استطاع عن طريق دراسة مصنفات المتقدمين أن يتصلع فى العلم ، ويكون إماما حافظا فى الحديث دون أن يرحل مثل أبو يونس^(٣) الصفدى المتوفى عام ٣٤٧ هـ ، وقد قام علماء القرن الرابع بتأليف كتب جديدة يقوم منهج التدوين فيها على الطرق الآتية :

- ١ - تخريج الاحاديث الصحيحة على غرار ما كان يصنع البخارى ومسلم .
- ٢ - طريقة المستدركات .
- ٣ - طريقة المستخرجات .
- ٤ - طريقة المعاجم .
- ٥ - التأليف على العلل .
- ٦ - التأليف على الأبواب .
- ٧ - شرح الاحاديث النبوية .

طريقة تخريج الصحيح

التزم بعض علماء القرن الرابع تخريج الاحاديث الصحيحة على نمط صنيع أهل القرن الثالث وإن لم يبلغوا فى ذلك شأن البخارى ومسلم ، فلم يصلوا الى ما وصلوا اليه فى شروطها ، ومن هؤلاء :

ابن حبان البستى (٢٥٤) هـ

وهو الامام أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد أبو حاتم البستى التميمى ومن شيوخه : الحسين بن إدريس الهروى ، وأبو عبد الرحمن النسائى ، وأبو يعلى الموصلى ، وأبو بكر بن خزيمة ومن تلاميذه : الحاكم أبو عبد الله ، ومنصور بن عبد الله الخالدى وغيرهما .

(٣) حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ١٦٤ ، الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع ج ١ ص ٣٣٥ .

وكان ابن حبان رحالة زمانه ، التقى بكثير من الشيوخ ، ورحل الى كثير من بلاد ، وكان ذا أفق علمي واسع ، قال الحاكم : « كان من أوعية العلم والفقه والحديث - اللغة والوعظ من عقلاء الرجال » وكان الى جانب ذلك عالما بالفلسفة والفلك والطب - غيرهما من العلوم ، قال أبو سعيد الأدرسي « كان على قضاء سمرقند زمانا ، وكان من قههاء الدين ، وحفاظ الآثار عالما بالطب والنجوم وفنون العلم » وله مؤلفات كثيرة منها : « التاريخ » و« الضعفاء » و« فقه الناس » و« المسند الصحيح » : وقد قسم مسنده على «الأوامر والنواهي والإخبار والاباحات وأفعال النبي ﷺ ونوع كل قسم الى أنواع ، والكشف فيه عسر ، لانه لم يرتبه على الابواب ولا على المسانيد ، وقام بترتيبه على الابواب : علاء الدين على بن بلبان المتوفى سنة ٩٣٧ وسماه « الاحسان في تقريب صحيح ابن حبان » .

المسند الصحيح لابن حبان :

يرى بعض الائمة أن ابن حبان متساهل في التصحيح ولكن تساهله أقل من تساهل الحاكم ، قال الحازمي : « ابن حبان أمكن في الحديث من الحاكم » . ويظهر تساهل ابن حبان في قاعدته التي قال فيها : العدل من لم يعرف فيه الجرح اذ التجريح ضد التعديل فمن لم يجرح فهو عدل حتى يتبين جرحه . فابن حبان اذا يحكم بالعدالة اذا انتفت جهالة العين ، وجهالة العين عنده ترفع برواية واحد مشهور ، وهذا الذي ذهب اليه ابن حبان يخالف ما عليه الجمهور ، فان جهالة العين عندهم لا تزول الا برواية عدلين فصاعدا عن المجهول وتعيينها له ومع ذلك فلا تثبت للمجهول العدالة بروايتها ، ولقد كان اطلاق اسم « الصحيح » على كتابه فيه تجرؤ .

ومن سار على طريقة تخريج الصحيح أيضا في القرن الرابع الهجري .

قاسم بن اصبح الاندلسى (٢٤٠)

هو الامام قاسم بن اصبح بن محمد بن يوسف الاندلسى ابو محمد ، كان عالما بالسنة ورجالها عالما بالحديث والفقہ والعربية .

ومن شيوخه : بقى بن مخلد ، وابن أبى الدنيا ، وابن أبى خيشمة وغيرهم .

ومن تلاميذه : قاسم بن محمد تلميذه ، وعبد الله بن محمد الباجى ، وعبد الوارث ابن سليمان وغيرهم . ومن مؤلفاته : كتاب « الصحيح » ، و « بر الوالدين » ، و « المتقى فى الآثار » و « الانساب » .

ابو على ابن السكن (٢٥٢)

هو أبو على سعيد بن عثمان بن سعيد بن السكن البغدادى ، ولد سنة أربع وتسعين ومائتين ورحل الى بلاد كثيرة ، وتصلع فى الحديث وعلومه .

ومن شيوخه : أبو القاسم البغوى ، ومحمد بن يوسف الفريرى ، وسعيد بن عبد العزيز الحلبى .

ومن تلاميذه : أبو عبد الله بن منده ، وعبد الغنى بن سعيد ، وعبد الله بن محمد ابن أسد القرطبى .

وأجل مصنفاته : كتاب « الصحيح المتقى » ويسمى بالسنن الصحاح ، ألفه على طريقة الأبواب ، ودون فيه ما صح عنده من السنن مع حذف الاسانيد .

مقارنة بين جهود هؤلاء وجهود أهل القرن الثالث

سار هؤلاء الأئمة من أهل القرن الرابع في درب بعض علماء القرن الثالث :

(١) فالتزموا تخريج الاحاديث الصحيحة كالبخارى ومسلم ، ولكنهم لم يصلوا الى ما وصل اليه البخارى ومسلم في تمحيص الرجال ، وتثقيف الشروط : كاشتراط مسلم المعاصرة ، واشتراط البخارى اللقاء مع المعاصرة ، وتخريجها لاهل الطبقة الاولى والثانية .

(ب) كان أهل القرن الثالث يدونون كتبهم من مروياتهم التي حفظوها عن شيوخهم أو من الكتب مع الرجوع الى اصحابها ، اما في هذا القرن فقد وجد العلماء في الكتب المدونة في القرن الثالث موضوع بحثهم ، والمادة العلمية التي صنفها السابقون . وبهذا تتضح لنا جهود علماء القرن الرابع وانها مدينة في مناهجها للمتقدمين الذين مهدوا الطريق ، ووضعوا الأصول ، ودونوا الصحيح فكان لهم تأثيرهم في جهود المتأخرين بالنسبة للتدوين والصناعة الحديثية .

طريقة المستدركات

وتقوم طريقة المستدركات على جمع الاحاديث النبوية التي تكون على شرط أحد الائمة ولم يخرجها في كتابه ، فالشيخان مثلا لم يستوعبا الصحيح في كتابيهما ، ولا التزامه ، وهناك من الاحاديث ما هو على شرطهما ، أو على شرط احدهما ولم يخرجها في كتابيهما ، يأتي صاحب المستدرك فيحصي هذه الاحاديث المتروكة ويذكرها في كتابه . وذلك كما فعل « الحاكم أبو عبد الله النيسابوري » المتوفى سنة ٤٠٥ هـ ، فألف كتابه المستدرك وأودع فيه من الاحاديث ما كان على شرط الشيخين أو شرط احدهما ، ولم يخرجها ، كما أودع فيه أيضا ما أداه اجتهاده الى تصحيحه وإن لم يكن على شرط واحد منهما ، وربما أودع فيه ما لم يصح منها على ذلك ^(٤) . وما ورد في مستدرك الحاكم على شرط الشيخين يشير اليه بقوله : « هذا الحديث على شرط الشيخين » وما ورد فيه على شرط احدهما يشير اليه كذلك .

(٤) تدريب الراوى ص ٥١ .

وان كان من قبيل ما صححه هو فانه يشير اليه بقوله : هذا حديث صحيح الاسناد . واما ما لم يصح فانه ينبه عليه .

وقد قام بتلخيص المستدرك الحافظ الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ .

وقد اختلف العلماء في الاحاديث التي انفرد الحاكم بتصحيحها : فممن من قام بقبول تصحيحه مطلقا .

وممن من قال : أنه متساهل ، وقال ابن الصلاح انه : « واسع الخطو في شرط الصحيح متساهل في القضاء به ، فالاولى ان نتوسط في أمره فنقول : ما حكم بصحته ولم نجد ذلك فيه لغيره من الائمة ان لم يكن من قبيل الصحيح فهو من قبيل الحسن . يحتاج ويعمل به الا ان تظهر فيه علة توجب ضعفه^(٥) » . هـ .

والذي أرجحه هو ما ذهب اليه بدر الدين بن جماعة : وهو أن ما انفرد بتصحيحه نتبعه ونحكم عليه بما يليق به من الصحة أو الحسن أو الضعف . لما قيل فيه أنه متساهل في التصحيح .

ومن ألف على هذه الطريقة : « أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد الدار قطنى » المتوفى سنة ٣٨٥ هـ ألف كتابه « الالزامات » وجمع فيه من الاحاديث ما كان على شرط الشيخين ، وليس بمذكور في كتابيهما وألزمهما ذكره ، وهذا غير لازم ، لأنهما لم يلتزما اخراج كل الصحيح كما سبق .

وابو ذر الهروى عبد الله بن احمد بن محمد بن عبد الله الانصارى المتوفى سنة ٤٣٤ هـ فقد ألف كتابه « المستدرك على الصحيحين » .

(٥) مقدمة ابن الصلاح ص ٩ .

المقارنة بين هذه الطريقة وبين جهود علماء القرن الثالث

١ - استفاد اصحاب طريقة المستدركات من شرط البخارى ومسلم ، فدونوا على أساسها ما تركاه ، لأنها لم يلتزما تخريج كل الصحيح ، فكانت اعمالهم اذا متممة لاعمال سابقهم ، وليست مبتكرة ولا جديدة . نعم اجتهد بعضهم فى تصحيح بعض الاحاديث وان لم تكن على شرط الشيخين أو احدهما كالحاكم النيسابورى ، الا أنه لم يبلغ شأنها فى ذلك لما عرف عنه من التساهل فى التصحيح .

٢ - كان من بين علماء القرن الثالث من اشترط على نفسه اذا أورد حديثا به وهن شديد أن يبينه كالامام أبى داود السجستانى ، وقد تأثر بمثل ذلك بعض أصحاب هذه الطريقة ، كالحاكم حين يورد ما لم يضح عنده ينه عليه ، وللتنبية مزية : هى بيان درجة الحديث لمن ليس من أهل الشأن والخبرة ، كما أن التنبية كذلك يرفع من قيمة الكتاب المصنف (فان ايراد الضعيف مع بيان حاله لا يقدر فى الكتاب)^(٦) .

(٦) حجة الله البالغة للدهلوى ج١ ص ١٠٦ .

طريقة المستخرجات

يقوم منهج التأليف على هذه الطريقة بأن يأتي المصنف الى كتاب من كتب الحديث كصحیح البخاری مثلا فيخرج أحاديثه بأسانيد لنفسه من غير طريق صاحب الكتاب فيجتمع معه في شيخه أو من فوقه ، وشرطه : ألا يصل الى شيخ أبعد حتى يفقد سندا يوصله الى الاقرب إلا لعذر من علو أو زيادة مهمة . ومن ألف على هذه الطريقة :

الامام أبو بكر احمد بن ابراهيم بن اسماعيل بن العباسي الاسماعيلي الجرجاني المتوفى سنة ٣٧١ هـ ألف الصحيح المستخرج على صحيح البخارى .

الامام يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم بن يزيد النيسابوري الاسفرائيني المتوفى سنة ٣١٦ هـ ألف الصحيح المسند المخرج على صحيح مسلم .

الامام ابو عبد الله محمد بن يعقوب بن يوسف الشيباني النيسابوري المعروف بابن الاخرم المتوفى سنة ٣٤٤ هـ ألف المستخرج على الصحيحين .

مقارنة بين جهود أصحاب هذه الطريقة

وجهود علماء القرن الثالث

واضح أن معظم المستخرجات قامت على تخريج احاديث الصحيحين : البخارى مسلم ، منهم من استخرج احاديث صحيح البخارى ، ومنهم من استخرج احاديث صحيح مسلم ، والبعض استخرج احاديث الصحيحين ، وجهود صاحبى الصحيحين كرفتشكر ، فقد قعد كل واحد منها القواعد ، واشترط الشروط ، ومن بين ما اشترطوه ضبط ، والاتقان والسلامة من الشذوذ والعلة ، ومن بينها كذلك : المعاصرة ، وزاد البخارى اللقاء كما سبق بيان ذلك ، وخرج البخارى احاديث الطبقة الاولى ، ومسلم عرج احاديث الاولى والثانية ملتزمين تخريج الصحيح فقط .

اما اصحاب المستخرجات : فقد قاموا بتخريج الاحاديث باسناد لانفسهم من غير طريق صاحب الكتاب ولهذا فقد تأتى رواياتهم الجديدة بزيادات فى الاحاديث ليست موجودة فى الاصل . وقد تأتى كذلك : مبينة ما اذا كان صاحب الاصل قد روى عنم اختلط قبل اختلاطه أو بعده وقد تأتى رواية صاحب المستخرج « معينة » اسم الراوى اذا كان صاحب الاصل قد أهمل اسمه وقد تأتى « مميزة » للراوى اذا كان صاحب الاصل ذكره لم يميزه .

وقد تأتى رواية صاحب المستخرج « سالمة » من بعض العلل التى أعلنت بها رواية الاصل ، أو تأتى « متمشية » مع قاعدة عربية خالف فيها صاحب الاصل فيعرف بالاستخراج ان ما فى الاصل وهم من الرواة .

وكان من ثمرات هذه الطريقة كذلك : علو الاسناد ، وتقوية الحديث بكثرة طرقه ، وبهذه المقارنة يتضح لنا ان المستخرجات اما أن تأتى بزيادة أو تأتى مبينة وموضحة فمترلتها من الاصل منزلة المتمم لما سبق والموضح له .

طريقة المعاجم

ويقوم منهج التأليف على المعاجم بترتيب صاحب الكتاب للصحابة أو الشيوخ على حسب حروف المعجم ومنهم من رتب الاحاديث على حروف المعجم ، ومن صنف على هذه الطريقة :

الامام ابو القاسم سليمان بن احمد بن ايوب الشامي النخعي الطبراني المتوفى سنة ٣٦٠ هـ الف « المعجم الكبير » فجمع فيه مسانيد الصحابة مرتبين على حروف المعجم ما عدا القسم الثاني منه وهو قسم الأفعال فانه مرتب على المسانيد ذاكرا عقب كل حديث من أخرجه من الائمة واسم الصحابي الذي خرج عنه (٧) والمعجم الأوسط وقد رتب فيه شيوخه على حروف المعجم ، « والمعجم الصغير » وهو عن كل شيخ له حديث واحد والقارىء لهذه الكتب يدرك أنها متأثرة في منهجها الى حد كبير بطريقة التصنيف على المسانيد التي سلكها الامام احمد بن حنبل وغيره في القرن الثالث ، وبهذا يتضح أثر المتقدمين في المتأخرين .

طريقة التصنيف على العلل

وهذه الطريقة تعتبر أدق الطرق في التأليف ، ولا يقف عليها الا من أوتى حظا وافرا من المعرفة التامة بالرواة ومراتبهم ، وفي هذه الطريقة يقوم المصنف بجمع طرق الحديث ، والنظر الى الرواة ، حتى يتبين اختلاف ضبطهم واتقانهم ، فيستطيع معرفة الحديث المعلوم فيحكم بعدم صحته ، أو التوقف فيه . فالعلة كما سبق بيانها في الباب الثالث : هي سبب خفى غامض يقدح في صحة الحديث . . . ومن ألف على هذه الطريقة من أهل القرن الرابع : الامام ابو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس التميمي الحنظلي الرازي المتوفى سنة سبع وعشرين وثلاثمائة ، ألف كتاب العلل ورتبه على أبواب الفقه والامام ابو الحسن الدارقطني المتوفى سنة ٣٨٥ هـ .

(٧) الرسالة المستطرفة ص ١٨٣ .

التأليف على الأبواب

وقد ألف على هذه الطريقة الامام الدار قطنى ٣٨٥ كتابه « السنن » الذى جمع فيه بين الصحيح والحسن والضعيف ، بل والموضوع على ندرة ، ومن بين الموضوعات ما نبه عليه الدار قطنى ومنها ما لم ينبه عليه .

الشرح

وقد عنى علماء القرن الرابع بشرح الاحاديث النبوية كالامام احمد بن محمد بن ابراهيم الخطابى البستى المتوفى سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة ٣٨٨ هـ الف كتاب « معالم السنن » شرح سنن أبى داود ، وكتاب اعلام السنن شرح صحيح البخارى وهكذا

المقارنة

ونلاحظ على كل من الطريقتين : الخامسة (التصنيف على العلل) والسادسة (التصنيف على الابواب) ان كلا منهما قد طرق التأليف عليها علماء القرن الثالث ، وأنهم كانوا اكثر تصنيفا وأوسع باعا من أهل القرن الرابع الذين ساروا على نهجهم .

أما الطريقة الاخيرة « الشرح » ففيها تتجلى عناية المتأخرين بمصنفات المتقدمين خاصة أهل القرن الثالث ، فتناولوا مصنفاتهم بالشرح والتحليل ، وقد خلفوا فى هذا المضمار من الكنوز والنفائس ما يشهد لهم بجهود مشكورة فى خدمة السنة النبوية ، حيث استنبطوا من مؤلفات أهل القرن الثالث ما تضمنته من احكام وآداب وقواعد بلاغية ونحوية ، وكان للصحيحين من العناية الخاصة ما يدل على منزلتهما السامية فى نفوس المتأخرين .

منهج التصنيف من القرن الخامس الى سقوط الخلافة العباسية

ومن القرن الخامس حتى نهاية الخلافة العباسية ، عندما سقطت بغداد في ايدى التار على يد (هولاكو) سنة ٦٥٦ هـ في هذه المرحلة اقتصرت أعمال العلماء على الجمع والترتيب أو التهذيب لكتب السابقين .

ويقوم منهج التصنيف في هذه المرحلة على تدوين ما تفرق في كتب الاولين بجمع ما اتفق عليه الشيخان ، أو التقريب والاختصار بحذف الاسانيد واقتصارهم أحيانا على المتن واحيانا أخرى على بعضها أو اقتصارهم على جمع أحاديث الاحكام والترغيب والترهيب ومن هؤلاء :

١ - من قام بجمع احاديث كل من صحيح البخارى وصحيح مسلم في مصنف واحد ، ومن قام بالتصنيف على هذه الطريقة : اسماعيل بن احمد المعروف بابن الفرات المتوفى سنة ٤١٤ هـ ، ومحمد بن نصر الحميدى الاندلسى المتوفى سنة ٤٨٨ هـ ، وربما زاد زيادات ليست فيهما ، وحسين بن مسعود المتوفى سنة ٥١٦ هـ .

٢ - ومنهم من قام بالجمع بين احاديث الكتب الستة : الصحيحان ، وموطأ مالك ، وسنن النسائى وسنن ابى داود ، وجامع الترمذى ، ومن صنف على هذه الطريقة : احمد بن رزين بن معاوية العبدى السمرسطى المتوفى سنة ٥٣٥ هـ في كتابه (تجريد الصحاح) .

٣ - ومنهم من جمع بين احاديث من كتب مختلفة مثل : « مصابيح السنة » للإمام حسين بن مسعود البغوى المتوفى سنة ٥١٦ هـ جمع فيه ٤٤٨٤ حديثا من الاحاديث الصحاح ، وهى التى اخرجها الشيخان أو احدهما ، والاحاديث الحسان وهى التى اخرجها أبو داود والترمذى وغيرهما ، وما فيها من ضعف ولم يذكر المنكر ولا الموضوع : ومنها : « جامع المسانيد والالقباب » لابى الفرج عبد الرحمن بن على الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ جمع فيه بين الصحيحين ، ومسند احمد ، وجامع الترمذى وقد رتبته ابو العباس احمد

عبد الله المحب الطبري المتوفى سنة ٩٦٤ هـ ومنها : « بحر الاسانيد » للامام الحافظ حسن بن احمد السمرقندى المتوفى سنة ٤٩١ هـ جمع فيه مائة الف حديث .

٤ - ومنهم من دون احاديث متقاة في الاحكام والمواظع مثل كتاب : « منتقى تخيار في الاحكام » للحافظ مجد الدين ابى البركات عبد السلام بن عبد الله بن ابى قاسم الخرانى المعروف بابن تيمية المتوفى سنة ٦٥٢ هـ انتقاه من صحيحى البخارى مسلم ومسند الامام احمد وجامع الترمذى والسنن للنسائى وأبى داود وابن ماجه ، وشرحه ابن اليمين محمد بن على الشوكانى المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ فى كتابه « نيل الاوطار » ومثل باب « السنن الكبرى » للبيهقى أحمد بن حسين المتوفى سنة ٤٥٨ هـ ، وله ايضا كتاب « السنن الصغرى » ومثل كتاب « الاحكام الصغرى » للحافظ ابى محمد بن عبد الخالق شبيبى المعروف بابن الخراط المتوفى سنة ٦٠٠ هـ جمع فيه احاديث الاحكام التى اتفق عليها البخارى ومسلم ، ومثل كتاب « الترغيب والترهيب » للحافظ عبد العظيم بن عبد تقوى بن عبد الله المنذرى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ .

٥ - ومنهم من صنف على طريقة الاطراف وهى ان يذكروا طرفا من الحديث يدل على بقيته ثم يجمعوا اسانيده إما على وجه الاستيعاب واما مقيدة بكتب مخصوصه مثل : طرف الصحيحين للحافظ ابراهيم بن محمد بن عبيد الدمشقى المتوفى سنة ٤٠٠ هـ طرف الصحيحين لابى محمد خلف بن محمد الواسطى المتوفى سنة ٤٠١ هـ ومنها اطراف سنن الاربعة لابى القاسم على بن الحسن المعروف بابن عساكر الدمشقى المتوفى سنة ٥٧١ هـ - رتبته على حروف المعجم وسماه « الاشراف على معرفة الاطراف » ومنها اطراف الكتب ستة لمحمد بن طاهر المقدسى المتوفى سنة ٥٠٧ هـ^(٨) .

(٨) كشف الظنون ج ١ ص ٢٨٥ .

المقارنة بين جهود علماء هذه المرحلة

وجهود اهل القرن الثالث الهجري

واذا اردنا ان نقارن بين جهود اصحاب هذه الطريقة وجهود علماء القرن الثالث نرى أن أعمال هذه المرحلة لا تتسم بشيء من الابتكار مثلما اتسمت به اعمال سابقهم ، وانما سارت خطوات مشكورة في التقريب والاختصار ، وجمع ما تفرق في الكتب المصنفة السابقة ، واعمالهم في ذلك لا تتعدى المواد العلمية المدونة في القرن الثالث وقد يكون لسابقهم من أهل القرن الرابع بعض محاولات جديدة أضافوها الى اعمال سلفهم من محاولة تخريج الصحيح على غمط ما صنع البخارى ومسلم ، أو استدراكهم لبعض احاديث صحيحة لم يخرجها ، أو استخراجهم لبعض الاحاديث باسناد لانفسهم ، أما أصحاب هذه المرحلة فلم تكن لهم أية اضافات أو زيادات على ما كان موجودا قبلهم سوى التقريب والاختصار والجمع .

وليس معنى هذا ان اصحاب هذه الطريقة لم يكن لهم من جهد مشكور في خدمة السنة النبوية وتدوينها ، فاننا لا نغمط القوم ، وانما نسجل هنا ما قام به علماء هذه المرحلة من انتقاء احاديث الاحكام من الوف الاحاديث النبوية وجمعها في مصنف واحد ، فسهلوا للباحثين الطريق ، كما مهدوا السبيل لدعاة الفضائل والاداب والموجهين والوعاظ دون عناء أو مشقة ، كما قاموا بضم احاديث الكتب المختلفة بعضها الى بعض أو اختصارها . وفي كل ذلك تدليل للصعوبات امام الباحثين في السنة ومحاولة دراستها وتناولها من أقرب طريق .

مناهج التصنيف في الفترة ما بين نهاية الخلافة العباسية

الى عصرنا الحاضر

قبل منهج التصنيف في هذه المرحلة نحب أن نجلى الموقف العلمي بكلمة يسيرة : في المرحلة ركزت الرحلات العلمية وانقطع الاتصال بين العلماء بعد ان كانت الاقطار سلامية حلقات متصلة ، متماسكة الجوانب ، وقد حدث هذا الانفصال بسبب قامت به اوربا من بث روح الفرقة والقضاء على شوكة المسلمين ومكنهم من ذلك غفلة سلمين واختلافهم حتى قضى على الخلافة العثمانية ، ولم يتجاوز المسلمون بلادهم ، تقفت الرحلات العلمية ، ولم يعد بعد الرواية الشفاهية من ظهور فكانت « الاجازة ككتابة » ، الا ما كان من بعض المخلصين لتراثهم الذين استعذبوا الكد والجد في سبيل يعتمهم ، فقاموا برحلات كانوا يجلسون فيها للاطلاع واثراء الحركة العلمية ، والعمل نهضة السنة النبوية ، ومن هؤلاء : الحافظ زين الدين العراقي ٨٠٦ هـ ، وشهاب بن حجر ٨٥٢ هـ فكانوا بوارق لامعة في جو ملبد خائق ، فلم يقدر للاجازة ككتابة الذبوع ، وانما عكف العلماء على كتب الاولين اختصارا وتخريجا وشرحا ، وعندما قامت دولة المماليك غربت معها الجهود العلمية لتبرغ في الهند والحجاز حيث وجدت يدورا أرحب ، وآفاقا أوسع .

واما عن المناهج التي سارت عليها جهودهم العلمية ، فان الناظر الى اعمال العلماء قد يجد أنها كانت مقتصرة على دراسة كتب السابقين ، انتقاء وترتيبا وتخريجا وتهديبا ، ومن أنواع الكتب المصنفة في هذه المرحلة .

١ - كتب الزوائد : وفيها يقوم العلماء باخراج الاحاديث الزائدة في كتاب على آخر تدوينها في مصنفات خاصة لهم ، وذلك لأن كتب المتقدمين كانت تتفاوت من حيث المحتوى عليه قلة وكثرة ، فنهض علماء هذه المرحلة بتميز الاحاديث الزائدة في مصنف على آخر ومن هذه الكتب كتاب : « تحف المهرة بزوائد العشرة » أى على الكتب الستة ، المسانيد العشرة هي : مسند ابي الوليد الطيالسي ، والحميدى ، ومسدد وابن ابي عمر ، ابن راهويه ، وابى بكر بن ابي شيبة ، واحمد بن منيع ، وعبد بن حميد ، والحارث بن محمد بن ابي اسامة ، وأبى يعلى الموصلى ومنها كتاب « زوائد مسند احمد على الكتب الستة » .

٢ - كتب الجوامع العامة : وفيها جمع العلماء بين جملة من الكتب في مؤلف واحد ككتاب جامع المسانيد ولسنن لابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ جمع فيه بين الكتب الستة ومسانيد احمد والبخاري وأبي يعلى والمعجم الكبير للطبراني ، ومنها « جمع الجوامع » للسيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ جمع فيه بين الكتب الستة وغيرها وكان يقصد جمع السنن بأسرها ، وذلك غير ممكن .

٣ - كتب جامعة لاحاديث الاحكام : ككتاب « الامام في احاديث الاحكام » لابن دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢ هـ جمع فيه المتون دون أسانيدھا ، وكتاب « بلوغ المرام من احاديث الاحكام » لابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ هـ واشتمل على الف واربعمئة حديث في الاحكام .

٤ - تخريج الاحاديث المذكورة في مصنفات العلوم المختلفة ، وهذه الاحاديث أوردها بعض المصنفين في العلوم المختلفة كالفقه وأصوله والتفسير وشرح الاحاديث والعقائد واللغة وجاءوا بها للاستدلال أو الاستشهاد ، دون بيان لدرجتها من الصحة أو الضعف ، فتصدى بعض الحفاظ لتخريجها . وبينوا مواضعها وجمعوا ذلك في كتاب على حدة مثل : « تخريج احاديث تفسير الكشاف » للحافظ جمال الدين الزيلعي المتوفى سنة ٧٦٢ هـ « تحفة الراوي في تخريج احاديث البيضاوي » للشيخ عبد الرؤوف المغاوري والشيخ محمد همام زادة المتوفى سنة ١١٧٥ هـ .

٥ - تخريج الاحاديث المشتهرة على الالسنه : وهذا النوع من الاحاديث دار على السنه كثير من الناس كحكمة أو مثل ، وراج بين عامتهم ، ومنه الصحيح ومنه الضعيف ومنه الموضوع ومنه الحكمة ومنه المثل ، فانبرى بعض العلماء ليطلعوا المسلمين على حقيقة الامر فالفوا كتباً في هذا النوع ككتاب « المقاصد الحسنه في بيان كثير من الاحاديث المشتهرة على الالسنه » للحافظ السخاوي . وكتاب « كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الاحاديث على السنه الناس » للحافظ اسماعيل ابن محمد العجلوني المتوفى سنة ١١٦٢ هـ .

٦ - كتب الاطراف ، وفيها يذكر طرف من الحديث يدل على بقيته ككتاب « اطراف مسند الامام احمد » و « اطراف مسند الفردوس » لابن حجر و « اطراف صحيح ابن حبان » للعراقي .

هذه هي مناهجهم في هذا الدر ، رحمتك خير لك بعض الامم والسنن

المقارنة بين جهود علماء هذه المرحلة وجهود

علماء القرن الثالث الهجري

واضح من عرض هذه النماذج لجهود علماء هذه المرحلة انها كانت قائمة على الترتيب والتهديب والانقاء والتخريج . وانها كمصنفات المرحلة السابقة أفادت من كتب المتقدمين وظهر أثرهم واضحا في مناهج أصحاب هذه المرحلة ، وهي وإن لم تتسم بالابتكار الا انها كانت محاولات مخلصمة وأمينة بذلوها على طول الطريق مستهدفين جمع ما احتوته مصنفات المتقدمين واستيعابه ، بل ان بعضهم كالسيوطي استهدف جمع السنة بأسرها ، وهذا وإن لم يكن ممكنا الا انه كان محاولة ناجحة لتدوين أكبر عدد ممكن من الاحاديث .

كما انهم تناولوا مصنفات سلفهم بالفحص والدراسة ، ومعرفة الزائد على غيره وجمع احاديث الاحكام لتسهيل مهمة الفقه الاسلامي ، واستخراج ما في السنة من كنوز ونفائس . كما دفعهم ولاؤهم وحبهم للسنة ان اخلصوا العمل ، وسهروا الليالي في سبيل بيان درجة كثير من الاحاديث المتناثرة في كتب العلوم المختلفة والاحاديث الدائرة على كثير من الالسنه فتناولوها بالتخريج رغبة منهم في توضيح حالها للمسلمين حتى يقفوا على حقيقة أمرها ويتميز للناس الصحيح منها من السقيم .

علوم السنة

سبقت الاشارة الى ما صنف من كتب في علوم السنة بالنسبة للقرن الثالث الهجري وان علماء هذا القرن صنفوا في الجرح والتعديل ، ومعرفة الصحابة ، وتاريخ الرواة ، ومعرفة الاسماء والكنى والالقباب . وتأويل مشكل الحديث ، ومعرفة الناسخ والمنسوخ ، ومعرفة غريب الحديث ومعرفة علل الحديث . وكانت مؤلفات القرن الثالث في علم مصطلح الحديث غير مستقلة ، وإنما تابعة لمؤلفات كبيرة كالامام مسلم في مقدمة صحيحه ، والامام الترمذى في خاتمة جامعه ، وهكذا . وأما استقلال هذا العلم والتصنيف في جميع بحوثه فلم يكن الا في القرن الرابع على يدى الرامهرمزي ٣٦٠ هـ .

واذا القينا النظر على مؤلفات علوم السنة من لدن القرن الرابع الى آخر العصور المتأخرة نرى انها لم تبلغ نضجها وتماها في التصنيف الا بعد القرن الثالث ، بخلاف المصنفات الاخرى في علم الحديث رواية فانها وصلت الى مرحلة التمام والنضج في القرن الثالث ، ولم يكن أعمال العلماء بعد هذا الا جمعا وترتيا وتهذبا .

وفي رأى أن هذا راجع الى سببين :

الاول : ان علماء القرن الثالث حملوا على عاتقهم مهمة جلية وشاقة ، وهي تدوين السنة النبوية وتصنيفها ، فعنى بعضهم بتخليصها من أقوال الصحابة وفتاوى التابعين وعنى الآخرون بتخليص الصحيح من غيره وتمييزه منه وهكذا . وفى سبيل هذا العمل المضنى عاشوا للسنة حراسا ساهرين ، لا ينطبق له جفن ولا تلين لهم عزيمة ، وجابوا الاقطار الاسلامية ، وقطعوا المفاوز النائية ، بل ان بعضهم ربما رحل الرحلات الطويلة لسماع حديث واحد ، فانشغالهم بهذا العمل الضخم لم يكن ليتمكن لهم من طول البحث او كثرة التصنيف فى علوم السنة خاصة وانهم ليسوا فى حاجة كبيرة الى مثل هذه التصانيف لانهم حلوا مقاييسهم وشروطهم فى السند والمتن وعلى ضوئها دونوا مادونوا مشافهة .

والثانى : ان علماء القرن الرابع لم ينشغلوا بمثل ما انشغل به أهل القرن الثالث الذين كفوهم عناء البحث فوجدوا فى مصنفاتهم ما يريدون .

ثم ان الرواية الشفاهية في عهدهم فترت والرحلات العلمية قلت ، فكان لديهم نوع من الاستقرار دعاهم لان يتموا ما بدأه سلفهم بالنسبة لعلوم السنة ، فتوفر لهم الوقت وأنارت لهم السبيل بعض بواكير سلفهم من أهل القرن الثالث فأخذوا في استكمال هذه العلوم حتى بلغت نضجها وكماها .

وإذا تتبعنا مراحل التصنيف في هذه العلوم نرى انها تمت ونضجت بعد القرن الثالث .

أولا : بالنسبة « للجرح والتعديل » صنف فيه ابن ابي حاتم ٣٢٧ ، وأحمد بن نصر البغدادي ٣٢٣ هـ ، وابن منده ٣٩٥ هـ ، وهؤلاء من أهل القرن الرابع ، كما صنف فيه من أهل القرن الخامس : أبو بكر البرقاني ٤٢٥ هـ وأبو الفضل الفلكي ٤٣٨ هـ ، وأبو الوليد الباجي ٤٧٤ هـ ، وأبو عبد الله الحميدي ٤٨٨ هـ ، ومن أهل القرن السادس : ابن طاهر المقدسي ٥٠٧ هـ ، وأبو موسى المديني ٥٨١ هـ ، وأبو القاسم بن عساكر ٥٢٣ هـ ، وأبو بكر الحازمي ٥٨٤ هـ ، وعبد الغني المقدسي ٦٠٠ هـ ، ومن أهل القرن السابع : ابن الصلاح ٦٤٢ هـ ، والحافظ المنذرى ٦٥٦ هـ ، وأبو شامة ٦٢٥ هـ ، وابن دقيق العيد ٧٠٢ هـ ، ومن أهل القرن الثامن ، ابن تيمية ٧٢٨ هـ ، والحافظ المزني ٧٤٢ هـ وابن سيد الناس ٧٣٤ هـ والعراقي ٨٠٦ وابن حجر ٨٥٢ هـ . وهكذا ظهر في كل عصر من الأئمة الاعلام من وزنوا الرواة بميزان العدل ، ومنهم من تكلم على الضعفاء ومنهم من اقتصر على الثقات ومنهم من جمع بين النوعين .

ثانيا : بالنسبة لمعرفة الصحابة : وهو فن رفيع من الفنون الحديثة يعرف به الاتصال والارسال الف فيه ابو موسى المديني ، وابن عبد البر وكتابه « الاستيعاب في معرفة الاصحاب » يعتبر من أحسن المؤلفات في هذا الفن ، و« أسد الغابة » لابن الاثير ٦٣٠ هـ ، واختصره الحافظ الذهبي ٧٤٨ في كتابه « التجريد » وابن حجر العسقلاني ٨٥٢ هـ الف كتابه « الاصابة في معرفة الصحابة » .

ثالثا : علم تاريخ الرواة : ويبحث في تاريخ كل راو ورحلاته وتاريخ مولده ، ووفاته وأغلب احواله التي لها دخل في تعديله أو تجريجه ، ومن ثمرات هذا العلم :

(أ) معرفة السابق واللاحق من الاحاديث ، وبذلك يمكن الوقوف على الناسخ والمنسوخ فلا يكون هناك تعارض .

(ب) معرفة ما يقبل من أحاديث الثقات قبل اختلاطهم .

(ج) معرفة الموضوع من الاحاديث وذلك عن طريق معرفة ما اذا كان البعض لم يلتق بمن حدث عنه ، ومن المصنفات في ذلك : « الوفيات » لعبد الله ابن احمد بن ربيعة الربيعي الدمشقي ٣٧٣ ، ومن العلماء من الف في رجال الصحيحين ، كابن طاهر المقدسي ٥٠٧ ، ومنهم من الف في رجال السنن الاربع كأحمد بن احمد الكردي ٧٦٣ ، « تهذيب التهذيب » وتقريب التهذيب لابن حجر ٨٥٢ .

رابعا : معرفة الاسماء والكنى والألقاب : ومن الكتب المصنفة في ذلك كتاب « المنى في الكنى » للسيوطي ، وكتاب « الاسماء والألقاب » لابن الجوزي ٥٩٧ .

ومن هذه الانواع كتب مؤلفة في المتفق والمفترق للخطيب البغدادي وكتب في المؤلف والمختلف للدارقطني .

خامسا : تأويل مشكل الحديث الف فيه ابن الجوزي ٥٩٧ هـ كتابا سماه : « التحقيق في احاديث الخلاف » .

سادسا : الناسخ والمنسوخ : ومن الف فيه ابوبكر زين الدين محمد بن ابي عثمان الحازمي المتوفى سنة ٥٨٤ وسمى كتابه : « الاعتبار في النسخ والمنسوخ من الآثار »

سابعا : معرفة غريب الحديث ، ومن الف فيه ابو سليمان الخطابي ٣٧٨ هـ ، وجار الله ابو القاسم الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ ، وابن الجوزي ، وابن الاثير ٦٠٦ هـ وسمى كتابه : « النهاية في غريب الحديث والاثار » ولخصه السيوطي المتوفى سنة ٩١١ في كتاب سماه « الدر الثير تلخيص نهاية ابن الاثير » .

ثامنا : معرفة علل الحديث ، الف فيه الدارقطني وابن حجر ، واسم كتابه « الزهر المكلول في الخبر المعلول » .

تاسعا : الموضوعات ، الف فيه بعض العلماء كتبها حصرت الاحاديث المكذوبة ، ومنها « تذكرة الموضوعات » لابن طاهر المقدسي و« الموضوعات الكبرى » لابن الجوزي و« اللآلئ المصنوعة في الاحاديث الموضوعية » للسيوطي و« تحذير المسمين من الاحاديث الموضوعية على سيد المرسلين » لمحمد البشير ظافر ابي عبد الله المالكي المتوفى سنة ١٢٢٥ هـ .

هذه نبذة عن بعض أنواع هذه العلوم ، وهي كثيرة لا تحصى ، وكما قال الحازمي :
« علم الحديث يشتمل على أنواع كثيرة تبلغ مائة ، كل نوع منها علم مستقل ، ولو أنفق
الطالب فيه عمره لما أدرك نهايته ، وقد ذكر ابن الصلاح منها خمسة وستين » (٩) أ هـ .

وقد سبق الكلام عن تاريخ نشأة هذا العلم ، وأن أول من صنف فيه القاضي ابو
محمد الحسين بن عبد الرحمن بن خلاد الراهرمزي المتوفى سنة ٣٦٠ هـ في كتابه « المحدث
الفاصل بين الراوى والسامع » نعم كانت هناك مصنفات قبله ، ولكنها كانت في بعض
الفنون ، اما كتاب الراهرمزي فيعتبر أعظم ما ألف في زمانه جمعا لانواع هذا العلم ، وان
لم يستوعب جميع المسائل . ثم تسابع التأليف بعد ذلك ، فظهرت الكتب الكثيرة
والمنظومات والمختصرات .

(٩) تدريب الراوى ص ١٤ .

اثر رواية الحديث

فى

رواية العلوم الأخرى

لم يعن العرب قبل الاسلام بالرواية وتصحيح الاخبار وتمحيص المرويات ، لان مروياتهم لم يكن لها من القداسة ما يدعو الى ذلك ، ففيها الاساطير والاحاديث المختلقة .

أما الرواية فى الاسلام ، وفى الحديث خاصة فقد شدد العلماء فيها ، وقعدوا لها القواعد ، وصاغوا لها الشروط ، وأصلوا لها الاصول بعناية فائقة تعتبر أدق ما وصل اليه النقد فى القديم والحديث وكان من مميزات الرواية فى الاسلام وخصائصها الاسناد الصحيح المتصل برواية العدول الضابطين .

ولقد ظل العلماء يتحرون الدقة ، ويعنون بالثبوت من الاخبار ونقدها سندا ومتنا ، ونظروا للاسناد على انه من الدين ، قال عبد الله بن المبارك : « الاسناد من الدين ولولا الاسناد لقال من شاء ما شاء »^(١٠) وقال صالح ابن أحمد الحافظ : « سمعت ابا بكر محمد ابن أحمد يقول « (بلغنى ان الله حفظ هذه الأمة بثلاثة أشياء لم يعطها من قبلها : الاسناد ، والانساب ، والاعراب) ويقول محمد بن حاتم بن المظفر : « ان الله أكرم هذه الأمة وشرفها وفضلها بالاسناد ، وليس لاحد من الامم كلها قديمهم وحديثهم اسناد وانما هى صحف فى أيديهم وقد خلطوا بكتبهم أخبارهم وليس عندهم تمييز بين ما الحقوه من الاخبار التى اخذوا عن غير الثقات ، وهذه الأمة انما تنص الحديث من الثقة المعروف فى زمانه المشهور بالصدق والامانة عن مثله حتى تنهاى اخبارهم ثم يبحثون أشد البحث حتى يعرفوا الاحفظ فالأحفظ ، والأضبط فالأضبط ، والأطول مجالسة لمن فوقه ممن كان أقل مجالسة ثم يكتبون الحديث من عشرين وجها وأكثر حتى يهذبه من الغلط »^(١١) .

(١٠) مقدمة ابن الصلاح ص ١٠٥ .

(١١) شرف اصحاب الحديث ص ٧٩ مخطوط بدار الكتب المصرية .

ومما سبق يتضح أن الاسناد من خصائص هذه الأمة ، وقد رغب كثير من الائمة الحفاظ في الرحلة الى الاقطار الاسلامية طلبا لعلو الاسناد ، قال الامام أحمد بن حنبل « الاسناد العالي سنة عن سلف » (١٢) .

وللرواية في الاسلام أثرها الكبير في العلوم الاخرى :
فقد تأثر بعلماء الحديث ومناهجهم وأسانيدهم كثير من العلماء في كثير من علوم اللغة والاداب والتاريخ والسير ، وقلدوا ائمة السنة فيما يأتي :

١ - كانوا يذكرون السند ، فمثلا يقول (١٣) ثعلب في أماليه : « حدثني أبو بكر بن الانباري عن ابي العباس عن ابن الاغرابي ، قال : يقال : لحن الرجل يلحن لحنا فهو لاحن اذا اخطأ ، ولحن يلحن فهو لحن اذا أصاب وفظن » .

٢ - سار كثير من علماء اللغة على غمط علماء الحديث في ترتيب كلمات اللغة وأطلقوا اصطلاحات يظهر فيها التأثير الكثير باصطلاحات الحديث ، قالوا : فصيح وأفصح وجيد وأجود ، وقالوا أيضا : ضعيف ومنكر ومتروك ، كما صنع رجال الحديث في قولهم مثلا صحيح وحسن وضعيف وقالوا : أوفى بالعهد أفصح من وفى بالعهد لان الاولى لغة القرآن .

٣ - قاموا بتجريح بعض الرواة وتعديلهم شأنهم في ذلك شأن علماء السنة فعدلوا الخليل بن أحمد وأبا عمرو بن العلاء ، وجرحوا قطربا .

٤ - كانت لهم محاولات في تدوين الكلمات ، وكانت لهم طريقتان الاولى دونوا فيها الكلمات حسيما اتفق دون ترتيب والثانية : وضعوا الكلمات المتعلقة بموضوع واحد في موضع واحد كما وضع المحدثون بالنسبة لمرحلة التدوين على المسانيد وعلى الأبواب .

٥ - يظهر للناظر في كتب تراجم الادب صيغة المحدثين واضحة ككتاب الاغانى فاننا نراه يسير على غرار اسناد المحدثين ، كقوله مثلا : أخبرني الحسين بن يحيى عن حماد عن أبيه عن ابي عبيدة ، قال : بلغني أن هذا البيت في التوراة :

من يفعل الخير لا يعلم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

وكانت المؤلفات في تراجم الشعراء وطبقاتهم على غمط طبقات المحدثين كما صنع ابن سلام حيث وضع طبقات الشعراء ، وابن قتيبة ، كل ذلك على غمط صنيع المحدثين .

(١٢) الباعث الخثيث لابن كثير ص ١٦٠ .

(١٣) ضحى الاسلام : احمد أمين جـ ٢ ص ٢٥٨ .

المقارنة بين رواية الحديث ورواية العلوم الأخرى

لم تبلغ الرواية في العلوم الاخرى شأن ما بلغته رواية الحديث ، ولم تلق من العناية ما لقيته لدى المحدثين من دقة النقد وتمحيص الرويات ولم يتمسك رواة العلوم الاخرى بالاسناد طويلا كما تمسك به المحدثون ، فلم نر لعلماء اللغة مثلا معجما مسندا كما هو الشأن في صحيحى البخارى ومسلم ، بل ان ما جمعه علماء اللغة لم يكن كله في درجة واحدة من الثقة والصحة ، فقد تسلل اليه الوضع والفساد ، وحامت حوله الشكوك والشبهات ويرجع ذلك الى أسباب يمكن اجمالها فيما يأتي :

(ا) ان سائر العلوم واللغات فيما سوى القرآن الكريم والسنة النبوية لم تتمتع بالقداسة والاكبار كما هو الشأن في هذين الاصلين الشريفين

(ب) ان الالفاظ اللغوية لا تقع تحت حصر ، فلو حاول العلماء تدوين كل كلمة وكل اشتقاق عن طريق الاسناد لوصل بهم الأمر مدى لا يحصى .

(جـ) ان بعض علماء اللغة لم يكونوا على جانب كبير من الثقة فيما يدونونه كما هو الحال بالنسبة للمحدثين .

(د) اخذ بعض علماء اللغة عن الكتب والصحائف في العصور الاولى ولم تكن يومئذ منقوطة ولا مشكولة ، الا ما كان في القرآن الكريم فقط . وهكذا نرى أن هذه المحاولات انما كانت خطوات عابرة وأمثلة قاصرة ولم يبلغ هؤلاء ولا غيرهم من المؤرخين وكتاب السير شأن المحدثين لأن النظرة عند كل منهم مختلفة ، فالمحدثون نظروا على انه دين وتشريع له قداسته وصيانيته واحترامه ، أما كتاب التاريخ والادب واللغة فلم تصل نظرتهم فيما دونوه الى ما وصلت اليه نظرة أهل الحديث .

ويتضح لنا الفرق بين النظرتين بما صنعه ابن جرير الطبرى في كتابه التفسير حيث تحرى الدقة في الرواية أكثر مما صنع في كتابه التاريخ ، وهذا راجع الى تباين النظرتين .

وصلى الله على صاحب السنة المطهرة سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المراجع

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - أبو هريرة راوية الاسلام للاستاذ محمد عجاج الخطيب طبع مطبعة مصر « سلسلة
أعلام العرب عدد ٢٣ » .
- ٣ - الاجوبة الفاضلة للاستاذ محمد عبد الحى اللكنوى الهندى طبع مكتب المطبوعات
الاسلامية بحلب .
- ٤ - أحمد بن حنبل للاستاذ احمد عبد الجواد الدومى الطبعة الأولى سنة ١٣٨٠ هـ .
- ٥ - أحمد بن حنبل امام أهل السنة للاستاذ عبد الحلیم الجندى طبع مطابع الاهرام سنة
١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م .
- ٦ - اختلاف الحديث للامام الشافعى طبع بولاق سنة ١٣٢٦ هـ .
- ٧ - الادب المفرد للامام البخارى طبع المطبعة السلفية سنة ١٣٧٩ هـ .
- ٨ - ارشاد السارى لشهاب الدين القسطلانى طبع بمصر سنة ١٣٢٣ هـ .
- ٩ - ارشاد الفحول الى تحقيق الحق من علم الاصول للشوكانى طبع مطبعة السعادة
سنة ١٣٢٧ هـ .
- ١٠ - الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى طبع بمصر سنة ١٣٢٣ هـ .
- ١١ - أضواء على السنة المحمدية لمحمود أبى ربه طبع دار المعارف سنة ١٣٧٧ هـ
١٩٥٨ م .
- ١٢ - أعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزيه طبع المنيرية .
- ١٣ - أعلام المحدثين للدكتور محمد محمد أبى شهبه الطبعة الأولى دار الكتاب العربى بمصر
سنة ١٩٦٣ م .
- ١٤ - ألفية السيوطى لجلال الدين السيوطى تحقيق الاستاذ محمد يحيى طبع مطبعة
مصطفى محمد .
- ١٥ - الامام البخارى محدثا وفقهيا للدكتور الحسينى هاشم طبع الدار القومية .
- ١٦ - الائمة الأربعة : للدكتور احمد الشرباصى ، مطبوعات دار الهلال سنة ١٣٨٤ هـ
١٩٦٤ م .

- ١٧ - الامام الترمذى للدكتور نور الدين عتر طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م .
- ١٨ - الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث للحافظ ابن كثير تحقيق وتعليق الامتاذ / احمد شاکر طبع مطبعة محمد صبيح سنة ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م .
- ١٩ - البخارى : لجنة احياء كتب السنة بالمجلس الاعلى للشئون الاسلامية طبع مطابع الشعب سنة ١٣٨٧ هـ .
- ٢٠ - البداية والنهاية لابن كثير طبع مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م
- ٢١ - ابن حنبل حياته وعصره وآراؤه وفقهه : الامتاذ محمد أبو زهرة طبع دار الفكر العربى .
- ٢٢ - ابن حنبل : للدكتور محمد رجب البيومى طبع الدار القومية للطباعة والنشر .
- ٢٣ - ابن قتيبة : الدكتور عبد الحميد سند الجندي سلسلة أعلام العرب عدد ٢٢ - مطبعة مصر .
- ٢٤ - البيان والتعريف فى أسباب وذود الحديث الشريف للمحدث السيد ابراهيم بابن حمزة الحسينى طبع مطبعة البهاء بحلب سنة ١٣٢٩ هـ .
- ٢٥ - تاج العروس للسيد محمد مرتضى الزبيدى - المجلد التاسع - طبع بيروت سنة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م .
- ٢٦ - تأويل مختلف الحديث لعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى طبع مطبعة كردستان العلمية بمصر سنة ١٣٢٦ هـ .
- ٢٧ - تاريخ الاسلام : للدكتور حسن ابراهيم طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر الطبعة السادسة سنة ١٩٦٢ م .
- ٢٨ - تاريخ بغداد للخليفة البغدادي طبع مطبعة السعادة سنة ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١ م .
- ٢٩ - تاريخ الامم والملوك لابن جرير الطبرى طبع بمصر سنة ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٩ م .
- ٣٠ - تاريخ التشريع الاسلامى الشيخ محمد الخضرى طبع مطبعة الاستقامة سنة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .
- ٣١ - تاريخ الخلفاء للسيوطى طبع مطبعة الفحالة سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .
- ٣٢ - تاريخ الادب العربى لكارل بروكلمان ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٢ م الجزء الثالث .
- ٣٣ - تاريخ فنون الحديث : محمد عبد العزيز الخولى ، مطبعة المنار بمصر سنة ١٩٣٩ - ١٩٢١ .
- ٣٤ - التاريخ الصغير للبخارى طبع الهند سنة ١٣٢٥ هـ .

- ٣٥ - التاريخ الكبير للبخارى طبع الهند سنة ١٣٦٠ هـ .
- ٣٦ - تبين الحقائق في كنز الدقائق تأليف الامام فخر الدين عثمان بن علي الزيلعي الحنفى طبع مطبعة الاميرية ببولاق سنة ١٣١٣ هـ .
- ٣٧ - تحدير المسلمين من الاحاديث الموضوعية على سيد المرسلين لعبد الله محمد البشير ظافر طبع مصر سنة ١٣٢١ هـ ١٩٠٣ م .
- ٣٨ - تحفة الاحوذى شرح جامع الترمذى .
- ٣٩ - تدريب الراوى للسيوطى تحقيق الاستاذ / عبد الوهاب عبد اللطيف مكتبة القاهرة ١٣٧٩ هـ ١٩٥٩ م .
- ٤٠ - تذكرة الحفاظ للذهبي طبع الهند سنة ١٣٣٣ هـ .
- ٤١ - ترتيب القاموس المحيط : ظاهر احمد الزاوى الطرابلسى مطبعة الرسالة سنة ١٩٥٩ م .
- ٤٢ - ترجمة الامام احمد من تاريخ الاسلام الذهبي تحقيق احمد شاکر طبع دار المعارف . . سنة ١٣٦٥ هـ ١٩٤٦ م .
- ٤٣ - تعليق التعليق لابن حجر ، مخطوط بمكتبة الازهر .
- ٤٤ - مقدمة المعرفة لكتاب الجرح والتعديل لعبد الرحمن بن حاتم الرازى طبع الهند سنة ١٩٥٢ م .
- ٤٥ - تقريب التهذيب تحقيق الاستاذ عبد الوهاب عبد اللطيف طبع دار الكتب .
- ٤٦ - تقييد العلم للخطيب البغدادي تحقيق الدكتور يوسف العشى طبع دمشق سنة ١٩٤٩ م .
- ٤٧ - تهذيب التهذيب لابن حجر طبع الهند « سنة ١٣٢٥ هـ » .
- ٤٨ - تهذيب الاسماء واللغات للنووى طبع المنيرة .
- ٤٩ - توجيه النظر الى اصول الاثر للشيخ طاهر الجزائري سنة ١٣٢٨ هـ ١٩١٠ م مطبعة الجمالية للخانجى .
- ٥٠ - تيسير علوم الحديث للدكتور محمد السيد ندا ، دار الطباعة المحمدية بالأزهر ١٣٩١ هـ ١٩٧٢ م .
- ٥١ - جامع بيان العلم وفضله لابي عمر يوسف بن عبد البر طبع المطبعة المنيرية .
- ٥٢ - جامع الترمذى طبع بولاق سنة ١٢٩٢ هـ .
- ٥٣ - الجرح والتعديل لعبد الرحمن بن أبي حاتم طبع الهند سنة ١٣٧١ هـ ١٩٥٢ م .
- ٥٤ - حجة الله البالغة للشيخ أحمد المعروف بشاه ولي الله الدهلوى الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية سنة ١٣٢٢ هـ .

- ٥٥ - الحديث والمحدثون الدكتور محمد محمد ابو زهو طبع مطبعة مصر بالقاهرة سنة ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨ م .
- ٥٦ - الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري تأليف آدم متر ، ترجمة محمد عبد الهادي ابوريدة مطبعة لجنة التأليف والترجمة سنة ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م .
- ٥٧ - دفاع عن السنة الدكتور محمد أبو شهبة طبع مطبعة الازهر سنة ١٩٦٧ م .
- ٥٨ - دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين للشيخ محمد الغزالي طبع مطبعة السعادة سنة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م .
- ٥٩ - ذخائر الموارث في الدلالة على مواضع الاحاديث للشيخ عبد الغنى النابلسي مطبعة جمعية النشر والتأليف الأزهرية الطبعة الاولى سنة ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٤ .
- ٦٠ - رسالة أبي داود الى أهل مكة طبع القدسي القاهرة .
- ٦١ - الرسالة للامام الشافعي تحقيق أحمد شاكر مطبعة الحلبي سنة ١٣٥٨ هـ - ١٩٤٠ م .
- ٦٢ - الرسالة المستطرفة لمحمد بن جعفر الكناني طبع مطبعة دار الفكر بدمشق الطبعة الثالثة سنة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م .
- ٦٣ - رسوم التحديث في علوم الحديث مخطوط بدار الكتب المصرية لابي محمد ابراهيم ابن عمر الربيعي الجعفرى .
- ٦٤ - رفع الملام عن الائمة الاعلام لتقى الدين ابن تيمية طبع الهند سنة ١٣١١ هـ .
- ٦٥ - زهر الربا بشرح المجتبى للسيوطي طبع المطبعة الميمية .
- ٦٦ - سنن أبي داود للامام أبي داود السجستاني طبع مصر ١٣٦٩ هـ .
- ٦٧ - سنن النسائي لابي عبد الرحمن احمد بن شعيب النسائي بحاشية السندی المطبعة الميمية سنة ١٣١٢ هـ .
- ٦٨ - سنن ابن ماجة لمحمد بن يزيد بن ماجة القزويني بحاشية السندی المطبعة العلمية سنة ١٣١٣ هـ .
- ٦٩ - سنن الدارمي لابي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي تحقيق وتخرير السيد عبد الله هاشم يمان شركة الطباعة الفنية المتحدة سنة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م .
- ٧٠ - السنة ومكانتها في تشريع الاسلامي للدكتور مصطفى السباعي طبع دار العروبة بالقاهرة سنة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٢ م .
- ٧١ - السنة النبوية ومكانتها في التشريع للاستاذ عباس متولى حمادة الدار القومية للطباعة والنشر .
- ٧٢ - السنة قبل التدوين للاستاذ محمد عجاج الخطيب ، مطبعة نخيمر سنة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م .

- ٧٣ - سنة الرسول ﷺ للشيخ محمد الحافظ التيجاني سلسلة مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .
- ٧٤ - أسانيد الكتب الستة للشيخ محمد البابلي مخطوط مكتبة الأزهر .
- ٧٥ - سير أعلام النبلاء - بعض الأجزاء - طبع دار المعارف سنة ١٩٥٥ م ، ١٩٦٢ م .
- ٧٦ - الاسلام عقيدة وشريعة للشيخ محمود شلتوت مطابع دار القلم بالقاهرة .
- ٧٧ - سير النبلاء - جزء خاص بترجمة ابن حزم - تحقيق سعيد الافغاني ، دار الفكر بيروت سنة ١٣٨٩ هـ .
- ٧٨ - شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي مخطوط بدار الكتب المصرية .
- ٧٩ - شروط الائمة الستة لابي طاهر المقدسي ، ومعه شروط الائمة الخمسة للحازمي طبع القدسي بمصر سنة ١٣٥٧ هـ . تعليق الاستاذ الكوثري .
- ٨٠ - صحيح البخاري بحاشية السندی طبع دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة .
- ٨١ - صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي سنة ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م طبع دار إحياء الكتب العربية بمصر (بالقاهرة) .
- ٨٢ - صحيح مسلم بشرح النووي المطبعة المصرية سنة ١٣٤٩ هـ ، ونسخة أخرى تحقيق عبد الله احمد أبو زينه طبع دار الشعب سنة ١٣٩٠ هـ .
- ٨٣ - ضحى الاسلام لاحمد أمين الطبعة السادسة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- ٨٤ - الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد ثابت بن الواقدي طبع دار بيروت للطباعة والنشر تقديم أحسان عباس .
- ٨٥ - طبقات الشافعية الكبرى لعبد الوهاب بن تقي الدين السبكي تحقيق عبد الفتاح الحلو طبع مصطفى الحلبي سنة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م .
- ٨٦ - أطوار الثقافة والفكر للاستاذ علي الجندي وزملائه طبع مصر .
- ٨٧ - الطبري : للدكتور احمد محمد الحوفي طبع مطبعة مصر عدد (١٣) من سلسلة أعلام العرب سنة ١٢٨٢ هـ - ١٩٦٣ م .
- ٨٨ - عصر المأمون للدكتور احمد فريد رفاعي .
- ٨٩ - العقيدة والشريعة في الاسلام لجولد تسيهر ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى وزملائه طبع دار الكتاب العربي سنة ١٣٧٨ هـ - سنة ١٩٥٩ م .
- ٩٠ - التعقبات على الموضوعات للسيوطي طبع حجر بالهند .
- ٩١ - علوم الحديث المعروف بمقدمة ابن الصلاح لابي عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري الشهير بابن الصلاح طبع مطبعة الاستقامة سنة ١٣٢٦ هـ .

- ٩٢ - علوم الحديث ومصطلحه للدكتور صبحي الصالحى الطبعة الخامسة سنة ١٣٨٨ هـ . سنة ١٩٦٩ .
- ٩٣ - عمدة القارى شرح صحيح البخارى طبع المنيرية .
- ٩٤ - عون المعبود لشمس الحق العظيم أبادى طبع الهند سنة ١٣٢٣ هـ .
- ٩٥ - فتح البارى لشهاب الدين بن حجر العسقلانى الطبعة الاولى بالمطبعة الخيرية سنة ١٣٢٩ هـ .
- ٩٦ - فتح المغيـث بشرح ألفيه الحديث للحافظ عبد الرحيم العراقى تعليق الاستاذ محمود ربيع الطبعة الأولى بمصر سنة ١٣٠٥ هـ سنة ١٩٣٧ م .
- ٩٧ - فجر الاسلام لاحمد امين طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر الطبعة الثالثة سنة ١٣٥٤ هـ . سنة ١٩٣٥ م .
- ٩٨ - فى رحاب السنة « للكتب الصحاح السنة » الدكتور محمد محمد أبو شهبة سلسلة مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر سنة ١٣٨٩ هـ . سنة ١٩٦٩ م .
- ٩٩ - فى رحاب السنة للدكتور عبد الله محمود شحاته مطابع الاهرام سنة ١٣٩١ هـ .
- ١٠٠ - قواعد التحديث لجمال الدين القاسمى تحقيق وتعليق محمد بهجة البيطار الطبعة الثانية مطبعة عيسى الحلبي سنة ١٣٨٠ هـ .
- ١٠١ - القرآن والنبي للدكتور عبد الحليم محمود الطبعة الاولى طبع دار النصر للطباعة .
- ١٠٢ - القول المسدد فى الذب عن المسند للامام احمد تأليف أبى الفضل بن حجر العسقلانى طبع الهند الطبعة الأولى .
- ١٠٣ - كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون لحاجى خليفة مصطفى عبد الله طبع استانبول سنة ١٣٦٦ هـ . سنة ١٩٤٢ م .
- ١٠٤ - كتاب الضعفاء والمتروكين للنسائى طبع الهند .
- ١٠٥ - كتاب السنة للامام أحمد بن حنبل مخطوط دار الكتب المصرية رقم ١٧٤٧ .
- ١٠٦ - الكامل فى التاريخ لابن الاثير : مطبع المنيرية بالقاهرة سنة ١٣٤٨ هـ .
- ١٠٧ - الكفاية فى علم الرواية للخطيب البغدادى تقديم الشيخ محمد الحافظ التيجانى طبع مطبعة السعادة سنة ١٣٩٢ هـ . سنة ١٩٧٢ م .
- ١٠٨ - الكمال فى أسماء الرجال للحافظ أبى محمد عبد الغنى بن سرور المقدسى مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٦ مصطلح .
- ١٠٩ - اللآلئ المصنوعة فى الاحاديث الموضوعة للسيوطى الطبعة الأولى بالمطبعة الادبية سنة ١٣١٧ هـ .

- ١١٠ - لسان العرب لابن منظور الافريقى المصرى « المجلد الثالث عشر » طبع ببيروت سنة ١٣٧٥ هـ . سنة .
- ١١١ - لسان الميزان لابن حجر طبع الهند سنة ١٣٣١ هـ .
- ١١٢ - مالك حياته وعصره وآراؤه وفقهه : الشيخ محمد أبو زهرة ، دار الثقافة القومية للطباعة . الطبعة الثانية .
- ١١٣ - مالك تجارب حياة : للاستاذ أمين الخولى طبع المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر مطبعة مصر عدد (١١) .
- ١١٤ - المؤتمر الثالث لمجمع البحوث الاسلامية سنة ١٣٨٦ هـ . طبع الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية بالقاهرة .
- ١١٥ - المبرد حياته وآثاره : للاستاذ احمد حسنين القرفى والاستاذ عبد الحفيظ فرغلى المطبعة الثقافية سنة ١٩٧١ م . اعلام العرب عدد (٩٤) .
- ١١٦ - المبشرون والمستشرقون فى موقفهم من الاسلام الدكتور محمد البهى مطبعة الازهر .
- ١١٧ - محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية للاستاذ محمد الخضرى طبع مطبعة الاستقامة بالقاهرة .
- ١١٨ - المدخل الى مذهب الامام احمد بن حنبل للعلامة ابن بدران الدمشقى طبع المنيرية .
- ١١٩ - المدخل لدراسة الفقه الاسلامى للاستاذ محمد مصطفى شلى الطبعة الأولى سنة ١٣٨٦ هـ . مطبعة دار التأليف .
- ١٢٠ - مرآة الجنان لليافعى طبع الهند سنة ١٣٣٨ هـ .
- ١٢١ - المستدرك على الصحيحين لابي عبد الله النيسابورى الحاكم طبع حيدر اباد بالهند سنة ١٣٤٢ هـ .
- ١٢٢ - المسند للامام احمد بن حنبل تحقيق الاستاذ احمد محمد شاکر طبع دار المعارف سنة ١٣٦٥ هـ .
- ١٢٣ - مسند ابن راهويه مخطوط بدار الكتب المصرية « المجلد الرابع » رقم ٤٥٤ حديث .
- ١٢٤ - مصنف ابن أبى شيبة « بعض أجزاء منه » مخطوط بدار الكتب المصرية ج ١ ، ج ٣ رقم ٨٠٢ .
- ١٢٥ - مقدمة تحفة الاحوذى للامام أبى يعلى محمد بن عبد الرحيم المبارك كפורى تحقيق الاستاذ عبد الرحمن عثمان طبع مطبعة الفجالة .

- ١٢٦ - مكانة السنة في الاسلام للدكتور محمد محمد أبو زهرة طبع مطبعة قاصد خير سنة ١٣٩١ هـ الطبعة الأولى .
- ١٢٧ - المنتخب من السنة النبوية الشريفة مطابع الاهرام التجارية إصدار المجلس الاعلى للشئون الاسلامية سنة ١٩٣٠ هـ .
- ١٢٨ - مناقب الامام احمد لابن الجوزى .
- ١٢٩ - المنطق الحديث ومناهج البحث : الدكتور محمود قاسم الطبعة الثالثة مطبعة احمد نجيم .
- ١٣٠ - من فلسفة التشريع الاسلامى للاستاذ فتحى رضوان طبع دار الكاتب العربى بالقاهرة .
- ١٣١ - المنهل العذب المورد شرح سنن أبى داود للشيخ محمود محمد خطاب السبكي طبع مطبعة السعادة الطبعة الاولى سنة ١٣٥١ هـ .
- ١٣٢ - المنهج الحديث فى علوم الحديث للدكتور محمد محمد السماحى طبع دار الأنوار سنة ١٣٨٢ هـ .
- ١٣٣ - الموطأ للإمام مالك بن أنس تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي طبع الخليلى سنة ١٣٧٠ هـ .
- ١٣٤ - الموطأ للإمام مالك - نسخة أخرى - تحقيق الاستاذ عبد الوهاب عبد اللطيف طبع دار التحرير نشر المجلس الاعلى للشئون الاسلامية سنة ١٣٨٧ هـ .
- ١٣٥ - ميزان الاعتدال للذهبي طبع مطبعة السعادة الطبعة الأولى سنة ١٣٢٥ هـ .
- ١٣٦ - النبأ العظيم للدكتور محمد عبدالله دراز طبع مطبعة الاستقامة سنة ١٣٨٩ هـ .
- ١٣٧ - النجوم الزاهرة : يوسف بن تغرى بردى الطبعة الأولى مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٣٤٩ هـ .
- ١٣٨ - نزهة النظر شرح نخبة الفكر طبع الاستقامة بمصر سنة ١٣٦٨ هـ .
- ١٣٩ - نظرة عامة فى تاريخ الفقه الاسلامى للدكتور على حسن عبد القادر الطبعة الثالثة مطبعة السعادة سنة ١٩٦٥ .
- ١٤٠ - النكت لابن حجر مخطوط بمكتبة الازهر .
- ١٤١ - النكت الطريفة فى التحدث عن ردود ابن أبى شيبه على أبى حنيفة للاستاذ محمد زاهد الكوثرى مطبعة الانوار سنة ١٣٦٥ هـ .
- ١٤٢ - هدى السارى لابن حجر العسقلانى طبع بولاق سنة ١٣٠١ هـ .
- ١٤٣ - وفيات الاعيان لابن خلكان طبع المطبعة اليمانية سنة ١٣١٠ هـ .

محتويات الكتاب

| الصفحة | الموضوع |
|--------|---|
| ٣ | مقدمة الطبعة الثانية |
| ٥ | مقدمة الطبعة الأولى |
| ٧ | تمهيد |
| ١٣ | مدخل |
| | تعريف السنة لغة واصطلاحاً : |
| ١٥ | السنة في اللغة |
| ١٦ | السنة في الشرع وعند علماء الأصول وعلماء الفقه |
| ١٧ | في اصطلاح المحدثين |
| | شبهة وتشكيك : |
| ١٨ | الشبهة ، والردّ عليها |
| ٢٠ | أنواع السنة : السنة القولية ، والسنة الفعلية |
| ٢١ | والسنة التقريرية |
| ٢٢ | النسبة بين السنة والحديث والخبر والحديث القدس |
| ٢٤ | الفرق بين الأحاديث القدسية والقرآن |
| ٢٤ | الفرق بين الأحاديث القدسية والنبوية |
| ٢٥ | منزلة السنة في الدين |
| ٢٦ | وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم |
| ٣٠ | منزلة السنة من القرآن وبيانها له |
| ٣٤ | أدلة القائلين باستقلال السنة بالتشريع |
| ٣٥ | أدلة المنكرين للاستقلال |

| | |
|----|--|
| ٣٦ | الجمع بين الآراء |
| ٣٧ | بيان السنة في غير الأحكام |
| ٣٨ | حول حجية السنة |
| ٣٨ | ردّ بعض الشُّبه والطعون |
| ٤٢ | رد بعض الاعتراضات |
| ٤٤ | شروط العمل بخبر الواحد |
| ٤٤ | الشروط الخاصة بالراوي وبالحدِيث |
| | الأطوار التي مرت بها السنة في القرنين : الأول والثاني - رواية السنة وكتابتها |
| ٤٦ | وتدوينها وتصنيفها |
| ٤٦ | العهد النبوي |
| ٤٩ | تلقي الصحابة للحدِيث النبوي |
| ٥١ | السنة النبوية في عصر الصحابة والتابعين |
| ٥٣ | منهج الصحابة في الرواية |
| ٥٥ | تدوين السنة |

الباب الأول

الحالة السياسية والفكرية في القرن لثالث الهجري :

الفصل الأول

ويشتمل على ثلاثة بحوث :

| | |
|----|---|
| ٦٥ | البحث الأول : الحالة السياسية وأثرها في تقدم العلوم |
| ٦٨ | البحث الثاني : النزاع بين المتكلمين والمحدثين |
| ٧٢ | عمدة القول بخسق القرآن |
| ٧٥ | البحث الثالث : أثر النزاع بين المعتزلة وأهل الحدِيث |

الفصل الثاني

وفيه ثلاثة بحوث :

| | | |
|-----|-------|---|
| ٨١ | | البحث الأول : الوضع في الحديث |
| | | أسباب الوضع في الحديث : |
| ٨٢ | | التعصب السياسي |
| ٨٤ | | التعصب العنصرى |
| ٨٥ | | الزندقة |
| ٨٨ | | القصاصون |
| ٩٠ | | الخلافاة الفقهية والكلامية |
| ٩١ | | الجهل بالدين مع الرغبة في الخير |
| ٩٢ | | البحث الثانى : مقاومة الوضع |
| ٩٥ | | علامات الوضع فى السند |
| ٩٦ | | علامات الوضع فى المتن |
| ١٠٠ | | نماذج من الرجال المجروحين |
| | | البحث الثالث : من جهود العلماء فى مقاومة أعداء الحديث |
| ١٠٢ | | (الامام ابن قتيبة) |
| ١٠٤ | | حياة ابن قتيبة العلمية |
| ١٠٦ | | مكانته وفضله |
| ١٠٨ | | مع أهل الرأى والكلام |
| ١٠٩ | | الباعث على تأليف كتاب « تأويل مختلف الحديث » |
| ١١٠ | | منهج ابن قتيبة فى كتابه |
| ١١٢ | | نقد كتاب « تأويل مختلف الحديث » |

الباب الثاني

تدوين الحديث في القرن الثالث الهجري :
ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول

وفيه بحثان :

| | |
|-----|---|
| ١١٧ | البحث الأول : مناهج تدوين الحديث |
| ١١٨ | منهج التدوين على المسانيد |
| ١١٩ | مزايا هذه الطريقة |
| ١١٩ | مآخذ على هذه الطريقة |
| ١٢٠ | منهج التصنيف على الأبواب |
| ١٢١ | الإمام أحمد بن حنبل : نسبه ومولده |
| ١٢٢ | نشأته |
| ١٢٣ | حياته العلمية |
| ١٢٤ | شيوخه |
| ١٢٥ | جلوسه للدرس والافتاء |
| ١٢٦ | تلاميذه |
| ١٢٦ | محنته |
| ١٢٦ | البحث الثاني : نموذج لمنهج التصنيف على المسائفة |
| ١٢٨ | مسند الامام أحمد بن حنبل |
| ١٣٠ | شرطه في الرواة الذين يأخذ عنهم |
| ١٣٢ | موازنة بين المسند وبين ما قبله وما بعده من كتب الحديث |
| ١٣٥ | عناية العلماء بالمسند |
| ١٣٦ | درجة أحاديث المسند |
| ١٤٢ | رد الطعون الموجهة للمسند |
| ١٤٢ | منهج الإمام أحمد في الأخذ بالأحاديث الضعيفة |

الفصل الثاني

ويشتمل على بحثين :

الأول : الصحيحان والثاني السنة الأربعة :

| | | |
|-----|-------|---|
| ١٤٧ | | الإمام البخارى نسبة ونشأته |
| ١٤٨ | | منهج البخارى فى طلب الحديث |
| ١٥٢ | | شيوخه |
| ١٥٤ | | صفاته |
| ١٥٨ | | مؤلفاته |
| ١٥٩ | | الجامع الصحيح والتعريف به |
| ١٦١ | | الباعث له على تأليفه |
| ١٦٢ | | منهجه فى الصحيح |
| ١٦٤ | | شروطه فى الصحيح |
| ١٧٣ | | تراجم الكتاب |
| ١٧٣ | | النقد الموجه والردّ عليه |
| ١٨٦ | | حديث الذبابة : والإجابة على الطعون الموجهة إليه |
| ١٩٠ | | حديث (من اصطبح كل يوم سبع ثمرات وردّ الطعون) حديث (لا يبقى على ظهر الأرض بعد مائة سنة نفس منقوسة) |
| ١٩٢ | | والردّ على الطعون |
| ١٩٤ | | شروحه ومختصراته |
| ١٩٧ | | الإمام مسلم بن حجاج نسبه ونشأته ، حياته العلمية ، شيوخه ، تلاميذه ، مؤلفاته : |
| ٢٠٢ | | الجامع الصحيح للإمام مسلم التعريف بالكتاب ، سبب تصنيفه ، منهج الامام مسلم فى كتابه ، رواة صحيح مسلم ، عدد أحاديث صحيح مسلم ، شروط الامام مسلم فى صحيحه ، ترك الامام مسلم لبعض الأحاديث الصحيحة . |

- ٢١٦ هل ترجم الامام مسلم لكتابه كالبخارى
- ٢١٧ نقد الرجال في صحيح مسلم
- ٢١٩ الأحاديث المتقدمة على أحاديث مسلم
- ٢٢١ شروح صحيح مسلم
- ٢٢٤ موازنة بين صحيحى البخارى ومسلم
- ٢٢٨ هل تفيد أحاديث الصحيحين العلم أو الظن
- ٢٣١ تخريج صاحبى الصحيحين أحاديث أهل البدع
- ٢٣٥ البحث الثانى : السنن الأربعة
- ٢٣٥ الامام ابو داود
نسبه ونشأته ، حياته العلمية ، شيوخه وتلاميذه ، مؤلفاته
- ٢٣٩ سنن أبى داود
التعريف بالكتاب ، رسالة أبى داود فى وصف سننه ، منهج أبى داود فى كتابه
« السنن » شرطة فى السنن ، مثال للأحاديث التى بها وهن وبينه أبو داود ، مثال لما سكت
عنه أبو داود درجة أحاديث السنن .
- ٢٥٣ الإمام الترمذى
نسبه ونشأته ، حياته العلمية ، شيوخه وتلاميذه ، مؤلفاته :
- ٢٥٦ جامع الترمذى
التعريف بالكتاب
منهج الترمذى فى جامعه ، شرطه فى جامعه ، درجة أحاديثه ، بعض
اصطلاحات الترمذى
- ٢٥٩ نقد حديث (الكمأة من المن) والرد على ذلك
- ٢٦٨ الإمام النسائى
نسبه ونشأته ، حياته العلمية ، شيوخه وتلاميذه مؤلفاته
- ٢٧١ كتاب المتجيبى للنسائى
- ٢٧٢ منهجه فى كتابه
- ٢٧٥ شرطه فى كتابه
- ٢٧٧ شرطه فى كتابه
- ٢٧٨ شرطه فى كتابه

| | | |
|-----|-------|--|
| ٢٨٠ | | مثال لما رواه النسائي وطعن فيه والرد عليه |
| ٢٨٢ | | درجة أحاديث السنن |
| ٢٨٤ | | الامام ابن ماجه : نسبه ونشأته ، وحياته العلمية ، شيوخه وتلاميذه : |
| ٢٨٦ | | سنن ابن ماجه |
| ٢٨٨ | | منهجه ودرجة أحاديثه |
| ٢٩٢ | | منزلة المسانيد من السنن |
| ٢٩٩ | | الموازنة بين الكتب الستة |
| ٢٩٩ | | الرد على مطاعن المستشرقين وأتباعهم |
| ٣٠٠ | | الطعن في الكتب الستة : والرد على ذلك |
| ٣٠٢ | | دعوى ان التدوين كان بعد منتصف القرن الثالث والرد على ذلك |
| ٣٠٣ | | اعتراف بعض المستشرقين بصحة بعض السنة |

الباب الثالث

| | | |
|-----|-------|---|
| ٣٠٥ | | الجهود المتممة لأعمال علماء القرن الثالث وفيه فصلان |
|-----|-------|---|

الفصل الأول

| | | |
|-----|-------|---|
| ٣٠٧ | | سنة بعض الأعلام من العلماء بتدوين السنة والصناعة الحديثية |
| ٣٠٩ | | امام يحيى بن معين |
| ٣١٣ | | سج ابن معين في نقد الرجال |
| ٣١٥ | | امام علي بن المديني نسبه ونشأته |
| ٣١٦ | | حياته العلمية |
| ٣١٨ | | امام أبو بكر أبي شيبة ، نسبه ونشأته |
| ٣١٨ | | حياته العلمية |
| ٣٢٠ | | مصنف ابن أبي شيبة |
| ٣٢٠ | | منهج بن أبي شيبة في مصنفه |
| ٣٢٢ | | أمثلة من المصنف |

الموضوع

الصفحة

| | |
|-----|--|
| ٣٢٦ | الامام أبو حاتم الرازي ، نسبه ونشأته |
| ٣٢٨ | حياته العلمية |
| ٣٣٠ | مهارة أبي حاتم في معرفة الصحيح وغيره |
| ٣٣٢ | الامام اسحاق ابن راهوية |
| ٣٣٤ | حياته العلمية |
| ٣٣٤ | حفظه واتقانه |
| ٣٣٨ | الامام ابن خزيمة |
| ٣٣٨ | نسبه ونشأته |
| ٣٣٨ | حياته العلمية |
| | الامام أبو زرعة الرازي . |
| ٣٤١ | نسبه ونشأته |
| ٣٤٢ | حياته العلمية .. شيوخه وتلاميذه حفظه واتقانه |
| | الامام الدرامي : نسبه ونشأته : |
| ٣٤٤ | حياته العلمية |
| ٣٤٥ | شيوخه وتلاميذه |
| ٣٤٥ | سنن الدارمي |
| ٣٤٧ | نموذج لما رواه الدارمي وطعن فيه والدفاع عنه |
| | الامام بقى بن مخلد - نشأته : |
| ٣٤٨ | حياته العلمية |
| ٣٥٠ | تلاميذه ، مؤلفاته منهجه في المسند |
| ٣٥١ | تعصبه بعض حاسديه عليه |
| ٣٥٢ | الامام محمد بن جرير الطبري : نسبه ونشأته |
| ٣٥٢ | محنته |
| ٣٥٣ | حياته العلمية ، شيوخه وتلاميذه |
| ٣٥٦ | الامام محمد بن سعد : نسبة ونشأته حياته العلمية |
| ٣٥٧ | منزلته |
| ٣٥٩ | كتاب الطبقات الكبرى |
| ٣٦٠ | منيح ابن سعد في كتاب الطبقات |

الفصل الثاني

علوم ومصنفات صاحبة تدوين السنة في القرن الثالث وفيه بحثان :

| | | | |
|-----|-------|--|---------------------------------------|
| ٣٦٣ | | بحث الأول العلوم التي صاحبت تدوين السنة في هذا القرن | ع علوم الحديث : |
| | | | - علوم الجرح والتعديل : |
| | | | نماذج التأليف فيه « كتاب الضعفاء » |
| ٣٦٦ | | الضعيف للبخارى | - |
| ٣٦٧ | | كتاب الضعفاء والمتروكين للنسائي | - |
| ٣٦٧ | | معرفة الصحابة : نماذج من الكتب فيه | - |
| ٣٦٩ | | التاريخ الكبير للبخارى | - |
| ٣٧٠ | | التاريخ الصغير للبخارى | - |
| | | | - علم معرفة الأسماء والكنى والألقاب : |
| ٣٧١ | | كتاب « الكنى » | - |
| ٣٧٢ | | علم تأويل مشكل الحديث | - |
| ٣٧٣ | | معرفة غريب الحديث | - |
| ٣٧٤ | | كتاب غريب الحديث لابن قتيبة | - |
| ٣٧٥ | | علم معرفة علل الحديث | - |
| ٣٧٦ | | العلل الكبير للترمذى | - |
| ٣٧٧ | | المشيخات | - |
| ٣٧٨ | | الطبقات | - |
| ٣٧٩ | | رواية الأكابر عن الأصاغر والآباء عن الأبناء | - |
| ٣٨٠ | .. | بحث الثانى : مصنفات موائمة لهضة التدوين في القرن الثالث الهجرى | |
| ٣٨٠ | | الأجزاء ، الجامع | |
| ٣٨٢ | | المستخرجات | |

| | | |
|-----|-------|--|
| ٣٨٤ | | الشئائل : كتاب الشئائل للترمذى |
| ٣٨٦ | | كتب مفردة فى أبواب مخصوصة |
| ٣٨٨ | | أحاديث بعض شيوخ مخصوصين من المكثرين |
| ٣٨٩ | | كتب السنة |
| ٣٩٠ | | الكتب المفردة فى الآداب والأخلاق والترغيب والترهيب والفضائل ونحوها |
| ٣٩٢ | | كتاب الأدب المفرد للبخارى |
| ٣٩٤ | | الرد على مطاعن بعض المستشرقين وأتباعهم |
| ٣٩٧ | | نتائج هذا الباب |

الباب الرابع

| | | |
|-----|-------|--|
| ٤٠٣ | | أثر علماء القرن الثالث فى العصور المتأخرة |
| ٤٠٤ | | منهج التدوين فى القرن الرابع : طريقة تخرىج الصحيح |
| ٤٠٤ | | ابن حيان البستى : منزلة المسند لابن حيان |
| ٤٠٦ | | قاسم بن أصبغ الاندلسى ، وابو على بن السكن |
| ٤٠٧ | | المقارنة بين جهود وهؤلاء و جهود أهل القرن الثالث |
| ٤٠٧ | | طريقة المستدركات |
| ٤٠٩ | | المقارنة بينها وبين غيرها |
| ٤١٠ | | طريقة المستخرجات |
| ٤١١ | | المقارنة بينها وبين غيرها |
| ٤١٢ | | طريقة المعاجم |
| ٤١٢ | | طريقة التصنيف على العلل |
| ٤١٣ | | التأليف على الأبواب |
| ٤١٣ | | الشرح |
| ٤١٣ | | المقارنة |
| ٤١٤ | | منهج التصنيف من القرن الخامس إلى سقوط الخلافة العباسية |
| ٤١٦ | | المقارنة بين جهود وأهل هذه المرحلة و جهود أهل القرن الثالث |

| الصفحة | صواع |
|--------|--|
| ٤١٧ | ج التصنيف في الفترة ما بين نهاية الخلافة العباسية إلى عصرنا الحاضر |
| ٤١٩ | إارنة بينها وبين غيرها |
| ٤٢٠ | م السنة |
| ٤٢٤ | رواية الحديث في رواية العلوم الأخرى |
| ٤٢٦ | إارنة بين رواية الحديث ورواية العلوم الأخرى |
| ٤٢٧ | إجمع |



رقم الايداع ٢٥٠٦ / ٨٩
الترقيم الدولي ٨ - ٢٣٢ - ١٧٢ - ٩٧٧
